المركز القومى للترجمة

جون جولزوورثى

ملحمة آل فورسايت

وضعٌ يائس

الجزء الثانى

ترجمة وتقديم: وليد الميضى

مراجعة: أسامة مدنى



1894

سلسلة الإبداع القصصى

ملحمة

آل فورسايت

الجزء الثانى

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1894
- ملحمة آل فورسايت (الجزء الثانى): وضع يائس
- جون جولزوورثى
- وليد الميضى
- أسامة مدنى
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:

THE FORSYTE SAGA:
The Man Of Property, In Chancery & To Let
By: John Galsworthy

شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة– القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

ملحمة

آل فورسايت

الجزء الثانى

وضع يائس

تـــأليف: جـــون جـــولزوورثى

ترجمة وتقديم: وليـــد الميـــضى

مراجعـــــة: أســامة مـــدنى

2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جولزوورثي، جون، ١٨٦٧ – ١٩٣٣
ملحمة آل فورسايت جزء ٢ / تأليف:
جون جولزوورثي، ترجمة وتقديم: وليد الميضى،
مراجعة: أسامة مدنى.
ط ١ – القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥
٦٠٨ ص، ٢٠ سم
١– المسرحيات الانجليزية
٢– الملاحم الانجليزية
(أ) الميضى، وليد (مُترجم، مُقدم)
(ب) مدنى، أسامة (مُراجع)
(ج) العنوان ٨٢٢

رقم الإيداع: ٢٥٧٦١ /٢٠١٤
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 92 - 0029 - 3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

في وضع يائس

الجزء الأول

الجزء الثانى

الجزء الثالث

تقديم

ربما تكون قيمة روايات جولسوورثى ١٨٦٧-١٩٣٣ أنها وثيقة تاريخية أكثر من كونها إنجازًا أدبيًا. فمثل جميع أعماله؛ كتبت الروايات بإحكام وتُظهر نقده القوى والقاسى للطبقة التى تمرد عليها وهى طبقة التجار الأثرياء الذين حكموا بريطانيا وسيطر عليهم، فى بعض الأحيان، هوسهم بالمال والأملاك؛ بحيث نستطيع أن نقول إنه نسج التاريخ الاجتماعى الإنجليزى فى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وأعاد طرح وإنتاج قيم وأفكار العصر الإدواردى والفيكتورى.

كما أظهرت روايات "جولسوورثى" تعاطفه الرحيم مع الفقراء والمضطهدين وذلك رغم كونه لم يفهمهم كما فهم أبناء طبقته من الأغنياء وهو تعاطف قوى يظهر بوضوح تام فى جميع أعماله الأدبية من رواية ومسرح.

على الرغم من أن شهرته بوصفه روائيًا قد تخطت شهرته بوصفه كاتب مسرح فإننا لا نستطيع أن نغفل قدره ككاتب مسرح من الطراز الأول، فقد كتب "جالسوورثى" عشرين مسرحية طويلة وعددًا من المسرحيات القصيرة، بالإضافة إلى عدد لا بأس به من الروايات

الطويلة منها والقصيرة تخطت الخمس عشرة رواية جاءت على رأسها الثلاثية الأشهر **The Forsyte Saga** آل فورســـايت أو ملحمة آل فورسايت كما يسميها البعض؛ الرواية معروفة على نطاق واسع داخل الأوساط الأدبية والفنية الإنجليزية باعتبارها بداية الثورة على الشكل التقليدى للمجتمع الأرستقراطى الذى كان يظهر بمظهرٍ رائع من الخارج ولكنه به ما به من الداخل؛ فقد كشف "جولسوورثى" عن عيوب وسلبيات وتفكك هذه الطبقة التى بدت متماسكة من الخارج .

قد تكون الفكرتان الرئيستان فى الرواية هما: أولا: "الواجب فى مواجهة الرغبة" والذى تمثل فى سومز فورسايت وأخته وينفريد فورسايت اللذيّن تبنيا فكرة الواجب على حساب الرغبة محافظين بذلك على أفكار وقيم طبقتهما فى تلك الحقبة الزمنية، ونرى على العكس من ذلك مثلاً إيرين والجد جوليون اللذيّن تبنيا فكرة الرغبة على حساب الواجب، ثائرين بذلك على بعض الأفكار والقيم السائدة فى ذلك الوقت.

أما الفكرة الثانية وهى: "تعاقب الأجيال والتغير المستمر" فقد تمثل هذا فى الجيل الثالث من عائلة "فورسايت" الذى أتى بأفكار مغايرة بعض الشيء للجيل الثانى ومغايرة تماما للجيل الأول من العائلة متمثل فى جولى، هولى، جان أحفاد الجد جوليون والذى قد تمرد سابقًا بعض الشيء على قوانين وقواعد عائلة فورسايت، أيضًا

فال وإيموجن وهما أبناء وينفريد التى طالما حافظت على قواعد وقوانين العائلة . نرى أن جولسوورثى قد حسم الصراع فى نهاية هذا الجزء لصالح فكرة التغير والثورة على الأفكار التقليدية واستبدل بها أفكارًا مرنة تحترم رغبات الإنسان أكثر من أى شىء أخر.

بالطبع كان هناك العديد من الأشخاص المستعدين لمهاجمة أعمال جولسوورثى بحجة أنها خطيرة وثورية، لكن الجو العام فى إنجلترا كان قد بدأ بالفعل فى التغير لصالحه، وذلك عندما كتب أولى مسرحياته "الصندوق الفضى" وأصبح أكثر تأييدًا عندما ظهرت رابع مسرحياته "العدالة"، وكانت مسرحية "الصندوق الفضى" قد أعلنت عن ميلاد كاتب جديد يعتمد أسلوبا وموقفا خاصا به، فقد تميز أسلوبه بالسحر والرقة ودقة التفاصيل . لم تكن الدراما الحديثة متداولة فى البداية، ولكن جولسوورثى وآخرون استمروا فى الكتابة بهذا الشكل حتى ظهر تأثيرها القوى على الإصلاحات الاجتماعية، وقد كتب عنه أحـــد أقل نقـــاده حميميـــة وهو الكاتب "هـــ. ج. ويلز": "دائما مـــا عارضت بنفسى أسلوبك حتى الآن، ولم يعجبنى نوعٌ من القسوة الباردة فى الكثير من أعمالك، ولكن بما أنها تقودك فى النهاية إلى القوة الهائلة الحقيقية للمسرحية وللرواية، فلا بأس إذن، إننى أستسلم".

وقد قال جون جولسوورثى عن نفسه إن: "الكاتب المسرحى المتأثر– بشدة – بضغوط البيئات المحيطة به لن يكتب دراما مستقلة

ومنفصلة عن المشاكل التى يعاصرها، وأنه ليس واعيًا على الرغم من ذلك لأى رغبة فى حل هذه المشاكل فى مسرحياته، فطموحه الوحيد في جميع أعماله من رواية ومسرح هو تقديم الحقيقة كما يراها، وأيضا تقديم نوع من الثورة الأخلاقية والعقلية والفكرية.

فى أيامنا هذه ربما لا تتخطى شهرة جولسوورثى معاصريه من كتاب المسرح والرواية أمثال برنارد شو وجوزيف كونراد إلا أنه كان الأشهر بينهم فى ذاك الحين، مُنِحَ جولسوورثى جائزة "نوبل" للآداب عام ١٩٣٢ عن مجمل أعماله مع تنويه خاص بثلاثية آل فورسايت، وقد توفي عام ١٩٣٣ بعد أقل من شهر من حصوله على الجائزة، واستحق أن تترجم أعماله إلي عدة لغات، ويسعدنا أن يكون من بينها اللغة العربية.

فاصل تقديمى

موجة دفء فى خريف العمر

"سرعان ما تنقضى أيام الصيف"

شكسبير

من قصيدته الشهيرة "هلا أقارنك بيومٍ من أيام الصيف"
السوناتة رقم ١٨

-١-

فى اليوم الأخير من شهر مايو فى أوائـــل تـــسعينيات القـــرن التاسع عشر، حوالى الساعة السادسة مـــساءً كـــان الجـــد چوليـــون فورسايت يجلس تحت شجرة البلوط التى تطل عليها شرفة المنـــزل الواسعة فى روبين هيل، لم يكن ليتخلى عن روعة فتـــرة مـــا بعـــد الظهيرة إلا عندما يشعر بلسعات الناموس. كانت يده النحيلـــة بنيـــة اللون تنتشر فيها العروق الزرقاء البارزة، وأصـــابعه المدببـــة ذات الأظفار الطويلة تمسك بطرف سيجار، وقد ظل محتفظًا بظفرٍ لامـــعٍ مدبب يعود إلى تلك الأيام المبكرة من العصر الفيكتورى عندما كـــان الامتناع عن لمس الأشياء علامة على الرقى والتحضر، أما جبهتـــه المقوسة وشاربه الأبيض الكبير ووجنتاه الذابلتان وفكه الطويل فكانت تحميهم من أشعة الشمس قبعة بنية اللون من نـــوع "بنمـــا"(*)، كـــان جالسًا واضعا ساقًا على ساق، وتعبر هيئته عن سكينة الروح ونـــوع من الأناقة تنبعث من رجل عجوز، يعطر منديله الحريرى كل صباح بماء الكولونيا، وعند قدميه يرقد كلب كثيف الشعر بنى وأبيض اللون يسعى ليحظى بالمكانة اللائقة بفصيلة البومرانيان. وقد كـــان هنـــاك نفور فى أول الأمر بين الكلب بالثازار والجد چوليون ولكنه تحـــول إلى علاقة وطيدة بمرور السنين. بالقرب من مقعـــد الجـــد چوليـــون

(*) قبعة بنما: قبعة ذات إطار واسع من أصل إكوادورى تصنع من القش السميك

كانت هناك أرجوحة وفوق الأرجوحة كانت تجلس إحدى دمى "هولى" والتى تسمى "دافر أليس"، جسدها مائل على ساقيها، وأنفها الذى يشى بحزنها يختفى فى تنورتها السوداء، ولم تكن تلك الدمية تعنى بجلستها، فالحب الذى أغدق عليها لم ينحسر، وأسفل شجرة البلوط تنخفض الأرض المغطاة بالعشب حتى ضفة النهر ثم تمتد إلى صوبة النباتات، ومن وراء علامة الرقى والتحضر تلك تمتد أرض لتصبح حقولاً تنحدر نحو البحيرة الصغيرة، البستان، المشهد الريفى، الرائع والمميز، كان "سويزين فورسايت" يتأمله من تحت الشجرة نفسها منذ خمس سنوات حينما أتى مع إيرين لاختيار موقع البيت قبل إنشائه، وقد سمع الجد چوليون بمأثرة أخيه التى أصبحت شهيرة نوعا ما فى حياة "آل فورسايت"، إنه التغيير الذى أقدم عليه سويزن! وها هو الرجل قد رحل ومات فى نوفمبر الأخير عن عمر لا يتجاوز التاسعة والسبعين فقط، مجددًا الشك فيما إذا كان آل "فورسايت" سيعيشون للأبد أم لا، الأمر الذى أثير أول مرة عندما توفيت العمة "آن" وتركت "چوليون" و"چيمس" وروجر ونيكولاس وتيموثى، و"چوليا"، و"هيستر"، و"سوزان"، وقال الجد "چوليون" فى نفسه:

- "الخامسة والثمانين! لا أكاد أشعر بهذا إلا عندما ينتابنى ذلك الألم".

نقب "چوليون" فى ذاكرته، أن لم يشعر بتقدمه فى العمر منذ أن اشترى ذلك البيت - الذى لازمه الحظ التعس- من ابن أخيه سومز واستقر هنا فى روبين هيل منذ ما يزيد عن ثلاث سنوات،

وكان يشعر كما لو كان يصبح أكثر شبابا كل ربيـــع. يعـيش فـــى الريف، مع ابنه وأحفاده چان، والصغيرين من الزواج الثانى جـولى وهولى، يعيش هنا بعيدا عن صخب لندن وثرثرة "آل فورسايت" عن التغيير حرا وبعيدا عن مشاغل شركاته المسئول عنها فى جو جميـل ولذيذ بلا عمل، فلا ينشغل إلا بإصلاح شأن البيت وما حولــه مـن أرض تبلغ مساحتها عشرين فدانًا، والوصول بها إلى الكمال وكـذلك إرضاء رغبات حفيديه چولى وهولى، وقد تلاشت مـن قلبـه كـل الأحزان التى حلت به أثناء مروره بتلك المشكلة المأساوية والطويلـة فى حياة چان وسومز وزوجته إيرين والشاب المـسكين "بوسـينى"؛ حتى إن چان تخلصت من اكتئابها وحزنها فى النهاية، ويشهد علـى هذا الرحلة التى تقضيها الآن فى إسبانيا مع أبيها وزوجته، ومما يثير الدهشة أنهم تركوا برحيلهم سكونًا وهدوءًا يبعث على السعادة لكن لا طعم لها لأن ولده لم يكن هناك؛ فقد كان چو يوفر جوًا من الـسعادة والراحة له هذه الأيام، فهو رجل لطيف وودود ولكن النساء بـصورة ما – حتى الفضليات منهن – يثرن بعض الضيق فى النفس، هذا إذا لم يكنّ محط إعجاب بطبيعة الحال.

وعلى بعد علا صوت طائر الوقواق، وكانت هناك حمامة بريـة تصدر صوت هديلها فوق شجرة الدردار الأولى فى المـرج، وكانـت أزهار الأقحوان ونباتات الحوذان قد أينعت بعد قصها آخر مرة! كانـت الرياح شرقية غربية، وكان الهواء لطيفا ومنعشا. خلع الجـد چوليـون

قبعته وسمح لأشعة الشمس أن تسقط على ذقنه ووجنته وشعر اليوم باحتياجه الشديد إلى صحبة. أراد وجها جميلا ينظر إليه. الناس يعاملون الجد كأنه لا يريد شيئًا. وبوحى فلسفة دأبت على التسلل إلى روحه فى معارضة آل فورسايت قال فى نفسه:

- "إن المرء لا يقنع أبدًا بما بين يديه ولا عجب؛ فإن الرغبة تلازم من كان قاب قوسين أو أدنى من القبر".

هنا، فى ضيعته الصغيرة؛ بعيدا عن متاعب العمل وبصحبة أحفاده والأزهار والأشجار والطيور، ناهيك عن الشمس والقمر والنجوم فوقه، يقول لنفسه ليل نهار:

"افتح يا سمسم"، وفتح سمسم، ولكنه ربما لم يكن يعرف إلى أى مدى".

لقد كان دائما ما يتجاوب بصدق مع ما بدءوا يسمونه فى تلك الأيام بالطبيعة؛ ولقد كان تجاوبه أن يصبح متدينًا، على الرغم من أنه لم يتخلَ أبدا عن عادته فى تسمية الأشياء بمسمياتها، وأن يسمى الغروب غروبا والمنظر منظرًا، بغض النظر عما تثيره الطبيعة فى نفسه من مشاعر عميقة، ولكنها الآن تثير فيه شعورًا بالألم فى واقع الأمر فقد بالغ فى تقديرها.

فى كل يوم من هذه الأيام المتألقة التى يطول نهارها والهادئة يتنزه، ويده فى يد هولى يتقدمهما الكلب "بالثازار" وهو يبحث بجد

عما لا يجده، مراقبا الأزهار تتفتح وأشجار الفاكهة تبدى براعمها على الأسوار، وضوء الشمس يلمع على أوراق أشجار البلوط الأشجار الصغيرة فى البستان، مراقبا أوراق أزهار الزنبق تتفتح وتتألق، والسنابل الصغيرة الفضية فى حقل القمح الوحيد، مستمعًا إلى الطيور المغردة والأبقار التى تمضغ اجترارها وتحرك ذيولها بخفة، وفى كل يوم من هذه الأيام الرائعة فى هذه الأيام الرائعة تكبد شيئًا من الألم الذى يصدر عن حب مطلق لجمال الطبيعة، وربما كان يشعر بحزن عميق لأن عمره لن يطول حتى يستمتع بهذا الجمال أكثر من ذلك. فإن الخاطر الذى يراوده أنه يومًا ما؛ ربما فى أقل من عشر سنوات وربما خمس سنوات، سيكون بعيدًا عن هذا العالم، قبل أن تفنى قوة حبه له، بدا له مخيمًا على أفق حياته على نحو يتنافى مع العدل فإن كان خلف هذه الحياة فإنها لن تحقق له ما أراد؛ فلا هى روبين هيل، ولا الأزهار ولا الطيور ولا الوجوه الجميلة، وما أندرها حتى الآن فيمن يراهم حوله!

بمرور السنين تزايد إحساسه بمقت "الغش والاحتيال" أما "الأرثوذوكسية" التى التزم بها فى الستينيات، التزامه بإطلاق لحيته على صدغيه. قد كان دافعه فى الأمرين معًا مزيجًا من الحيوية والإثارة، تلاشت جميعها وتركته لا يبدى توقيرًا إلا لأشياء ثلاثة هى الجمال والسلوك القويم والإحساس بالتملك، وأعظمها فى اللحظة الحاضرة هو الجمال.

لقد كان لـــ چوليون اهتمامات كثيرة وكان لا يزال يقرأ جريدة التايمز ولكنه كان ليلقيها جانبا إذا ما سمع الكروان يغــرد. الــسلوك القويم والإحساس بالتملك، على نحو ما، كانا يــدخلان الــسأم علـــى نفسه؛ أما طيور الكروان ومنظر غروب الشمس فلم يشعر يومًا أنها مصدر ملل، بل كان يساوره شعور غير مريح لأنـــه لا يــستطيع أن يكتفى منهما. متأملاً تألق المساء والأزهار الذهبيـــة والبيــضاء فـــى المروج؛ راودته فكرة هذا الطقس مثل موسيقى أورفيوس التى سمعها فى "كوفنت جاردن"؛ فهى أوبرا جميلة ليست مثل "مايربير" ولا حتى موزارت، لكنها ربما أكثر جمالا، شىء ما كلاسيكى ومـــن العـــصر الذهبى عذب ولطيف، أما موسيقى رافولجى وهى الأجدر والأكثـــر قيمة فى الماضى فإنه يغدق عليها المديح، اشتياق أورفيوس للجمـــال الذى فقده ولحبه الذى هبط إلى جحيم هادس(*) وهو حال الدنيا التـــى يضيع فيها الحب والجمال، وهو الاشتياق الذى غـــرد وخفـــق فـــى الموسيقى الذهبية، قد تحرك أيضًا فى الجمال الممتد للعالم تلك الليلة، وبحذائه ذى النعل المطاطى حرك ضلوع الكلب بالثـــازار لإيقاظـــه حتى يدفع عن نفسه حشراته؛ فمن المفترض أن يكون نظيفًا. وعندما انتهى بالثازار من ذلك دعك المكان الذى كان يحكه فى ظهر ســـاق سيده، ثم هدأ واستقر واضعًا قدمه على ساق سيده مرة ثانية. اســـتعاد الجد چوليون فى خاطره فجأة بعض الذكريات، وجهًا رآه فـــى تلـــك

(*) إله العالم السفلى فى اليونان القديمة.

الأوبرا منذ ثلاثة أسابيع، إيرين، زوجة ابن أخيه سومز، هذا الرجل ذو الشخصية الامتلاكية! مع أنه لم يقابلها منذ ذلك اليوم عندما كانت فى بيته القديم فى "ستانهوب جيت" حيث احتفلوا بحفل خطوبة حفيدته چان والشاب بوسينى، تذكرها على الفور، لأنه كان دائما معجبا بها، مخلوق جميل جدا. وقد كانت إيرين على علاقة بهذا الشاب حتى إن الجد چوليون سمع أنها تركت زوجها سومز بعد وفاة بوسينى فى الحال، والرب وحده يعرف ماذا كانت تفعل منذ ذلك الوقت؟. تلك الرؤية لوجهها، لجانب وجهها فى الصف الأمامى، كانت الذكرى الوحيدة فى هذه السنوات الثلاث أنها مازالت على قيد الحياة، فلم يتحدث عنها أحد قط. غير أن چولى أخبره شيئًا ما ذات مرة، شيئًا ما أزعجه تمامًا. وقد توصل چو إلى ذلك من چورچ فورسايت، الذى رأى بوسينى خلف الضباب فى اليوم الذى دهسته فيه سيارة وقتلته، شيئًا ما أوضح لوعة ذلك الشاب وكربه، إذ كان ذلك تصرف سومز تجاه زوجته تصرف صادم. لقد رآها جو أيضا تلك الظهيرة، بعد أن انتشر الخبر، رآها للحظة، ووصفها ظل راسخًا فى ذاكرة الجد چوليون، جامحة وتائهة، كما أطلق عليها. وفى اليوم التالى ذهبت چان إلى هناك، اعتصرها الحزن، وأخبرتها الخادمة كيف أن سيدتها تسللت فى الليل واختفت.

إنه أمر يدعو للأسى والحزن! شىء واحد كان أكيدًا، لم يكن سومز قادرًا قط على أن يضع يده عليها ثانية، وكان يعيش فى

"برايتون" ويسافر هنا وهناك، قدر مناسب لرجل ذى شخصية امتلاكية! عندما شعر الجد چوليون بالكراهية ذات مرة تجاه شخص ما – كما كان شعوره تجاه ابن أخيه– لم يستطع أن يتغلب عليه. وتذكر الشعور بالارتياح الذى انتابه كان لديه عندما سمع أخبار اختفاء إيرين. لقد كان شيئا صادمًا أن يتخيلها سجينة فى هذا البيت الذى من المؤكد أنها عادت إليه؛ عندما رآها چو. عادت للحظة – مثل حيوان جريح يعود إلى جحره – بعد رؤية ذلك الخبر: "مصرع مأساوى لمهندس فى الشارع". لقد ترك وجهها أثرًا بالغًا عليه فى تلك الليلة الأخيرة .أجمل بكثير مما يتذكره؛ لكنه مثل قناع يخفى تحته شيئا ما. امرأة شابة، ربما فى الثامنة والعشرين من عمرها. آه، حسنا! من المحتمل كثيرًا أنها اتخذت حبيبًا آخر الآن. لكن عندما خطرت له تلك الفكرة المزعجة، فالنساء المتزوجات يجب عليهن ألا يحببن أبدًا ولو لمرة؛ فحتى هذه المرة تكون كثيرة جدًا، حرك الجد چوليون ظاهر قدمه حيث كان الكلب "بالثازار" يضع رأسه؛ فنهض ذلك الحيوان الحصيف ونظر فى وجه سيده؛ وبدا كما لو كان يقول:

– "أأمشى؟"

فأجاب الجد چوليون:

– "تعال أيها الصديق العزيز"

ببطء، اعتاد الرفيقان أن يعبرا بين مجموعة من نباتات الحوذان وأزهار الأقحوان، ثم دخلا صوبة السرخس. هذه المنطقة –

حيث تنمو القليل من النباتات– قد انخفضت قليلا تحت مستوى الأرض المغطاة بالعشب؛ لذلك ربما تصعد مرة ثانية إلى مستوى الأرض الأخرى المغطاة بالعشب، أيضا، مما يترك انطباعًا بعدم الانتظام، الذى يمثل أهمية بالغة فى عملية الزراعة. وقد كانت صخورها وأرضها محببة جدا للكلب بالثازار، حيث كان يجد حيوان الخلد هناك فى بعض الأحيان. وقد مر الجد چوليون خلالها، ومع أنها لم تكن جميلة، فقد أصر على أنها يجب أن تكون كذلك يوما ما، وفى ذلك اليوم سيقول لنفسه:

– "يجب أن أغرس شجر الفار وأشاهده وهو يكبر وينمو؛ إنه أفضل من شجر الزان".

بالنسبة للنباتات فهى مثل البيوت والاحتياجات الإنسانية، تتطلب الاهتمام والخبرة فى رعايتها. وقد سكنت القواقع هذه المنطقة من قبل وأحيانا يتردد أحفاده عليها، ويحكى لهم القصص والحكايات، وهم يلوحون من حقول السرخس منطقة كبيرة وواسعة مثل المتنزه، تحيط بها أسوار من الطوب اللبن؛ حيث قسمت الحديقة جانبيًا فيها. وقد تجنب الجد چوليون تلك الحديقة وهو ما لم يناسب حالته المزاجية؛ ونزل التل باتجاه البحيرة الصغيرة. بالثازار الذى عرف فأرًا مائيًا أو اثنين، مشى فى المقدمة مشية تليق بكلب عجوز اعتاد هذه الجولة كل يوم. وصلا إلى الحافة حيث وقف الجد چوليون. لا شىء هناك غير أزهار الزنبق التى تفتحت بالأمس؛ سوف أريها

لـــ هولى في الغد؛ عندما تتعافى من الاضـــطراب المعـــدى الـــذى أصابها بعد أن أكلتْ حبة طماطم فى الغداء، لمساتها البسيطة كانـــت رقيقة جدا. أما "جولى" فقد ذهب الآن إلى المدرسة، حيـــث يقـــضى فصله الدراسى الأول، وكانت "هولى" معه تقريبًا طول اليـــوم، وقـــد افتقدها بشدة. شعر أيضًا بذلك الألم الذى كثيرًا ما عاوده فـــى تلـــك الأيام، وخزة بسيطة فى جنبه الأيسر. نظر خلفه إلـــى التـــل. حقًـــا، استطاع الشاب المسكين "بوسينى" أن يصمم البيت ويشيده بشكل رائع وغير عادى. ربما كان لديه مستقبل باهر لو ظل على قيـــد الحيـــاة! وأين هو الآن؟ ربما، مازالت روحه ترفرف فوق موقع عمله الأخير، وقصة حبه المأساوية. أم كانت روح "فيليب بوسينى" مبعثـــرة فـــى العموم؟ لا أحد يعلم ذلك الكلب كان يعبث بقدمه فى الطـــين! اتجـــه ناحية البستان حيث مجموعة من الأزهار البرية الزرقاء تعـــد أكثـــر جمالاً وبهجة، وعرف أين يتبع بعضها مثل السحب فى السماء والتى تلوح بين قمم الأشجار، بعيدا عن الشمس. ثم مر بمـــرابط الأبقـــار وأعشاش الدجاج وسار فى ممر بين الأشجار الصغيرة والكثيفة يؤدى إلى أحد حقول الأزهار البرية الزرقاء. زمجر "بالثازار"، الذى يتقـــدم عليه فى السير، بصوت منخفض؛ فرفعه "الجد "چوليـــون" بقدمـــــه؛ لكن الكلب ظل ساكنًا؛ حيث لم يكن هناك مجال للمرور، سواء كـــان من زمجرة الكلب ومنظر شعره المنتصب، أو من الإحـــساس الـــذى يشعر به الإنسان فى الغابة؛ شعر الجد چوليون أيـــضا بـــشىء مـــا يتحرك على طول عموده الفقرى. وبعد ذلك تحول عن الممر؛ حيث

كان جذع شجرة مقطوع، وتجلس عليه امرأة، لم يستطع أن يرى وجهها فهى لم تكن ملتفتة إليه، وكان لديه الوقت قبل أن تلتفت ليقول فى نفسه:

- "إنها مذنبة، تعتدى على حرمة أرضى، لابد أن أودعها السجن، أسلمها للشرطة".

يا إلهى! إنه الوجه الذى رآه فى الأوبرا، المرأة ذاتها التى كان يفكر فيها! وفى هذه اللحظة من الارتباك رأى الأشياء مشوشة، كما لو كانت روحًا، تأثير غريب، ميل أشعة الشمس ربما على فستانها الرمادى! ثم نهضت ووقفت تبتسم، رأسها يميل قليلاً على جانب واحد، فكر الجد چوليون:

- "يا لجمالها!".

لم تتكلم، ولم يتكلم هو أيضا؛ وأدرك فى تلك اللحظة سر الصمت الذى خيم عليها وداخله شعور بالإعجاب بها. إنها هنا بلاشك لذكرى تخصها. ولا تنوى مجرد محاولة تقديم مبرر سخيف للخروج من هذه الحالة.

قال:

- "لا تسمحى لهذا الكلب أن يلمس فستانك؛ فأقدامه مبللة. تعال إلى هنا!"

لكن الكلب بالثازار سار باتجاه الزائرة التى ملست على رأسه بيدها. قال الجد چوليون بسرعة:

- "لقد رأيتك فى الأوبرا تلك الليلة الأخيرة؛ أنت لم تلحظينى"

- "أوه، بل! فعلت"

شعر بالمداهنة فى ذلك بما يحمله كلامها من إطراء راقٍ، حيث إنها أتمت كلامها قائلة:

- "هل تعتقد أن هناك شخصًا يمكن أن تفوته رؤيتك؟"

فاجأها بالقول:

- "كلهم فى إسبانيا. أنا وحدى؛ أذهب إلى الأوبرا. موسيقى "رافولجى" جيدة. هل رأيت مرابط البقر؟"

فى موقف يكتنفه الغموض، وما يشبه الانجذاب العاطفى اتجه نحوها، وسارت بجانبه يتمايل جسدها بخفة مثل أجمل الأجساد الفرنسية، بل إن لون فستانها كان يتميز بدرجة فرنسية من اللون الرمادى، وقد لاحظ بعض من الخيوط الفضية فى شعرها ذى اللون الكهرمانى، بما لا يتناسب وعينيها الداكنتين، وذلك الوجه الشاحب. ولكن نظرة جانبية مفاجئة من تلك العيون المخملية البنية اللون أزعجته؛ فقد بدت وكأنها تأتى من أعماقها، ومن عالم آخر تقريبا، أو من شخص لا يعيش هنا كثيرا، وقال دون تفكير:

- "أين تعيشين الآن؟"

- "لدى شقة صغيرة فى تشيلسى"

لم يرد أن يسمع أو يعرف ماذا كانت تفعل. لم يرد أن يسمع أى شىء؛ ولكن كلمة أنها خرجت من فمه رغمًا عنه:

- "وحدك؟"

- أومأت إيرين برأسها أن نعم. تسبب ذلك فى شعوره بالارتياح. وفكر أنه لولا القدر، لكانت الآن سيدة البستان، تربيه حظائر البقر كزائر.

- "كلها أبقار ملونة تم حلبها؛ إنها تعطينا أجود الألبان. البقرة مخلوق جميل".

البقرة، ذات اللون البنى الفاتح والعينين الرقيقتين والبنيتين مثل عينى إيرين، كانت تقف بثبات؛ فهى لم تحلب منذ فترة طويلة، وكانت تنظر من طرف عينيها الساحرة بهذه الأعين اللامعة والمتألقة، واللعاب يسيل من بين شفتيها الرماديتين، وهى تتجه ناحية القش. كانت رائحة التبن والفانيليا وملح النشادر تفوح فى الضوء الخافت الذى ينبعث من الحظيرة الباردة. قال الجد چوليون:

- "يجب أن تأتى وتتناولى العشاء معى، وسوف أوصلك إلى المنزل فى العربة"

أدرك چوليون الصراع الذى يسرى داخل نفسها. هذا طبيعى بلاشك. إذا ما أخذنا ذكرياتها فى الاعتبار، لكنه أراد صحبتها هى صاحبة الوجه الجميل والجسد الساحر! فقد كان وحيدًا فترة ما بعد الظهيرة. ربما كانت عيناه تشوبهما اللهفة والحزن؛ لأنها أجابت:

- "شكرا لك، يا عمى چوليون. أود ذلك بكل سرور".

دعك يديه وقال:

- "ممتاز! لنذهب إذن!".

وتقدمهما الكلب بالثازار، وصعدوا فى طريقهم عبر الحقل. كانت الشمس تقريبًا فى مستوى وجوههم الآن، وأمكنه أن يرى، هذه الخيوط الذهبية؛ خيوطًا قليلة، من العمق بحيث أعطت سمة خاصة لجمالها بشيء من البراعة، النظرة الخاصة للحياة. فكر:

- "سوف آخذها لنجلس فى الشرفة الواسعة ولن أعاملها كأى زائر".

قال:

- "ماذا تفعلين طول النهار؟"

- "أعطى دروسا فى الموسيقى، وهناك أمر آخر يستأثر باهتمامى".

قال الجد چوليون، وهو يلتقط الدمية من فوق الأرجوحة متحسسًا تنورتها السوداء:

- "العمل! لا يوجد ما يفضل العمل، أليس كذلك؟ أنا لا أعمل الآن، إننى أتقدم فى السن، ما الفائدة من ذلك؟"

- "أحاول أن أساعد النساء اللاتى لديهن مشكلة أو مأساة".

لم يفهم الجد چوليون تماما ما تعنيه.

"مأساة؟" كررها، ثم أدرك فجأة أنها قصدت بالفعل ما قصده هو نفسه لو كان قد استخدم هذا التعبير. مساعدة ساقطات لندن التائبات! يا له من اهتمام غريب ومرعب! وبفضول يغلب على نفوره الطبيعى، سألها:

- "لِمَاذا؟ ماذا تفعلين لأجلهن؟"
- "ليس الكثير، فلا يوجد عندى فائض من مالى لهن. يمكننى فقط أن أقدم لهن العطف والطعام أحيانا"

بشكل لا إرادى مد يده إلى كيس النقود الخاص به وقال بسرعة:

- "كيف يمكنكِ أن تصلى إليهن؟"
- "أذهب إلى المستشفى"
- "المستشفى؟! رباه!!"
- "ما يجعلنى أشعر بالأسى أنهن على قدر من الجمال".

سوى الجد چوليون الدمية، قال:

- "الجمال! نعم! عمل حزين!"

واتجه ناحية البيت. ومن خلال نافذة زجاجية تطل على الحديقة، تحت أشعة الشمس التى لم تغب بعد، سبقها إلى داخل الحجرة حيث اعتاد أن يقرأ جريدة "التايمز" والمجلات الزراعية.

- "سيكون العشاء جاهزًا خلال نصف ساعة. هل ترغبين في غسل يديكِ! سوف آخذكِ إلى حجرة چان.

رآها تنظر حولها بشوق؛ ترقب التغيرات التى طرأت منذ أن زارت هذا البيت آخر مرة مع زوجها، أو حبيبها، أو كلاهما ربما... لم يعرف، لا يمكنه أن يجزم بذلك، كل ذلك كان غامضًا، وتمنى أن يبقى الأمر على هذا النحو. لكن يا لها من تغيرات! وفى الصالة قال:

- "قد لا تعرفين أن ولدى چو رسام، يتمتع بذوق فنى رفيع. هذا ليس أسلوبى بالطبع ولكنى تركته يختار طريقه فى الحياة".

لقد كانت تقف فى ثبات وعيناها تتحركان خلال الصالون والمرسم، كما كانت الآن، تجمعت فى شيء واحد، تحت ضوء السماء العظيم، وقد تكون لدى الجد چوليون انطباع غريب عنها. هل كانت تحاول أن تستدعى شخصًا ما من ظلال ذلك المكان؛ حيث كانت الألوان ما بين الفضى والرمادى المتلألئ؟ لكن كان لدى چو ذوق فرنسى، وقد أصبح غير واضح المعالم وله تأثير كأن يصدر عن لهب السجائر التى كان دائمًا ما يدخنها، يتخلله فى أنحاء متفرقة واللون الأزرق والأحمر القانى. لم يكن هذا حلمه! كان قد ملأ الفراغ فى ذهنه بهذه اللوحات الرائعة ذات الأطر الذهبية والتى اشتراها فى تلك الأيام عندما كانت ذات قيمة عالية.

والآن أين ذهبت تلك اللوحات؟ بيعت من أجل أغنية! هذا الشيء الذى جعله وحيدا بين آل فورسايت، يتحرك مع الأيام التى حذرته من الصراع من أجل استعادتهم. لكنه لا يزال يحتفظ فى غرفة مكتبه بلوحة "قوارب الصيد الهولندية وقت الغروب".

بدأ يعتلى السلم معها ببطء؛ لأنه شعر بوخزة فى جنبه.

قال:

- "هذه هى الحمامات، وهناك غرف أخرى. غرف الأطفال على طول الممر هناك. وهذه حجرة "جو" وزوجته. لكنك تتذكرين، كما أظن."

أومأت إيرين برأسها. سارا إلى معرض اللوحات ودخلا حجرة واسعة بها سرير صغير، ونوافذ عديدة.

قال:

- "هذه هى غرفتى".

كانت الحوائط مغطاة بصور فوتوغرافية لأطفال ورسومات بألوان الماء، وأضاف والشك يغلف صوته:

- "إنها أعمال چو. منظرٌ رائع، يمكنك أن ترى النصب التذكارى لـــ"أبسوم" فى يوم طقسه معتدل".

غربت الشمس الآن خلف المنزل واستقرت على منظر الضباب الخفيف المتألق، وانتهى يوم طويل وجميل.

قال بشكل مباغت:

- "الريف يتغير، لكنه سيبقى بعد أن نرحل جميعًا. انظرى إلى طيور السمان هذه، الطيور تكون جميلة هنا فى الصباح. أنا سعيد لأننى أدير ظهرى للندن".

كان وجهها قريبًا من اللوح الزجاجى للنافذة، فكر -بعد أن صدمه مظهرها الحزين- دار فى ذهنه خاطر هل يمكننى أن أجعلها تبدو سعيدة؟ وجه جميل، لكن حزين! وأخذ علبة المياه الساخنة وخرج من القاعة.

قال، وهو يفتح الباب التالى ويضع العلبة: "هذه حجرة چان، أعتقد أنك سوف تجدين كل شىء". أغلق الباب خلفه ثم عاد إلى غرفته الخاصة. مشط شعره بفرشاة شعر من الأبنوس، ووضع ماء الكولونيا على جبهته، ثم استغرق فى التفكير. لقد أتت بطريقة غريبة جدًا، غامضة، بل رومانسية، كما لو أن رغبته فى الصحبة والجمال قد أشبعت بهذه الزيارة. ووقف أمام المرآة معتدلاً يشد قوامه الذى لا يزال ممشوقًا، ومرر فرشاة الشعر على شاربه الأبيض الكبير، ثم مس حاجبيه بماء الكولونيا ودق الجرس.

- "نسيت أن أخبرهم أن لدى ضيفة على العشاء. فليعد الطاهى طعامًا أكثر، وأخبرى "بيكون" أن يجهز العربة فى الساعة

العاشرة والنصف ليعيدها إلى المدينة الليلة. هل الآنسة هولى نائمة؟"

قالت الخادمة إنها لا تعتقد ذلك. مشى على أطراف أصابعه وهو ينزل إلى القاعة، ناحية غرفة نوم هولى، وفتح الباب الذى كان يزيت مفصلاته دوما حتى يتمكن من التسلل إلى داخل الحجرة وخارجها فى المساء دون أن يسمعه أحد.

لكن هولى كانت نائمة، وترقد مثل صورة مصغرة من المادونا(*)، من ذلك النموذج الذى لا يمكن للرسامين القدامى أن يميزوه عن "فينوس"، عندما يكملوها، فرموشها السوداء الطويلة تلتصق بوجنتيها؛ وعلى وجهها نوع من السلام الكامل وقد أصبحت بخير مرة ثانية، ووقف الجد "چوليون" يتأملها فى خشوع فى ضوء الحجرة الخافت! لقد كانت ساحرة، وقورة، وودودة، هذا الوجه الصغير. لقد نال نصيبًا وافرًا من نعمة الحياة عبر الصغار، فقد كانا بالنسبة له حياته المستقبلية، التى ربما يتيحها له إيمانه الوثنى الأساسى بالعقل، كانت هناك وكل شىء أمامها، ودمه وبعض منه، يجرى فى عروقها.

هناك كانت صاحبته الصغيرة، لكى يجعلها سعيدة بقدر المستطاع، فلا تعرف إلا الحب، خفق قلبه، ثم خرج بهدوء حتى

(*) السيدة العذراء

لا يصدر حذاؤه ذو الجلد اللامع أى صوت. وفى الممر راودته فكرة غريبة: "أن يفكر فى أن الأطفال يمكن أن يصلوا إلى ما أخبرته عنه إيرين؛ هؤلاء النساء اللاتى كن صغارًا جميعهن، مثل هذه الصغيرة النائمة هناك! استغرق فى التفكير:

- "يجب أن أعطيها شيئًا بمبلغ من المال! لم يتجشم أخذ عبء التفكير، لم يولدوا وهم يفكرون فى هؤلاء المنبوذات، منهن من تجرحن بعمق، الرقى الخالص المتخفى تحت طبقات الانسجام والتوافق مع الإحساس بالتملك، تجرحن بشدة الشىء الأكثر عمقًا بداخله، حب الجمال الذى يخفق قلبه له حتى الآن"

مفكرًا فى ليلته فى صحبة امرأة جميلة. ونزل لأسفل من خلال الأبواب، إلى الأماكن الخلفية. هناك، فى قبو النبيذ، حيث كان هناك النبيذ الألمانى الأبيض والذى تبلغ ثمن الزجاجة منه جنيهين إسترلينيين، نبيذ ستينبرج كابينيت وهو أفضل من نبيذ جوهانسبرج عبر تاريخها الطويل؛ نبيذ مصنوع من باقة من الأزهار، حلو مثل شراب الآلهة حقًا! التقط زجاجة، كان يعاملها كطفل، ويمسكها فى مستوى الضوء لكى ينظر إليها. لقد كانت فى غلافها المترب، تلك الزجاجة الناعمة، الملونة، الرقيقة وممشوقة القوام؛ جعلته يشعر بسعادة عميقة.

استغرق ثلاث سنوات ليستقر ثانية منذ أن ترك المدينة يجب أن يكون فى أفضل الحالات! لقد اشتراها منذ خمسة وثلاثين عامًا

الحمد للرب أنه لم يفقد حاسة التذوق واكتسب الحق فى أن يشربها. سوف تقدر هذا. فهذا النبيذ يخلو تمامًا من النكهة الحمضية ثم مسح الزجاجة، ونزع الفلين بيده ووضع أنفه على حافتها واستنشق رائحتها وعاد إلى حجرة الموسيقى.

كانت إيرين تقف بجانب البيانو، وقد خلعت قبعتها والإيشارب المصنوع من النسيج الذى كانت ترتديه، لذلك كان شعرها الذهبى اللون ظاهرا بالإضافة إلى الشحوب الشديد فى رقبتها. ظهرت فى ثوبها الرمادى اللون كلوحة فنية جميلة فى مقابل البيانو المصنوع من الخشب الوردى اللون، فى نظر الجد چوليون.

أعطاها ذراعه وسارا بوقار. لقد كانت الحجرة مصممة لكى تستوعب أربعة وعشرين فردًا يتناولون العشاء فى راحة تامة، وقد زودت الآن بمائدة مستديرة صغيرة، حيث إنه فى ظل وحدته هذه أمر بإزالة المائدة الكبيرة التى أثارت الكآبة فى نفسه حتى يعود ابنه. بصحبته هنا نسختان رائعتان حقًا لـ"رافاييل مادوناز"(*) الذى اعتاد أن يستمتع بهما وهو يتناول العشاء وحيدًا. لقد كانت الساعة الأسوأ فى يومه فى هذا الطقس الصيفى. لم يكن الجد چوليون رجلا أكولا، مثل صديقه الحميم سويزن، أو سيلفانوس هايثورب، أو انتونى كوروزى، كان شيئًا محزنًا حيث كان يتناوله بسرعة، حتى إنه ربما يصل إلى المتعة الروحية الأكثر عندما يحتسى القهوة ويدخن السيجار.

(*) يقصد لوحات السيدة العذراء لرسام عصر النهضة رافييل.

لكن هذا المساء كان الأمر مختلفا! فقد تألقت عيناه وهو ينظر إليها عبر المائدة الصغيرة، وتحدث عن إيطاليا وسويسرا، وحكى لها القصص عن أسفاره هناك، وتجاربه التى لم يعد يرويها حتى لابنه وحفيدته لأنهما عرفاها جيدًا. هذا الجمهور الصغير والجميل من المستمعين كان قيمًا بالنسبة له؛ لم يصبح أبدا أحد هؤلاء العُجزُ الذين يدورون فى فلك الذكريات. ولأنه سرعان ما يتسرب الملل إلى نفسه فى حضرة عديمى الحساسية، فقد تجنب بشكل عفوى مضايقة الآخرين، ومغازلته الطبيعية للجمال؛ حمته بشكل خاص فى علاقاته مع المرأة. كان راغبا فى أن يجتذبها بكلامه، لكن على الرغم من تمتمتها وابتسامتها وظهور علامات الاستمتاع عليها نتيجة ما أخبرها إياه، فقد بقى مدركا لهذا البعد الغامض الذى شكل نصف جاذبيتها وروعتها. لم يتحمل النساء اللواتى يلقين أعينهن عليك ويثرثرن؛ أو النساء اللواتى يتكلمن بلهجة آمرة حازمة ويعرفن أكثر مما تعرف أنت. كانت هناك صفة واحدة فقط فى المرأة التى تقربت إليه، وكانت تلك هى أكثر صفة محببَة إليه. وهذه كان لديها سحر غير واضح المعالم مثل ضوء الشمس بعد الظهيرة على هذه التلال والأودية الإيطالية التى فتن بها. الإحساس، أيضا، بوحدتها وحزنها جعلها تبدو أقرب إلى نفسه. رفيق يرغب فى صحبته على نحو غريب. عندما يكون الرجل عجوزا جدا وهادئا وبعيدا عن سباقات الحياة، فإنه يحب أن يشعر بالأمان بعيدا عن خصومات الشباب، لأنه سوف يبقى فى

قلب الجمال. تناول النبيذ الألمانى، مراقبا شفتيها وشعر أنه – تقريبا – شاب. أما الكلب "بالسازار" فكان يرقد مراقبا شفتيها أيضا، ويـزدرى فى قلبه لحظات توقف حديثهما وإمالة هذه الأكواب المخضرة المملوءة بسائل ذهبى والذى كان كريها بالنسبة له.

كان الضوء قد اضمحل للتو عندما عادا إلى حجرة الموسيقى. قال "چوليون" والسيجار فى فمه:

– "اعزفى لى شيئا لـــ"شوبان"".

بالسجائر التى يدخنها والألحان التى يحببنها سيعرفن كيف يلمسن أرواح الرجال. لم يستطع الجد چوليون أن يتحمل السيجار القوى أو موسيقى فاجنر، فقد أحب بيتهوفن وموزارت، هاندل وجلوك، وشوبان، ولسبب ما أوبرا مايربير؛ لكن فى السنوات الأخيرة استهوته موسيقى شوبان، وكذلك فى الرسم أحب بوتيسيللى. فى إعجابه بهذه النماذج والأذواق كان على وعى بالاختلاف عن مستوى العصر الذهبى. لم يكن ذلك الذى لـ ميلتون وبايرون وتينيسون؛ لـ رفاييل وتيتيان وموزارت وبيتهوفن. لقد كان، كما لو أنه، خلف ستار. ولم يكن أكيدا أن هذا صحى، فهو لم يهتم بشىء سوى أن يشاهد لوحة لشخص أو يسمع موسيقى لآخر.

جلست إيرين على البيانو تحت مصباح كهربائى، وجلس "چوليون فورسايت" الجد على فوتيه كبير حتى يتمكن من رؤيتها، ووضع ساقًا على ساق وهو يدخن سيجاره ببطء.

لقد جلست للحظات قليلة وأثارت يداها سعادة كئيبة، غير كاملة مثل أى شيء فى العالم. واستغرق چوليون فى نشوة شديدة تقطعها فقط حركات يده وهى ترفع السيجار إلى فمه وتخرجه فى فواصل طويلة، لقد كانت هناك، والنبيذ الألمانى يسرى بداخله، ورائحة التبغ؛ لكن هناك، أيضا، كان عالم من غروب الشمس يتلكأ فى ضوء القمر، والبحيرات الصغيرة وطيور اللقلاق تحلق فوقها، والأشجار تتألق بأزهار النبيذ الأحمر، وحقول "اللافندر" البنفسجى حيث كانت الأبقار الحلوب البيضاء ترعى، وامرأة غير واضحة المعالم لها عينان سوداوان ورقبة بيضاء تبتسم، وخلال الهواء الذى كان كالموسيقى سقطت نجمة ووقفت على قرن بقرة. ثم فتح عينيه. مقطوعة جميلة؛ لقد عزفت جيدا، لمسة ملاك! وأغلقها ثانية وشعر بالحزن والسعادة فى آن واحد، كما يفعل شخص يقف تحت شجرة الزيزفون المملوءة بأزهار العسل. والمرء لا يعيش حياته مرتين، لكنه يقف هناك ينعم بابتسامة فى عيون امرأة، ويستمتع بباقة من الأزهار! ثم مد "چوليون" يده حيث نهض الكلب بالثازار ولعقها.

قال:

- "جميل! استمرى، اعزفى أكثر لـ"شوبان"!".

بدأت تعزف ثانية وأدهشه هذه المرة التشابه بينها وبين "شوبان". التمايل الذى لاحظه فى مشيتها كان فى عزفها أيضا، ومعزوفة "نوكتيون" التى اختارتها والغموض الرقيق فى عينها،

والضوء المسلط على شعرها، كضوء ينبعث من قمر ذهبـــى فـــاتن. سقطت قطعة رماد طويلة زرقاء من سيجاره، ثم تشتت. فكر:

- "فلنخرج، كفى جمالا!".

توقفت إيرين ثانية.

- "هل تود أن أعزف لك شيئا لـــ"جلوك"؟ لقد اعتاد أن يؤلـــف موسيقاه فى حديقة مشمسة، وزجاجة الخمر بجانبه".

- "أوهِ! نعم. فلتعزفى مقطوعة "أورفيو".

حوله الآن كانت مروج الأزهار الفضية والذهبية، الأشـــكال البيضاء تتمايل فى ضوء الشمس، والطيور المتألقـــة تطيـــر جيئـــة وذهابا. إنه الصيف. وتتباطأ أمواج من الفرحة والندم لتغمر روحـــه. سقط بعض من رماد سيجاره وأخرج منديله الحريرى لكى يمـــسحه، واشتم رائحة ممزوجة من النشوق وماء الكولونيا. فكّر، "آه! صـــيف حار، هذا كل ما فى الأمر!" وقال:

- "لم تعزفى لى شيئا لـــ تشى فارو .

لم تجب ولم تتحرك، وأدرك شيئًا ما، اضطرابًا غريبًا. وفجأة رآها تنهض وتتجه بعيدًا، ثم شعر بألم فجائى نتيجة للشعور بالنـــدم، يا له من شاب أخرق! مثل "أورفيوس"، إنها بـــالطبع.. إنهـــا أيـــضا تبحث عن حبيبها الضائع فى صالون الـــذكريات! وانـــزعج "الجـــد چوليون" بشدة، فنهض من مقعده. لقد سارت ناحية النافذة الكبيرة فى

الركن البعيد. تبعها فى حيطة وحذر. كانت يــداها مطــويتين علــى صدرها؛ إنه فقط يستطيع أن يرى وجنتها، بيــضاء. وعلــى نحــو عاطفى قال:

- "هونى، هونى عليك، يا عزيزتى!"

أفــلتت منه الكلمات دون تفكير، كالتى اعتــاد أن يوجههــا لــ "هولى" عندما تشعر بالحزن، لكن تأثيرها كان مزعجا؛ فرفعــت ذراعيها وغطت وجهها بهما وبكت.

وقف الجد چوليون يحدق فيها بعينين عميقتين جدا بحكم السن. الخجل الانفعالى الذى بدأت تشعر به عند مغادرتها، كان مختلفا عــن قدرتها على السيطرة على مشاعرها ورباطة الجــأش التــى تميــز كيانها؛ فبدت كما لو كانت تظهر ضعيفة ومكــسورة فــى حــضور شخص آخر. تمتم:

- "هونى عليكِ. هونى عليك!".

ومد يده بوقار ليلمس يديها. التفتت، وأنزلت ذراعيها اللتــين حجبتا وجهها عنه. ثم توقف ساكنا جدا، مبقيا يده النحيلة على كتفها. فلتغسل دموعها أحزانها، سوف تصبح أحسن حالا.

وجلس الكلب بالثازار، متحيرا، على عجزه، وهو يتفحصهما.

كانت النافذة لا تزال مفتوحة، والستائر مغلقة، وحــل ضــوء المصباح محل آخر ضوء للنهار؛ كان الهواء محملا برائحة العــشب

المقصوص حديثا. وبحكمته التى اكتسبها خلال حياته الطويلة لم يتحدث الجد "چوليون" بشيء. حتى الحزن يتبدد مع مرور الزمن؛ فالزمن هو العلاج الوحيد للحزن.. الزمن الذى يشهد كل لحظات الحياة، سواء لحظات الفرح أو الحزن. لم يدرك رائحة أزهار البنفسج، عرف أنها كانت تجفف دموعها، فوضع ذقنه وشاربه على جبهتها وشعر برجفة تسرى فى جسدها بأكمله، مثل شجرة تهز نفسها لكى تسقط قطرات المطر عن نفسها. وضع يده على شفتيها، كما لو كان يقول: "كل شىء انتهى الآن! سامحينى!"

هذه القبلة جعلته يشعر بالراحة؛ فقد أعادها للوراء إلى حيث كانت منزعجة جدا. تبعهما الكلب بالثازار، وترك عظمة إحدى قطع لحم الضلوع التى أكلها كاملة.

كانت قلقة جدا، ولمحو تلك العاطفة، لا يمكنه أن يفكر فى شىء أفضل من الخزف. أخذ ينتقل معها من دولاب إلى دولاب، ملتقطا قطع الخزف، مقلبا إياها بيديه النحيلتين، المملوءتين بالعروق، والتى كان جلدها مغطى بالنمش والتجاعيد مثل أى رجل عجوز فى سنه.

سوف يقول: "لقد اشتريت هذه من معرض چو بسون، كلفتنى ثلاثين جنيها، إنها قديمة جدا. هذا الكلب بالثازار يترك عظامه فى كل مكان. وهذه الزبدية القديمة اشتريتها فى أوكازيون، لكنك لا تتذكرين. هنا قطعة رائعة لتشيلسيا. الآن، ماذا ستقولين فى هذه؟" وقد

كان يشعر بالراحة، يشعر بذوقها، أن لديها اهتماما حقيقيا بهذه الأشياء؛ لأنه، بعد كل هذا، لا شيء يهدئ الأعصاب بشكل أفضل مثل قطعة خزف جميلة.

عندما سمع صوت إطار العربة فى النهاية قال:

"يجب أن تأتى ثانية؛ يجب أن تأتى لتتناولى الغداء، وهكذا يمكننى أن أريكِ هذه الأشياء فى ضوء النهار، وحبيبتى الصغيرة.. إنها صغيرة وعزيزة جدا على. هذا الكلب يبدو أنه يستلطفك"

بالنسبة للكلب بالثازار، فقد كان يشعر أنها على وشك المغادرة، فكان يدعك جنبه فى ساقها، ويذهب معها تحت الشرفة، قال:

"سوف يوصلك خلال ساعة وربع. خذى هذا من أجل المساكين اللاتى تساعديهن"

ودس شيكًا بخمسين جنيها فى يدها. لقد رأى عينيها تتألقان، وسمعها تتمتم: "أوه! عمى چوليون!" وسرت بداخله سعادة حقيقية. وهذا يعنى أنها يمكن أن تساعد مسكينا أو اثنين على الأقل، ويعنى أيضا أنها ستأتى مرة ثانية. ثم وضع يده على النافذة وأمسك يدها مرة أخرى. أسرعت العربة بعيدا. ووقف الجد چوليون ينظر إلى القمر وظلال الأشجار، ويفكر: "ليلة حلوة! إنها..!"

-٢-

يومان من المطر؛ وقد أصبح الصيف لطيفًا ومشمسًا. تمشى الجد چوليون وتحدث مع هولى.

فى البداية شعر أنه مملوء بالحيوية والنشاط؛ ثم شعر بعدم الراحة. فى الغالب، كل يوم بعد الظهر كانوا يدخلون البستان ويسيرون مبتعدين حتى جذع الشجرة المقطوع.. فكر:

- "حسنا، إنها ليست هناك! بالطبع لا!".

وقد يشعر ببعض الوهن أو الضعف فيعود أدراجه صاعدًا الربوة إلى البيت، واضعًا يده على جنبه الأيسر. تحركت الفكرة بداخله:

- "هل أتت؟ أم كنت أحلم بهذا؟"

وبدأ يحدق فى الفضاء حيث كان الكلب "بالثازار" يحدق فيه. بالطبع لن تأتى ثانية! فتح الخطابات التى وصلت من إسبانيا باهتمام قليل. لن يعودوا حتى يوليو؛ شعر بضيق، إنه يمكن أن يتحمل ذلك. كل يوم فى العشاء كان يحدق فى المكان الذى كانت تجلس فيه، ولكنها لم تكن هناك، لذلك حول نظره مرة ثانية.

فى اليوم السابع بعد الظهر فكر الجد چوليون:

- "يجب أن أذهب إلى المدينة وأشترى بعض الأحذية".

أمر بيكون أن يستعد لذلك. فى أثناء مرورهم من بوتنى باتجاه هايد بارك فكر:

- "ربما أذهب إلى تشيلسى وأراها أيضا!".

فقال:

- "خذنى إلى حيث أخذت تلك السيدة فى الليلة الأخيرة".

أدار السائق وجهه الأحمر الواسع وأجاب بشفتيه الريانتين:

- "السيدة ذات الرداء الرمادى يا سيدى؟"

- "نعم، السيدة ذات الرداء الرمادى، وهل كان هناك نساء أخريات! يا لك من رجل ممل!".

توقفت العربة أمام مجمع سكنى. يضم الطابق الواحد فى المبنى ثلاث شقق، يقع خلف النهر بقليل، وبعين خبيرة لاحظ الجد جوليون أنها رخيصة الثمن، حوالى ستون جنيهًا إسترلينيًا فى العام، دخل، وهو ينظر إلى اللوحة التى تحمل اسم السكان وأرقام شققهم.

الاسم فورسيات لم يكن موجودًا، لكن فى الطابق الأول، شقة ثلاثة، كانت الكلمات: السيدة إيرين هيرون،

- "آه! لقد عادت إلى لقبها قبل الزواج ثانية!".

وبطريقة ما أسعده ذلك كثيرًا. ثم صعد السلم ببطء، شعر بوخز بسيط فى جنبه. توقف للحظة، قبل أن يضرب الجرس، حتى تخلص من شعوره بالجهد والاضطراب.

ربما ليست بالداخل! ثم الأحذية! الفكرة عقيمة. ما فائدة الأحذية فى سنه هذه؟ فلا يمكنه أن يستخدم كل ما لديه.

- "سيدتك فى البيت؟"

- "نعم، يا سيدى"

- "قولى السيد چوليون فورسايت".

- "نعم يا سيدى، تفضل من هنا"

تبع الجد چوليون خادمة صغيرة لا يتجاوز عمرها السادسة عشر فى حجرة استقبال صغيرة جدًا حيث كانت أشعة الشمس قد انسحبت منها. كانت تضم بيانو صغيرا، ويهب منها عبير غامض، وتدل على ذوق رفيع. وقف فى منتصف الحجرة ممسكًا بقبعته فى يده، وفكر:

- "أتوقع أنها بحالة سيئة!"

وكانت هناك مرآة فوق الموقد، فنظر إلى نفسه فيها ثم قال:

- "رجل عجوز!".

سمع حفيف ثوب، والتفت، كانت قريبة جدًا، حتى إن شاربه لمس جبهتها، بالضبط عند بداية منابت الشعر الفضية فى رأسها.

قال:

- "كنت فى المدينة وقررت أن أحضر إلى هنا لأطمئن عليكِ وأسألكِ كيف أصبحتِ بعد الليلة الأخيرة"

وهو يرى ابتسامتها، شعر فجأة بالارتياح. فقد كانت حقًا سعيدة لرؤيته، ربما.

- "هل تودين أن ترتدى قبعتك ونذهب فى جولة فى المتنزه ؟"

لكن بينما ذهبت لتضع قبعتها، عبس وجهه. المتنزه! ربما يكون هناك چايمس وإيميلى! والسيدة نيكولاس، أو أى فرد آخر من أفراد عائلته الكريمة.

وإذا رأوهما معًا فإنهم سوف يطلقون ألسنتهم وينشرون الشائعات. جعله التوتر الشديد يتحرك لأعلى ولأسفل ثانيًا ركبتيه، من الأفضل ألا يفعلا هذا، ليس جيدا! لم يرغب أبدا فى إحياء الماضى. أزال خصلة شعر بيضاء كانت على ياقة معطفه الفرو، ومر بيده على وجنتيه، وشاربه. ذقنه المربعة بدت جوفاء جدا تحت عظام الوجنات. لم يكن يتناول طعامه فى وقت متأخر، فضل ما كانت هولى تعطيه إياه؛ حيث كانت تعطيه مشطًا. لكن إيرين عادت، وعندما كانا فى العربة قال:

- "ما رأيك لو نذهب ونجلس فى حدائق كينسينجتون بدلاً من المتنزه ولا نتسكع هنا وهناك".

وافقت كما لو كانت تقرأ أفكاره. تركا العربة ودخلا إلى المكان الذى اختاره وتمشيا باتجاه الماء. قال:

- "لقد عدتِ إلى لقبك قبل الزواج، أفهم هذا، ولا يؤسفنى ذلك".

تسللت يدها تحت ذراعه:

- "هل سامحتنى چان يا عمى چوليون؟"

أجاب بلطف:

- "نعم، نعم بالطبع، لمَ لا؟"

- "وهل سامحتنى أنت أيضًا؟"

- "أنا؟ لقد سامحتك على الفور".

ربما كانت لديه غريزة طبيعية بأن يسامح الجميلات. تنفست بعمق.

- "لم أندم أبدا، لا يمكننى. هل أحببت يومًا من أعماق قلبك، يا عمى چوليون؟"

بهذا السؤال الغريب، وقف الجد چوليون يحدق أمامه. هل فعل؟ لم يبدُ عليه أنه تذكر إن كان قد فعل.

لكنه لم يحب أن يقول هذا لامرأة شابة كانت يداها تلمس ذراعه، حياتها كانت معلقة بذكرى حب مأساوى. وفكر:

- "لو أننى قابلتك عندما كنت شابًا، ربما كنت لأرتكب حماقة فى حق نفسى".

ربما، كانت الرغبة فى الهروب إلى موضوعات عامة تحاصره. قال:

- "الحب شىء غريب، شىء قاتل غالبا. فى اليونان، أليس كذلك؟ قد جسدوا الحب فى إلهة؛ أستطيع أن أقول إنهم كانوا محقين، لقد عاشوا فى العصر الذهبى"

- "فيل(*) عشقهم".

فيل! أثارت الكلمة أعصابه، لأنه فجأة بقدرته على رؤية الأمور من كل الجوانب، أدرك لِمَ كانت تسأله هذا السؤال. لقد أرادت أن تتحدث عن حبيبها! حسنًا! لو أن ذلك سيسبب لها الشعور بالسعادة! وقال:

- "آه! لقد كان بداخله شىء من نحّات، أتخيل ذلك".

- "نعم لقد أحب التوازن والتناسق؛ أحب الطريقة التى وهب بها اليونانيون أنفسهم للفن".

"توازن! الرجل لم يكن لديه توازن على كل حال، لو تذكر، أما بالنسبة للتناسق فقد كان أنيقًا بشكل كافٍ، لا شك؛ لكن عينيه غريبتان وعظام وجنتيه عالية فى تناسق"

(*) تقصد (فيليب بوسينى) حبيبها الذى مات.

- "أنت من العصر الذهبى أيضا، يا عمى چوليون".

نظر الجد چوليون إليها. هل كانت تمازحه؟ لا، عيناها كانتا رقيقتين مثل القطيفة. هل كانت تتملقه؟ لكن لو كان الأمر كذلك، لِمَاذا؟ لم يكن هناك شىء لتحصل عليه من رجل عجوز مثله. فيل اعتقد ذلك، لكنه أعتاد أن يقول:

- "لا يمكننى إخباره أننى معجب به".

آه! ها هو ثانية. حبيبها المتوفى؛ رغبتها فى أن تتحدث عنه! وضغط على ذراعها، مستاءً قليلا من هذه الذكريات، ممتنا قليلا، كما لو أنه قد اعترف بالرابط بينها وبينه. تمتم:

- "لقد كان شابًا موهوبا جدًا، الجو حار؛ أشعر بالحر هذه الأيام. لنجلس".

جلسا على مقعدين تحت شجرة القسطل التى حمتهما أوراقها العريضة من أشعة الشمس فى فترة ما بعد الظهيرة. وكان الجد چوليون يشعر بسعادة كبيرة وهو يجلس ويراها، ويشعر أيضًا أنها أحبت أن تكون معه. والرغبة فى أن يزيد هذا الارتياح والود جعلته يستمر قائلاً:

- "أتوقع أن يكون قد أراكِ جانبًا من شخصيته لم أره أنا من قبل. ربما كان فى أفضل حالاته معكِ. وقد كانت أفكاره الفنية جديدة قليلاً بالنسبة لى".

وأطبق قبل أن يقول مجنونًا.

- "نعم، لكنه اعتاد أن يقول إن لديك حسًّا جماليًّا حقيقيًّا!"

- "أحقًا قال؟"

وأجاب بتألق:

- "حسنا، لدى حسّ جمالى حقيقى، وإلا ما جلست هنا مع امرأة جميلة مثلك".

لقد كانت رائعة عندما ابتسمت بعينيها هكذا!

- "كان يعتقد أنك لديك أحد هذه القلوب التى لا تشيخ أبدًا. فيل كان لديه نظرة ثاقبة حقًا"

لم يتأثر بهذا التملق الذى قيل، والناتج عن الرغبة فى التحدث عن حبيبها المتوفى ولكن كان شيئًا جيدًا أن يستمع إليها. لأنها أسعدت عينيه وقلبه الذى فعلاً لم يشِخ أبدًا.

هل كان ذلك لأنه بعكسها هى وحبيبها، لم يحب الكآبة، وكان دائما ما يحافظ على توازنه والإحساس بالتناسق لديه. حسنًا! لقد كانت لديه القدرة، فى سن الرابعة والثمانين، لكى يعجب بالجمال. وفكر:

- "لو كنت رسامًا أو نحاتًا! لكننى رجل عجوز. أغتنم الفرصة عند سنوحها".

اثنان، يضع كل منهما ذراعه فى ذراع الآخر، مرا أمامهما على العشب، على حافة ظل شجرة القسطل التى كان الجد چوليون وإيرين يجلسان تحتها، وضوء الشمس يسقط على وجهيهما الشاحبين. قال الجد چوليون فجأة:

– "إننا فئة قبيحة! يدهشنى أن أرى كيف ينتصر الحب على كل ذلك".

– "الحب ينتصر على كل شىء".

تمتم الجد چوليون:

– "الشباب يعتقدون ذلك".

– "الحب ليس له حدود، ولا يموت".

بهذا التوهج والتألق فى وجهها الشاحب؛ تنفست الصعداء. عيناها واسعتان يملؤهما الغموض ولكنهما رقيقتان. لقد بدت مثل فينوس تعود إلى الحياة! لكن هذه المبالغة تسببت فى رد فعل فورى ومتألق، قال:

– "حسنًا، لو أن الحب له حدود، لكان من الواجب ألا نولد؛ لأنه كما يقول چورچ! هناك الكثير فى الحب لنتحمله".

ثم خلع قبعته ومسحها بطرف كمه. هذا الشىء الكبير الأخرق سخن جبهته، فى هذه الأيام كان يعانى من اندفاع الدم فى رأسه فدورته الدموية لم تعد كما كانت.

كانت لا تزال تجلس وتحدق أمامها، وفجأة تمتمت:

- "من الغريب أننى مازلت على قيد الحياة".

استعاد إلى خاطره كلِمَات چو: "جامحة وتائهة".

قال:

- "ابنى قد رآكِ لدقيقة واحدة ذلك اليوم".

- "هل كان ابنك؟ لقد سمعت صوتا فى الصالون؛ اعتقدت للحظة أنه كان فيل".

شاهد الجد چوليون شفتيها ترتجفان، ثم وضعت يدها عليهما ورفعتها ثانية، وقالت بهدوء:

- "تلك الليلة ذهبت إلى الرصيف، ولحقت امرأة بى ثم حكت لى عن نفسها. عندما يعرف المرء أن الآخرين يعانون، فإنه يشعر بالخجل".

سأل: "إحدى هؤلاء ؟"

أومأت برأسها: بلى، وتسلل إحساس بالخوف إلى داخل الجد چوليون، خوف شخص لم يعرف أبدًا صراعًا مع الكآبة، وتمتم تقريبًا ضد إرادته:

- "سوف تخبريننى، أليس كذلك؟"

- "لا يهمنى ما إذا عشت أو مت. فعندما تكون بهذه الحالة، يرفض القدر أن يمنحك الموت. لقد اعتنت بى ثلاثة أيام لم تتركنى أبدًا. لم يكن لدى أى نقود. وهذا ما جعلنى أفعل أى شىء لكى أساعدهم، الآن".

لكن الجد چوليون كان يفكر فى أنه لم يكن لديها نقود! أى مصير يمكن أن يقارن بهذا؟ كلهم متورطون فيما حدث لها" قال:

"كنت أتمنى أن تأتى إلى، لِمَ لم تفعلى؟"

لكن "إيرين" لم تجب.

- "ألأننى كنت أحمل اسم فورسايت؟ أفترض ذلك؟ أم أنها چان هى التى أبقتكِ بعيدة؟ كيف تكسبين عيشك الآن؟"

تطلع إلى جسدها بشكلٍ لا إرادى.. لم تكن أبدًا بهذه النحافة!

- "أوه! أعيش بخمسين جنيها فى السنة، إنها بالكاد تكفينى".

الإجابة لم تطمئنه؛ لقد فقد الثقة. وهذا الرجل سومز! لكن إحساسه بالإنصاف كظم غيظه. لا، إنها تفضل الموت على أن تأخذ منه بنسًا واحدًا. رقيقة كما بدت، لا بد أن هناك قوة بداخلها فى مكان ما، قوة وفضيلة. لكن ما الذى يجعل الشاب بوسينى يهجرها ويتركها فى منتصف الطريق هكذا! قال:

- "حسنًا، يجب أن تأتى إلى عندما تحتاجين أى شىء، وإلا سأكون حزينًا جدا".

ارتدى قبعته ثم نهض وقال:

- "لنذهب ونحتسِ الشاى، لقد أخبرت هذا الرجل الكسول أن يأتى عند مسكنك بعد ساعة. سوف آخذ عربة أخرى حاليا؛ فأنا لا أستطيع أن أتمشى كما اعتدت فى الماضى".

لقد استمتع الجد چوليون بهذه النزهة فى حدائق كينسينجتون، بنبرة صوتها، بلمعة عينيها، وبالجمال البديع لهذا الجسد الساحر يتحرك بجانبه. لقد استمتع باحتسائهما الشاى فى مطعم روفيل فى هاى ستريت، وخرج من هناك بعلبة شيكولاتة كبيرة، واستمتع برحلة العودة إلى تشيلسى فى هذه العربة. مدخنًا السيجار، لقد وعدته إيرين بزيارة يوم الأحد المقبل، وأن تعزف له مرة ثانية، وبالفعل كان يفكر فى أن يقطف لها باقات الأزهار اليانعة لكى تأخذها معها إلى المدينة. كان يشعر بالسعادة عندما يجعلها سعيدة ولو قليلاً، إذا كانت السعادة، يمكن أن يتسبب فيها رجل عجوز مثله! كانت العربة بالفعل هناك عندما وصلا. ذهب معها الجد چوليون ليودعها، كانت غرفة الاستقبال الصغيرة المظلمة مشبعة برائحة كريهة كرائحة عشب الباتشولى(*)، وعلى أريكة بجوار الحائط، وهى قطعة الأثاث الوحيدة فى هذه الغرفة، رأى شخصًا يجلس. وقد سمع إيرين تقول برقة:

(*) الباتشولى عشب ذو رائحة نفاذة كريهة إلى حد ما.

- "أستأذنك دقيقة واحدة فقط".

في غرفة الاستقبال الصغيرة عندما أُغلِق الباب، سأل بحزن:

- "إحدى النساء المساكين اللواتي تقومين برعايتهن؟"

- "نعم، شكرًا لك، ألا يمكنني أن أفعل شيئًا من أجلها".

وقف يَحدق ويلاطف تلك الذقن التي أخافت قوتها الكثيرين في زمنها. فكرة أنها على اتصال فعلي بهذه المسكينة المنبوذة أحزنه وأخافه. ماذا يمكنها أن تفعل من أجلهن. لا شيء، فقط تلطخ نفسها وتجلب المشاكل لنفسها، وقال:

- "احترسي، يا عزيزتي، فالعالم يضع آثاره السيئة على كل شيء".

- "أعرف ذلك"

أخجلته ابتسامتها الهادئة، وتمتم:

- "حسنًا إذن.. يوم الأحد. إلى اللقاء".

قدمت خدها للأمام لكي يقبلها، قال ثانية:

- "إلى اللقاء، اعتني بنفسك".

وخرج دون أن يلتفت لهذا الشخص الجالس على ذلك المقعد الخشبي. سارت العربة التي تقله إلى البيت عن طريق هاميرسميث،

فربما حين يتوقف فى مكان ما يعرفه، يخبرهم أن يرسلوا إليها دستتين من خمر البرچاندى. لابد أنها تريد أن تحصل على النشوة والانتعاش فى بعض الأحيان! وفى ريتشموند بارك تذكر أنه ذهب لكى يشترى لنفسه بعض الأحذية، تفاجأ بأنه يمكن أن يكون قد أخذ فكرة رديئة جدًا.

-٣-

أرواح الماضى القليلة التى ملأت أيام رجل عجوز لم تدفع وجوهها عن وجهه إلا نادرًا فى السبعين ساعة التى سبقت يوم الأحد. روح المستقبل، سحر المجهول، ترفع شفتيها بدلاً من ذلك. لم يعد يشعر الجد چوليون بالتعب الآن، ولم يذهب لزيارة جذع الشجرة المقطوع، لأنها كانت ستأتى لتناول الغداء معه. كان هناك اتفاق نهائى بشأن هذا الغداء، ولكن هذا حرك علمًا من الشوك بداخله؛ إذ إن المرء لا يفوت أوقات الطعام إلا لأسباب خارجة عن السيطرة. لعب كثيرًا مع هولى على الأرض المغطاة بالعشب حيث يقذف لها الكرة وتضربها بالمضرب كما لو أنها تستعد لتلعب مع چولى فى الإجازة. كان الكلب بالثازار معهما، يرقد على الكرة بقدر استطاعته، التقفها حتى إن وجهه كان مثل القمر فى موسم الحصاد.

ولأن ما بقى من عمره لم يكن أطول مما مضى، فكل يوم كان أجمل وأروع مما قبله؛ لذلك لم يكن الجد چوليون يضيع أى لحظة منه.

فى ليلة الجمعة أخذ حبة الكبد، وكان جنبه يؤلمه بشده، وعلى الرغم من أنه لم يكن الجنب الذى فيه الكبد، فلم يكن هناك علاج لهذا الألم. فإذا أخبره أى شخص أنه وجد إثارة جديدة فى الحياة ولكنها ليست مناسبةً له، سوف يقابله بإحدى نظرات التحدى والثبات من عينيه الرماديتين والعميقتين اللتين بدتا كما لو كانتا تقولان: "أعرف شئونى الخاصة جيدًا".

فى صباح يوم الأحد، عندما ذهبت هولى مع مربيتها إلى الكنيسة، قام بزيارة مزرعة الفراولة، واصطحب معه الكلب بالثازار، ثم تفحص النباتات جيدًا ونجح فى إيجاد دستتين على الأقل من الفراولة الناضجة. ولم يكن الانحناء جيدًا بالنسبة له؛ فقد أصبح يشعر بدوار شديد واحمرار فى جبهته. وضع الجد چوليون الفراولة فى طبق على مائدة الطعام، ثم غسل يديه ووضع بعضا من ماء الكولونيا على جبهته.

وهناك، أمام المرآة، شعر أنه أصبح أكثر نحولاً. كم كان نحيلاً جدًا عندما كان شابًا، وكان يفضل ذلك؛ فهو لا يطيق البدناء، وحتى وجنتاه أيضًا كانتا فى غاية النحافة.

كانت ستصل فى قطار الساعة الثانية عشرة والنصف وتسير وتدخل من طريق أمام المزرعة دراج فى الجانب البعيد من البستان.

وذهب إلى حجرة چان لكى يطمئن على تجهيز ماء ساخنٍ بشكل كافٍ، ثم جلس بالخارج ليقابلها، بتمهل، لأن قلبه كان يخفق، وكانت رائحة الهواء حلوة وطيور القبرة تغرد. يوم رائع! منذ ست سنوات، أحضر سومز الشاب بوسينى معه لكى يختارا موقع البيت قبل البدء فى بنائه. وقد كان بوسينى هو الذى اختار مكان البيت واستقر عليه. كما أخبرته چان. فى هذه الأيام كان يفكر كثيرًا فى ذلك الشاب، كما لو كانت روحه تكثر التردد على مكان عمله الأخير، ليغتنم الفرصة ويراها. بوسينى الرجل الذى امتلك قلبها، والذى أسلمته نفسها بسعادة ونشوة! فى سنه لا يمكن للمرء، بالطبع، أن يتخيل مثل هذه الأشياء، لكن كان بداخله ألم غامض وغريب كما لو كان شبح الغيرة؛ وشعور بالشفقة على ذلك الحب الذى انتهى سريعًا. كل شىء انتهى خلال الشهور القليلة البائسة! حسنًا! نظر فى ساعته قبل أن يدخل البستان، سينتظر فقط ربع ساعة أو خمسًا وعشرين دقيقة! ثم سار فى زاوية الممر، ورآها بالفعل، حيث قابلها أول مرة تجلس على جذع الشجرة المقطوعة؛ وأدرك أنها بالتأكيد قد وصلت فى القطار الذى يسبق قطارها، حتى تستطيع أن تجلس وحيدة لمدة ساعتين على الأقل، ساعتين مفقودتين من رفقتها! ما الذكرى التى تجعل هذا الجذع عزيزًا عليها هكذا؟ أظهر وجهه ما كان يفكر فيه. لأنها قالت على الفور.

- "سامحنى يا عمى چوليون. هذا هو أول مكان عرفته فيه!".

– "حسناً، يمكنكِ أن تأتى إلى هنا فى أى وقت تحبين. تبــدين مرهقة بعض الشىء؛ أتعطين الكثير من الدروس؟"

أقلقه أنها مضطرة أن تعطى الكثير من الدروس، إذ كانت تعطــى الدروس لمجموعة من الفتيات قويات البنية وذوات الأصابع الكبيرة.

سألها الجد چوليون:

– "أين تذهبين لتعطين هذه الدروس؟"

– "هن فى الغالب عائلات يهودية. لحسن الحظ".

حدق الجد چوليون. اليهود، من وجهة نظــر آل فورســايت، غريبين ومريبين.

– "إنهم يحبون الموسيقى، وهم عطوفون جدًا."

– "من الأفضل أن يكونوا كذلك، كما يقول چورچ!".

أخذ ذراعها وكان جنبه يؤلمه قليلا، صعدا الربوة وقال:

– "هل رأيتِ أبدًا أى شىء مثل نباتات الحوذان؟ لقد أصــبحت هكذا فى ليلة".

بدت عيناها وكأنهما تطيران حول المرج، مثل النحــل حــين يحلق فوق الأزهار والعسل.

– "أردتك أن تريهم، لن نسمح لهم أن يأتوا بالبقر إلى هنا".

ثم تذكر أنها أتت لكى تتحدث عن بوسينى، فأشار إلى بــرج الساعة فوق الإسطبل.

- "أتوقع أنه لم يكن ليسمح لى أن أضعها هناك، لم يكن لديــه فكرة عن الوقت، على ما أذكر".

كان يضغط بذراعه على ذراعها، تحدثت عن الأزهــار بــدلاً عن ذلك، ولم يشعر أنها أتت بسبب حبيبها المتوفى.

قال بنوع من الانتصار:

- "إن أفضل زهرة يمكننــى أن أريــكِ إياهــا هــى حبيبتــى الصغيرة. سوف تعود من الكنيسة قريبًا، هناك شىء ما فيكِ يذكرنى قليلاً بها".

- "آه، وها هى!"

وصلت هولى، - تتبعها عن قرب مربيتها الفرنــسية، التــى سلبت حريتها منذ اثنين وعشرين عامًا فى حــصار ستراســبورج-، مندفعة تجاههما تحت شجرة البلوط وتوقفت على بعد اثنتــى عــشرة ياردة؛ لكى تداعب الكلب بالثازار وتظاهرت بأن هذا كل مــا كــان يدور فى عقلها؛ فقال الجد چوليون الذى يعرفها جيدًا:

- "حسنًا، يا حبيبتى، ها هى السيدة ذات الرداء الرمادى التــى وعدتكِ بها".

نهضت هولى ونظرت لأعلى، لقد راقب هاتين الاثنتين وعيناه تلمعان، كانت إيرين تبتسم، وهولى تستهل تساؤلاً رزينًا، وهى تبتسم ابتسامة خجولة. كان لديها حس جمالى، تلك الطفلة عرفت كل شىء! وقد أحس بارتياح برؤيتهما تقبلان بعضهما بعضًا.

- "مدام هيرون آنسة بيوس، حسنًا آنسة بيوس هل كانت العظة فى الكنيسة جيدة؛ فبالنسبة لشخص مثله لم يعد أمامه وقت كثير فى الحياة، ومع الذى كان بصدده جعله وعلى عكس المتوقع مشغول بالحياة الدنيا أكثر من الآخرة.

مدت الآنسة بيوس يدًا عنكبوتية مكسوة بقفاز أسود، فقد عملت عند أفضل العائلات وقد بدت عيناها الحزينتان ووجهها الأصفر يتساءلان:

- "هل أنتِ حسنة التربية".

فحينما كان هولى أو چولى يفعلان أى شىء غير سار لها – أشياء غير لائقة تمامًا – كانت تقول:

- "إن الصغار تايلور لا يفعلون هذا أبدًا؛ فهم أطفال مهذبون جدًا وحسنو التربية".

چولى كان يكره الصغار تايلور، وكانت هولى تتعجب بشدة كيف لها أن تعاملهما بهذه القسوة والحدة، شخص نحيل وغريب وضيق الخلق لطالما اعتقد الجد چوليون أنها هكذا هى الآنسة بيوس.

كان اللانشون وجبة شهية، المشروم الذى قطفه بنفسه من صوبة عيش الغراب، الفراولة، التى اختارها بعناية، وزجاجة من خمر ستاينبرج، ملأته بروحانية زكية الرائحة واقتناع أنه سوف يصاب ببعض الأكزيما غدا.

بعد الغداء جلسوا تحت شجرة البلوط يحتسون القهوة التركية. لم يزعجه عندما انسحبت الآنسة بيوس لكى تكتب خطاب يوم الأحد لأختها التى كان مستقبلها معرضًا للخطر فى الماضى حينما ابتلعت دبوسًا، وهذه الحادثة جعلتهم يوميًا يحذرون الأطفال لكى يتناولوا طعامهم ببطء ويمضغون ما يأكلون. عند ضفة النهر، على غطاء العربة، ضايقت هولى والكلب بالثازار كل منهما الآخر كما أحب كل منهما الآخر أيضًا، وفى الظل كان الجد چوليون يجلس واضعًا ساقًا على ساق يدخن سيجاره ويحدق فى إيرين التى كانت تجلس على الأرجوحة. ضوء، يتمايل بغموض. جسم رمادى تسقط عليه بقعة من ضوء الشمس من هنا وهناك، شفاه فُتِحت، عيون داكنة ورموش رقيقة مدلاة قليلاً. بدت راضية؛ بالتأكيد كان جيدا لها أن تأتى وتراه! أنانية العمر لم تحكم قبضتها عليه، لأنه يمكن أن يشعر بالسرور والسعادة فى سعادة الآخرين، مدركًا تمامًا ما أراد، مدركًا أن ما يريده بالرغم من كثرته، هو كل ما يشغل باله. قال:

- "الجو هادىء هنا، لا يجب أن تأتى إذا كنت تجدين ذلك مملاً. لكن يسعدنى كثيرًا أن أراكِ. حبيبتى الصغيرة هى

الوجه الوحيد الذى يعطينى السرور والسعادة، باستثناء وجهك".

عرف من ابتسامتها أنها لم تكن ترفض تقديرها والثناء عليها، وهذا طمأنه. قال:

- "ما سأقوله ليس هراء، لم أخبر امرأة أبدا أننى معجب بها إلا وأنا صادق فى ذلك. فى الحقيقة لا أعرف متى أخبرت امرأة أننى معجب بها، باستثناء زوجتى فى الماضى".

صمت ثم تفوه فجأة:

- "اعتادت أن تتوقع منى أن أقول لها أكثر مما أشعر به، وهكذا كنا".

بدا وجهها منزعجًا بشكل غريب، وخاف أن يكون قد قال شيئًا ما قد آلمها، أسرع قائلاً:

- "عندما تتزوج حبيبتى الصغيرة، أتمنى أن تجد شخصا ما يعرف ما تشعر به النساء. لن أكون هنا لأرى ذلك يتحقق، لكن هناك الكثير من الأشياء الجيدة فى الزواج؛ لا أريدها أن تفكر فى عكس ذلك".

وأدرك أنه فعل الأسوأ، فأضاف:

- "ذلك الكلب سوف يحتك بكِ".

ساد الصمت. فيما كانت تفكر، هذه المخلوقة الجميلة التى قسدت حياتها؛ من عَمِل بالحب، وخلق من أجل الحب، يوما ما عندما يرحل، ربما، سوف تجد رفيقًا آخر ليس مشوش الفكر مثل ذلك الشاب الذى هجرها. آه! لكن زوجها؟ سألها:

- "ألم يضايقكِ سومز؟"

هزت رأسها وعبس وجهها فجأة. مع كل رقتها وعذوبتها كان هناك شيء ما لا يقبل التصالح فيها. وبلمحة عن الطبيعة العنيدة للأشياء الجنسية البغيضة تاهت فى عقل ينتمى إلى بداية حضارة فيكتورية، شيء قديم جدًا حتى إنه أقدم من عمره الطويل هذا لم يفكر أبدًا فى مثل هذه الأشياء البدائية. قال:

- "هذا مريح. يمكنكِ أن ترى المزرعة اليوم. هل لنا أن نأخذ جولة معًا؟"

رافقها خلال حديقة الأزهار والفاكهة، المستندة على أسوارها الخارجية العالية أشجار الخوخ باتجاه الشمس، وخلال الإسطبل، وتكعيبة العنب، ومعمل عيش الغراب، ومصاطب نبات الهليون، وأشجار الورد، والبيت الصيفى، كما اصطحبها أيضًا فى حديقة المطبخ لكى ترى البازلاء الصغيرة التى أحبت هولى أن تفرطها وتأكل حباتها بين راحتيها الصغيرتين. لقد ساعدها على مشاهدة أشياء عديدة جلبت لها السرور، بينما كانت هولى ترقص مع الكلب بالثازار، ويأتون إليهما فى فصل من فواصل لفت انتباههم. لقد كانت

فترة الظهيرة هذه إحدى أسعد الفترات التى قضاها فى حياته؛ لكنهـا أرهقته، كان سعيدًا جدًا بالجلوس فى حجرة الموسيقى سامحًا لها بأن تعد له فنجان شاى.

دخل ولد أشقر – صديق صغير لـهولى– لديه شعر قـصير مثل كل الأولاد. لعب الاثنان هناك عن بعد، تحت السلم، وفى الطابق العلوى فى المعرض. طلب چوليون الجد من إيرين أن تعزف شـيئًا لـ شوبان. عزفت مقطوعات تقوم بتدريسها؛ مازلوكا(*) وڤالس(**). حتى إن الطفلين تسللا مقتربين، ووقفا عند البيانو وانحنى رأساهما الأسود والأشقر للأمام ليستمعا بينما هو يشاهـد:

– "هيا فلترقصا. أنتما الاثنان!".

لم يكونا بارعين، فبدآ الرقص، بخجل، وببداية خاطئة، فأخـذا يقفزان ويدوران، سار للأمام على ألحان رقصة الفالس هذه راقبهمـا كما راقب وجه العازفة التى التفتت مبتسمة إلى هذين الراقصين وهى تفكر:

– "أحلى صورة رأيتها منذ زمن طويل".

سمعوا صوتًا يقول بالفرنسية:

(*) مازلوكا: رقصة بولندية شعبية تتميز بإيقاع بهيج، كتب منها شوبان ما يقـرب مـن (٧٠) مقطوعة.

(**) ڤالس: رقصة وموسيقى على إيقاع، بدأت فى النمسا وألمانيا.

- "هولى، ماذا تفعلين؟ الرقص ربما غدًا".

لكن الطفلين اقتربا من الجد چوليون، يعرفان أنه سوف يحميهما، وهما يحدقان فى هذا الوجه العبوس جدًا.

- "اليوم رائع، وما يفعلانه رائع، يا آنسة، أنا من طلب منهما ذلك، اذهبى وخذى فنجان الشاى الخاص بكِ".

وعندما ذهبا، يتبعهما الكلب بالثازار الذى تناول طعامه، نظر إلى إيرين وعيناه تلمعان وقال:

- "حسنا، ها نحن إذن! ألم يكونا رائعين؟ هل لديكِ تلاميذ صغار؟"

- "نعم، ثلاثة، اثنان منهم كانا عزيزين جدًا"

- "جميلين؟"

- "بديعين!"

تنهد الجد چوليون، فقد كان لديه حب شديد للشباب ذاته. قال:

- "حبيبتى الصغيرة شغوفة بالموسيقى، سوف تكون موسيقارة يومًا ما، سوف تخبريننى برأيكِ فى عزفها؟"

- "بالطبع سوف أدلى برأيى".

- "ألن تحبى أن ..."

لكنه خنق الكلمات:

- "... تعطيها دروسًا فى الموسيقى".

ففكرة أن تعطى دورسًا كانت كريهة بالنسبة له؛ لكنه كان يقصد أن يراها بانتظام.

تركت البيانو وأتت إلى حيث يجلس.

- "أود كثيرًا، لكن .. چان، عندما يعودون؟"

عبس وجه الجد چوليون:

- "ليس حتى منتصف الشهر المقبل. ماذا يعنى ذلك؟"

- " أنت قلت إن چان سامحتنى؛ لكنها لن تستطيع أن تنسى أبدًا، يا عمى چوليون".

-" تنسى! يجب أن تنسى، لو أنه أرادها أن تنسى".

لكن كما لو كانت تجيب، هزت إيرين رأسها.

- "أنت تعرف أنها لا تستطيع؛ فالمرء لا ينسى، سوف يدوم هذا الماضى البائس".

وقال بنوع من الصدق الشديد:

- "حسنًا، سوف نرى".

تحدث إليها ساعة أو أكثر، عن الأطفال، ومئات الأشياء الأخرى، حتى وصلت العربة لتأخذها إلى بيتها، وعندما رحلت عاد إلى مقعده، وجلس يستعيد فى خاطره ذلك اليوم.

تلك الليلة بعد العشاء ذهب إلى غرفة مكتبه والتقط ورقة، ثم جلس للحظات دون أن يكتب شيئًا، ثم نهض ووقف أمام تلك الرائعة الفنية قوارب الصيد الهولندية فى ساعة الغروب. لم يكن يفكر فى تلك اللوحة لكن فى حياته. كان سيترك لها شيئًا فى وصيته، لا شىء يمكن أن يثير ذكرياته وأفكاره العميقة. كان سيترك لها جزءًا من ثروته، من أمنياته، صنائعه، كل ما صنع ثروته. سوف يترك لها أيضًا جزءًا من كل ما افتقده فى الحياة، بعقله وسعيه وراء الثروة. ما الذى فقده؟ أجاب بصراحة: قوارب الصيد الهولندية! عبر إلى النافذة الزجاجية المطلة على الحديقة وفتح الستائر. دخل الهواء من الشباك وإحدى أوراق شجرة البلوط فى آخر العام؛ التى أفلتت من مكنسة الحديقة. كانت تجر نفسها على السور الحجرى فى الغسق.

كان الجو هادئًا فى الخارج، ويمكنه أن يشم رائحة المليوتروب المروى منذ فترة قريبة، ثم مر به خفاش يحمل طائرًا يطلق صيحته الأخيرة، وعلى اليمين فوق شجرة البلوط لمعت النجمة الأولى، فاوست فى الأوبرا قايض روحه مقابل سنوات جديدة من الشباب، فكرة كئيبة! مثل هذه الصفقة مستحيلة، كان ذلك مأساويا حقًا! لن يكرس نفسه من جديد من أجل الحب أو الحياة أو أى شىء. ليس

هناك شيء لتفعله سوى الاستمتاع بالجمال من بعدى بينما يمكنك أن تترك لها شيئا فى وصيتك. لكن كم يترك لها؟ وكما لو كان لا يستطيع أن يقوم بهذه الحسبة وهو يتطلع إلى جو الريف الهادئ اللطيف، فدار عائدًا باتجاه رف المدفأة حيث توجد تماثيله البرونزية المفضلة لديه؛ واحدًا لكليوباترا والأفعى على صدرها، وآخر لسقراط وكلبة صيد مع جروها، وواحد آخر لرجل قوىّ البنية يكبح جماح مجموعة من الخيول، لقد بقوا هكذا طويلاً، لقد بقوا هكذا لأكثر من ألف عام قبل أن يأتى هو وأفراد أسرته. وسرى ألم مفاجئ إلى قلبه.

- "كم أترك لها؟ حسنًا! يكفى أن أحميها من أن تشيب قبل أوانها، وأن أجعل وجهها ناضرًا خاليًا من التجاعيد بقدر الإمكان، وأبعد اللون الرمادى عن شعرها الذهبى اللامع. ربما يعيش خمس سنوات أخرى، وحينها سوف تكون فوق الثلاثين".

كم؟ ليس بينهما صلة دم! فمع إخلاصه الدائم لاتجاه حياته لمدة أربعين عامًا أو أكثر، منذ أن تزوج وأسس ذلك الشيء الغامض، العائلة، أتت هذه الفكرة المقلقة ليست من دمه، ليس لها الحق فى أى شيء! بدت الفكرة وكأنها تبذير وتهور، نزوة رجل عجوز ومسن، واحدة من تلك الأشياء التى تحدث فى الخرف، مستقبله الحقيقى كان منوطًا بهؤلاء الذين يجرى دمه فى عروقهم، وسوف يعيش بداخلهم عندما يرحل، تحول عن التماثيل ووقف ينظر إلى الفوتيه الجلد القديم الذى جلس عليه ودخن مئات السجائر، وفجأة بدا له كما لو كان

يراها تجلس هناك وترتدى فستانها الرمادى، رائحتها عطرة، رقيقة، عيناها داكنتان، رشيقة، تنظر إليه، لِمَاذا! لا تهتم بشيء من أجله، حسنًا، كل ما اهتمت به هو حبيبها المفقود لكنها كانت هناك، سواءً أكانت ستعطيه السعادة والسرور بجمالها ورشاقتها أم لا، المرء لم يكن له الحق فى أن يُبتلى بصحبة رجل عجوز، ليس له الحق فى أن يسألها أن تأتى وتعزف له وتسمح له أن ينظر إليها دون مقابل! يجب أن ندفع لنحصل على السعادة فى هذا العالم. كم الثمن؟ رغم كل هذا، كان لديه أمل كبير. ولده وأحفاده الثلاثة لن يفتقدوا هذا المبلغ الضئيل. لقد صنع ثروته بنفسه، تقريبًا كل بنس، يمكنه أن يتركها حيث أراد، ويسمح لنفسه أن يحصل على هذا القدر من السعادة. وعاد إلى المكتب، وفكر:

– "حسنا، سوف أجعلهم يفكرون ماذا يريدون، سوف أفعل!".

وجلس، كم؟ عشرة آلاف، عشرون ألفًا، كم؟ لو أنه فقط يستطيع بماله أن يشترى عامًا واحدًا، شهرًا واحدًا من الشباب. كتب بسرعة وقد روعته الفكرة:

– "العزيز هيرينج:

أريد أن أضيف فى وصيتى الآتى. "أنا أترك لـ إيرين فورسايت، إيرين هيرون قبل الزواج، وهذا هو الاسم الذى تعيش

به الآن، خمسة عشر ألـف جنيـه مـن الميراث فى وصيتى".

المخلص لك چوليون فورسايت.

عندما ختم الخطاب ووضع الطابع على الظرف، عـاد إلـى النافذة واستنشق الهواء بشدة، وشعر كما لو كانت الدنيا مظلمة، لكـن كان هناك العديد من النجوم اللامعة والمتألقة فى السماء.

-٤-

استيقظ الجد چوليون فى الساعة الثانية والنصف، وقد علمتـه الخبرة الطويلة أن الاستيقاظ فى هذه الساعة ينم عن القلـق ويجلـب معه الأفكار الخرقاء المرعبة، وقد علمتـه الخبـرة أيـضا أن مـن الأفضل بالنسبة للإنسان أن يستيقظ فى ميعاد مناسب وهـو الـساعة الثامنة بعد أن يكون قد أخذ قسطًا كافيًا من الراحة والنوم. فـى هـذا الصباح الخاص باغتته فكرة أنه ربما يصبح مريضًا فى سـنه هـذا، فإن هذا سيكون غير محتمل بالنسبة له كرجل عجـوز طـاعن فـى السن، فربما لن يتمكن من رؤيتها من هنا، لم تكن هـذه إلا خطـوة لإدراك أنه سوف يشعر بالوحدة، وأيضًا عندما يعود ابنه وچان مـن إسبانيا، كيف يمكنه أن يبرر صحبته للسيدة التى سرقت... لن يـزين

الكلمات، حبيب چان؟ هذا الحبيب متوفى الآن؛ لكن چان كانت قوية وصلبة، تألمت بشدة نعم، ولكنها قوية وصلبة كالخشب، وحقيقةً هى ليست بالشخص الذى ينسى! سوف يعودون فى منتصف الشهر المقبل. أمامه خمسة أسابيع فقط لكى يستمتع بهذا الشىء الجديد الذى ملأ الفراغ الذى دخل إلى ما تبقى من حياته، أوضح له الليل بشكل غير منطقى طبيعة مشاعره، الإعجاب بالجمال والحاجة الملحة إلى ما يسعده ويبهج عينيه غير معقول، فى سنه! وبعد... ما السبب الذى يدعوه لأن يسأل چان أن تتحمل هذه الذكرى المؤلمة؟ وكيف يمنع ابنه وزوجة ابنه من الاعتقاد بأنه يتصرف بشكل غريب؟ فهو لا يستطيع أن يذهب إلى لندن كثيرًا، وهذا ما أقلقه. فسوف تحرمه حالته الصحية المتأخرة من هذا أيضًا. استلقى على السرير وعيناه مفتوحتان، تنظران إلى ذلك المنظر الطبيعى، مناديًا نفسه بالجد الأحمق، بينما قلبه ينبض بصوت عالٍ، ثم بدا له أنه توقف عن النبض كليًا. لقد شاهد الفجر تتسلل أشعته بين شقوق النافذة، سمع الطيور تزقزق وتغرد، والديوك تصيح، قبل أن يسقط فى النوم مرة ثانية، ثم استيقظ متعبًا لكن متعقلاً.

بقت خمسة أسابيع على المتاعب، بالنسبة لسنه فهى كالدهر. لكن القلق فى ذلك الصباح الباكر ترك آثاره عليه. وتحركت بداخله قليلاً إرادة ذلك الشخص الذى كان دائما لديه أسلوبه الخاص فى الحياة، سوف

يراها متى أراد! لمَ لا يذهب إلى المدينة ويقابل محاميه ويؤكد وصـــيته بدلاً من الكتابة إليه، ربما تحب أن تذهب إلى الأوبـــرا! لكنـــه ســـيذهب بالقطار، لأنه لا يريد أن يصطحب ذلك الرجل بيكون الذي يضحك عليه من وراء ظهره. فالخدم مجرد حمقي، وللأسف هم علـــي علـــم بـــذلك الماضى الذى يخص إيرين وذلك الـــشاب بوســّـيني وربمـــا لا، الخـــدم يعرفون كل شيء، ثم يخمنون الباقى، كتب لها هذا الصباح:

"عزيزتى إيرين، سوف أكون فى المدينة
غدا، لو أنك ترغبين فى الـــذهاب إلـــي
الأوبرا، تعالى وتناولي العشاء معى

لكن أين؟ لقد مرت عقود منذ أن تناول العشاء فى أى مكـــان فى لندن سواء فى ناد أو فى بيت، آه! ذلك المكان الجديد بالقرب من حديقة كوفنت

"فى صباح الغد ســـوف أذهـــب إلـــى فنـــدق
بيدمونت وأقابلكِ هناك فى الساعة السابعة"

صديقـــك المخلـــص
چوليون فورسايت

سوف تفهم أن كل ما أراده هو أن يجعلها تشعر بالسعادة ولـــو قليلاً؛ لأن فكرة أن تخمن أن لديه رغبة شديدة فى رؤيتهـــا؛ كانـــت

كريهة بالنسبة له؛ لقد كان شيئًا غريبا أن يخرج رجل عجوز جدًا عن طريقه ليرى الجمال، خاصة فى امرأة.

فى اليوم التالى كانت الرحلة قصيرة ومع ذلك فإنها –وزيارته إلى محاميه– قد أرهقتاه. فقد كان الجو حارًا أيضًا، وبعد أن ارتدى ملابسه استعدادا للعشاء استلقى على الفوتيه لكى يستريح قليلا؛ لابد وأنه كان لديه نوع من الغثيان، ولأنه شعر بشىء غريب يحدث له وببعض الصعوبة فى النهوض، دق الجرس. لِمَ هذا؟ لقد تعدت السابعة! وهو هنا وربما تكون هى فى انتظاره هناك. وفجأة باغته الدوار ثانية، لذلك كان مضطرًا لأن يستلقى على الفوتيه مرة أخرى. سمع صوت الخادمة تقول:

" هل دققت الجرس، يا سيدى؟"

– "نعم، تعالى إلى هنا"

لم يتمكن من رؤيتها بوضوح لوجود سحابة أمام عينيه.

" لست بخير، أريد بعضا من ملح النشادر لأستعيد الحيوية".

– "حاضر، يا سيدى".

كان صوتها مرتجفا. لقد بذل الجد چوليون مجهودا.

"لا تذهبى، خذى هذه الرسالة إلى ابنة أخى، سيدة تنتظر فى الصالون، سيدة ترتدى رداءً رماديًا. قولى لها إن السيد

فورسايت ليس بخير ربما بسبب الحر. إنه آسف جدًا؛ ولو أنه لم ينزل مباشرة، فلا تنتظرى حتى العشاء".

عندما رحلت، فكر:

"لِمَاذا قلت السيدة ذات الرداء الرمادى، ربما كانت ترتدى شيئا آخر!"

لكنه لم يكن مدركًا أن إيرين أتت لتكون بجانبه. أمسك ملح النشادر وقربه إلى أنفه، لن يشعر بالدوار مجددًا، ثم وضع الوسادة وراء رأسه.

سمعها تقول بقلق:

- "عزيزى عمى "چوليون"، ما هذا؟"

وكان واعيا قليلا لضغط شفاهها الرقيقة على يده؛ ثم استنشق بقوة بعضا من ملح النشادر، وفجأة أحس بالقوة وعطس. قال:

-"ها! لا شىء. كيف وصلت إلى هنا؟ انزلى وتناولى العشاء، ستجدين التذاكر على الطاولة، سوف أكون بخير خلال دقيقة"

شعر ببرودة يدها على جبهته، اشتم رائحة البنفسج وجلس مشتتًا بين نوع من السعادة والعزيمة لكى يكون بخير.

وحالما وقف على قدميه اهتز جسده وقال:

"لِماَذا ترتدين اللون الرمادى! ساعديني لكي أنهض، ما الـذى يجعلنى أبدو هكذا؟!"

وتحرك ببطء ناحية المرآة. يا له من رجل عجوز! وتمتم صوتها خلفه :

- "يجب ألا تنزل يا عمى "چوليون"؛ يجب أن تستريح"

- "أوتار الكمان! وكوب من الشمبانيا سوف يجعلانى أشعر بالتحسن. لا يمكن أن تفوتنى فرصة الذهاب إلى الأوبرا"

لكن رحلة النزول إلى الممر كانت شاقة. ما هذه السجاجيد التى يفرشونها فى هذه الأماكن، إنها كثيفة جدا حتى إنكِ تتحركين فوقها بصعوبة! فى المصعد لاحظ كيف بدت قلقة، وقال بتألق باهت:

- "إننى مضيف جميل".

عندما توقف المصعد تمسك بشدة فى المقعد لكى يحمى نفسه من الانزلاق تحته؛ لكن بعد أن احتسى الشوربة وكوبا من الشمبانيا شعر بتحسن، وبدأ يستمتع بضعفه الذى أظهر اهتمامًا بالغًا فى سلوكها تجاهه، قال فجأة:

"لقد أحببتك كابنة لى".

شاهد ابتسامة فى عينيها، وتابع قائلاً:

- "يجب ألا تغرقى فى الماضى وتضيعى حياتك؛ سوف تشعرين بذلك عندما تصلين إلى سنى. فستانك رائع، أحب ذلك الطراز".

- "لقد صنعته بنفسى".

- "آه! المرأة التى يمكن أن تصنع لنفسها فستانا رائعا لا يمكن أن تفقد رغبتها فى الحياة".

قال:

- " اغتنمى الفرصة عندما تسنح، واشربى هذا. أريد أن أرى بعض الحمرة فى وجنتيكِ. يجب ألا نضيع الحياة؛ فهذا لا يجدى. هناك عرض جديد لِمَرجريتا الليلة؛ لنتمنَّ ألا تكون بدينة. وميفيستو(*) لا يمكننى تخيل أى شىء أفظع من رجل بدين يلعب دور الشيطان"

لكنهما لم يذهبا إلى الأوبرا بعد كل ذلك، لأن الدوار أصابه ثانية فى أثناء نهوضه بعد العشاء، وأصرت إيرين على أن يبقى هادئا ويذهب إلى السرير مبكرا. وعندما فارقها عند باب الفندق، ودفع لسائق التاكسى الذى سيوصلها إلى تشيلسى، جلس مرة ثانية للحظة يستمتع بتذكر كلِمَاتها:

(*) ميفيستو بوليس: أحد الشياطين السبعة الرئيسيين فى أساطير القرون الوسطى.

"أنت عزيز على يا عمى "چوليون"!"

لِمَ لا! من ذا الذى لا يرغب! فقد كان راغبًا فى البقـــاء ليـــوم آخر ويأخذها إلى حديقة الحيوان، لكن بقاءه ليومين معها سوف يقتلها من الملل. يجب عليه أن ينتظر حتى الأحد المقبل؛ لقد وعدته بأنهـــا ستأتى. يجب أن يرتبا لهذه الدروس التى ستعطيها لـــهولى، ولو لمدة شهر فقط، لكن هناك شيئا ما. الآنسة بيوس لن يعجبها ذلـــك، لكنهـــا سوف ترضخ لِمَا يريده هو. وضع قبعته القديمة على صدره وطلـــب المصعد.

صباح اليوم التالى، استقل عربة إلى ووترلو، وهو يحاول كبح رغبة شديدة فى أن يقول للسائق "خذنى إلى تشيلسى"، لكن إحـــساسه بالوئام كان قويا جدا. بجانب أنه مازال يشعر بتوعكه، ولم يرغب فى أن يخاطر مرة ثانية مثلما فعل فى تلك الليلة الأخيـــرة، بعيـــدا عـــن البيت. كانت هولى تنتظره، وتنتظر، أيضا ما أحضره لها فى حقيبته، ولم يكن حبها له حبًا من أجل شيء، بل كانت هولى حنونـــة جـــدا. شعر الرجل الجد باستخفاف مرير، وتساءل ما إذا كان هذا النوع من الحب هو الذى جعل إيرين تتحمله أم لا. لا، إنها ليـــست مـــن هـــذا النوع؛ فهى لديها شعور بالقناعة ولا وجود لغريزة التملـــك لـــديها، بجانب أنه لم يتفوه بكلمة واحدة عن الوصية، لم يكن ليفعل حتى يأتى اليوم المناسب.

فى محطة فيكتوريا حيث قابلته هولى كانت تقيد الكلب بالثازار. فيما بقى من هذا اليوم الدافئ الرائع ومعظم اليوم التالى، كان يشعر بالرضا والسلام مع النفس، مسترخيا فى الظل، بينما كانت أشعة الشمس تنشر الذهب فوق المروج الخضراء والأزهار. لكن فى مساء يوم الثلاثاء وهو يتناول عشاءه وحيدًا، بدأ يحسب الساعات؛ تبقت خمس وستون ساعة على نزوله ليقابلها ثانية فى البستان ويتمشى خلال الحقول بجانبها. لقد عزم على أن يستشير طبيبًا ليعرف ما سبب الإغماءة والدوار الذى ينتابه، لكن الرجل يجب أن يكون هادئًا ولا ينفعل ويجب ألا يرهق نفسه؛ ولم يرضَ أن يقيد أحد حركته، لم يرغب أن يخبره أحد بضعفه، لا يمكنه أن يتحمل سماع ذلك، وقد دخل حياته ذلك الشىء الجميل. وبحرص تجنب أن يذكر أى شىء عن هذا الموضوع فى خطاباته لابنه. لأن هذا سوف يعيدهم على وجه السرعة! لقد آثر الصمت لأنه كان يفكر فى سعادتهم، ويفكر فى نفسه، وهو لم يتوقف أبدًا عن الاهتمام بهم.

فى تلك الليلة فى غرفة مكتبه، انتهى من تدخين سيجاره، وكان يغالب النعاس، عندما سمع حفيف عباءة نوم، وكان مدركا لرائحة البنفسج. فتح عينيه ليراها ترتدى رداءً رماديا وهى واقفة عند المدفأة مطلقة ذراعيها، والشىء الغريب أنه على الرغم من أن ذراعيها ظهرا لا يمسكان شيئًا، فقد كانا متقوسين كما لو كانا يطوقان رقبة شخص ما، ورقبتها تنحنى للوراء، شفتاها كانتا مفتوحتين،

وعيناها مغلقتين ثم اختفت فى الحال ولم يكن هناك سوى رف المدفأة والتماثيل البرونزية، ولكنهما لم يكونا هناك عندما رآها، فقط كانت هناك المدفأة، وكان الحائط مهزوزًا. كان منزعجا عندما استفاق، وهو يفكر:

- "يجب أن أتناول الدواء، لا أشعر بتحسن!"

كان قلبه ينبض بسرعة أيضًا، وكان لديه شعور بالأزمة فى صدره. ذهب إلى النافذة، وفتحها ليستنشق بعض الهواء المنعش.

كان هناك كلب ينبح بعيدا خلف البستان، إنه أحد الكلاب فى مزرعة "چاج" بلا شك. استغرق فى التفكير:

- "ليلة جميلة، لكن مظلمة" تمتم :

- "غلبنى النعاس، هذا كل ما فى الأمر! وأقسم أن عينىّ كانتا مفتوحتين!"

بدأ يجيبه صوت مثل تنهيدة. قال بحدة:

- "ما هذا؟ من هناك؟".

وضع يده على جنبه لكى يهدئ نبض قلبه، ودخل الشرفة الواسعة. انطلق شىء ما رقيق مهرولا فى الظلام. فكر: شو! لقد كانت القطة الرمادية الكبيرة. كان الشاب بوسينى مثل قطة كبيرة! وسار إلى حافة الشرفة، ونظر لأسفل فى الظلام؛ ربما كانت روح

بوسينى هى هذه القطة، ربما، هل يمكن أن تكون روحه مازالت هنا؛ مشى إلى حافة الشرفة ونظر لأسفل فى الظلام فلم يرَ سوى بقايا زهرة المرجريتا، وها قد ظهر القمر الذى شهد الجميع، صغارًا وكبارًا، أحياءً وأمواتًا، ولم يلقِ بالاً لأحد، قمره ربما يغيب قريبًا، فى مقابل يوم واحد فقط من الشباب كان ليعطى كل ما يملك، ثم التفت ناحية المنزل يمكنه فقط أن يرى النوافذ الخاصة بعزف الأطفال هناك. حبيبته الصغيرة ربما تكون نائمة. فكر:

- "أتمنى ألا يوقظها الكلب! ما هذا الذى يجعلنا نحب ويجعلنا نموت؟! يجب أن أذهب إلى السرير".

وعاد ثانية عبر أحجار الشرفة الواسعة، التى أصبحت رمادية فى ضوء القمر.

- ٥ -

كيف يعيش رجل عجوز أيامه إذا لم يستعد إلى خاطره ذكريات الماضى؟ فى كل الأحوال، لا يوجد دفء مقلق، فقط شمس شاحبة فى الشتاء. يمكنه أن يقاوم الدقات اللطيفة للذكريات. والحاضر الذى يرتاب فيه، والمستقبل الذى ينأى عنه. من تحت الظل الكثيف يمكنه أن يراقب ضوء الشمس يزحف إلى قدميه. لو كانت شمس الصيف، لا تخرج فيها، حسبها شمس صيف حار. هكذا ربما سوف

يتدهور ببطء ودون أن يدرك. بينما تحكم الطبيعة المتعجلة قبضتها على رقبته وهو يشهق شهقة الموت فى صباحٍ مبكر قبل أن يستيقظ العالم ليغلق عليه قبره، نعم لو أنه أستطاع أن يحفظ مبادئه بشكل مكتمل فإن أيًا من عائلة فورسايت يستطيع أن يحيا بعد الموت.

كان الجد چوليون على وعى بكل هذا، وكان بداخله مبادئ وأفكار تجاوزت نظرية عائلة فورسايت فى الحياة. حيث إن أى فرد من آل فورسايت لن يحب الجمال أكثر من العقل؛ ولن يفضل رغباته على صحته. وهذه الأيام يتسلل شيء ما إلى نفسه وينطلق مع كل نبضه فى قلبه. وقد عرف ذلك بحصافته، لكن عرف أيضا أنه لا يمكنه أن يوقف ذلك النبض، ولن يوقفه إذا استطاع. ولو أنك أخبرته أنه كان يعيش على رأس ماله، سوف يحدق فيك محتقرًا؛ لا، أبدًا؛ الرجل لا يعتمد على رأس ماله؛ هذا لم يحدث! أوهام الماضى حقيقية أكثر من واقع الحاضر. السعادة شيء صحى؛ وبالنسبة له فإن الاعتماد على رأس المال هو مثل قربان يقدم للآلهة، لذا فإنه لا يمكن أن ينطبق هذا الأمر عليه، من الجيد أن تشاهد الجمال؛ أن تدب فيك حيوية الشباب، وأن تشعر بالشباب مع من هم أصغر سنًا. نظم وقته، بشكل منهجى، كما كانت طريقة حياته. فى أيام الثلاثاء يذهب إلى المدينة بالقطار، تأتيه إيرين وتتناول العشاء معه ويذهبان إلى الأوبرا. فى أيام الخميس يذهب إلى المدينة بالعربة، ثم يقابلها فى حدائق كينسينتون، ثم يأخذ العربة بعد أن يتركها، ويعود ثانية إلى

البيت لتناول العشاء، يلقى الوصفات الطبية جانبا عندما يــذهب إلــى لندن فى هذين اليومين.

فى أيام الأحد والسبت تأتى لتعطى هولى دروس الموســيقى. كلما حصل على سعادة أكثر برفقتها، أصبح من الصعب إرضـــاؤه. فى الواقع هو عمٌ حنون وطيب، وربما كانت تصرفاته هذه ومشاعره بسبب سنه، فكانت إذا تأخرت عليه شعر بـــالقلق الــشديد، وإذا لـــم تستطع المجىء، وهذا ما قد حدث مرتين، يظهر الحزن فى عينيه هو والكلب، ولا يستطيع النوم.

انقضى شهر، شهر من الصيف فى المروج، وفى قلبه حرارة الصيف وما يصيبه بسببها من إرهاق. من يصدق أنه منـــذ أســـابيع قليلة كان ينتظر عودة ابنه وحفيدته چان بشىء من الترقـــب؟! كـــان هناك مثل هذا الإحساس اللذيذ بالحرية، مثل هـــذا الاســـتقلال الـــذى يستمتع به الرجل قبل أن يؤسس أسرة، هذه الأســـابيع مـــن الطقـــس الجميل، وهذه الصحبة مع الشخص الذى لم يطلب شيئًا فى المقابـــل وبقى دائما مجهولاً إلى حد ما، محتفظًا بروعـــة الغمـــوض. كـــان متعطشًا لهذا كتعطشه للخمر، هو الذى كان يشرب الماء لفترة طويلة حتى إنه نسى نشوة الخمر المخدر تسرى فى دمه إلى مخـــه. كانـــت ألوان الأزهار أكثر تألقًا، العطور والموسيقى وضوء الشمس أصبحت قيمتهم حية، لم يعودوا مجرد أشياء تذكره بمتعة الماضى. كان هناك شىء ما جديد ليعيش من أجله ويدفعه باستمرار للانتظار. لقد عـــاش

هنا فى الحاضر وليس فى استعادة الأحداث الماضـية والـذكريات. الاختلاف كبير جدًا بالنسبة لشخص عجوز جدًا مثله. لقد أكل قلـيلاً دون أن يدرى ماذا أكل؛ أصبح يزداد نحولاً في كل يوم عـن اليـوم الذى قبله؛ حتى صار يبدو أكثر ضعفًا ووهنًا، ونتيجة لهذا تـضخمت جبهته مع ظهور تجويفات فى وجهه، الأمر الذى أعطاه وقارًا وهيبة أكثر من أى وقت آخر. كان على يقين من وجـوب ذهابـه ليـراه الطبيب؛ لكن إحساسه بالحرية كان جميلاً. لم يكن ليغـامر بحريتـه حتى مع أنفاسه المتقطعة والألم فى جنبه، عاد إلى الاهتمام بالصحف والمجلات الزراعية والخضراوات اللذيذة جدًا والتى كان يهتم بها قبل أن تدخل إيرين حياته.. لا، لقد تجاوز المسموح به من السجائر؛ فقـد كان مسموحًا له بسيجارتين والآن صار يدخن ثلاثة وأحيانًا أربعـة، يفعل الرجل ذلك عندما يكون مملوءًا بالحيوية، فكر دائمًا أن يقلع عن التدخين والقهوة والذهاب كثيرًا إلى المدينة لكنه لم يفعل، لم يكن لأحد سلطة عليه لكى يلاحظه؛ وكان هذا نعمة بلا ثمن.

ربما تعجب الخدم لكنهم كانوا بطبيعة الحال يصمتون، الآنـسة بيوس تهتم أيضًا بشئونها الخاصة وهى أيضًا حسنة التربية بحيـث لا تتدخل فى شئون الآخرين، ولم تكن هولى تعى ما حل بـه وبمظهـره وهو الذى كان كل شىء فى حياتها. أما إيرين فقـد كانـت الـشخص الوحيد الذى يرجوه أن يهتم بطعامه، وأن يرتاح فى الوقت الحار مـن النهار، وأن يأخذ الدواء، لكنها لم تخبره أنها كانت السبب فى ضـعفه

ونحوله لأن المرء لا يمكنه أن يرى الدمار الذى يتسبب فيه، رجل فى الخامسة والثمانين من العمر ليس له عواطف لكن الجمال ينتج العاطفة حتى يغلق الموت الأعين التى تشتاق للنظر إليها.

فى اليوم الأول من الأسبوع الثانى فى يوليو تسلم خطابًا من ابنه فى باريس يقول إنه من المحتمل عودتهم جميعًا يوم الجمعة، لقد كان هذا مؤكدًا أكثر من القدر، لكن بقصر النظر المثير للشفقة لدى رجل عجوز، ربما يستمرون هكذا حتى آخر يوم فى عمره. لم يكف أبدًا عن الاعتقاد فى هذا، ولكنه أيقن هذا الآن أن أمرًا ما سوف يحدث، لم يعد چوليون لديه القدرة على تخيل الحياة دونها. لكن ما لا يمكن تخيله يحدث أحيانًا، وهذا ما يحدث غالبًا لآل فورسايت ويكلفهم ذلك الكثير. جلس على الفوتيه الجلد القديم، يثنى الخطاب ويضغط بشفتيه على طرف السيجار المطفأ. بعد غد سوف تتوقف رحلات يوم الثلاثاء التى اعتادها إلى المدينة، ربما يتمكن من الذهاب إلى هناك مرة فى الأسبوع، بحجة الذهاب لرؤية مدير أعماله، لكن هذا سيعتمد على صحته ومدى قدرته عليه، ومن الآن فسوف يفرطون من القلق بشأنه.

الدروس! الدروس يجب أن تستمر! يجب عليها أن تخفى شكوكها كما يجب، على چان أن تضع مشاعرها جانبًا، لقد فعلت ذلك من قبل فى اليوم الذى تلى وفاة بوسينى، ما فعلته حينئذ يمكنها بالتأكيد أن تفعله ثانية الآن، لقد مرت أربع سنوات منذ ذلك الحادث

الأليم وما سببه لها من جرح، ليس من الدين أن تبقى على الذكريات المؤلمة حية. إن إرادة چان قوية، لكن إرادته أقوى، والوقت يداهمه، وإيرين امرأة رقيقة، بالتأكيد سوف تفعل من أجله، يمكنها أن تتحكم فى نفورها بدلاً من أن تسبب له الألم! يجب أن تستمر الدروس؛ لأنهم إذا استمروا فسيكون مطمئنًا وبخير. أشعل سيجارًا فى النهاية، وفكر كيف سيبرر لهم هذه الصداقة الغريبة، كيف يمكنه إخفاء الحقيقة المجردة وهى أنه لا يستطيع تحمل الحرمان من رؤية الجمال. آه! هولى! هولى أحبتها بشدة، وقد أحبت دروسها. سوف تنقذه من هذه الورطة حبيبته الصغيرة! وبهذه الفكرة السعيدة أصبحت نفسه هادئة، وتعجب لِمَ كان قلقًا إلى هذا الحد المخيف، يجب عليه ألا يقلق، فقد جعله القلق واهنًا ضعيفًا حتى وصل إلى نصف وزنه.

فى تلك الليلة بعد العشاء عاد إليه الدوار ومع أنه لم يُغشَ عليه، فلم يدق الجرس، لأنه عرف أن ذلك سوف يسبب جلبة، ويجعل ذهابه إلى المدينة فى الصباح أمرًا غير معقول، عندما يصبح المرء عجوزًا يجتمع كل العالم فى مؤامرة ضد حريته، ولِمَ ذلك؟ فقط لكى يحافظوا على حياته فترة أطول. ولكنه لم يرغب فى ذلك بهذا الثمن الباهظ. فقط الكلب بالثازار رأى شفاءه من ذلك الضعف، بقلق راقب سيده يذهب إلى المائدة ويشرب البراندي، بدلاً من إعطائه البسكويت. عندما شعر الجد چوليون فى النهاية أنه قادر على صعود السلم ذهب إلى النوم، وعلى الرغم من أنه كان لم يزل متوعكًا فى صباح اليوم التالى فإن الفكرة التى راودته فى المساء ساندته وقوته.

كان يسعده كثيرًا أن يقدم لها عشاءً طيبًا؛ فقد توقع أنها لا تأكل بشكل جيدًا عندما تكون وحيدة، وفى الأوبرا يسعد برؤية عينيها تلمعان وتتألقان، والابتسامة غير الواعية على شفتيها. لم تشعر كثيرًا بالسعادة فى حياتها، وهذه ربما المرة الأخيرة التى سيكون قادرًا فيها على أن يعتنى بها، لكن عندما كان يحزم حقيبته، وجد نفسه يفكر برغبة فى ألا يشعر بالتعب والإرهاق وهو يرتدى ملابسه من أجل العشاء وأن يتحمل مجهود إخبارها بعودة چان أيضًا.

كان العرض فى الأوبرا تلك الليلة كارمن، واختار الفصل الأخير كفرصة لإخبارها بكل شىء، ولكنه بشكل عفوى أجّل ذلك حتى اللحظة الأخيرة.

تلقت الخبر بهدوء بشكل غريب، فى الحقيقة، لم يعرف كيف استقبلت هذا الخبر قبل أن ترتفع أصوات الموسيقى مرة ثانية ويصبح الهدوء ضروريًا. وسقط القناع عن وجهها، هذا القناع الذى يخفى الكثير بحيث لا يمكنه أن يراه. لقد أرادت بلا شك وقتًا لكى تفكر مليًا فى ذلك! إنه لن يضغط عليها؛ لأنها سوف تأتى لتعطى هولى الدروس غدًا بعد الظهر، ويفضل أن يراها بعد أن تكون قد فكرت. فى العربة تحدث الجد چوليون عن عرض أوبرا كارمن فقط؛ لقد رأى أفضل من ذلك فى الأيام الماضية، لكن هذه المرة لم يكن سيئًا على كل حال. عندما أمسك يدها لكى يقول:

- "تصبحين على خير".

انحنت بسرعة للأمام لكى تقبل جبهته.

- "إلى اللقاء، يا عمى چوليون العزيز، لقد كنت لطيفًا جدًا معى".

قال:

- "غدا؛ إذن، تصبحين على خير، نامى جيدًا"

وردت عليه برقة:"نَم جيدًا". ومن نافذة العربة، وبعد أن تحركت بعيدًا، رأى وجهها ينظر ناحيته ويدها تلوح له.

ذهب إلى حجرة نومه بهدوء وببطء. ولم يعطوه قط ما أعطته هى، ولم يستطع أن يعتاد حجرات نوم نظيفة وجميلة بها مثل هذا الأثاث الجديد والسجاد الرمادى والأخضر المنقوش عليه أزهار وردية اللون. وقد ظل يقظًا بسبب رقصة الهابانيرا(*) تدق على رأسه. معرفته باللغة الفرنسية لم تكن تعادل كلِماتها، لكن إحساسها الذى عرفه - إذا كان لديها إحساس - شىء غجرى أو برى ولا يمكن وصفه. حسنًا كان هناك فى الحياة شىء ما يفسد كل اهتماماتك وخططك، شىء ما جعل الرجال والنساء يتصرفون على أساسه، وهو يستلقى محدقًا بعيون عميقة فى الظلام حيث لا يستطيع

(*) الهابانيرا: موسيقى كوبية شعبية راقصة

قراءة المستقبل. أنت تعتقد أنك امتلكت حياتك وسيطرت عليها، لكنها فى الحقيقة قد انزلقت بعيدًا خلفك، أمسكتك من مؤخرة عنقك ودفعتك هنا وهناك وربما امتصت كل معانى الحياة بداخلك، لم يكن يتعجب؛ فقد أخذت الحياة هذه النجوم وفركتها ببعضها ثم نثرتها كلاً على حدة، فهى لا تنتهى أبدًا من لعب هذا الدور. خمسة ملايين من البشر فى هذه المدينة تحت رحمة وقوة الحياة وجبروتها، مثل حفنة بازلاء مجففة عندما تضغطها على لوح من الخشب وتضغط عليها بقبضة يدك، آه! هو نفسه لن يقفز بخياله شىء من ذلك، قدر كاف من النوم الجيد سوف يفيده كثيرًا!

يا لحرارة الجو هنا! يا للضجيج! احترقت جبهته، لقد قبلتها بالضبط حيث كان قلقًا، بالضبط هناك كما لو أنها عرفت المكان ذاته وأرادت أن تقبله، لكن شفتيها تركتا بقعة من الاضطراب الحزين، هى لم تتحدث معه بهذا الهدوء من قبل، لم تلوح له بهذه الرقة من قبل، أو تنظر خلفها إليه كما فعلت تلك الليلة.

نهض من سريره وفتح الستائر، وكانت حجرته تطل على النهر، كان هناك القليل من النسيم؛ لكن منظر اتساع النهر وتدفق المياه فيه بهدوء واستمرار هدأ نفسه وجعله يشعر بالارتياح، فكر:

- "أفضل شىء ألا أكون شخصًا مزعجًا، سوف أفكر فى حبيبتى الصغيرة، وأذهب إلى النوم".

لكن الليل كان طويلاً بسبب الحر. ولم يكن الجد چوليون ينال سوى الإغفاءات والنوم المتقطع.

عندما وصل إلى البيت فى اليوم التالى خـــرج مـــن حديقـــة الأزهار، وبمساعدة هولى- التى كانت رقيقة جدًا فى تعاملهـــا مـــع الأزهار- جمع باقة كبيرة من الورد، وقد كانت من أجل السيدة ذات الرداء الرمادى. كما أخبرها جدها -اســم اعتــاد علـــى اســتخدامه بينهما- ووضع الورد فى مزهرية فى غرفة مكتبه حيــث قــصد أن يأخذها إلى هناك لحظة أن تأتى، لكى يتحدث فـــى موضـــوع چـــان ومستقبل الدروس التى تعطيها لـــهولى. رائحة الورد العطرة وألوانها الخلابة سوف تساعده على ذاك، بعد الغداء استلقى ليـــستريح؛ لأنـــه شعر بالإرهاق الشديد. لن تحضرها العربة من المحطة حتى الساعة الرابعة، وباقتراب الموعد شعر بعدم الارتياح والقلق، وذهـــب إلـــى حجرة الدروس التى تطل على الممر الخـــاص بالعربـــات، وكانـــت الشمس قد غربت، وهولى هناك مع الآنسة بيوس؛ بعيدًا عن حـــرارة شمس يوم من أيام شهر يوليو؛ يشاهدون دود القز وقـــد كـــان لـــدى چوليون الجد نفور طبيعى من هذه المخلوقات النظامية التى تـــذكره رءوسها وألوانها بالفيلة، والتى تسببت فى وجود ثقوب كبيـــرة فـــى أوراق الأشجار الخضراء حيث إنها تتغذى عليها؛ بالإضافة إلـــى أن رائحتها مقرفة. جلس على مقعد النافذة من حيث يـــستطيع أن يـــرى

الممر الخاص بالسيارات ويحصل على الهواء المنعش: قفز الكلب بالثازار ليجلس بجانب سيده. فوق البيانو كان يوجد مفرش لونه بنفسجى فاتح يميل إلى الرمادى وعليه نبات اللافندر الطازج. والذى كانت رائحته الذكية تملأ الحجرة. على الرغم من البرودة هناك، ربما بسبب هذه البرودة أثر إيقاع الحياة بشدة على أحاسيسه المهمة والمنحسرة. كل شعاع شمس مر خلال زجاج النافذة له سطوع يضايق؛ الكلب اشتم بقوة رائحة عطر اللافندر التى كانت تملأ المكان، وديدان القز التى ترفع مؤخراتها الخضراء – الرمادية بدت حية بشكل مرعب ورأس هولى ذا الشعر الأسود –تنحنى عليهم لتلمسهم؛ فيظهر له بريق حريرى رائع. شيءٌ رائع وقوى جدًا هى الحياة عندما تكون طاعنًا فى السن وضعيفًا، تبدو وكأنها تسخر بأشكالها الكثيرة وحيويتها، لم يكن حتى هذه الأسابيع القليلة الماضية لديه ذلك الشعور الفضولى ليكون بنصف واحد منه ألقى فى خِضَم الحياة، والنصف الآخر ترك على الضفة مشاهدًا ذلك التقدم البائس، فقط عندما كانت إيرين معه، هل فقد ذلك الشعور المزدوج؟

التفتت هولى مشيرة بقبضتها الصغيرة إلى البيانو لأنها إذا ما أشارت بإصبعها فلن يكون ذلك من حسن الأدب، وقالت بمكر لتخدعه:

– "انظر إلى السيدة ذات الرداء الرمادى يا جدى، أليست جميلة اليوم؟"

خفق قلب جوليون ولبرهة تلبدت الغرفة بالغيوم ثم صفت وقال منتشيًا:

- "ترى من ألبسها هكذا؟"

- "الآنسة".

- هولى- لا تكونى حمقاء.

"هذه السيدة الصغيرة لن تتغلب على أن تُحرمَ من دروس الموسيقى. لمن يستقيم هذا الأمر، فحبيبته الصغيرة ودروسها كانت هى الرابط الوحيد الآن بين "أيرين" ومنزله. إذن هى الدروس، ويجب ألا تتوقف. يجب ألا يتخلى عن هذا من أجل أى شيء". مسح بيده على الشعر الدافئ لراس الكلب "بالثاراز". وسمع صوت هولى:

- "عندما تعود أمى إلى البيت لن تتوقف دروس الموسيقى، أليس كذلك؟ هى لا تحب الغرباء، أنت تعرف ذلك."

كلمات الطفلة بدت وكأنها أشعلت جو المعارضة للجد جوليون، وكشفت عن التهديد الذى يواجه حريته الجديدة. يمكنه أن يتخلص من كونه رجلاً عجوزًا تحت رحمة الحب والرعاية أو يحارب من أجل أن يحتفظ بهذه الرفقة الجديدة والتى يعتز بها، ولكن الحرب هذه سوف تصل به للموت. لكن وجهه النحيل الذى تظهر عليه آثار التعب والوهن صعبت عليه عزيمته. هذا بيته وذلك شأنه يجب ألا يتخلى عن شيء، نظر فى ساعته، عجوزة ونحيلة مثله، لقد

امتلكها منذ خمسين سنة، أربعة وخمسين فى الحقيقة، نزل إلى الصالون وقبل جبهة هولى فى طريقه، أراد أن يلتقيها قبل أن تذهب لإعطاء دروس الموسيقى لـ هولى. عندما سمع أول صوت لإطارات العربة، خرج إلى الشرفة ورأى على الفور أن العربة فيكتوريا كانت فارغة.

- "وصل القطار، يا سيدى؛ لكن السيدة لم تأتِ".

نظر إليه الجد چوليون بتجهم وبدت عيناه تدفعان فضول هذا الرجل وتتحدياه أن يرى خيبة الأمل المُرَّة التى كان يشعر بها. قال:

- "حسنًا جدًا".

ودخل البيت. ذهب إلى غرفة المكتب وجلس، يرتعش مثل ورقة شجر. ماذا يعنى ذلك؟ ربما لم تلحق بالقطار، لكنه عرف أن ذلك لم يحدث. "إلى اللقاء، يا عمى چوليون!" وليس تصبح على خير؟ ويدها تلوح فى الهواء. وقبلتها. ماذا يعنى ذلك؟ أصابه فزع وغضب شديد. نهض وبدأ يخطو على السجادة التركية، بين النافذة والحائط. كانت ستتركه! شعر بذلك وهو عاجز عن عمل أى شىء. رجل عجوز يريد أن يستمتع بالنظر إلى الجمال! لكن ذلك كان شيئًا يثير السخرية! السن أغلق فمه، شل قدرته على المقاومة. لم يكن لديه

الحق فيما هو دافئ وحيوى، ليس له الحــق فــى أى شـــىء ســوى الذكريات والأحزان. لم يكن ليلتمس منها المزيد فالرجل العجوز لـــه هيبته، مرت عليه ساعة وهو قليل الحيلة، عاجز عن فعل أى شـــىء ومنهك جسديا، مشى بخطوات وئيدة جيئة وذهابًا أمام مزهرية الورد الذى قطفه بنفسه، التى سخرت منه برائحتها، من كل الأشياء التـــى يصعب تحملها، إنهاك قوة الإرادة شىء صعب جدًا، بالنسبة لشخص مثله. لقد وقع فى شرك الطبيعة، ومثل سمكة تعيسة عامـــت باتجـــاه ثقوب الشبكة هنا وهناك ولكن لم تجد أى فتحـــة أو نقطـــة ضـــعف. أحضروا له شاى الساعة الخامسة، وخطابًا. ومض بداخله، للحظـــة، الأمل وفتح الظرف بسكينة الزبده:

"عمى جوليون العزيز، لا يمكننـــى أن أتحمـــل كتابة أى شىء يخيب أملك، لكننى لـــم أتجـــرأ أيضًا أن أخبرك تلك الليلة الأخيرة، أشعر أننـــى لن أستطيع الاستمرار فـــى إعطـــاء الـــدروس لـــهولى، بعد أن تعود جان قريبًا. فهناك أشـــياء بداخلنا أعمق من أن تنسى. لقد أسعدنى كثيرًا أن أراك أنت وهولى، ربما أراك عندما تأتى إلـــى المدينة أحيانًا، على الرغم من أننى متأكـــدة أن ذلك ليس أمرًا جيدًا من أجلك؛ فأنا ألاحظ أنـــك ترهق نفسك كثيرًا، أعتقد أنك يجب أن تـــستريح

وتهدأ فى هذا الطقس الحار، والآن عندما يعود ابنكِ وچان سوف تكون سعيدًا جدًا، أشكرك مليون مرة على كل السعادة والحب اللذين أعطيتهما لى".

المحبة

"إيرين"

إذن لهذا السبب؛ لم يكن جيدًا بالنسبة له أن يحصل على السعادة، وما اهتم به بشكل رئيسى أن يحاول تأجيل الشعور بالنهاية المحتومة لكل شىء، اقتراب الموت بخطوات أقدامه المختلسة، ليس جيدًا بالنسبة له! ليس حتى يمكنها أن ترى كيف كانت هى بالنسبة له؛ عقد إيجار للسعادة والرغبة فى الحياة، التجسيد للجمال الذى شعر أنه يضيع منه. أصبح شايه باردًا، ومازال سيجاره مطفأ؛ وظل يروح ويأتى، ممزقًا بين هيبته وتمسكه بالحياة، إنه شىء لا يطاق أن يتم عصرك ببطء دون أن تتبس بكلمة، أن تعيش وإرادتك فى يد الآخرين الذى يتحكمون فيك باسم الحب والرعاية. سوف يرى إن أخبرها بالحقيقة ماذا ستفعل، حقيقة أنه فقط يريد أن يراها أمامه ليس إلا، جلس على مكتبه وأمسك بقلمه، لكن لم يستطع أن يكتب، لقد كان أمرًا مقززًا للنفس أن يتوسل هكذا، التوسل بأن تدفئ عينيه بجمالها، لقد كان ذلك مثل الاعتراف بالخرف، وهو ببساطة لا يستطيع، وبدلا من هذا كتب:

"لقد كنت أتمنى ألا يُسْمَح للأحزان القديمة أن تقف حائلاً فى طريق ما يشكل السعادة والرضا بالنسبة لى ولحفيدتى الصغيرة، لكن الطاعنين في السن تعلموا كيف يتخلون عن رغباتهم؛ إنهم مضطرون للتخلى حتى عن رغبة الحياة التى سيتركونها عاجلاً أو آجلاً، وربما يفضل عاجلاً".

"تحياتى وحبى لكِ، چوليون فورسايت"

فكر:

– "أشعر بمرارة، لكننى لا أستطيع فعل شىء. أنا متعب!"

ختم الخطاب وأسقطه فى الصندوق ليذهب مع بريد المساء، وبينما كان يسمعه يسقط فى قاع الصندوق، فكر:

– " ذهب كل ما كنت أتطلع إليه!"

تلك الليلة بعد العشاء –الذى لم يلمسه تقريبًا– وبعد أن دخن نصف سيجاره وترك الباقى لأنه جعله يشعر بالغثيان، صعد لأعلى ودخل خلسة إلى حجرة الأطفال، ثم جلس على مقعد الشباك. كان الضوء خافتًا، واستطاع فقط أن يرى وجه هولى وهى تضع يدها تحت خدها، أزّ صرصور فى الصحف اليابانية التى ملأت المدفأة.

واحد من الخيول فى الإسطبل أخذ يُفَحِص بقدميه فى قلق، ليته ينـــام مثل تلك الطفلة! فتح الستائر ونظر إلى الخارج كان القمـــر بازغًـــا وأحمر كالدم، ولم يكن الجد چوليون قد رأى قمرًا أحمر مـــن قبـــل، كانت الأشجار والحقول هناك تغفو أيضًا. مشى، فى الومضة الأخيرة لضوء الصيف، والجمال، يمشى مثل روح، وفكر:

- "لقد كانت لدَىَّ حياة طويلة. الأفضل تقريبًا فى كل شىء أنـــا رجل جاحد؛ فقد رأيت الكثير من الجمال فى حياتى. الشاب بوسينى المسكين قال إن لدى حس جمالى. هناك شخص فى القمر الليلة!".

مرت عليه حشرة طائرة صغيرة، وأخرى وأخرى، "الـــسيدات ذوات الأردية الرمادية!"

أغلق عينيه، وحاصره شعور بأنه لن يفتحهما ثانية، أخذ ذلـــك الشعور يتنامى بداخله، وجعل هو نفسه يستغرق فيه؛ ثم فُتحت عيناه برعشة مفاجئة فى رموشه. كانت هناك مشكلة معه، بلاشك، مـــشكلة عميقة، يجب أن يذهب ليراه الطبيب، لم يهمه ذلك الآن! ربما يزحف ضوء القمر فى ذلك البستان؛ سوف يكون هناك ظلال، وهذه الظلال سوف تكون الشىء الوحيد المستيقـــظ لا الطيـــور ولا الوحـــــوش، ولا الأزهار، ولا الحشرات؛ فقط الظلال، تتحرك، "الـــسيدات ذوات الأردية الرمادية!".

سوف يتسلقون فوق هذا الجذع المقطوع هى وبوسينى؟ فكـــرة مضحكة؛ سوف يهمسون أيضًا! كيف دقت الساعة، هنا! لقد كان ذلك مرعبًا، بالخارج هناك فى ضوء القمر الأحمر، هنا مع ذلك الـــضوء الصغير الساكن ودقات الساعة ورداء النوم الخاص بمربية الأطفـــال المعلق على حافة النافذة، طويلاً، مثل جـــسد المـــرأة، "الـــسيدة ذات الرداء الرمادى!".

وحاصرته فكرة غريبة، هل كانت موجودة حقا؟ هل أتت إلى هنا حقًا؟ أم أنها كانت مجرد انبعاث لكل الجمال الذى أحبـــه وأجبـــر على تركه حالاً؟

تلك المرأة ذات الرداء الرمادى، روح البنفسج الرماديـــة ذات العيون الداكنة والشعر الكهرمانى الذى يزين رأسها مثل التاج، مـــن تسير الفجر وضوء القمر، ماذا كانت؟ من كانت؟ هل كانت موجودة؟ نهض ووقف للحظة ممسكًا بعتبة النافذة، لكى يشعر بـــالواقع مـــرة ثانية؛ وبدأ يخطو ناحية الباب، ثم توقـــف عنـــد مـــؤخرة الـــسرير؛ وهولى، كما لو أنها مدركة أن عينيه مرتكزة عليها، تحركت وهـــى تتنهد. سار عبر الممر المظلم؛ ووصل إلى حجرته، وخلـــع ملابـــسه على الفور، ووقف أمام المرآة فى ملابس النوم. يا له من خيال مآتة ساقط بلا أعصاب، صدغ أجوف وأرجـــل نحيلـــة! قاومـــت عينـــاه صورته فى المرآة، وسرت نظرة من الكبرياء والتفاخر فى وجهه.

الكل فى اتحاد للنيل منه، حتى صورته فى المرآة، لكنه لم يخفق! ليس بعد، ذهب إلى السرير، واستلقى فترة طويلة دون نوم، محاولاً أن يصل إلى حالة من الخضوع والاستسلام للنوم، فقط كان على وعى شديد بأن القلق والإحباط لهما تأثير سيئ عليه.

استيقظ فى الصباح غير منتعش ومتعب، حتى إنه أرسل فى طلب الطبيب، وبعد أن كشف عليه، أمره أن يبقى فى السرير وأن يقلع عن التدخين. لم يكن هناك صعوبة؛ فليس هناك شىء ينهض من أجله. وعندما يشعر بالمرض، يفقد التبغ نكهته وطعمه. وقد قضى فترة الصباح كسولاً يتصفح جريدة التايمز، ولكنه لا يقرأ اهتمامًا، والكلب بالثازار يرقد بجانب سريره. ومع الغداء أحضروا له برقية:

"وصلنى خطابك، وسوف أكون معك فى الرابعة والنصف. إيرين"

تأتى! بعد كل هذا! إذن هى موجودة ولم يُترك وحيدًا. تأتى! سرى الانتعاش فى أطرافه. وجنتاه وجبهته كانت ساخنة. احتسى الشوربة ثم أبعد المائدة الصغيرة واستلقى بهدوء حتى أخذوا الغَداء وتركوه وحيدًا؛ لكن الآن وفيما بعد لمعت عيناه وتألقت. تأتى! دق قلبه بسرعة حتى بدا وكأنه لا يدق على الإطلاق. فى الساعة الثالثة استيقظ وارتدى ملابسه بتمهل وبلا إزعاج. هولى والآنسة بيوس سوف تكونان فى حجرة الدراسة، والخدم نائمون بعد أن تناولوا

غداءهم، يجب ألا يندهش. وفتح الباب بحذر ونـزل لأسـفل. وفـى الصالون كان الكلب بالثازار يرقد وحيدا ثم تبعه، ودخل الجد چوليون غرفة مكتبه وخرج فى الظهيرة المُحرِقَة. قصد أن ينزل ويقابلها فى البستان، لكنه شعر على الفور أنه لـن يـستطيع أن يتحمـل هـذه الحرارة. وجلس تحت شجرة البلوط بالقرب من الأرجوحة، والكلـب بالثازار، الذى شعر بحرارة الجو، استلقى بجانبه على الأرض. جلس هناك مبتسمًا. يا لها من دقائق مرحة وسعيدة! يا لهمهمة الحـشرات، وهديل الحمام! إنه يوم صيفى. جميل! وقد كان سعيدًا، سـعيدًا مثـل ولد صغير، سيأتى؛ إنها لم تتركه! لقد حصل على كل ما أراده فـى الحياة ما عدا هذه النسمة الصغيرة. سوف يراها عنـدما تـأتى مـن خلال الصوبة، تأتى متمايلة وهى ترتدى الفستان الرمادى، تأتى عبر أزهار الأقحوان والهندباء البرية. لن يتحرك، وسف تأتى إليه وتقول:

– "عزيزى عمى چوليون، أنا آسفة!".

تجلس على الأرجوحة وتدعة ينظر إليه ويخبرها أنه لم يكـن بخير لكنه أصبح بخير الآن؛ وذلك الكلب سوف يلعق يـدها؛ فهـذا الكلب عرف أن سيده كان مغرمًا بها، هذا الكلب طيب حقًا.

لقد كانت شجرة البلوط تلقى بظلالها؛ ولم تستطع الـشمس أن تصل إليه؛ ولكنها فقط تجعل الباقى من العالم ساطعًا ومشمسًا حتـى

يتمكن من رؤية الأشياء البعيدة، الأبقار –وهى تمضغ اجترارها فى الحقل وتلوح بذيولها لإبعاد الحشرات عنها – ويشم رائحة اللافندر وأشجار الزيزفون، آه! لهذا كان هناك صخب من النحل، لقد كانوا فرحين ومشغولين، مثل قلبه الذى كان فرحًا ومشغولاً؛ مثل قلبه الذى كان مخدرًا ومغمورًا بالسعادة؛ النحلات الكبيرات والنحلات الصغيرات والحشرات أيضًا! بدوا كما لو كانوا يقولون... الصيف.

دقت ساعة الإسطبل الرابعة. سوف تكون هنا خلال نصف ساعة، سوف يأخذ قيلولة صغيرة قبل أن تأتى؛ فقد نام فى وقت متأخر الليلة الماضية، ويجب أن يكون منتعشًا عند رؤيتها، ومنتعشًا لرؤية الشباب والجمال، يأتى إليه عبر المروج الساطعة بضوء الشمس "السيدة ذات الرداء الرمادى!" ومسترخيًا فى مقعده للوراء وأغلق عينيه. بعض من زغب النبات طار فى الهواء ووقف على شاربه فزاده بياضًا على ما به من بياض، لم يدر بذلك، وحركها زفيره، فاستقرت بعيدًا. شعاع من ضوء الشمس تسلل إليه وارتكز على حذائه، نحلة كبيرة طنانة حطت وتجولت على قبعته البانما، والتدفق اللذيذ للسبات وصل إلى مخه تحت هذه القبعة وتمايل الرأس للأمام واستراح على صدره، وغدا يهمهم: "الصيف... الصيف!"

دقت ساعة الإسطبل الرابعة والربع. ومد الكلب بالثازار ونظر إلى سيده. والزغب لم يعد يتحرك، ووضع الكلب ذقنه على بقعة

الشمس المُركَزة على الحذاء. لم تتحرك. فسحب الكلب ذقنه بسرعة، نهض، وقفز إلى حضن سيده الجد چوليون ونظر فى وجهه وأصدر أنينًا، ثم وثب على الأرض وجلس القرفصاء محــدقًا وفجــأة عــوى طويلاً. لكن الزغب كان ساكنًا كأنه ميت، وكذلك وجه سيده العجوز.

الصيف...الصيف...الصيف! الخطوات الصامتة فوق العشب!

فى

وضع يائس

عائلتان متماثلتان فى العراقة .....

من أحقادٍ قديمةٍ إلى تمردٍ جديد

رميو وجوليت

الجزء الأول

الفصل الأول

فى بيت تيموثى

غريزة الامتلاك لا تبقى ساكنة دون تغير، فهى مثل العداء والصداقة، البرد والحر، فهى تتبع قوانين التعاقب والتدرج، حتى فى عائلة فورسايت التى آمنت بأنها خالدة للأبد، ولا يمكن أن تنفصل وتنعزل عن العيشة المحيطة أو لا تتأثر بها.

المؤرخ لتاريخ إنجلترا فى عقدى الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر سوف يصور التدرج السريع – إلى حد ما- من القناعة بالذات وضيق الأفق إلى قناعة ذاتية أكثر وخصوصية وحرية أقل، بطريقة أخرى، غريزة الامتلاك الخاصة بالشعب فى حركة دائمة، وكذلك كما يحدث فى عائلة فورسايت، فهذه العائلة لا تتغير فقط من الخارج ولكن من الداخل أيضًا.

فى عام ١٨٩٥، عندما لحقت سوزان هايمان –الأخت المتزوجة لعائلة فورسايت- بزوجها وتوفيت عن عمر ناهز الرابعة والسبعين وأحرقت جثتها، حدث اضطراب ولكن محدود فى الشخصيات الست الأكبر سنًا فى عائلة فورسايت المتبقيات على قيد الحياة.

كان لعدم الاكتراث هذا ثلاثة أسباب:

الأول دفن الجد چوليون فى روبين هيل دون حضور العائلة عام ١٨٩٢، وهو الأول فى العائلة الذى لم يدفن فى مدفن العائلة فى هاى جيت، ذلك الدفن الذى أتى بعد عام من جنازة سويزن، كان مناسبة كبيرة للتحدث عن التغير فى عائلة فورسايت؛ ففى منزل تيموثى فورسايت فى بايزووتر رود، لندن، حيث كانوا يجتمعون ويتبادلون النميمة عن العائلة وينشرون الشائعات، تراوحت الآراء من نحيب العمة چوليا وبكائها إلى التأكيد الصريح لـ فرانسى بأن انتهاءهم من ذلك العمل الخانق فى هاى جيت مثل الجنازات ومراسم الدفن وغيرها، كان شيئًا جيدًا، فالعم چوليون فى سنواته الأخيرة حقًا منذ ما حدث بين حبيب حفيدته چان والشاب بوسينى وإيرين، زوجة ابن أخيه سومز أثار بشكل ملحوظ تعليقات العائلة، والأسلوب الذى اتخذه فى حياته جعله يظهر دائما بمظهر المتمرد إلى حد ما، عرق الفلسفة الذى يسرى بداخله كان كفيلاً بالطبع بأن يخرجه عن الطريق الذى رسمته عائلة فورسايت لنفسها، لذلك كانوا متوقعين أن يدفن فى بقعة غريبة، ولكن كان ذلك فى حد ذاته شيئًا غريبًا، وكان له أيضًا أثر كبير فى تدعيم فكرة التغير فى العائلة، وحامت فكرة الانشقاق والانعزال حول العشيرة.

ومن مجموع ثروته التى بلغت مائة وخمسة وأربعين ألف جنيه إسترلينى ترك الجد چوليون خمسة عشر ألف جنيه إسترلينى، لمن تظنون أعزائى؟ لـ إيرين! تلك الزوجة الشاردة لابن أخيه

سومز، إيرين، تلك المرأة التى فضحت العائلة، والشىء الأكثر إثارة للدهشة أنها لم تكن تربطها به علاقة دم. لم تكن لتأخذها بالكامل طبعًا، ولكن فقط احتياجات حياتها، أى ما يدره ذلك المبلغ من دخل فقط فى حياتها وليس بعد موتها. وقد انتهى ادعاء الجد چوليون بأنه الفرد الكامل فى عائلة فورسايت، وهذا كان السبب الأول وراء الاضطراب المحدود الذى حدث فى العائلة بعد دفن سوزان هايمن فى ووكينج.

السبب الثانى كان أكثر خصوصية وامتدادًا فبجانب البيت فى كامبدن هيل، كان لـ سوزان منزل آخر، تركه لها هايمن بعد وفاته على الحدود فى هانتس، حيث تعلم أولادها الرماية وركوب الخيل بشكل جيد، وكما كان يُعتَقَد بالطبع، ذلك شىء رائع، ومفيد لهم ومحمود أيضًا بالنسبة لكل شخص، وحقيقة امتلاك شىء ما ريفى أو معزول، بدت بصورة من الصور تبرر تشتت رفاقها الذين لم يتمكنوا من معرفة السبب الذى جعلها تفكر فى الترميد(*)، وعلى الرغم من ذلك تم توزيع الدعوات وأتى سومز والشاب نيكولاس، وفتحت الوصية التى تركتها سوزان، وكانت عادلة ومرضية؛ حيث لم تأخذ منها غير مصاريف واحتياجات حياتها وقُسِم كل شىء على أولادها بالتساوى.

(*) إحراق جثة الميت.

أما السبب الثالث للاضطراب القليل الذى حدث عقب دفن سوزان هايمان وكان الأكثر امتدادًا واتساعًا وقد أدركته يوفيميا، الشاحبة، النحيلة:

"حسنًا، أعتقد أن الناس لهم الحق فى أجسادهم، حتى عندما يكونون أمواتًا".

خرجت هذه الكلمات من ابنة نيكولاس، فتاة متحررة الفكر ومتسلطة كثيرًا، كانت وجهة نظر مفزعة كشفت بوضوح كم التغير الهائل الذى حدث منذ وفاة العمة آن عن عمر ناهز الثامنة والثمانين، بالضبط عندما كانت سيطرة سومز على زوجته يشوبها الشك والريبة، الذى أدى بدوره إلى مثل هذه الكارثة. تحدثت يوفيميا كطفلة؛ فهى لا تملك خبرة ولا تجارب فى الحياة، فعلى الرغم من أنها تجاوزت الثلاثين من عمرها، فإنها مازالت تحمل اسم عائلة فورسايت أى أنها لم تتزوج بعد.

لكن بإمعان النظر نجد أن ملحوظتها هذه أوضحت بما لا يدع مجالا للشك ازدهار وتجلى مبدأ الحرية، واللامركزية والثورة على فكرة امتلاك الآخرين لشخص بذاته والتحكم فيه، وعندما سمع نيكولاس ملحوظة ابنته من العمة هيستر قال:

- "الزوجات والبنات! لا حد لحريتهم هذه الأيام، عرفت أن قضية جاكسون سوف تؤدى إلى عبء ثقيل وأشياء فى هابيس كوريس مثل ذلك بالطبع، هو لم يسامح أبدًا فعلة المرأة المتزوجة!".

لكن بصدق، لا يمكن إنكار تمرد شباب عائلة فورسايت ضد امتلاك الآخرين لهم وسيطرتهم عليهم، وتلك الخطة الاستعمارية لامتلاك شخصية الفرد والسيطرة عليها، والتى تسعى بشكل تناقضى ظاهر نحو الإمبريالية، كانت تحرز تقدما طول الوقت.

كلهم متزوجون الآن، ما عدا چورچ، الذى كان يتردد على مضمار سباق الخيل ونادى إپسوم، فرانسى تتابع حياتها الموسيقية فى أستوديو خارج طريق كينج فى تشيلسى ولاتزال تواعد أصدقاء وتصطحبهم إلى الحفلات الراقصة، يوفيميا تقضى وقتها فى المنزل وتشتكى من نيكولاس وهذين الاثنين جيليس وجيس هايمان.

الجيل الثالث من عائلة فورسايت لم يكن عدده كبيرًا جدًا فـ چوليون الشاب كان لديه ثلاثة أولاد، ووينفريد دارتى لديها أربعة، نيكولاس الشاب لديه ستة، روچر الشاب لديه طفل، ماريان تويتيمان لديها طفل، چون هايمان لديه اثنان.

لكن الباقى من الستة عشر المتزوجين سومز، راشيل، وسيسيل من أسرة چايمس، يويستيس وتوماس من أسرة روچر، أرنست وأرشيبالد وفلورنس من عائلة نيكولاس، أوجاستيس وأنابيل سبيندر من عائلة هايمان؛ مرت حياتهم الزوجية لسنوات دون إنجاب.

هكذا، أصبح لدى العشرة الكبار فى عائلة فورسايت واحدٌ وعشرون ابنًا، وقد أنجبوا سبعة عشر حفيدًا فقط، وقد بدا واضحًا أنه أصبح هناك عدم اكتراث لهذا الأمر، وبالفعل إن طالبًا فى مادة الإستاتيكا يمكن أن يلاحظ أن معدل المواليد قد تنوع بالاتفاق مع معدل الاهتمام بصنع الثروة، فالفرد يعمل ويكدح من أجل توفير المال الذى يكفى عائلته.

فالجد الأكبر فورسايت فى أوائل القرن التاسع عشر كان يعمل ليحصل على عشرة فى المائة ليعول أبناءه العشرة، وهؤلاء العشرة تركوا وراءهم الأربعة الذين لم يتزوجوا، وچوليا التى مات عنها زوجها سبتيماس سمول على الفور، حصلوا على ما يتراوح بين أربعة وخمسة بالمائة من أجل أطفالهم، أما الواحد والعشرون فردًا الذين أنجبوا، فكانوا يحصلون بالكاد الآن على ثلاثة بالمائة من التجارة التى ربطها والدهم باتفاقات والتزامات لتفادى ضريبة التركات، وستة فقط من هؤلاء أنجبوا السبعة عشر طفلاً.

كان هناك أسباب أخرى، أيضًا، لهذا التناسل المعتدل، الشك فى قدرتهم على الكسب، مع الاعتقاد بأن آباءهم مازالوا على قيد الحياة ولا يموتون، قد أبقاهم على ضرر، لو أن المرء لديه أولاد وليس لديه دخل كافٍ، فإن مستوى الرفاهية والراحة فى العيش

سوف يهبط بالضرورة، فما كان كافيًا لاثنين ليس كافيا لأربعة، وهكذا سيكون من الأفضل أن ننتظر ونرى ما يفعله الآباء، إلى جانب ذلك كان رائعًا أن تكون قادرًا على أن تأخذ إجازات وتستمتع بها، فهذا أسهل فى الحصول عليه من امتلاك أطفال، فقد ركزوا على امتلاك أنفسهم، وتطابقًا مع هذه النزعة المتنامية والتى سميت "بتفضيل الذات" وبهذه الطريقة فإن المخاطرة قلت وأصبح الفرد قادرًا على امتلاك سيارة "أتوموبيل"، حقًا، يوستيس بالفعل كان لديه واحدة، لكنها قد هزته بقوة وتسببت فى كسر أحد أنيابه؛ لذلك رأى من الأفضل أن ينتظر حتى تصبح أكثر أمانًا.

فى غضون ذلك، لم يكن هناك أطفال كثيرون! حتى الشاب نيكولاس ولمدة ثلاثة سنوات لم يستطع أن ينجب أكثر من أطفاله الستة. لم يكن التفسخ والاضمحلال فى عائلة فورسايت سوى أمرٍ عرضى لن يستمر طويلاً، فقد تجمعوا ثانيةً عندما توفى روجر فورسايت فى عام ١٨٩٩، كان صيفا جميلاً، وبعد قضاء الإجازات فى الخارج وعلى الشواطئ عادوا جميعًا إلى لندن؛ عندما لفظ روجر أنفاسه الأخيرة فى بيته فى برينسيس جاردنز. جلسوا فى بيت تيموثى يتهامسون بأن روجر المسكين كان دائمًا شخصًا غريبًا فى عاداته الغذائية... ألم يكن، على سبيل المثال، يفضل لحم الضأن الألمانى على كل أنواع اللحم الأخرى؟

كانت جنازته ممتازة فى هاى چيت، وبانتهائـــه منهـــا ذهـــب سومز فورسايت إلى بيت تيموثى فى بايزووتررود. الأشياء القديمـــة التى تحب العمة هيستر والعمة چوليا أن تسمعا عنها، والده چـــايمس الذى يناهز عمره الثامنة والثمانين لم يشعر بتعب إثر تشييعه جنـــازة أخيه، وتيموثى نفسه لم يذهب، لذلك كان نيكولاس الأخ الوحيد الـــذى حضر، وكان ذلك تجمعًا لطيفًا سعدت به العمات هيستر وچوليا.

بشكل حتمى يرغب كل شخص فى الحصول على نتيجة مـــن كل شىء يقوم به، وتلك كانت خاصية أساسية تميز "آل فورســـايت"، وهى أيضًا أحد العناصر الضرورية لكل البشر فى بيـــت "تيمـــوثى" حيث كانت تناقش الموضوعات والأمور التى تخص العائلـــة، كـــان سومز فقط يسير على خطى أبيه الذى اعتاد أن يذهب على الأقل مرة فى الأسبوع لكى يرى أخواته البنات فى بيـــت "تيمـــوثى" ويطمـــئن عليهن، ثم أقلع عن هذه العادة عندما أصيب بمرض فى الأعـــصاب وهو فى سن السادسة والثمانين، ولم يكن يستطيع أن يذهب إلى هناك دون "إيميلى"، وذهابه معها كان بلا فائدة. فمن يمكنه أن يتحدث إلـــى أى شخص بحريه فى حضور زوجته؟ مثلما كان يفعل چايمس فـــى الأيام الماضية، سومز استطاع أن يوفر وقتًا ويذهب كل يـــوم أحـــد، ويجلس فى حجرة الاستقبال الصغيرة، والتى قدم فيها بذوقه الـــذى لا شك فيه، مجموعة من الخزف وعلى الأقـــل اثنتـــان مـــن لوحـــات

الباربيزون(*)، فى أعياد الميلاد(**)، هو نفسه قد استفاد إلى حد كبيـر بلوحات البـاربيزون، مـال لعـدة سـنوات، ناحيـة المـاريزيس، وإسرائيليات وموف، وكان يأمل أن يحرز صفقات أفضل، فى بيتـه المطل على النهر والذى سكنه حديثا بالقرب من مابلدرهام، وكان به معرض للوحات التى يشتريها وقليل جدًا من لم يعرفوه مـن تجـار لندن، كان لهذا البيت موقع جذاب ومناسب لإقامـة حفـلات نهايـة الأسبوع يوم الأحد بعد الظهيرة، والتى كان يتـولى إقامتهـا أخـواه وينفريد أوراشيل من أجله بشكل منتظم، سومز كان شخـصًا ميـالاً للصمت، استعراضى، نادرًا ما يفشل فى التأثير على ضـيوفه، ولـم يكن مشهورًا فقط بالنزعة الفنية والتصور الجمالى لكن أيضًا بقدرتـه على قياس مستقبل السوق وأسعاره. عندما ذهب إلى بيـت تيمـوثى كان يتفاخر بإحدى حكايات انتصاره على أحد التجار ولطالما رحبت عماته بذلك. فى ذلك اليوم بعد الظهيرة، عاد من جنازة روجر وقـد انتعش قليلاً، كان يرتدى ملابس سوداء أنيقة ليست سـوداء تمامًـا، فبعد كل هذا العمر ليس إلا عم، وقد كرهـت روحـه الاسـتعراض المفرط للمشاعر.

(*) الباربيزون: مدرسة فنية فرنسية تتعامل مع المسطحات الطبيعية الفرنسية ما بين ١٨٤٠: ١٨٧٠، وكان معظم رساميها ينتمون إلى قرية تدعى باربيزون.

(**) موسم ميلاد السيد المسيح وهو الفترة من عشية عيد الميلاد (٢٦ ديسمبر) إلى ما بعد رأس السنة.

جلس سومز مستلقيًا على كرسى ومحدقًا فى الحوائط ذات اللـــون الأزرق السماوى والمغطاة بالأطر الذهبية اللون، بـــدا صـــامتا وســـاكنا بشكل ملحوظ، إما لأنه للتو عائد من جنازة أو لا، ملامح وجهه، والتـــى تميز أفراد عائلة "فورسايت"، بدت هادئة هذه الظهيـــرة، وجـــه مقعـــر وطويل، وناب ربما يبدو مبالغًا فيه، مع كل هذا فمظهره لـــيس ســـيئًا، الأمر الذى أراد أن يناقشه مع نفسه فقط، هو وضعه هكذا دون طـــلاق، أمر يفوق الوصف، وقد شغل عقله وتفكيره أكثر من أى شـــىء آخـــر، وحدث ذلك فقط منذ الربيع حيث نما بداخله شعور كـــان يدفعـــه نحـــو ماعرف جيدًا أنه حماقة فى فرد من عائلة فورسايت لم يتجاوز الخامسة والأربعين، كان الوقت متأخرًا جدًا عندما أدرك ذلك.

ثروته كانت بالفعل كبيرة، وقد تزايدت تلك الثروة سريعا فـــى الاثنى عشر عامًا التى قضاها سومز وحيدًا يكرس حياتـــه لأشـــياء قليلة، وتقدر ثروته اليوم بمائة ألف جنيه إسترلينى؛ لكن لم يكن لديـــه ابن يرث كل هذه الأموال، كان اعتقاده أنه لا فائدة مـــن الاســـتمرار هكذا، حتى وهو لا يصنع شيئًا فإن الثروة تصنع ثروة. حتى لو لـــم يبذل جهدًا كبيرًا ويتعب نفسه، وتوقع أنه سيكون لديه مائة وخمسون ألف فى وقت قصير.

كان فى شخصية سومز جانب يميل للعائلة والاستقرار، وقـــد كان مختفيًا لا يظهر بشكل واضح، لكنه عاد للظهور فى حياته الآن، فقد جذبته فتاة جميلة إلى حد كبير، وكان لذلك أثر كبير ولطيف على

حياته. كانت هذه الفتاة فرنسية، وليس محتملاً أن تفقد صوابها أو تقبل أى وضع غير شرعى وقانونى، وعلاوة على ذلك فإن سومز نفسه كره التفكير بهذه الطريقة. لقد مارس سومز ذلك الجانب الحقير من الجنس – خلال هذه السنوات الطويلة من العزوبية التى أجبر عليها – بشكل سرى ومتكتم، وكان دائما يشعر بالاشمئزاز، وذلك لأنه كان شخصية متحفظة، ويحب أن يراعى القانون والنظام، ولم يرد أن يخرقه ويقع فى علاقة غير شرعية.

زواج فى السفارة فى باريس، شهور قليلة من السفر ثم يعودان هو وأنيت وقد انفصلت عن الماضى الذى لن يكون مشرقًا من وجهه نظر عائلته إذا علموا به، حيث كانت تدير حسابات مطعم والدتها فى حى سوهو، يمكنه أن يعيدها إلى لندن كشىء جديد أنيق بالإضافة إلى ذوقها الفرنسى الرقيق واعتدادها بنفسها، لكى تعيش معه فى منزله بالقرب من مابلدرهام، فمن باب التغيير قد شاع فى عائلة فورسايت وبين أصدقائه أنه قد قابل فتاة فرنسية ساحرة خلال أسفاره وتزوجها، وربما تكون الرومانسية هى شعار الزوجة الفرنسية لِمَ لا؟ لم يكن خائفًا من ذلك على كل حال. كل ما يقلقله فقط هو ذلك الوضع غير المستقر والملعون، عدم الطلاق، والسؤال هل يمكن أن تقبل به أنيت أم لا؟ ولذلك لم يتجرأ على اتخاذ أى خطوة حتى يتأكد من أنه سيمنحها مستقبلاً واضحًا ومستقرًا. فى حجرة الاستقبال الخاصة بعماته، بآذان صماء، سمع هذه الأسئلة المعتادة كيف حال والده

العزيز؟ لا يخرج من البيت الآن، بـالطبع، فـالطقس يتحـول إلـى البرودة؟ هل سومز سوف يخبره أن هيسيتر اكتشفت أن أوراق عشب الديق المغلية أفضل فهى تخفف الآلام فى جنبها، لبخـة كـل ثـلاث ساعات، مع فانيليا حمراء بعد ذلك. وهل يمكن أن يعجبـه الخـوخ المجفف المحفوظ الذى يقدمونه له لقد كان مذاقه لذيذًا هذا العام، وله تأثير رائع. أو هو عن عائلة دارتى هل سـمع سـومز إن العزيـزة وينفريد كانت تعيش حياة كئيبة مع مونتاچ؟ تيموثى قال:

- "أنه يجب أن يوفروا لها الحماية".

ولكن سومز نفسه لم يكن متأكدًا من قدرته على هذا فقد أعطى مونتى بعض مجوهرات وينفريد لراقصة. لقد كان هذا نموذجا سـيئا لـ ڤال الذى كان على وشك دخول الكلية. سومز لم يعـرف؟ لكـن يجب عليه أن يذهب ويطمئن على أخته فى الحال، وهـل يعتقـد أن هؤلاء البوير يمكنهم أن يقاوموا؟ تيموثى يشك فى هذا. كانت أسعار البضائع عالية جدا، وكسب الكثير من المال بسبب التجارة. وسأل:

- "هل تعتقد يا سومز أن الأسعار ستهبط لو قامت الحرب؟"

أومأ سومز برأسه موافقًا، لكنها يمكن أن ترتفع بسرعة شديدة. سيكون سيئًا جدًا بالنسبة لـ تيموثى إذا لم ترتفع، وبـالطبع سـوف يشعر والد سومز العزيز بهذا كثيرًا فى مثل سنه هذا. لحسن الحـظ وفر روجر المسكين على نفسه هذا القلق المفزع والعمة چوليا كانت

تمسك منديلها وتبكى فى محاولة لإظهار حزنها واستيائها؟ فقد كانت تذكر العزيز روجر وأخلاقه وأصالته وكيف كان يـداعبها ويخزهـا بالدبابيس عندما كانا يعيشان معًا، أما العمة هيـستر فكانـت بـشكل فطرى تتجنب الحزن والكآبة، سألت:

- "هل يعتقد سومز أن الـسيد تـشامبرلين سـيكون رئيـسًا للوزراء؟ فربما يعمل على استقرار الأوضاع فـى أسـرع وقت، ربما تحب أن ترى هذا السيد كروجر وهم يرسـلونه إلى هيلينا ويمكنها أن تتذكر جيدًا أخبار موت نابليون، وكـم كان مريحًا بالنسبة لجده.

بالطبع قالت هي وچوليا نحن كنا فى بانتاليتس، عزيزى لـم نشعر بهذا كثيرًا".

قدمت له فنجان شاى، شربه بسرعة وأكل ثلاثة أطباق من هذه المكرونة المشهور بها بيت تيموثى. ازدادت قليلاً ابتـسامته الباهتـة، الشاحبة وغير المكترثة، حقًا، فقد ظلت عائلته ضـيقة الأفـق بـشكل ميئوس منه، على الرغم من أن لديهم الكثير من الممتلكات فى أرجـاء لندن، لكن فى هذه الأيام أصبح ضيق أفقهم ظاهرًا وواضحًا أكثر مـن أى وقت مضى. لماذا ؟ نيكولاس الجذ كـان لا يـزال تـاجرًا حـرًا وعضوًا فى تلك الجمعية التى تنادى بالحرية، ونادى بالحرية، ونـادى ريموف الأعضاء كانوا محافظين الآن، أنه لم يتمكن مـن الالتحـاق؛ وتيموثى، كما قالوا، مازال يشرب النبيذ المسكر قبل النـوم. تحـدثت

العمة چوليا مرة ثانية العزيز سومز كان يبدو بمظهر جيد، بالكاد أكبر فى اليوم الذى ماتت فيه العمة آن، وقد كانوا كلهم معًا هناك، العزيز چوليون، العزيز سويزن، والعزيز روجر.

سكتت ومسكت دموعها التى أظهرت الامتعاض على وجهها. هل... هل سمع أى شىء عن إيرين هذه الأيام؟ هزت العمة هيستر كتفيها بشكل ملحوظ.

حقًا، كانت العمة چوليا دائما تقول شيئًا ما! غادرت البسمة وجه سومز، ووضع فنجان الشاى وعلى الرغم من رغبته الشديدة فى الكلام فإنه لم يستطع؛ فها هى مشكلته التى تؤرقه.

استرسلت العمة چوليا بسرعة قائلة:

- "يقولون إن العزيز چوليون الكبير قد ترك لها خمسة عشر ألف جنيه إسترلينى، وبالطبع فهم أن ذلك لن يكون الحق فجعل المال وقفا فى حياتها فقط".

- "هل علم سومز بذلك؟"

أومأ سومز برأسه موافقًا.

- "ابن عمك الشاب چوليون أرمل الآن، إنه وكيل وقفها، هل عرفت ذلك بالطبع؟"

هز سومز رأسه، هو بالفعل يعلم، لكن فضل ألا يظهر أي اهتمام، هو والشاب چوليون لم يتقابلا منذ اليوم الذي توفي فيه بوسيني.

استرسلت العمة چوليا قائلة:

- "من المؤكد أنه في خريف عمره الآن، دعوني أحسب، لقد ولد عندما أقام عمك العزيز في شارع ماونت؛ قبل أن يذهبوا إلى ستانهوب جيت بوقت طويل في ديسمبر من عام ١٨٤٧، بالضبط قبل ذلك الحادث المروع، تجاوز الخمسين! تخيلوا هذا! طفل جميل مثله، لقد كنا جميعًا فخورين به، الأول عليكم".

تنهدت العمة چوليا، وسقطت خصلة شعرها، لذلك شعرت العمة هيستر برجفة بسيطة، نهض سومز، وكان يشعر بشيء من الفضول لإكتشاف الذات، هذا الجرح القديم لكبريائه واحترامه لذاته لم يُشفَ بعد، لقد كان يفكر في أن يتحدث في هذا الموضوع، حتى يريد أن يتحدث عن حالته النفسية السيئة، كان يبتعد عن الأشياء التي تذكره بالماضي والتي كانت تثيرها العمة چوليا، التي كانت مشهورة بتعليقاتها.

أوه، سومز لست ذاهبًا بالفعل!

ابتسم سومز وبداخله حقد قليل، وقال:

- "نعم، إلى اللقاء، سلِّما لى على عمى تيموثى!".

وترك قبلة باردة على جبهة كل منهما، والتى بدت تجاعيدها ونمشها ملتصق بشفاهه؛ كما لو أنها ترغب فى تقبيلها دائمًا، تركهما مسرورتين.

- "العزيز سومز، كان لطف منه أن يأتى اليوم".

فى حال أنهما لم يشعرا بهذا حقًا.

نزل سومز السلالم وشيء ما فى صدره، حيث كانت تنبعث دائمًا رائحة جميلة من الكافور والنبيذ البرتغالى، فى بيت منع فيه الشراب، الأشياء القديمة البالية لم يكن يقصد أن يكون غير لطيف! وعندما وصل إلى الشارع نسيهم فى الحال، امتلكته صورة أنيت مرة أخرى، وما سيحدث لو أنه لم يحصل على الطلاق.

لماذا لم يباشر إجراءات الطلاق منذ وفاة الشاب بوسينى الملعون، وكانت الحجة قوية لطلب الطلاق من المحكمة! ثم توجه إلى منزل أخته وينفريد دارتى فى شارع جرين ماى فير.

الفصل الثانى

رحيل رجل خبير بشئون الحياة

هذا الرجل الذى حنكته الأيام، كان خاضعًا لتقلبات الثـروة، فـ مونتاج دارتى الذى سكن منزله لأكثر من عشرين عامًا كان من المفترض أن يكـون أكثـر وعيًـا بنفقـات الإيجـار والـضرائب والإصلاحات المنزلية، إذ لم يكن حماه هو المتكفل بكل هذا بدلاً منه.

وكان چايمس قد أمن حياة مستقرة لابنته وأحفاده مـن خـلال التجارة بالجملة. وفى النهاية كان أمرًا ذا قيمة لشخص مندفع ومفعـم بالحياة مثل دارتى أن يجد من يؤمن لـه غطـاء ماديًـا، باسـتثناء الأحداث فى الأيام القليلة الماضية، كانت حياته مستقرة كل هذا العام، الحقيقة أنه كان قد حصل على نصف حصة فى مهره يمتلكها چورچ فورسايت، الذى ذهب إلى حلبة سـباق الخيـل وخـسر خـسارة لا تعوض، وتسبب فى فزع شديد لـ روجر الذى يرقد الآن فى قبـرة بسلام، بامتلاكه نصف حصة هذا الفرس الواعد، كل المثالية الكامنـة فى مونتاچ دارتى، كما فى كل إنسان آخر، أصبحت فى أوجّها وأبقته متوهجًا تمامًا لعدة شهور مضت، عندما يكون لدى الإنـسان شـىء طيب يتطلع إليه، فيصبح متزنًا وعاقلاً بشكل مـدهش؛ وقـد كانـت

فرص دارتى حقًا شيئًا طيبًا، ففرصة ثلاثة إلى واحد فى سباق العدل(*) الخريفى قد أُعلِنَ على الملأ أن نسبته هى خمسة وعشرون إلى واحد، كان رهانه على فوز هذه الفرسة يفوق رهانه على عدالة السماء.

مونتاچيو دارتى، الذى بلغ الخامسة والأربعين، وهى مرحلة عمرية حاسمة عند آل فورسايت وكذلك عند آل دارتى، مهم وراء راقصة، لكن العاطفة لا تعنى شيئًا دون المال وليس القليل منه بل الكثير، فالحب لا يصمد فى ظل الفقر ودارتى لم يكن لديه أى أموال، فهو يعيش حياة بائسة على ما يشحذه أو يقترضه من وينفريد سيدة ذات شخصية قوية، وقد أبقت عليه لأنه فى النهاية أب لأبنائها، والذكريات الجميلة لها فى الشباب فى شارع ووردور بمناظره الرائعة، كان مونتاج يعيش على ما يقترضه من زوجته وينفريد أو أى شخص آخر ولكن للأسف كان يخسر كل هذا المال فى لعب القمار وسباق الخيل؛ ولم يصبح لديه أى مورد خصوصًا أن چايمس، كان قد تقدم فى السن وأصبح عصبى المزاج ويصعب الوصول إليه، وسومز أيضًا كان قاسى القلب بشكل مزعج، لن نكون مبالغين إذا قلنا إن دراتى كان يعيش على الأمل لشهور، فهو لم يكن شغوفًا بجمع المال فى حد ذاته، وقد كان دائمًا يحتقر آل فورسايت

(*) سباق العدل هو سباق يُتَساهل فيه مع العنصر الضعيف وتفرض معوقات على العنصر القوى فتصبح فرص الفوز متكافأة.

وحرصهم على جمع المال، على الرغم من استغلاله لهم بكل ما أوتى من قوة، كل ما أحبه دارتى فى المال هو أن يشترى المشاعر والأحاسيس.

يمكن لـ مونتاچ أن يقول ليس هناك رجل نبيل يهتم بجمع المال. وهناك جانب لطيف فى شخصية مونتاچ دارتى، فهو كما قال چورچ فورسايت مثل زهرة أقحوان.

بزغ صباح يوم سباق العدل صافيًا وجميلاً، ففى اليوم الأخير من شهر سبتمبر، دارتى الذى سافر إلى نيوماركت فى الليلة التى قبل ذلك اليوم، كان قد ورط نفسه فى شيكات على بياض، وذهب إلى ربوة عالية لكى يشاهد المهرة التى له فيها النصف وهى تأخذ المنعطف الأخير. فلو أنها فازت فى السباق، فسيحصل على مكافأة بسيطة ولكن كافية على صبره وثباته فى هذه الأسابيع التى عاش فيها على الأمل، بينما كانوا يهيئونها ويعدونها من أجل السباق، ولكنه لم يعد قادرًا على الإنفاق عليها أكثر من ذلك، فهل يبيعها بعدما وصلت إليه من تقدم فى التدريب؟ كانت هذه هى الفكرة الوحيدة التى تدور فى رأسه، حينما غردت فوقه الطيور وبدت رائحة الفجر المنعشة وعبرت من أمامه المهرة الجميلة وهى ترفع رأسها متألقة كالحرير.

بعد كل هذا، لو أنه خسرها فلن يحصل على ما دفعه فيها وسوف ينخفض مكسبه إلى ألف وخمسمائة جنيه إسترلينى بالكاد تكفى لمطاردة راقصة هنا أو هناك، وكل أفراد عائله دارتى كانوا

يرغبون بشدة فى أن يكون لهم كلمة مسموعة ومكانة فى المجتمع، ومال إلى چورچ قائلاً:

- "إنها رهان رابح، وأنا متأكد أنها سوف تفوز دون أدنى مجهود، سوف أراهن عليها للنهاية".

چورچ الذى أنفق كل ماله على تلك الفرسة ووقف ينتظر المكسب، واثقًا بغض النظر عما سيحدث أثناء السباق مبتسمًا بهيئته الضخمة قائلاً:

- "هيا أيتها الجامحة".

وعلى الرغم من أنه راهن بأموال روچر المعترض، فإن حدس آل فورسايت بداخله كان قد بدأ يقف إلى صفه فى مهنته كمالك لهذه الفرسة.

هناك لحظات من انكشاف الحقيقة فى حياة الناس فيها يدرك الإنسان أشياء فى حياته لم يكن يدركها من قبل، يكفى أن تقول إن الشيء الجيد يسقط والأيدى المتشابكة تتوه من بعضها فى الزحام، وقد خسر دارتى فى الرهان كل ما يملك وما بين تلك الأحداث واليوم الذى توجه فيه "سومز" إلى شارع "جرين"، أخذ "دارتى" يتأمل عما فاته فى حياته ولم يلحظه بالمرور بين هذه الأحداث.

عندما يباشر رجل فى أخلاق دارتى السيطرة على نفسه من العادات الدينية، ولا تتم مكافأته على ذلك؛ لا يلعن حياته ويموت،

لكن يعلن حياته ويعيش، ويتسبب فى التعاسة لعائلته. وينفريد امرأة شجاعة وجريئة، وإن كانت عصرية قليلاً، تحملت عبئا ثقيلاً لمدة واحد وعشرين عامًا لم تصدق أبدًا أنه يمكن أن يفعل ما فعله الآن، فهى مثل الكثير من الزوجات، اعتقدت أنها عرفت الأسوأ، لكنها لم تعرفه حتى فى عامه الخامس والأربعين، ومثل بقية الرجال الآخرين، شعر إما أن تفهمه الآن أو لن تفهمه أبدًا. فى اليوم الثانى من شهر أكتوبر، ذهبت وينفريد لتطمئن على مجوهراتها، لكنها فزعت عندما لاحظت عدم وجود التاج والعقد واللآلئ التى أعطاها إياهم مونتاچ فى عام ١٨٨٦، عندما بينديكت والتى أجبر چايمس على دفع ثمنها فى ربيع عام ١٨٨٧، لكى ينقذهم من الفضيحة، شاورت زوجها فى الحال، لكنه لم يرجح الموضوع وقالت بحدة:

– "حسنًا جدًا، إذن مونتى، سوف أذهب إلى سكوتلاند يارد بنفسى".

ترى هل وافق على التصرف فى ذلك الأمر؟ تلك الليلة عاد دارتى إلى المنزل دون أن يكترث لأحد وكلامه قليل فى الأحوال العادية، وينفريد تغلق الباب بالمفتاح وتتركه ينام بالخارج، لكن الشك فيه يعذبها فهى ترى أنه هو من سرق مجوهراتها ولذلك انتظرته حتى يأتى، أخرج مسدسًا صغيرًا من جيبه ووضعه على مائدة الطعام، وأخبرها على الفور أنه لم يبال بطريقة تعاملها معه وأنه كان

يتخلص من الهموم التي تملأ حياته، أما وينفريد التى كانت تقف على الجانب الآخر من مائدة الطعام، فأجابت قائلة:

- "لا تكن أحمق، مونتي. هل ذهبت إلى سكوتلاند يارد؟"

صوب المسدس نحو صدره، وسحب الزناد مرات عديدة ولكنه لم يكن محشوًا بالرصاص، ثم رماه وهو يسبه. وتمتم قائلا:

- "لأجل الأبناء".

وسقط جالسًا على مقعد. التقطت وينفريد المسدس، أعطته بعضًا من ماء الصودا، فالشراب الكحولى له تأثير السحر. شعر دارتي أن الحياة خدعته وأن وينفريد لم تفهمه قط. فإذا لم يكن له الحق فى أخذ المجوهرات التى أعطاها إياها، فمن إذن له الحق؟ تلك الفتاة الإسبانية سحرته واستحوذت عليه، لو كان لـ وينفريد اعتراض، فإنه سوف يقطع لسانها. فما المشكلة فى هذا؟

وينفريد التى اكتسبت الحزم والشدة من خلال دراستها فى المدرسة، نظرت إليه وقالت:

- "الفتاة الإسبانية! هل تقصد تلك الفتاة التى رأيناها ترقص فى باليه باندبمونيم؟ حسنًا! أنت لص وسافل"

كانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير؛ ونهض دارتى من مقعده وطوق ذراعى زوجته، واسترجع ذكريات طفولته، ولوى ذراعيها.

ثابرت وينفريد على المعاناة والدموع فى عينيها ولكنهـا لـم تنبس ببنت شفة حتى أحست بلحظة ضعف فى دارتى فتحررت منـه ووقفت جاعلة الطاولة بينهما وقالت بغضب:

- "لقد تعديت حدودك"

وتركته وعلى شاربه الأسود بعض الـرذاذ، وصـعدت إلـى الطابق العلوى، ودخلت حجرتها وأغلقت الباب بالمفتاح، ثم غـسلت يديها فى ماء دافئ، واستلقت على سريرها مستيقظة طـوال الليـل، تفكر فى مجوهراتها وهى تلتف حول عنق امرأة أخرى، وما حصل عليه مونتاج من اهتمام نتيجة لذلك. ذلك الرجل، الذى حنكته الحياة، استيقظ ولديه إحساس بالضياع فى هذا العالم، وعادت إلـى ذاكرتـه المظلمة وينفريد وهى تقول كلمة "حدود" جلس لمدة نصف ساعة فى الفجر على الفوتيه الذى نام عليه وكانت تلك هى أسوأ نصف سـاعة قضاها فى عمره، فبالنسبة له كفرد من عائلة دارتى كان هناك شىء ما مأساوى فى النهاية، قد عرف أنه وصل إليها بالفعل، لن ينام مرة ثانية أبدًا فى حجرة تناول الطعام ويصحو مع ضوء النهار المتـسلل من الستائر التى اشترتها وينفريد فى ينكيز وجارفيز بأموال چايمس، ولن يتناول الطعام على تلك المائدة المصنوعة من خشب الورد بعـد الحمام الساخن وتصفح الجرائـد، أخذ مفكرته فى جيـب معطفـه، وكان به أربعمائة جنيه إسترلينى من فئة الخمسة والعشرة الجنيهات، وهذا ما تبقى من بيعه حصته فى المهرة فى الليلة الماضية، وكان قد

أخذ ثمنها نقدا من چورچ فورسايت الذى فاز فى السباق، ولم يتخيل هذا الكره المفاجئ لهذا الحيوان، فرقة الباليه كانت تذهب إلى بوينوس إيريس، وهو أيضا كان ذاهبًا إلى هناك وهو لم يتسلم ثمن المجوهرات كاملاً.

صعد السلالم خلسة وبسرعة، لكنه لم يجرؤ على أخذ حمام أو حلاقة ذقنه لأن الماء كان باردًا، لذلك غير ملابسه وحزم أمتعته بقدر ما يستطيع، وكان من الصعب عليه أن يترك أحذيته الملمعة، لكن يجب أن يضحى المرء بشيء فى مقابل أشياء أخرى، ثم حمل الحقائب بكلتا يديه، وخطا خطوات ليصل إلى السلالم لينزل إلى الطابق السفلى، كان البيت هادئًا جدًا، ذلك البيت الذى شهد ولادة أولاده الأربعة. كانت لحظة فضول بالنسبة له، وهو يقف خارج حجرة زوجته، المرأة التى أعجب بها إن لم يكن أحبها، والتى قالت له "تخطيت الحدود"، وقوى نفسه بهذه الجملة، وسار ببطء وبخطوات خفيفة، لكن كان من الصعب أن يمر من الباب التالى فقد كانت حجرة نوم بنتيه، مود كانت فى المدرسة، لكن إيموجن كانت تنام فيها؛ وخيم الضباب على عينى دارتى فى ذلك الوقت المبكر من الصباح. كانت إيموجن هى أكثر أبنائه حبا له، وكان شعرها أسودَ وعيناها بنيتين. وضع الحقيبتين جانبًا وبداخله إحساس مؤلم بأنه يتخلى عن مسئولياته بوصفه أبًا، أضاء النهار وجه ينم عن مشاعر حقيقية، فلا شيء مزيف كما يحركه هو الندم ومشاعر الأبوة؛ فعض شفتيه وشُلت قدماه للحظة؛ فقد كان صعبًا عليه أن يترك بيته! وتمتم:

– "اللعنة، لم أفكر أبدا أن تصل الأمور إلى هذا الحد".

سمع بعض الأصوات التى جعلته يحاذر، حيث إن الخدم قد بدءوا فى الاستيقاظ، فحمل الحقيبتين ونزل السلالم وكان وجهه يتصبب عرقًا، وقد أراحه معرفة أن تضحيته كانت حقيقية، تلكأ فى غرف الطابق السفلى ليجمع سجائره وبعض أوراقه، وقبعته وصندوق السجائر الفضى وموسيقاه المفضلة ثم صب لنفسه خليطًا من الويسكى والصودا، وأشعل سيجارة ووقف مهتزًا أمام صورة فوتوغرافية لابنتيه فى برواز فضى، هذه الصورة ملك لـ وينفريد، "لا بأس"، فكر: "يمكنها أن تحصل على غيرها، لكن أنا لا يمكننى!" ثم وضع الصورة فى حقيبة السفر وارتدى قبعته ومعطفه وكان قد أخذ معطفين آخرين، وأخذ عصا التوكؤ والشمسية ثم فتح الباب الأمامى وأغلقه وراءه بهدوء، سار إلى الخارج مثقلاً بالهموم كما لم يكن من قبل، وقف جانبًا ينتظر تاكسيًا يمر عليه. وهكذا خرج مونتاج دارتى وعمره خمسة وأربعون عامًا من البيت الذى طالما اعتبره ملكا له.

عندما نزلت وينفريد من الطابق العلوى وعلمت أنه ليس بالبيت، شعرت فى بادئ الأمر بغضب مكتوم لا يشعر به أحد غيرها، فقد أفلت من اللوم والعتاب اللذين أعدتهما له خلال الساعات الطويلة من اليقظة فى هذه الليلة، رحل مع تلك المرأة إلى نيوماركت أو برايتون، يا له من شىء كريه! فهى مجبرة على التكتم أمام إيموجن والخدم، لن تتحمل أعصاب والدها هذه الفضيحة، لم تستطع ألا تذهب إلى بيت تيموثى فى ذلك اليوم بعد الظهيرة وأن تحكى قصة مجوهراتها للعمة چوليا وهيستر. لاحظت اختفاء الصورة فى

اليوم التالى وتساءلت ماذا يعنى هذا؟ وعندما كانــت تتفقــد الأشــياء المتبقية من زوجها فكرت أنه فعل خيرًا عندما رحل، وبينما كانــت تشعر بصعوبة النهاية، وقفت فى منتصف حجرة ارتــداء الملابــس الخاصة به وجدت كل الأدراج مفتوحة، كانت تحــاول أن تكتــشف حقيقة شعورها تجاه ما حدث، لم يكن الأمر سهلاً أبدًا وقــد تخطــى الحدود بالفعل، وأنه لم يكن أبدًا ملكًا لها، ولبقية عمرها لم تكن لتُحِس غير الأسوأ.

كان شيئًا مأساويًا جدا أن تصبح أرملة فى الثانية والأربعــين، بينما زوجها مازال على قيد الحياة، ولديها أربعــة أولاد، ويتركهــا زوجها ويذهب إلى أحضان فتاة إسبانية حقيرة! المشاعر والأحاسيس التى ظنت أنها ماتت بداخلها، عاودتها وجعلتها تشعر بالألم والحزن، ودون تفكير أغلقت الأدراج الواحد تلو الآخر، ثم ذهبت إلى سريرها واستلقت عليه ووضعت رأسها بين الوسائد، لم تبك؛ فما الفائدة مــن البكاء؟ وعندما نهضت من السرير لتذهب لتنــاول طعــام الغــداء، شعرت أن الشيء الوحيد الذى يمكن أن يجعلها تشعر بتحسن أن ترى ڤال، ولدها الأكبر، الذى كان على وشك الذهاب إلى أكسفورد الشهر المقبل على نفقة چايمس، كان فى ليتيل هامتون يأخذ تدريباته النهائية مع مدربه، فأرسلت إليه تلغرافًا.

"يجب أن أتفقد ملابسه"

قالت لــ إيموجن:

- "لن أجعله يذهب إلى أكسفورد، على أى حال فهؤلاء الأولاد صعب إرضاؤهم"

أجابت إيموجن:

- "لدى ڤال كومة من الأشياء"

"أعرف، لكنها تحتاج إلى الترتيب، أتمنى أن يأتى"

"سوف يأتى كالسهم المارق، أمى، لكن ربما يتخلف عن الامتحان"

قالت وينفريد

- "لا يهمنى ذلك، أريده هو فقط"

بنظرة بريئة إلى وجه أمها وقفت إيموجن صامتة، أتى ڤال فعلا فى الساعة السادسة كالسهم المارق، تخيل اتحاد بين شىء مؤذٍ وطبيعة فورسايت فسوف تحصل على ڤال دارتى.

عندما ولد ڤال، كانت وينفريد فى عنفوانها وفى زهرة شبابها، قد صممت أن يحمل أولادها أسماء مميزة، لم يحملها أحد قبلهم، شعرت الآن ببركة القدر الذى جعلها لا تسمى إيموجن زيسبى لكن يعود إلى چورج فورسايت ذلك المهرج، أنه عَمَّد ڤال وقد حدث أيضًا أن دارتى كان يتناول معه العشاء بعد أسبوع من ميلاد ابنه ووريثه، فألهم وينفريد باسم فريد حقًا.

قال چورج:

"أطلقوا عليه اسم جاتو، سوف يكون مميزًا! "كان للتو قد فاز برهانه على حصان يحمل ذلك الاسم".

جاتو!" أجاب دارتى إنه ليس اسمًا مسيحيًّا"

"أنت" نادى چورچ على نادل يرتدى بنطلون يحزم من تحت الكبتين " –"أحضر لى موسوعة بريت من المكتبة، تحمل حرف B"

أحضرها النادل:

"تفضل!" قال چورچ وهو يشير بسيجارة "جاتو بابليوس فاليريوس للكاتب "فيرجال أوف ليديا". هذا ما تريد "بابليوس فاليريوس"، كان مسيحيًّا بشكل كافٍ"

أخبر دارتى وينفريد لدى وصوله إلى البيت بهذا الاسم، فأعجبها كثيرًا، لقد كان أنيقًا جدًا. وبابليوس فاليريوس أصبح اسم الطفل، ولكن اتضح بعد ذلك أن الاسم ردىء جدًا، ففى عام ١٨٩٠، عندما بلغ بابليوس الصغير سن العاشرة، أصبحت كلمة "شيك" قديمة ولا تليق بطفل مثله فى العاشرة من عمره وبدأت وينفريد تساورها الشكوك حول الاسم، وكانت قد تأكدت بواسطة الصغير بابليوس والذى عاد فى يوم من الفصل الدرس الأول فى المدرسة يشكو أن الحياة أصبحت حمل ثقيل عليه، إذ إنهم ينادونه بوبى، ولكن وينفريد التى كانت امرأة ذات قرار قد غيرت على الفور اسمه ومدرسته أيضًا ليصبح ڤال ونُسِىَ بابليوس تمامًا.

في سن التاسعة عشر، أصبح شابا يملأ وجهه النمش، فمه واسع، عيناه ساطعتان رموشه سوداء طويلة، له ابتسامة ساحرة، على دراية كبيرة بالأشياء التى لا يجب أن يعرفها شاب فى سنه، وليس له أى خبرة بالأشياء التى يجب أن يعرفها شاب فى سنه، ذلك الولد الشقى والجذاب. بعد أن قَبَّل والدته وداعب إيموجن، صعد على السلالم ثلاث درجات بثلاث درجات دفعة واحدة، وينزل أربع درجات بأربع درجات دفعة واحدة أيضا، ارتدى ملابسه واستعد لتناول العشاء مع صديقه، وقد كان آسفا جدًا لأنه لن يتناول العشاء مع والدته وأخته، فقد دعاه معلمه لتناول العشاء معه فى أكسفورد وكامبريدج ولن يستطيع الاعتذار له، سمحت له وينفريد بالذهاب على الرغم من أنها لم تكن سعيدة بذلك. لقد أرادت أن يبقى معها فى البيت، لكن أسعدتها كثيرا العلاقة الطيبة التى قامت بينه وبين مدربه. خرج فال وهو يغمز بعينه لإيموجن قائلاً لها: "هاى، هل يمكن أن تعدى لى طبقا من البيض لكى أتناوله عندما أعود؟" كانو فى قمة السعادة ثم قال قال: "هل لديك بعض المال؟ لقد كنت مضطرًا أن أقترض ورقة من فئة الخمسة الجنيهات من الجد سوبى.

نظرت وينفريد إليه بشغف قائلة:

- "عزيزى، أنت شقى جدا وتطلب نقودا كثيرة، ويجب ألا تدفع للعشاء فأنت ضيفه. لكم يبدو رائعا وأنيقا فى هذا المعطف الأبيض ورموشه السوداء الكثيفة".

"أوه، لكن ربما نذهب إلى المسرح، أمي يجب أن أقطع التذاكر؛ فهو كما تعرفين في أزمة مالية".

" أعطته وينفريد خمسة جليهات وهي تقول:

- "حسنًا، ربما يكون من الأفضل أن تدفع له في العشاء لكن لا تدفع ثمن التذاكر أيضًا."

أخذ ڤال النقود ووضعها في محفظته وقال:

- "وحتى إن أردت فلن أستطيع، تصبحين على خير أمي".

خرج وهو يشعر بالسرور وكانت هامته مرفوعة مرتديًا قبعته، ويستنشق هواء بيكاديللي مثل كلب صغير مقيد. الفرحة شيء جيد!

لم يجد معلمه في كامبريدج وأكسفورد، لكن وجده في نادي جوت ومعلمه هذا كان يكبره بعام، شاب ذو مظهر جيد، وله عينان بنيتان رائعتان، وشعر أسود ناعم، وجه بيضاوي الشكل، كسول وبارد إلى حد ما؛ إنه أحد هؤلاء الشباب الذين وبلا مجهود يرتقون أخلاقيًا وسلوكيًا على رفاقهم ولم يستطع تحاشي أن يفصل من المدرسة، تخرج من المدرسة قبل قدوم ڤال بعام، وكان قد قضى هذا العام في أكسفورد وڤال يظن أنه شخص مزهو بنفسه هذا الشاب كان اسمه كروم، وبدا هدفه الوحيد أن يبهر ڤال ويسلب لبه، والذي بداخله ستقف شخصية فروسايت منفصلة - الآن وفيما بعد - تهيم حيث يكون المال.

تناولا العشاء بهدوء وبأسلوب راقٍ؛ ثم تركا النادي وهما يدخنان السجائر، وكانا قد شربا زجاجتين من النبيذ، جلسا في الصفوف الأمامية في المسرح. وبالنسبة لـ ڤال كان صوت الأغنيات ورؤية تلك الأقدام الجميلة مشوشة ويعكرها الخوف والقلق بداخله من أنه ليس أنيقًا مثل كروم، فعندما تشغل هذه الأفكار بال أحد فإنها تجعله مضطربًا، فـ ڤال فمه واسع قليلاً، والمعطف ليس ذا التفصيلة الأفضل، وليس هناك شريط يزين بنطلونه، وقفازه ذو اللون البنفسجي ليس به غرز سوداء رفيعة على ظهره، وقد أفرط ڤال في الضحك في أثناء العرض لكن كروم لم يضحك، إنه فقط ابتسم، اعتقد ڤال أن كروم أفضل منه الشيء الوحيد المشترك بينهما أن العرض كان مرحًا وممتعًا ووسينيثا دراك كانت جميلة ورائعة في استراحة بين الفصول في العرض المسرحي، أبهر كروم ڤال ببعض التفاصيل التي يعرفها عن الحياة الخاصة ليسنثيا دراك. وأصبحت الفكرة المزعجة التي تراود ڤال أنه إذا أراد كروم هذا فيمكنه أن يذهب خلفه، حاول أن يقول بإمكانك أن تأخذني ولكنه لم يجرؤ على هذا، وقد جعل هذا الفصلين الأخيرين مملين، وهما خارجان من المسرح، قال كروم:

– "يبقى نصف ساعة قبل أن يغلقوا، لنذهب إلى بانديمونيوم".

أخذا عربة ليقطعا مائة ياردة وتكلفت المقاعد ستة أو سبعة بنسات، ثم تمشوا في منتزه على البحر وكان كروم يهدر النقود في مثل هذه الأشياء البسيطة، كانت فرقة الباليه تقدم آخر ليلة عرض

ولذلك كان هناك ازدحام شديد فى المنتزه لآخر لحظة، فقد احتشد الرجال والنساء فى ثلاثة صفوف عند الحاجز. الحركات التى كان يؤديها الراقصون على خشبة المسرح، الضوء الخافت، السجائر المشتعلة ورائحة النساء كل هذه الأشياء التى تميز المنتزه وسكان المنطقة، بدأت تحرر ڤال من مثاليته. نظر بإعجاب إلى وجه امرأة شابة، لا ليست شابة، ثم حول نظره عنها بسرعة، لمس ذراع تلك المرأة الشابة ذراعه دون قصد؛ رائحتها كانت جميلة وعطرة نظر إليها خلسة كانت قد داست فوق قدميه، لكنها اعتذرت له فقال:

- "لا عليك؛ العرض جميل، أليس كذلك؟"

- "أوه، أنا مللت منه؛ وأنت أيضًا، أليس كذلك؟"

ابتسم ڤال ابتسامة عريضة وساحرة، ولكنه لم يتَخطَّ تلك الابتسامة فلم يكن مقتنعًا بعد برأيها، انتصبت بداخله شخصية فورسايت من أجل التحقق واليقين، وعلى خشبة المسرح كان راقصو الباليه يدورون بسرعة بألوانهم المختلفة الأبيض الثلجى والقرمزى والأصفر والأخضر والبنفسجى، ثم توقف العرض فجأة على شكل هرم متلألئ وتصاعد الهتاف والتصفيق، ثم أغلقت الستائر البنية اللون وتفرق الرجال والنساء الذين كانو عند الحاجز. تلك المرأة الشابة التى ضغط ذراعها على ذراعه. من مكان بعيد بدا رجل يرتدى بذلة لونها وردى، استرق ڤال النظر إلى تلك الشابة التى كانت تنظر إليه أيضًا، كان هناك ثلاثة رجال يمشون ويضع كل منهم

ذراعه فى ذراع الآخر؛ الرجل الأوسط كان يرتدى بذلة وردية اللون وصديرية بيضاء، شاربه أسود ويترنح قليلاً فى مشيته، سمع ڤال كروم وهو يقول بهدوء:

- "انظر إلى هذا الوغد! إنه سكران!".

التفت ڤال ليرى الوغد سحب ذراعه وأشار إليهم، قال كروم بصوت معتدل كالعادة:

- "يبدو أنه يعرفك!".

قال الوغد:

- "مرحبًا! يا رفاق، انظروا، هذا هو ابنى الشاب الشقى!".

أدرك ڤال أنه أبوه! يكاد ببذلته الوردية اللون أن يغوص فى السجادة القرمزية اللون. لم يحب أن يكون اللقاء فى هذا المكان، وليس وهو يترنح سكرانًا، تذكر ڤال كلمة كروم "الوغد" وأدرك فى هذه اللحظة أنه كان على صواب عندما أطلق عليه كلمة "وغد" نعم، فتلك الملابس الغريبة وجاكته الوردية ومشيته المؤكدة على شخصيته المريعة جعلته يبدو أحمق، ودون أن ينطق بكلمة أسرع خلف تلك الشابة ومَرَّ إلى خارج المتنزه ثم سمع كلمة ڤال خلفه، لكنه جرى بخطوات سريعة أمام شوكرسوت فى الميدان.

ربما كانت التجربة الأكثر مرارة والتى يمر بها شاب هى أن يشعر بالعار والخجل من مظهر أبيه، فحياته العملية انتهت قبل أن

تبدأ، كيف يمكنه أن يذهب إلى أكسفورد بين كـــل هـــؤلاء الـــشباب؟ هؤلاء الأصدقاء المبهرون لـــ كروم الذين سوف يعرفـــون أن أبـــاه وغد، وفجأة شعر بإحساس الكراهية تجاه كروم. فمن يكـــون كـــروم لكى يقول هذا؟ ولو أن كروم كان بجانبـــه الآن لدفعـــه مـــن فـــوق الرصيف، شعر فال بإحساس خانق، فدفع بيده فى جيـــوب معطفـــه. اللعنه على كروم! تخيل فكرة أن يعود ويضع ذراعه فى ذراع أبيـــه ويسير معه أمام كروم، لكنه أقلع عن تلك الفكرة على الفور، وســـار على الطريق إلى بيكاديللى. وفجأة وقفت أمامه امرأة شابة قائلـــة "لا تغضب حبيبى!".

نظر إليها نظرة غريبة، تفادها جانبًا ثم شعر فجأة بالراحة. لو أن كروم قال أى كلمة تضايقه، فإنه سيلكمه فى وجهه بكـــل ســـعادة وسيضع نهاية لهذا. سار فال مائة ياردة أو أكثر، شـــاعرًا بالرضـــا إزاء هذه الفكرة، ثم فجأة فقد هذه الراحة والرضا، لم يكن الأمر بهذه السهولة، تذكر عندما كان فى المدرسة وأتى أحد الآباء ليرى لماذا لم ينجح أولاده فى الامتحان، فقد علِقَ هذا بذهنه هو وزملائه بعد ذلك، وموقف الليلة لم يكن ليمحوه أى شىء، وتساءل لماذا تزوجت أمه من أبيه، إذا كان حقًا وغدا؟ كان شيئا غير لطيف بالمرة أن يكون لديـــه أب وغد. والأسوأ من ذلك أن كروم قد نطق الكلمة ونعتـــه بالوغـــد، أدرك أن والده لم يكن شخصًا جيدا ولكنه أسوأ وأقبح شىء حدث لـــه أبدًا، فهذا هو أسوأ شىء ممكن أن يحدث لأى شخص، وأحس بأنـــه جرح كما لو لم يجرح من قبل، فأحس بخيبة أمل لم يشعر بهـــا مـــن

قبل. وصل إلى جرين استريت ودلف إلى بيته، وفى غرفة الطعام كانت وجبة البيض جاهزة على المائدة فى غرفة تناول الطعام إلى جانب الخبز والزبدة والقليل من الويسكى فى قاع الزجاجة، كانت كمية كافية من وجهة نظر وينفريد، لكى يشعر أنه أصبح رجلا، كان محبطًا حتى إنه لم ينظر إلى الطاولة، وصعد السلالم وسمعته وينفريد يعبر من أمام حجرتها فقالت:

- "جاء ولدى العزيز. الحمد لله، فلو أن هذا الولد يشبه والده، فماذا يسعنى أن أفعل، هو ليس مثله، إنه مثلى. حبيبى قال!"

الفصل الثالث

سومز يُعِد لبعض الإجراءات

عندما دخل سومز إلى غرفة الاستقبال لويس كويز الخاصة بأخته والتى يوجد بها شرفة صغيرة ممتلئة دائما بالأزهار اليانعة فى الصيف والآن بأوانى ليليام أورتيوم الفخارية، صدمه وابل من المشاعر الإنسانية التى لا تتغير، فقد بدا الأمر كما كان فى زيارته الأولى للزوجين دارتى فى بداية زواجهما منذ واحد وعشرين عامًا. لقد اختار أثاث المنزل بنفسه ولم تستطع إطلاقًا أى إضافة أن تغير من شكل الغرفة. نعم، لقد أسس لأخته بيتًا جيدًا، وهى أرادت ذلك، حقا، لقد كان من الجيد بالنسبة لـ وينفريد أنه بعد كل هذا العمر مع دراتى، مازال أثاثها بخير، منذ البداية فهم سومز شخصية دراتى التى كان يخفيها وراء قدرته على التنكر والمظهر الجيد الذى بهر عينى وينفريد، وأمها، وحتى چايمس لدرجة موافقتهم على زواجه بابنتهم دون أن يقدم أى شىء وكان هذا خطأ جسيمًا.

وينفريد التى لاحظها سومز بالقرب من الأثاث، كانت تجلس على مكتبها وفى يدها خطاب، نهضت وسارت تجاهه، وهى فى مثل

طوله تقريبًا، ملامح وجهها قوية، مظهرها حسن، ولكن هناك شيء ما في وجهها أزعج سومز، طوت الخطاب في يدها، لكنها غيرت رأيها وأعطته لـ سومز، لقد كان محاميًا بجانب كونه أخًا لها. قرأه، وكان مكتوبا على ورقة تخص نادي إيسيوم:

"لن تحظى بفرص لإهانتي مرة ثانية، سوف أغادر البلاد غدًا؟ انتهى كل شيء، لقد سئمت من إهانتك لي، لقد جنيت على نفسك. ليس هناك رجل يحترم ذاته يقبل بذلك أبدًا، لن أطلب منك أي شيء ثانية، إلى اللقاء، أخذت صور بناتي، بلغيهم حبي لا أهتم لما تقوله عائلتك؛ فهذا كل ما يقدرون عليه. سوف أحيا من جديد".

مونتاج دارتي

تلك الرسالة القصيرة التي وصلت بعد العشاء كان أثرها غير لطيف. نظر سومز إلى وينفريد، فقد كان ذلك يظهر عليها بوضوح. دقق في الكلمات:

- "الحمد لله على الخلاص!"

ثم شعر سومز أن أخته وينفريد بعد هذا الخطاب قد أصبحت في الوضع نفسه الذي أراد بشدة الخروج منه، وهو وضع فرد من عائلة فورسايت لم يحصل على الطلاق بعد.

ابتعدت وينفريد، وكانت تستنشق رائحة تنبعث من زجاجة صغيرة عنقها ذهبى اللون، لقد كان موقفًا غبيًا تسبب في شعور جارح زحف إلى قلب سومز الذى جاء إليها ليتحدث معها عن مشكلة إيرين وهى تواسيه وتخفف عليه أحزانه، ولكنها الآن أصبحت فى موقفه نفسه وتريد أن تتحدث إليه ليواسيها ويخفف عنها، دائما ما يكون الأمر كذلك، فلا أحد يظهر عليه مشاكله الخاصة، طوى الخطاب بما فيه وقال :

- "والآن، عما كان يتحدث دراتى فى خطابه؟ "

حكت له وينفريد قصة اللآلئ التى أخذها دارتى بهدوء

-"هل تعتقد أنه حقًا رحل يا سومز؟ هل تتخيل الحالة التى كان عليها عندما كتب ذلك الخطاب "

سومز الذى إذا أراد شيئًا تظاهر بأنه لا يفكر به فإذا أتى فلا بأس أجاب:

"يجب ألا أفكر بهذه الطريقة، سوف أسأل عنه فى النادى الذى يشترك فيه"

قالت وينفريد:

- "لو أن چورچ هناك، فإنه سوف يعرف"

قال سومز: چورچ؟

- "رأيته فى جنازة والده".

- "من المؤكد أنه هناك"

أسعد سومز حسن حدس أخته ثم قال بحقد:

- "حسنا، سأحاول أن أعرف أى شىء من بعيد، هل قلـتِ أى شىء فى بارك لين؟"

- "لقد أخبرت إيملى".

وأبقت على استخدام أسلوب لبق فى التحدث عن والدتها "أمـا أبى فيمكن أن يصاب بصدمة"

حقا، لقد أبقوا أى خبر سيئ بعيدًا عن چايمس. بنظـرة ثانيـة للأثاث كما لو أنه يقيس الوضع الفعلى لأخته خرج سـومز متوجهًـا إلى بيكاديللى. كان الجو باردًا فى تلك الليلة من ليل أكتـوبر. سـار بسرعة، عليه أن ينتهى بسرعة، لأنه رغب فى تناول العـشاء فـى سوهو، سأل سومز الحارس الذى قال إن السيد دارتى لم يـأتِ إلـى النادى اليوم، فسأله عما إذا كان چورچ فورسايت فى النـادى أم لا. سومز الذى كان ينظر دائمًا إلى ابن عمه چورچ باستياء لأنـه كـان ميالاً إلى السخرية منه، تبع الغلام إلى حيث يجلس چورچ فورسايت وهو يفكر كيف أن چورچ الذى فقد والده ورث حوالى ثلاثين ألـف جنيه إسترلينى إلى جانب الهبة الشرعية مع روجر والتـى جانبهـا ضريبة الميراث، وقد وجد چورچ واقفا فى نافذة بارزة، محدقا فـى

الخارج، طويلا، وأمامه طبق به نصف فطيرة مافن(*)، طوله وضخامته وملابسه السوداء بدت وكأنها تلوح بتهديد وشيك ولكن مع الاحتفاظ بطبعٍ حَذِق لرجل ينحدر من أسرة عريقة، قال بابتسامة باهتة على وجهه الممتلئ:

- "مرحبا سومز، تفضل قطعة مافن"

- "لا، شكرا"

تمتم سومز، وهو يمسك بقبعته، يرغب فى أن يواسى چورچ ويلاطفه، أضاف:

- "كيف حال والدتك؟"

"شكرًا، بخير، لم ترك منذ سنوات، أنت لا تذهب للسباقات، كيف حال المدينة؟"

اشتم سومز رائحة السخرية فاقترب وسأله:

- "أردت أن أسألك عن دارتى؟ سمعت أنه...".

- "رحل، أخذ قرارًا مفاجئا بالذهاب إلى بوينوس إيريس مع لولا الجميلة، هذا أفضل بالنسبة لـ وينفريد وأطفالها، إنه خائن".

(*) المافن نوع من أنواع المخبوزات الإنجليزية.

أومأ سومز برأسه موافقًا، بشكل طبيعـــى يكـــون أولاد العـــم معاديين لبعضهم بعضًا، دارتى وما فعله جعلهم يقتربون من بعضهم بعضًا. استأنف چورچ

- "العم چايمس سوف ينام فى سريره الآن، أظن أنه كان لديه الكثير من الأشياء بعيدا عنك أيضًا"

ابتسم سومز: "آه، أنت رأيته عن قرب"

قال چورچ بتودد: "إنه مستفز حقا،قال سوف يحتاج إلى مـــن يعتنى به، وقد كنت دائما حزينا لأجل وينفريد، إنها امـــرأة شـــجاعة" أومأ سومز وقال:

- "لابد أن أعود إليها، لقد أرادت أن تتأكد فقط، وربما نبدأ فى اتخاذ بعض الإجراءات"

قال چورچ – "أعتقد أنه لا بأس بهذا"، لقد كان هو السبب فى وجود هذه الأقاويل الغريبة والتى نسبت لشخص آخر، لقـــد شـــرب لدرجة السكر كشخص من علية القوم فى تلك الليلة الأخيرة؛ ولكنـــه كان بخير عندما رحل فى الصباح، سفينته متوجهة إلى التوسكارورا" والتقط بطاقة وقرأ بسخرية:

"السيد مونتاج دارتى، بوست ريستانت، بوينوس إيريس، يجب أن أسرع خطواتى، لو كنت مكانـــك.. لقـــد أغـــاظنى بحـــق بالأمس"

"نعم" قال سومز؛ لكن الأمر ليس دائما بهذه السهولة، "أدرك شيئا فى عينى چورچ والذى أثار ذكريات الأحداث الماضية لشئونه الخاصة، ثم نهض ومد يده للمصافحة ونهض چورچ أيضا .

- "سلامى إلى وينفريد، سوف تدخلها فى إجراءات الطلاق، افعل فورًا بلا تردد، هذا هو رأيى".

رمقه سومز بنظرة جانبية طويلة للخلف فى طريقه للخروج، جلس چورچ مرة ثانية وكان يحدق أمامه لقد بدا ضخما ووحيدا فى هذه الملابس السوداء، ولم يعرفه سومز مقهورا هكذا من قبل، أظن أنه، بطريقة ما، يشعر بهذا"

فكر سومز لابد أنه لدى كل فرد منهم خمسون ألف جنيه إسترلينى، يجب أن يحتفظوا بأملاكهم معا، فلو قامت الحرب، فإن أسعار العقارات سوف تهبط إلى درجة كبيرة، العم روجر كان رجلا حكيما حقا، وعادت إلى خاطره صورة أنيت فى ظلمة الشارع؛ بشعرها البنى اللون، وعينيها الزرقاوين ورموشها السوداء، شفاهها ووجنتيها الورديتين، والساطعتين على الرغم من وجودها فى لندن، وقوامها الفرنسى الرائع، "اتخاذ بعض الإجراءات!" فكر سومز فى ذلك وهو يدخل بيت أخته مرة ثانية صادف ڤال ودخلا البيت معا ثم ساورته فكرة ما فابن عمه چوليون كان وكيل وقف إيرين، الخطوة الأولى أن يذهب إلى روبين هيل ويقابله هناك، روبين هيل الشعور

الغريب بهذه الكلمات أعاده إلى الماضى روبين هيل حيث البيت الذى بناه بوسينى لأجله هو وإيرين، البيت الذى لم يقيما فيه أبدا ذلك البيت اللعين! وچوليون يقيم فيه الآن، هو فكر: "يقولون إن لديه ولد فى أكسفورد لِمَ لا آخذ ڤال وأذهب إلى هناك ليتعرفا ببعضهما بعضًا؟ سيكون ذلك مبررا للذهاب بسيطًا جدا! لذلك وهما يصعدان السلالم، قال لـ ڤال:

- "لديك ابن عم فى أكسفورد، لم تقابله من قبل، أود أن آخذك معى فى الغد حيث يقيم وأعرفك به، سيكون ذلك مفيدا بالنسبة لك"

استقبل ڤال، الفكرة بصدر رحب، وحسم سومز الأمر، وقال:

- "سوف نذهب بعد الغداء، إنهم فى الريف، ليس بعيدا؛ سوف تستمتع بذلك".

وهو على عتبة حجرة الاستقبال، عادت إلى خاطره تلك الإجراءات التى فكر فيها لكى يحل مشكلة وينفريد.

كانت وينفريد لا تزال تجلس فى حجرة مكتبها. قال:

"الخبر صحيح"، رحل إلى بوينوس إيريس، بدأ رحلته هذا الصباح، من الأفضل لنا أن نراقبه عندما ترسو السفينة، سوف أرسل برقية على الفور ولكن ربما نتكلف الكثير من النفقات، وكلما أسرعنا فى هذه الأشياء كان أفضل، فأنا دائما أندم لأننى لم أفعل..."

وصمت فجأة ونظر جانبا إلى وينفريد الصامتة التى كانت ساكنة وصامتة، واستأنف قائلا:

- "هل يمكنك أن تثبتى سوء معاملته لك؟".

قالت بصوت مكتوم :

- "لا أعرف، كيف تكون سوء المعاملة"

- "حسنا، هل ضربك أو شىء ما من هذا القبيل؟"

هزت وينفريد رأسها، وقالت:

- "يلوى ذراعى، أو يشير إلى بالمسدس، أو يشرب حتى يفقد وعيه ويتجرد من ملابسه، أو... لا... لا أستطيع أن أدخل الأولاد فى هذا الموضوع"

قال سومز:

- "لا، بالطبع لا، أنا أسأل فقط!، هناك انفصال قانونى، يمكننا أن نحصل على هذا، لكن الانفصال"

سألت وينفريد وقد بدت عليها الكآبة:

- "ماذا يعنى ذلك؟"

- "أنه لا يمكنه أن يلمسك أو تلمسيه؛ فأنتما متزوجان ولستما متزوجين"

وتابع قائلا بطريقة جاسمة

- "يجب أن نحصل على الطلاق، فهناك حجة قوية وهي العنف والهجران، هناك تقصير في واجباته الزوجية لمدة سنتين، الآن، يجب أن نذهب إلى المحكمة لكي تعطينا قرارا برد الحقوق الزوجية، وإذا لم ينفذ القرار فإننا يمكن أن نحصل على الطلاق خلال ستة أشهر، بالطبع أنتِ لا تريدين عودته، لكن يجب ألا يعرف أحد بهذا. ربما يأتي لينفذ القرار وحينها سنرفع دعوى ضده لاستخدامه العنف والقسوة في معاملته إياك".

هزت وينفريد رأسها قائلة: " هذا شيء كريه جدا "

تمتم سومز: " حسنا، ربما لن يكون هناك مخاطرة كبيرة لأنه يمكن أن يأخذ بعض المال ويرحل، لا تخبري أى شخص بأى شيء، ولا تدفعي أيًا من ديونه."

تنهدت وينفريد فعلى الرغم مما حدث لها، كان الإحساس بالخسارة ثقيلا على صدرها، وفكرة أنه لم يعد قادرًا على سداد ديونه جعلها تشعر بإحساسٍ لم تختبره من قبل، فها قد ولت بعض الثروات بلا رجعة، أن تعيش هكذا من دون زوجها، من دون مجوهراتها، من دون هذا الإحساس القوى بأنها كانت شجاعة وهى تقاوم هذه الدوامة من الأحداث الخطيرة، سوف تكون مضطرة الآن لأن تواجه العالم.

وقد أحست بأنها تشجعت وبالقبلة الباردة التى تركها سومز على جبين أخته كان قد ترك شيئًا أكثر دفئًا مما اعتاد عليه.

قال سومز:

- "يجب أن أذهب إلى روبين هيل غدا لكى أرى چوليون لأمر ما خاص بالأعمال، لديه ابن فى أكسفورد. أود أن آخذ فال معى وأعرفه عليهم، تعالى إلى منزلى فى نهاية الأسبوع وأحضرى معك الأولاد.. أوه، على كل حال، لا، لن يجدى هذا، وسوف يأتى إلى ضيوف آخرون"

وهو يقول ذلك، تركها وتوجه إلى حى سوهو .

الفصل الرابع

سوهو

من كل الأحياء المحفوفة بالمخاطر فى لندن، كان حى سوهو أكثرها لا مناسبة لأى فرد من أفراد عائلة فورسايت العريقة، "سوهو ذلك الحى المخيف!" كان چورچ فورسايت ليقول هذا لو أنه رأى ابن عمه يذهب هناك، حى فوضوى، ممتلئ باليونانيين، والإيطاليين، واليهود، والقطط، والطماطم، والمطاعم، والآلات الموسيقية، والأقمشة الملونة، والأسماء الغريبة، وناس يطلون من النوافذ. يقع بعيدًا عن الكتلة الإنجليزية النقية والنبيلة، ولكن الحى أيضًا كانت به روح الامتلاك العشوائية مما أكد على ازدهار سوق العقارات فيه، فجعل قيمة الإيجارات فيه مرتفعة فعلى الرغم من هبوطها فى الأحياء الأخرى، لسنوات طويلة كانت معرفة سومز بحى سوهو مقيده بتردده على الشارع الغربى، شارع ووردور حيث كسب العديد من الصفقات هناك، حتى فى أثناء تلك السنوات السبعة فى برايتون بعد وفاة بوسينى وفرار إيرين، وكان قد اشترى أشياء لا تقدر بثمن من هناك، وكانت كثيرة لدرجة أنه لم يجد مكانا يضعها فيها، وعندما

تأكد من أن زوجته ذهبت بلا رجعة وضع لوحة إعلان في ميدان "مونتبيلير"

"للبيع"

للاستعلام شارع كورث بيلجرافيا

تم بيع المنزل في خلال أسبوع، هذا المنزل الجميل في ظل الكمال الذي اتصف به، رجل وامرأة داسا على قلبيهما.

في ليلة مملوءة بالضباب في شهر يناير، بالضبط قبل أن يتم نزع ذلك الإعلان الخشبي لبيع المنزل، ذهب سومز إلى هناك مرة أخرى، ووقف عند سور من قضبان خشبية حول المنزل، ينظر إلى نوافذه المعتمة، واجتر الذكريات التي أصابته بمرارة شديدة في فمه، لماذا لم تحبه؟ لماذا؟ لقد لبى لها كل رغباتها وبالمقابل أعطته لمدة ثلاث سنوات طويلة كل ما أراد باستثناء قلبها، تأوه، وهو يشعر بالألم النفسي، دون تفكير، ثم مر عليه رجل شرطة ينظر إليه في ريبة، فهو لم يعد له الحق أن يعبر ذلك الباب الأخضر ذا المطرقة النحاسية تحت لوح الخشب الذي يحمل الإعلان "للبيع"، انتابه شعور خانق، وجرى بخطوات سريعة في الضباب، تلك الليلة ذهب إلى برايتون ليعيش حياته.

باقترابه من شارع مالتا، وحي سوهو، ومطعم بريطانيا، حيث تقدم أنيت قدمًا وتؤخر أخرى خشية تحمل المسئولية. وفكر سومز

باستغراب فى هذه السنوات السبع التى قضاها فى برايتون، وكيف أنه أستطاع أن يستمر فى حياته، بعيدًا عن رائحة البازلاء الحلوة، كيف استطاع أن يعيش فى مكان لم يتسع حتى لممتلكاته التى لا تقدر بمال؟ صحيح أن هذه السنوات لم يكن فيها وقت للنظر إليها والاهتمام بها، سنوات كرس فيها حياته لكسب المال ووضع الثروة، فى هذه السنوات أصبح فورسايت وبوستارد محاميين استشاريين لشركات محدودة، ربما أكثر مما أراد. يذهب إلى المدينة فى الصباح فى سيارة بولمان، ويعود فى المساء فى سيارة بولمان، كان يدرس الأوراق القانونية بعد العشاء، ثم ينام من التعب ويصحو فى الصباح التالى ليفعل الشيء نفسه، قضى الأيام من السبت إلى الإثنين فى ناديه فى المدينة، حيث إنه بعد العمل الشاق يحتاج إلى نسيم البحر العليل للترويح عن نفسه، فيذهب إلى المحطة ويعود ليشم الهواء مرتين فى اليوم، ومن المؤكد أن ذلك يهدئ من انفعالاته الداخلية، الزيارة التى يقوم بها يوم الأحد لعائلته فى بارك لين ولبيت تيموثى، ولشارع جرين، الزيارات الدورية بدت له ضرورية ومهمة لصحته مثل نسيم البحر فى أيام العمل، وقد حافظ على هذه العادات منذ ذهابه ليسكن فى بيته بالقرب من مابلدرهام حتى تعرف على أنيت.

إما أن أنيت كانت السبب فى هذه التغييرات فى حياته أو أن هذه التغيرات هى التى قادته إليها، وهو لا يعرف أكثر مما نعرف نحن أين كانت البداية؟ إن وجود ثروة وأملاك بلا وريث؛ يعاكس

نظرية فورسايت التى تؤمن بضرورة وجود الابن الذى يمثل الامتداد والذى سوف يحافظ على اسم العائلة وأملاكها، وفكرة أنه لن يترك وريثًا لهذا جعله مكتئبًا بعض الشيء فى السنة الأخيرة وربما لمدة أطول من هذه.

فى ليلة من شهر أبريل وبعد شراء قطعة من "الوَجْوود"(*) ذهب إلى شارع مالتا لكى يلقى نظرة على بيت والده الذى تحول إلى مطعم، كان هذا خطرًا؛ فكان عليه ألا يفعل طبقًا لشروط العقد، عندما وصل إلى هناك حدق فى واجهة المبنى ذات اللون الأصفر الباهت، والأحواض الزرقاء التى تحوى أشجار الغار الصغيرة عند الباب الخلفى، وحدق فى اللوحة التى تحمل اسم المطعم على واجهته. وكان اسمه مكتوبا بحروف ذهبية مطعم بريتان، فقد أعجبه كثيرًا، وبدخوله إلى المطعم لاحظ العديد من الناس يجلسون حول موائد صغيرة خضراء مستديرة وعليها زهريات بها أزهار يانعة وأطباق، ونادى على نادل فى المطعم وطلب منه أن يرى المالك، أخبره أنها فى الغرفة الخلفية، كان هناك فتاة تجلس على مكتب بسيط مغطى بورق، وطاولة صغيرة مستديرة وضعت لشخصين، أعطاه ذلك انطباعًا بالنظافة والذوق الرفيع الذى تأكد منه عندما نهضت الفتاة وقالت بلغة إنجليزية متعسرة:

(*) نوع من الخزف الثمين.

- "هل تريد مقابلة أمى، سيدى؟

أجابها سومز قائلا:

- "أنا أمثل صاحب العقار، فى الحقيقة أنا ابنه"

- "تفضل يا سيدى بالجلوس"

وقال للنادل:

- "لو سمحت؟ أخبر أمى أن تأتى لمقابلة السيد"

كان يشعر بالسرور لأن هذه الفتاة حازت على إعجابه، وعندما أمعن النظر إليها، لاحظ أنها جميلة جدا، جميلة جدا جدا حتى أنه لم يستطع أن يحول نظره عنها، عندما ذهبت لكى تضع له كرسيًا، كانت تتمايل بطريقة فضولية، وكان سومز يراقبها بعينيه وهو رجل ذو مهارة خاصة فى اكتشاف الجمال، وقد كانت رقبتها ووجهها مكشوفين قليلا، وقد بدتا جميلتين كما لو كان الندى يغطيهما، من المحتمل فى هذه اللحظة أن يقرر سومز ألا يفسخ عقد الإيجار، فربما كان هو ووالده قد قررا فسخ العقد بسبب ما فعلته السيدة لاموت بتحويل المنزل إلى مطعم، تحجج ببعض الموضوعات التى سيتم مناقشتها فى المستقبل، ذلك يتطلب زيارات فى الأيام المقبلة، ولهذا السبب اعتاد الذهاب إلى المطعم ودخول تلك الحجرة. كان وجهه شاحبا، له شارب مقصوص وشعر أسود ليس أشيب من جانبى الرأس.

لاحظت السيدة لاموت أن سومز رجل لطيف، ومهذب، وكانت تلاحظ عينيه المثبتتين على ابنتها .

كانت إحدى هؤلاء النساء الفرنسيات ذوات الشعر الأسود والوجه الجميل والجسد الرائع، وكان أسلوبهن، ونغمة صوتهن تدل على ذوقهن الرفيع، درايتهن بالشئون المنزلية، توفير الأموال لزيادة أرصدتهن فى البنوك.

بعد أن بدأت زياراته إلى مطعم بريتان توقفت دون قصد، بالنسبة لـ سومز، مثل كل أفراد عائلة فورسايت، والأغلبية من مواطنيه، ولد لديه شعور بالسيطرة الفطرية، لكن كل ذلك التغير فى طريقة حياته والذى جعله يدرك أهمية أن يتحول من رجل متزوج غير متزوج إلى رجل متزوج متزوج، متجهًا إلى شارع مالتا، تلك الليلة فى أوائل أكتوبر عام ١٨٩٥، اشترى جريدة لكى يرى ما إذا كان هناك أى تطور فى قضية دريفوس، سؤال وجده مفيدا فى التقرب من السيدة لاموت وابنتها اللتين كانتا كاثوليكيتين وضد الدريفوسية.

وهو يتفحص تلك الأعمدة فى الجريدة، سومز لم يجد شيئا فرنسيا، لكن لاحظ هبوطا عامًا فى البورصة والمقالة الافتتاحية المشئومة عن الترانسفال.

دخل وهو يفكر:

-"الحرب أصبحت أكيدة، لابد أن أبيع بضاعتى".

ليس لديه منها الكثير، معدل الفائدة كان سيئًا جدًا، لكن يجب عليه أن ينصح شركاته، يمكن أن تهبط أسعار البضائع إلى درجة كبيرة، نظرة وهو يمر من الأبواب الخلفية للمطعم أكدت له أن العمل يسير بشكل جيد كالمعتاد وقد أسعده ذلك كثيرًا في شهر أبريل، الآن قد سبب له اضطرابًا وقلقًا كبيرًا، لو أن كل التدابير والإجراءات التي اتخذها أدت في النهاية إلى زواجه من أنيت، فيمكن لأمها أن تذهب إلى باريس لتعيش هناك بأمان، لكن نجاح المطعم وازدهاره كان عائقًا في طريق ذلك، سيضطر إذن لشرائه منهما، بالطبع، ذلك يعني سعرًا أعلى للمطعم، لأن الفرنسيين أتوا إلى إنجلترا لكسب المال وصنع الثروة، لم يهتم سومز للمال الذي يمكن أن يدفعه لشراء المطعم في مقابل ذلك الإحساس الجميل وخفقان قلبه الذي اعتاد عليه عند باب حجرتها الصغيرة.

وأمام المطعم لمح سومز تنورة سوداء تختفي إلى داخل المطعم، كانت أنيت وهي تضع يدها على شعرها وقد أعجب الكثيرون بهيئتها الجميلة هذه رآها تقف منتصبة في خفة ورشاقة، وقال:

- "جئت فقط للتحدث إلى والدتك عن إزالة ذلك الحاجز، لا، لا تناديها".

- "ما رأيك في تناول العشاء معنا، سيدي؟ سوف يكون جاهزًا في غضون عشر دقائق"

سومز الذى مازال يمسك يدها وقد فاجأته دفقة من النبـــضات قـــال:

- "تبدين جميلة جدا الليلة، ألا تعرفين كم تبدين جميلة، أنيت؟"

سحبت أنيت يدها واحمر وجهها خجلاً وقالت:

- "السيد لطيف جدًا".

جلس سومز ووجهه مكفهر قائلاً:

- "ليس لطيفًا على الإطلاق".

لوحت أنيت قليلاً بيدها بشكل معبر، ارتسمت ابتسامة خفيفـــة على شفتيها الورديتين.

ونظر سومز إلى تلك الشفاه وهو يقول:

- "هل أنت سعيدة هنا، أم ترغبين فى العودة إلى فرنسا؟"

- "أوه، أنا أحب لندن، وباريس بالطبع. لكن لندن أفضل مـــن أولاينز، والريف الإنجليزى جميل جدا. لقـــد ذهبـــت إلـــى ريتشموند الأحد الماضى"

وشعر سومز بلحظة من الصراع بداخله. هـــل تجـــرأ علـــى الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك، ويحكى لها عن بيته هنـــاك والـــذى يطل على النهر، هناك يمكن أن يقول أشياء كثيرة، أمـــا فـــى هـــذه الغرفة فمستحيل أن يقول شيئًا، قال سومز فجأة:

- "أود أن تأتى أنتِ وأمك الأحد القادم بعد الظهيرة إلى بيتى عند النهر، إن الجو جميل جدًا هناك؟ وسوف أريكما بعض اللوحات الجميلة، ما رأيك؟"

شبكت أنيت يديها وقالت:

- "سيكون شيئًا لطيفًا. النهر جميل جدًا".

- "فهمت إذن سوف أدعو السيدة لاموت بنفسى!".

لا يمكنه أن يتحدث معها أكثر من ذلك هذا المساء، خشية أن يفضح نفسه لكن ألم يقل بالفعل أشياء كثيرة؟ هل يمكن لرجل أن يدعو مالكة مطعم وابنتها إلى بيته الريفى دون التنسيق والتنظيم لتلك الزيارة؟ السيدة لاموت سوف تفهم، إذا لم تفهم أنيت حسنا ليس هناك شيء أكثر لا تفهمه السيدة لاموت، إلى جانب ذلك كانت هذه هى المرة الثانية التى يتناول فيها العشاء معهما؛ هو مدين لهما، مدين لهما باستضافة. سار سومز إلى البيت متمشيًا باتجاه بارك لين فقد كان يقيم فى بيت أبيه، وكان لا يزال تأثير نعومة قفاز يد أنيت فى يده حتى الآن، كانت أفكاره سعيدة، شهوانية ومرتبكة كثيرًا، ولكن كان يفكر فى أخذ الخطوات اللازمة! خطوات؟ كيف؟ هل يفضح سره؟ فقد كان مشهورًا ببعد النظر ومساعدة الآخرين على التخلص من مشكلاتهم وقف هكذا؛ لكى يكون لعبة هذا القانون الذى كان دعامته! كانت الفكرة مقززة لحدٍ ما، كانت مشكلة وينفريد سيئة بما

فيه الكفاية على أن يكون بالعائلة مشكلتين هكذا. ليس لعلاقة غرامية أن تكون أفضل من هذا، علاقة غرامية! وولد يمكن أن يتبناه! ولكن قوة شخصية مدام لاموت قد قطعت الطريق أمام هـذه الفكـرة، لا، هذا لن يجدى، كان الأمر كما لو أن أنيت لن تحبه، ولكن المـرء لا يتوقع هذا فى مثل سنه، فكر لو أن أمها تمنت ذلك، فلو كـان مـدى استفادتها ومنفعتها كبيرًا فربما، ولكن لو كان الأمر غير ذلك فسيكون الرفض أكيدًا، فكر سومز قائلاً لنفسه:

-"إلى جانب أننى لست شريـرًا. أنـا لا أريد أن أؤذيهـا؛ ولا أريد أن أفعل شيئًا فى الخفاء. لكننى حقا أريدها وأريد أن يكون لدى ابن، لا شىء يساعدنى على الوصول لذلك سـوى الطلاق، بأى حال من الأحوال، مهما حدث، الطلاق".

تحت ظل الأشجار، فى ضوء المصابيح، تمشى بـبطء علـى طول الطريق إلى بارك لين. الضباب كان معلقا هناك بين الأشـجار، خلف المصابيح. لقد تمشى مئات المرات أمام هذه الأشجار آتيـا مـن بيت والده فى بارك لين، عندما كان شابًا، أو مـن بيتـه فـى ميـدان مونتبيليير خلال أربع سنوات من حياته الزوجية والليلـة يفكـر فـى تحرير نفسه فلو كان باستطاعته أن يتخلص من هذا الرباط الزوجـى الطويل وغير المجدى. رغب فى أن يتمشى، فى هايد بارك كـورنر، خارج نايسبريدج جيت، تماما كما اعتاد عندما كان يذهب إلـى بيـت إيرين فى الأيام الماضية. وكيف تبدو الآن؟ كيف مرت عليها كل هـذه

السنوات منذ أن رآها آخر مرة، منذ اثنى عشر عامًا، سبعة سنوات بالفعل منذ أن ترك لها الجد چوليون المال؟ هل مازالت جميلة؟ هل سيعرفها إذا رآها؟ "أنا لم أتغير كثيرا" فكر "أظن أنها تغيرت، تسببت فى المعاناة لى" تذكر فجأة ليلة واحدة، الليلة الأولى التى يتناول فيها العشاء وحده فى العام الأول لزواجهما. بهذا الحنين والشوق عاد إلى الماضى وتذكر كيف كان يسرع خطاه حتى يصل إلى البيت، ويدخل متسللا كقطة، فيسمعها تعزف، ويفتح باب حجرة استقبال الضيوف بهدوء، ويقف مراقبا تعبيرات وجهها، مختلفة عما عرفه، حرة تماما، مطمئنة، كما كانت موسيقاها تعطى شعورًا بالشجاعة لم يره من قبل، تذكر كيف توقفت عن العزف ونظرت حولها، كيف تغيرت تعبيرات وجهها وأصبحت كما كان يعرفها، ويا لها من قشعريرة باردة سرت بداخله وعلى الرغم من كل هذا ففى اللحظة التالية كان يربت على كتفها برقة. نعم، لقد جعلته يعانى الطلاق، لقد بدا شيئًا مثيرًا للسخرية، فبعد كل هذه السنوات الطويلة من الانفصال التام؛ يفكر فى الحصول على الطلاق لكن من الضرورى أن يحصل عليه، ليس هناك حل آخر، "السؤال هو" أى منا؟ هى أم أنا؟ لقد هجرتنى. لابد أن تدفع الثمن. لابد أن هناك شخصًا ما فى حياتها، أعتقد ذلك؛ تمتم بتلك الأفكار بصوت مزعجٍ قليلا، ثم جعل وجهته العودة إلى بارك لين.

الفصل الخامس

رؤى چايمس

فتح كبير الخدم الباب بنفسه لـــ سومز، ثم أغلقه وراءه بهدوء، ووقف يتحدث معه عند الباب. قال بصوت خفيض:

- "السيد صحته معتلة بعض الشيء، سيدى، لم يــذهب إلـــى السرير حتى تأتى ومازال يجلس فى حجرة تناول الطعام".

رد سومز بصوته الهادئ تمامًا، الذى اعتاده البيت الآن:

- "ماذا به يا وورمسون؟"

- "عصبى يا سيدى، أظن ذلك، ربما بسبب الجنازة، ربما أتت السيدة دارتى اليوم بعد الظهيرة، أظن أنه سمع شيئًا ما، لقـــد تحدثت إليه على انفراد وذهبت للتو".

علق سومز قبعته على قرن أيل من خشب الماهوجنى.

- "حسنًا، وورمسون، يمكنك أن تذهب إلى النوم، سوف آخـــذه لحجرته بنفسى"

وسار إلى حجرة الطعام.

تعيش خمسة عشر عامًا أو عشرين عاما بعد وفاته وربما تنفق الكثير من النقود، فهى شخصية مسرفة، فهو يعلم أنها ربما تريد ان تشترى إحدى سيارات الأتوموبيل هذه. سيسيلى وراشيل وإيموجن وكل هؤلاء الشباب ركبوا هذه الدراجات الآن وانطلقوا، ولكن لحسن الحظ يعلم إلى أين. والآن رحل روجر. لم يعرف ولم يستطع أن يفعل شيئًا! العائلة تتفرق، سومز يمكن أن يعرف كم ترك عمه من أموال، بطريقة فضولية، فكر چايمس فى روجر كعم لـ سومز وليس كأخ له، سومز كان الأكثر صلابة فى عالم خفى. سومز كان شخصية حريصة، كان رجلا ممتلئًا بالحيوية والنشاط، لكن لم يكن لديه وريث يترك له ثروته، كان الأمر كذلك! كان هناك ذلك الرجل تشامبرلن كانت مبادئ چايمس السياسية مرتكزة بين عامى ١٨٧٥ و١٨٨٥ عندما كان هذا الاتجاه الراديكالى الخطير يمثل الشوكة الرئيسة فى جانب فكرة "الملكية والأملاك". أين كان سومز؟ ذهب إلى الجنازة، بالطبع، التى أخفى أمرها عنه، علم ذلك جيدًا؛ روجر فى كفنه! تذكر كيف أنه عندما كان يعودان من المدرسة معًا فى الغرب عام ١٨٢٤؛ روجر كان يذهب لينام. چايمس تمتم بثرثرة قليلة، كان رجلا رائعا! كان چايمس يتعجب كيف أنه أصغر منه ويموت قبله، العائلة تتفرق وقال حفيده كان ذاهبًا إلى الجامعة فى أكسفورد؛ لم يأتِ ليراه الآن، سوف يتكلف الكثير من الأموال هناك، إنه فى سن تتميز بالإسراف فى النفقات، وتخيل الأموال التى سينفقها أحفاده الأربعة، لم يبخل عليهم أبدًا بالمال، ولكنه خشى

بشدة مخاطر إسرافهم فى إنفاقه، وسيسيلى تزوجت الآن وربما سيكون لديها أولاد هى أيضًا، لا يعرف!، لا أحد يفكر هذه الأيام إلا فى إنفاق المال، يتسابقون عليها ليقضوا ما يطلقون عليه "وقتًا لطيفًا".

مرت سيارة أتوموبيل من أمام الشباك وكان يرى أنها شىء قبيح وضخم يجر نفسه ببطء، يسبب ذلك الصخب لكنه فرض نفسه فى الحياة، أصبح الناس فى عجلة دائما حتى إنهم لم يصبحوا قادرين على مراعاة الذوق العام. تغير حياة.. وكذلك سندات دين الحكومة لابد وأن هناك الكثير من المال فى البلد. والآن يوجد كروجر العجوز هذا. حاولوا أن يبقوا كروجر العجوز بعيدًا عنه، لكنه عرف جيدًا أن هناك فوضى تحدث الآن واختلاطًا للأشياء! كان قد علِم كيف ستصبح الأمور عندما مات جلاد ستون فى هذا الوقت، حمدًا لله، فقد أحدث الرجل فوضى عارمة بعد هذا العمل البغيض فى ماجوبا، لن يندهش الآن إذا انقسمت الإمبراطورية وتدهورت وخربت، وقد استغرقت هذه الرؤية لتدهور الإمبراطورية ربع ساعة كاملة من الخوف والارتياب.

بسبب هذه الرؤى تناول چايمس القليل من غذائه، لكن بعد الغداء حدث توتر شديد لأعصابه، فقد كان يغفو قليلاً عندما سمع بعض الأصوات، أصواتا منخفضة، آه.. لا يخبرونه بأى شىء أبدا وينفريد وأمها، مونتى! ذلك الرجل دارتى دائمًا ذلك الرجل دراتي

تراجعت الأصوات تدريجيا وظل چايمس وحيدًا، وأذنـــاه تنتـصبان كأذنى أرنب برى ثم يخفضهما الخوف. لماذا يتركونه وحده؟ لمـــا لا يأتون ويخبرونه؟ وعادت إليه فكرة مرعبة كانت تطـــاردة لـــسنوات طويلة وهى أن دارتى مفلس. مفلس وغشاش، ولكى ينقـذ وينفريـد وأطفالها، يجب عليه أن يدفع نفقاتهم، هل يستطيع؟ هل يمكن لـ ســومز أن يعيده حتى إلى بعض الأعمال البسيطة؟ لا، لا يمكنه هذا. فى كل لحظة قبل عودة إيميلى كان الأمر يزداد سوءًا وشبح هــذه الرؤيــة يصبح أكثر فزعًا وإرهابًا، ولكن لماذا؟ ربما كان هذا كلـــه مجــرد وهم، وبعينين معلقتين على منتصف الحائط عانى جايمس العــذاب، رأى دارتى فى قفص الاتهام، وأحفاده على قارعـــة الطريــق فـــى الشوارع؛ وهو مستلقٍ على السرير، وكل العظمة والأملاك رآها قـــد انتهت، ورأى وينفريد ترتدى ملابس رديئة وبالية، وســمع صـــوت إيميلى تقول: "لا تتعب أعصابك الآن يا چايمس"

كانت دائما تقول "لا تتعب أعصابك"، لـــيس لـــديها إحـــساس ومشاعر، لم يكن يجب عليه أن يتزوج بامرأة تصغره بثمانية عـــشر عاما. ثم تنبه وسمع صوت إيميلى الحقيقى تقول:

- "هل قضيت قيلولتكِ چايمس؟"

قيلولة لقد قض مضجعه وهى تسأله ذلك السؤال.

قال وهو يحدق فيها:

- "ما أخبار دارتى؟"

غريزة الامتلاك لدى إيميلي لم تتركها، سألته بتودد:

- "ماذا كنت تسمع؟".

كرر جايمس السؤال:

- "ماذا عن دارتى؟ لقد أفلس".

بذل چايمس مجهودًا كبيرًا ونهض من مكانه، ثم قال:

- "أنت لا تخبرينى بشىء أبدا؛ لقد أصبح مفلسا"

التأثير السلبى لهذه الفكرة هو ما كان يهمها الآن، أجابت بجدية:

- "لا لم يفعل، لقد ذهب إلى بيونس إيريس"

ولو أنها قالت له إنه ذهب إلى المريخ، لكان أفضل من أن تسدد له هذه اللطمة بإخباره الحقيقة، رد چايمس قائلاً:

- "ما الذى جعله يذهب إلى هناك؟ ليس لديه نقود، ما الذى أخذه؟"

أثارتها أخبار وينفريد وحفزها ذلك الإلحاح المستمر منه لمعرفة الحقيقة، على أن تقول:

- "أخذ لآلئ وينفريد، وذهب مع راقصة".

قال چايمس:

"ماذا؟!"

وجلس مرة أخرى. سقوطه المفاجئ فى الكرسى أفزعها فوضعت يدها على جبهته وقالت:

- "لا تتعب أعصابك الآن يا چايمس"

تحولت وجنتاه وجبهته إلى اللون الأحمر القاتم، قال وصوته يتهدج غضبا:

- "لقد دفعت ثمن تلك اللآلئ، إنه لص! عرفت أنه سوف يتسبب فى موتى؛ هو..."

أصبحت الكلمات تخونه وقد عجز لسانه، ثم جلس هادئًا. إيميلى التى عرفته جيدًا، فزعت وقلقت عليه، ثم أسرعت باتجاه دولاب أدوات المائدة. حيث تحتفظ ببعض أملاح النشادر، ليفيق بها. لم تتمكن من فهم شخصية فورسايت المتصلبة التى تسرى فى هذا الجسد النحيل والمرتجف قالت إيميلى:

- "يجب عليك ألا تبالغ فى الحزن؛ فهذا لن يجدى. وبذلك لن تستطيع أن تهضم غذاءك وستصاب بنوبة، اشرب هذا".

أبعده چايمس بيديه ورفض أن يشرب، قال:

- "ما أخبار وينفريد؟ كيف سمحت له أن يأخذ لآلئها هكـــذا؟"
أدركت إيميلى المشكلة، قالت بارتياح :

- "يمكنها أنِ تأخذ اللآلئ الخاصة بى، لم ألبسهم قـــط. ومـــن الأفضل لها أن تحصل على الطلاق".

قال چايمس:

- "هذا ما وصلتِ إليه، الطلاق؟! لم تحدث حالة طـــلاق مـــن قبلِ فى العائلة، أين سومز؟"

-"سوف يكون هنا حالا"

"قال چايمس، بقسوة، :

- "لا، لن يأتى، هو فى الجنازة، أنتِ تعتقدين أننى لا أعـــرف شيئًا؟"

قالت إيميلى بهدوء:

-"يجب ألا تستغرق فى هذه الحالة من الغضب عندما نخبرك بأى شيء"

وسوت له الوسائد وتركت كوب ملح النشادر بجانبه وتركـــت الحجرة.

لكن چايمس جلس يتخيل الرؤى والأوهام. يرى وينفريد في المحكمة تطلب الطلاق، واسم العائلة على صفحات الجرائد، والتراب ينهال على كفن روجر، وفال يشبه والده في سلوكياته، واللآلئ التي دفع ثمنها من أمواله، لن يستطيع أن يرى أمواله تعود إليه بفائدة ٤٪ مرة ثانية، والبلد تذهب للكلاب يتحكمون فيها؛ وعندما أقبل الليل ومر ميعاد الشاي وتناول العشاء، تزايدت هذه الرؤى أكثر فأكثر، فلا يخبره أحد بشيء، وأمواله تذهب وتضيع، وهم لا يريدون أن يخبروه، أين سومز؟ لماذا لم يأت؟ أمسك الكوب ورفعه ليشرب، ورآه يقف هناك وينظر إليه، تنهد قليلاً ووضع الكوب ثم قال:

- "ها هو أنتِ، دارتي ذهب إلى بوينوس إيريس"

أومأ سومز برأسه قائلا:

-"هذا كله صحيح، الحمد لله على خلاصنا منه"

موجة من الأفكار هاجمت عقل چايمس، سومز كان الشخص الوحيد فيهم الذي لديه إحساس وشعور، لماذا لم يأتِ ليعيش في البيت؟ ليس لديه ابن، وقال بصوت نائح ينم عن الشكوى والأنين:

-" في مثل سني هذه أكون عصبيا، أتمنى أن تكون إلى جانبي طوال الوقت في البيت يا ولدي"

أومأ سومز ثانية، القناع الذي يغطي وجهه لم يفصح عن شيء، اقترب ولمس كتف والده بالصدفة وقال:

- "أرسلوا تحياتهم وحبهم إليك، فى بيت تيموثى سارت الأمور على ما يرام، ذهبت إلى بيت وينفريد لأطمئن عليها، سوف أتخذ الإجراءات اللازمة"

فكر ثم قال:

- "ولا يجب عليك أن تعرف ما هى هذه الإجراءات".

نظر چايمس لأعلى، ارتجف شعر لحيته الأبيض الطويل فى جوانب وجهه، بدت حنجرته الرفيعة مكشوفة وبارزة. وقال:

-" كانت صحتى معتلة طوال اليوم؛ هم لا يخبروننى بأى شىء"

انتفض قلب سومز

-"حسنًا، لا بأس، لا شىء مقلق. هلا اقتربت الآن؟ "

ووضع يده تحت ذراع أبيه، ووقف چايمس، وسارا معًا فى بطء إلى خارج الحجرة، التى كان مظهرها ثريا فى وهج النار، نزلوا السلالم ببطء شديد قال چايمس عند باب حجرته:

- "تصبح على خير يا ولدى"

أجاب سومز:

"تصبح على خير يا أبى".

وسحب يده من تحت الشال حيث كان ذراع والده النحيل، وسار بعيدا عن الضوء الذى كان عند باب الحجرة المفتوح، ودخل إلى حجرة نومه وهو يفكر:

- "أريد ابنًا"

الفصل السادس

لم يعد الشاب چوليون فى البيت

الأشجار تأخذ القليل من الوقت حتى تشيخ، ولكن شجرة البلوط الكبيرة فى الربوة فى روبين هيل لم تبدُ أبدًا أقدم وأكبر منذ أن استرخى بوسينى تحتها وقال لـ سومز:

"فورسايت، لقد وجدت الموقع المناسب من أجل بيتك"

ومنذ ذلك الحين استلقى سويزن تحتها يحلم، ومات الجد چوليون تحت أغصانها. والآن، بالقرب من الأرجوحة، لم يعد الشاب چوليون يرسم هناك، وقد كانت تلك الشجرة الأكثر قدسية من كل بقاع العالم بالنسبة له، لأنه أحب والده كثيرا .

وهو يتأمل جذعها العظيم، العالى سوف يفكر فى مرور الزمن، هذه الشجرة ربما شهدت كل التاريخ الإنجليزى، ولا عجب، فتاريخها يعود إلى عهد الملكة إليزابيث على الأقل، ولا تعنى سنوات عمره الخمسين شيئا إلى جانب عمرها الطويل وقوتها، فإذا بقى ذلك البيت الذى يقع خلفها، والذي يمتلكه هو الآن، ثلاثمائة عام بدلا من اثنى عشر عاما، فإن هذه الشجرة ستظل باقية وعظيمة؛ فمن يتجرأ وينتهك حرمتها ويقطعها؟

ربما يظل فرد من عائلة فورسايت مقيما فى هذا البيت ليحرسه ويحميه.

وتعجب چوليون، كيف سيكون طلاء البيت فى هذا الوقت، أى بعد ثلاثمائة عام، فالتلف يقترب من حوائطه، اختفى المظهر الجديد، هل سيبقى ويقاوم الزمن ليثبت براعة المهندس بوسينى الذى أبدع فيه، أم أن لندن العملاقة سوف تحيط به وتجعله فى ملاذ آمن وسط هذه البيوت غير متقنة البناء؟ كان چوليون مقتنعا أن بوسينى قد وضع فى هذا البيت كل روحه وإبداعه وقلبه، حقا! ربما يصبح أحد المنازل الأثرية فى إنجلترا.

إنجاز نادر يتجسد فى بيت، فى هذه الأيام المتدهورة لسوق البناء، الروح الجمالية فى هذا المنزل تتحرك يدًا بيد مع الإحساس الذى يميز عائلة فورسايت بداخله، "إحساس الامتلاك".

فهو يشعر بالفخر والسعادة لأنه يمتلك هذا البيت، ففيه تفوح رائحة الوقار والتقديس وحب الأجداد ورغبته الشديدة فى أن يسلم هذا البيت لابنه وحفيده من بعده. كان والده قد أحب البيت، وأحب تلك المناظر الطبيعية، الأرض، تلك الشجرة، وسنوات عمره الأخيرة التى قضاها هناك كانت سعيدة، وكان هو أول من سكن هذا المنزل، هذه السنوات الإحدى عشرة الأخيرة فى روبين هيل قد شكلت فى حياة چوليون "الرسام" الفترة المهمة من النجاح، فقد أصبحت لوحاته

ذات قيمة مرتفعة، وأصبح فنه أكثر عمقا وتحسنًا، بالتوافق مع وضعه الإجتماعى، ربَّى لحية قصيرة والتى بدأت فى التحول إلى اللون الرمادى، وكانت هذه اللحية تخفى ذقن فورسايت التى تميز آل فورسايت، ووجهه البنى، وفقد ذلك التعبير الملتوى لفترة، بدا وجهه أكثر شبابا.

كان فقدانه زوجته فى عام ١٨٩٤ أحد هذه المآسى العائلية التى تحولت فى النهاية إلى خير للجميع، وكان قد أحبها حقا حتى النهاية، فقد كانت بالنسبة له شخصية حنونة، لكنها أصبحت صعبة بشكل متزايد وغيورة من ابنة زوجها چان، غيورة حتى من ابنتها الصغيرة هولى، وتشكو باستمرار من أنه لا يحبها، لقد كانت مريضة وبلا فائدة منها بالنسبة لكل شخص فى العائلة ومن الأفضل أنها ماتت، لقد انتحب كثيرا وبكى عليها، لكن وجهه بدا أكثر شبابا منذ أن ماتت.. لو أنها فقط آمنت بأنها جعلته يشعر بالسعادة، لكانت تلك السنوات العشرين من زواجهما أسعد بكثير من ذلك!

لم تكن چان أبدا على علاقة جيدة معها؛ فهى قد أخذت مكان أمها، ومنذ أن مات الجد چوليون، أقامت فى مرسم صغير فى لندن، لكنها عادت إلى روبين هيل عندما توفت زوجة أبيها، وجمعت زمام الأمور بيديها الصغيرتين، أما چولى فكان فى هارو وهولى مازالت تتعلم من الآنسة بيوس، لم يكن هناك شيء يجعل چوليون يمكث فى البيت، وقد تخلص من أحزانه، فأخذ صندوق الرسم وسافر للخارج،

تجول كثيرا فى أنحاء بريتانى وفى النهاية ذهب إلى باريس وبقى هناك شهورًا عديدة وعاد بوجه أكثر شبابا ولحية قصيرة، كان مناسبا جدا وضروريًا بالنسبة له أن تقيم چان فى البيت فى روبين هيل وتدير شئونه، ولهذا كان حرًا فى أن يرحل بحمالة لوحة الرسم الخاصة به إلى أى مكان فى أى وقت يحب، أما چان فقد كانت تحب أن تعتبر ذلك البيت ملاذًا آمنًا لمن ترعاهم وتساعدهم من الناس، لم يضايق ذلك چوليون، إذ إنه يشعر بآلام أولئك المنبوذين، كونه تعرض للنبذ يوما ما .

وكانت چان تساعدهم بقدر ما تستطيع، وعلى الرغم من أن روح الدعابة الساخرة لديه أدركت أن هؤلاء المساكين خضعوا لحب ابنته للسيطرة والهيمنة، بالإضافة إلى أنهم قد حركوا قلبها الحنون، لم يتوقف أبدا عن الإعجاب بما تفعله من مساعدة لهؤلاء.

وقد كان چوليون عامًا بعد عام تقوم بينه وبين أولاده علاقة صداقة وأخوة، معاملاً إياهم بمساواة شديدة جدا، وعندما ذهب إلى هارو، لكى يطمئن على چولى، لم يعرف أبدا أيهم كان أكبر، كان يجلس معه ليأكل الكرز، بابتسامة حنونة وساخرة وهو يلوى حاجبه وشفاهه قليلا. كان حريصًا على أن يكون لديه نقود فى جيبه وأن يرتدى ملابس أنيقة؛ لذلك كان چولى يفتخر به، وقد كانا صديقين حميمين، وإن لم يكن هناك مجال لذكر هذا أبدًا، وكان الاثنان لديهما روح فورسايت التنافسية، ويقف كل منهما إلى جانب الآخر فى

المآزق. چوليون كان لديه قلق دائم بشكل ما وإحساس متأصل بالخطيئة؛ دفعه هذا إلى سلوك أخلاقى ربما بسبب سلوكه الفاسق فى الماضى، وكان جُلَ ما استطاع أن يقوله لابنه هو:

- "أيها الفتى الناضج لا تنسَ أنك رجل نبيل ذو أصول عريقة، ثم بعد ذلك يمكنك أن ترضى نزواتك، سواء كان ذلك الشعور طبقيًّا أم لا".

ربما كانت مباراة الكريكيت الوقت الأكثر مللا وإزعاجًا الذى يقضيانه معًا سنويًا حيث يرتدى چوليون السترة السوداء القصيرة، وكان عليهم أن يتحدثوا بطريقة معينة مثلاً حيث يصيح بتشجيع:

- "ها، حظ سيئ أيها الصديق العزيز!"

- "ها، حظ سيئ يا أبى".

كان چوليون يرتدى القبعة الرمادية بدلا من القبعة السوداء المعتادة؛ لكى يراعى شعور ابنه، فهو لم يحب تلك القبعة، وعندما ذهب چولى إلى أكسفورد، ذهب چوليون معه، وكان حريصًا وقلقًا إلى حد ما؛ حتى لا يحرج ابنه بين هؤلاء الشباب الذين بدوا أكبر منه، وواثقين فى أنفسهم كثيرًا. كان دائمًا يفكر فى أنه سعيد لكونه رسامًا، يقول لنفسه "سعيد إننى رسامٌ" - فمنذ فترة ترك وظيفته كمحاسب فى بنك لويدز- "إنه لأمر وديع أن تكون رسامًا؛ فلا أنت

تستطيع أن تنظر بتجاهل أو بتكبر إلى رسام ولا حتى تستطيع أن تأخذه على محمل الجد، وقد انتقل چولى، والذى كان لديه بعض التكبر، إلى شقة أصغر، الأمر الذى أسعد والده ولكن دون أن يبدى ذلك، هذا الولد كان لديه عينان تشبهان عينى جده الرمادية العميقة، كان حسن البنية، معتدل القامة، وكان مظهره دائما يرضى الحس الجمالى عند چوليون، لكنه كان يخاف قليلا من أفكاره، وكان يستجمع شجاعته ليعطى ابنه النصيحة التى كانت:

- "انتبه أيها الفتى الناضج، إذا وقعت فى مأزق وكان عليك دين، تعال إلىَّ على الفور وسوف أسدده، لكن عليك أن تتذكر أن المرء يحترم ذاته أكثر عندما يسدد ديونه بنفسه، ولا تقترض أبدًا إلا منى، أليس كذلك؟"

قال چولى:

- "حسنا، أبى. لن أفعل" وبالفعل لم يقترض أبدًا.

وأكمل چوليون:

- "وهناك شىء آخر. لا أعلم الكثير عن الأخلاقيات، لكن أعلم جيدا أن المرء يجب أن يفكر قبل أن يفعل أى شىء، ويسأل نفسه ما إذا كان سيؤذى الآخرين أم لا- ويقلع عنه حتى ولو كان ضروريا بالنسبة له".

نظر چولى وهو مستغرق فى التفكير، وأومأ برأسه، سار وربت على يد والده، فكر چوليون: لا أعرف ما إذا كان لى الحق أن أقول هذا أم لا؟ كان دائما لديه نوع من الخوف من فقدان ثقة أبيه فيه، وكانت النتيجة أنه لم يكن هناك شيء بينهما سوى الحب عن بعد. لاشك أنه استهان بالتغيير فى روح العصر منذ أن ذهب إلى كامبردج عام ١٨٦٥، وربما استهان أيضا بقدرة ابنه على فهم أنه كان متسامحًا تماما. وكان ذلك التسامح الشديد هو الذى جعل علاقاته بـ چان دفاعية بشكل غريب، فـ چان كانت شخصية حازمة وغير مترددة، عرف كيف تفكر، فهى إذا أرادت شيئًا فإنها تصر بقسوة وعناد حتى تأخذه ثم ترميه مباشرة كقطعة بطاطا ساخنة. وقد كانت أمها كذلك أيضًا، لم يكن هذا التنافر بينه وبين ابنه مثل ذلك التنافر بينه وبين زوجته الأولى. يندهش المرء لما تهتم به ابنته ولكن فى حالة الزوجة. فإنه لا يندهش على الإطلاق. كان جيدًا لـ چان أن تضع قلبها وعقلها على شيء ما تريده حتى تحصل عليه، لأنه لا يتداخل بشكل جوهرى مع حرية چوليون، حريته هذه كانت الشيء الوحيد الذى يضع عليه قلبه وعقله ليحصل عليه. المشكلة الحقيقية مع چان أنها لم تقترب من حسه الجمالى، رغم أن لديها شعرًا أحمر متوهجًا وعينى فايكنيج ملونتين وتلك اللمسة فى روحها. كان الأمر مختلفًا فى حالة هولى، فهى رقيقة وهادئة، خجولة وحنونة، لعوبة وشقية تلعب فى كل مكان. لقد راقب چوليون ابنته

الصغيرة خلال مراحل طفولتها باهتمام غير عــادى. هـل ستبدو كبجعة؟ بوجهها البيضاوى الشاحب، وعينيهـا الرمـاديتين اللتـين تشوبهما اللهفة والحزن، وهذه الرموش الطويلـة، ربمـا نعم وربما لا، فقط فى هذه السنة الأخيرة استطاع أن يخمن "نعم سوف تكـون"، فهى جميلة ورقيقة لقد كانت فى سن الثامنة عشرة وقد رحلت الآنسه بيوس. السيدة الرائعة رحلت، بعد أن قضت فى هذا البيت أحد عشر عامًا، لازمتها ذكرياتها المستمرة مع أطفال عائلـة تـايلور حَسِنيِّ التربية رحلت إلى عائلة أخرى ربما ضاقت صدورهم بذكرياتها مـع أطفال عائلة فورسايت حَسِنيِّ التربية وكانت قد عَـلَّـمت هـولى أن تتحدث الفرنسية مثلها تمامًا.

لم يكن تصوير الأشخاص بالرسم البورتريه يستهوى چوليون، ولكنه بالفعل رسم ابنته هولى ثلاث مرات، وبينما هو يرسمها للمـرة الرابعة، فى ظهر الرابع من أكتوبر ١٨٩٩، أحـضروا لـه بطاقـة تحمل:

السيد/ سومز فورسايت

نادى كونوسورز، مابلدرهام

هنا يجب أن يستطرد إلى فورسايت ثانية.

أن تعود من سفر طويل فى إسبانيا إلى بيت مظلم، إلى ابنـة صغيرة، غطت بالدموع لرؤية أبيها الغالى يرقد بـسلام فـى نومـه

الأخير، لم يكن من المحتمل أن يُنسي من قلب رجل رقيق المشاعر وطيب القلب مثل چوليون. هذا اليوم الحزين يلازمه إحساس بالغموض، ونهاية شخص كانت حياته منظمة ومتوازنة وشريفة. كان أمرًا صعبًا أن يرحل والده هكذا دون أن يعلن عن نواياه، ودون كلمات وداع لابنه. وأوهام هولي وحديثها عند السيدة ذات الرداء الرمادي واكتشاف تحول الآنسة بيوس إلى مدام إيرات، كل هذا ترك الأمور غير اضحة وضبابية، انكشفت قليلا عندما قرأ وصية والده. كان من واجبه كمنفذ للوصية أن يخبر إيرين زوجة ابن عمه سومز أن أباه قد ترك لها وقفا في حياتها بقيمة خمسة عشر ألف جنيه. أرسل في طلبها ليشرح لها الاستثمارات الحالية في بورصة الهند، وأنها يمكن أن تربح حوالي ٤٣٠ جنيها في العام بعد دفع ضريبة الدخل. كانت هذه هي المرة الثالثة التي يري فيها زوجة ابن عمه سومز، لو أنها حقا مازلت زوجته، فلم يكن متأكدًا تمامًا من ذلك. تذكر صورتها وهي تجلس في أبوتانيكال جاردنز تنتظر بوسيني، جسد رائع وفتان تذكره بلوحة لـ تيتيان وهي "الحب الإلهي"، والمرة الثانية عندما كلفه أبوه بمهمة، فذهب إلى ميدان مونتيليير بعد الظهر عندما علموا بموت بوسيني.

ما زال يتذكر ظهورها المفاجئ على باب غرفة الاستقبال في هذه المناسبة، وجهها الجميل، يتحول من الأمل والشوق إلى اليأس القاتل؛ تذكر شفقته عليها، ابتسامة سومز المكشرة عن أنيابه، كلماته،

"لسنا فى البيت" وكيف أنه أغلق الباب، فى المرة الثالثة رآهــا أكثــر جمالا وحيوية وقد تحررت من ذلك الأمل الــشرس ومــن اليــأس أيضًا. فكر وهو ينظر إليها: نعم، لهذا أُعجب بهــا والــدى كثيــرا، والقصة الغريبة لموجة الدفء التى مر بها والده أصــبحت واضــحة الآن بالنسبة له، فقد تحدثت عن الجد چوليون بتوقير والــدموع فــى عينيها:

- "كان لطيفا معى بشدة لا أعرف لماذا، كــان يبــدو جمــيلا وهادئا وهو يجلس على ذلك المقعد تحت الشجرة؛ كنت أنــا أول شخص ذهب إليه وهو يجلس هناك، أتعرف ذلك؟ كــان يومًا لطيفًا. لا أستطيع أن أتخيل نهاية أسعد من ذلك، يجــب علينا جميعا أن نتمنى تلك النهاية".

فكر چوليون:

- "تماما بالضبط!"، يجب أن نرحل فى نهاية الصيف، والجمال يخطو ناحيتنا عبر الأرض المزروعة بالعشب".

وبالنظر فى أرجاء غرفة الاستقبال الصغيرة، الخالية تقريبًــا، سألها السؤال نفسه الذى كانت ستسأله إياه:

- "سوف أعيش حياتى مرة ثانية، يا ابن عمى چوليــون. إنــه شيء رائع أن يكون لديك أموالك الخاصة. لم يكن لــدى أى

نقود. سوف أحتفظ بهذه الشقة؛ لقد اعتدت عليها، لكن أيضًا سوف أذهب إلى إيطاليا".

تمتم چوليون:

"بالفعل!"

وهو ينظر إلى شفتيها اللتين ارتسمت عليهما ابتسامة باهتة. وراح يفكر: امرأة فاتنة! يا للخسارة، أنا سعيد أن والدى ترك لها هذا المال، لم يرها مرة ثانية. لكن كل ربع سنة مالية يوقع لها على شيك، يحوله إلى رصيدها فى البنك، ويرسل رسالة قصيرة إلى شقة تشيلسى يقول فيها إنه حول المال إلى رصيدها، وكان دائمًا يصله الرد فى رسالة قصيرة أيضًا، فى الغالب من شقة تشيلسى، لكن أحيانا من إيطاليا؛ لهذا كانت شخصيتها متجسدة فى ورقة رمادية معطرة وخطها الرائع والكلمات؛ "ابن عمى العزيز چوليون: وكان الشاب چوليون يتعجب دائما كيف أنها تعيش وحدها بعيدا عن عالم الرجال ولا يمتلك جمالها أحد. فى البداية تحدثت هولى عنها أحيانا، لكن "السيدات ذوات الرداء الرمادى" تتلاشى من ذكريات الأطفال، ولم تنفرج شفتا چان عن أى كلمات فى الأسابيع الأولى بعد وفاة جدها، حتى بالحديث عن حبيبها السابق، مرة واحدة بالفعل قد تكلمت وقالت إنها قد سامحتها وإنها سعيدة من أجلها؛ إذ إنها تعيش حرة الآن.

عندما تسلّم البطاقة الخاصة بـ سومز، قال چوليون للخادم:

- "خذه إلى المكتب لو سمحت. وأخبره أننى سأكون هناك خلال دقيقة"

ثم التفت إلى هولى وسألها:

- "هل تذكرين السيدة ذات الرداء الرمادى، التى كانت فى الماضى تعطيكِ دروسًا فى الموسيقى".

- "أوه، نعم لماذا؟ هل أتت؟"

هز چوليون رأسه، وغيَّر قميصه الهولندى وارتدى معطفا، كان صامتًا، ثم أدرك فجأة أن هؤلاء الشباب لا يعون شيئًا عن الأحداث الماضية، وجهه فى الحقيقة بدا مرتبكا بشكل غريب بينما هو فى طريقه إلى المكتب.

بجوار نافذة زجاجية تطل على الحديقة وقف شخصان، ينظران عبر الشرفة الواسعة إلى شجرة البلوط، رجل فى الخمسينيات وشاب وفكر: من هذا الولد؟ بالتأكيد لم يكن لديهم طفل!

التفت الشخص الأكبر سنا، اللقاء بين هذين الفردين من عائلة فورسايت من الجيل الثانى الذى كان أكثر دراية بشئون الحياة أكثر من الأول، فى البيت الذى بنى من أجل أحدهما وسكنه الآخر كان يتميز بالمقاومة المستمرة تحت محاولة واضحة للبقاء. هل أتى لأمر

بخصوص زوجته؟ فكر چوليون. وكان سومز يفكر أيضًا" كيف يبدأ؟ بينما ڤال الذى أحضره لكى يكسر حاجز الثلج بينهما وقف مستغرقا فى التفكير مدققًا فى وجه هذا الرجل الملتحى من تحت رموشه السوداء الكثيفة. قال سومز:

- "هذا هو ڤال دارتى"، ابن أختى، سوف يذهب إلى أكسفورد، وودَّ أن يتعرف على ابنك"

- "آه يؤسفنى أن چولى ليس هنا. فى أى كلية أنت؟"

أجاب ڤال: - "فى "B .N.C"

- "هو ليس موجودًا ولكنه سيسعدِ كثيرا بالتعرف إليك".

- "شكرا جزيلا".

- "هولى هنا، لو تحب أن تتعرف عليها. سوف تجدها فى الصالون لو أنك عبرت تلك الستائر. لقد كنت أرسمها ".

ذهب ڤال، وهو يقول:

- "شكرا جزيلا مرة ثانية".

وترك ابنا العم ولا يزال حاجز الثلج بينهما.

قال سومز"

- "أرى أن لديك لوحات بالألوان المائية".

انتفض چوليون، فقد كانت علاقته بالعائلة فورسايت مقطوعة لمدة ٢٦ عاما ولكنهم كانوا مرتبطين فى ذاكرته بسباقات الخيل السنوية عند مصب النهر ولوحات لاندسير، سمع من چان أن سومز كان متذوقا للفن، وهذا ما جعل الأمر أسوأ. شعر أيضا بإحساس فضولى بالكره، قال:

- "لم أرك منذ فترة طويلة"

أجاب سومز بصوت مكتوم:

- " لا، ليس منذ... فى الحقيقة، هذا ما جئت من أجله. أنت وكيل وقفها، علمت بذلك".

أومأ چوليون برأسه موافقا

قال سومز بسرعة

"اثنا عشر عاما زمن طويل، لقد سئمت من ذلك"

لم يجد چوليون إجابة أنسب من تلك.

- "أتدخن؟".

- "لا شكرا"

أشعل چوليون سيجارة لنفسه، قال سومز بشكل مباغت:

"أرغب فى أن أكون حرًا".

"تمتم چوليون بتلك الكلمات وهو يدخن السيجارة: "أنا لا أراها؟"

- "لكنك تعرف أين تعيش، أليس كذلك؟"

أومأ چوليون برأسه، لكنه لم يقصد أن يعطيه العنوان دون الاستئذان من إيرين، بدأ سومز يفهم ذلك. وقال:

- "أنا لا أريد عنوانها، أنا أعرفه"

- "ماذا تريد بالضبط؟

- "لقد هجرتنى. أريد الطلاق منها.

- "متأخر جدا أليس كذلك؟

قال سومز :" نعم، وساد الصمت".

قال چوليون بابتسامة تنم عن الإخفاق:

- "أنا لا أعرف الكثير عن هذا الموضوع على الأقل. نسيت".

هو أيضا انتظر الموت لكى يمنحه الطلاق من زوجته الأولى، مدام چوليون.

- "هل تريدنى أن أسألها عن ذلك؟ أن أستطلع رأيها فى هذا الشأن".

رفع سومز عينيه إلى ابن عمه وقال:

- "أظن أنها على علاقة بشخص ما"

هز چوليون كتفيه بلامبالاة وقال:

- "أنا لا أعرف على كل حال، أتصور أنكما يمكن أن تعيشا معا لو أن هذا الشخص الآخر مات، فذلك معتاد في مثل هذه الحالات"

التفت سومز إلى النافذة، وقد سقطت أوراق قليلة جافة من شجرة البلوط في الشرفة الواسعة، وكانت تلف في الهواء في حركة دائرية، رأى چوليون شبحيّ قال وهولي يسيران عبر الأرض المزروعة بالعشب ناحية إسطبلات الخيل، وفكر لن ألعب لعبة الأرانب وكلاب الصيد وقال: سوف أتصرف بالنيابة عنها، فأبى قد رغب في ذلك"

وللحظة خاطفة رأى صورة والده وهو يجلس على الفوتيه القديم بالضبط خلف سومز، يجلس واضعًا ساقًا على ساق، جريدة التايمز في يديه. واختفت هيئته هذه. قال بهدوء:

- "أبي كان يحبها كثيرا".

أجاب سومز دون أن يلتفت لينظر إليه.

- "لماذا كان يحبها؟ لا أعرف، لقد تسببت في المعاناه لابنتك؛ تسببت في مشكلات لكل فرد منا، لقد أعطيتها كل ما أرادت. لقد أعطيتها حتى السماح، لكنها اختارت أن تتركني".

ولقد تأثر چوليون بهذا الصوت المختنق. ولكن ما الذى كان بداخل چوليون جعل من الصعب أن يتعاطف مع سومز؟ قال:

- "أستطيع أن أذهب وأقابلها، أعتقد أنها سترحب بفكرة الطلاق، لكنى لا أستطيع الجزم".

أومأ سومز برأسه:

- "نعم، لو سمحت اذهب إليها. كما قُلت. أنا أعرف عنوانها، لكن ليست لدى رغبة فى رؤيتها". لسانه كان متعثرا فى حلقه، كما لو كان جافًا. قال چوليون بصوت مكتوم:

- "ما رأيك فى احتساء الشاى معى؟ ألقِ نظرة على البيت".

وقاده إلى الصالون. عندما ضَرب الجرس وطلب الشاى، وركن حمالة لوحة الرسم بجانب الحائط؛ لم يتحمل فكرة أن يرى سومز أعماله ويقيمها، وهو الذى كان يقف هناك فى وسط الغرفة الواسعة التى صممت لتجعل الحوائط فارغة من أجل لوحاته الخاصة. رأى چوليون فى وجه ابن عمه التشابه الطبيعى بينهما، فهما من عائلة واحدة، ومظهره الدقيق، ورأى ذلك الذى أثار فكره: "هذا الرجل لا يمكنه أبدًا أن ينسى شيئًا ولا حتى أن يجد لنفسه طريقًا، إنه يثير الشفقة والعطف!".

الفصل السابع

الفتى والفتاة

عندما ترك الشاب ڤال الجلسة التى تجمع بين فردين من الجيل الثانى فى عائلة فورسايت، سومز وچوليون، كان يفكر "چولى هذا ممل، ترى كيف تبدو تلك الفتاة؟ لم يشعر فى البداية بسعادة اجتماعية بها، وفجأة رآها تقف هناكِ تنظر إليه كانت جميلة، يا له من حظ طيب!

- "آسف فأنتِ لا تعرفيننى، اسمى؛ ڤال دارتى أنا ابن عمتك، أو شىء كهذا، أمى تحمل اسم فورسايت"

هولى، والتى مازال يمسك بيدها، كانت تخجل من أن تسحبها. قالت:

- "لا أعرف أحدًا من أقربائى، هل هم كثيرون"؟

- "كثيرون؟! إنهم بشعون، معظمهم. على الأقل، لا أعرف بعضهم. فالأقرباء دائما بشعون، أليس كذلك؟"

قالت هولى:

- "أتوقع أنهم أيضا يظنون الفرد كذلك".

- "لا أعرف لِمَ هم كذلك. لا أحد يمكن أن يقول إنكِ بشعة، بالطبع".

نظرت هولى إليه ... نظرة تشوبها اللهفة والحزن فى تلك العين الرمادية

أعطت الشاب ڤال إحساسًا مفاجئًا بأنه يجب أن يحميها.

- "أقصد أن هناك بشرًا على هذه الشاكلة وآخرين على الشاكلة الأخرى".

أضاف بفطنة:

- "والدك مثلاً يبدو لطيفًا جدًا ومحترمًا"

قالت هولى بحماس:

- "أوه، نعم ، هو كذلك"

احمر وجه ڤال، ذلك المشهد فى "منتزه البانديمنيوم" ثم قال:

- "الرجل الأسود ذو الحلة الوردية الذى اكتشف أنه والده!. لكن هل تعلمين أن آل فورسايت؟ أو هنسيت؟ أنت لا تعرفين."

- "ماذا عنهم؟"

- "أوه، حريصون بشكل مخيف، لا يقبلون الهزيمة بصدر رحب. انظرى إلى خالى سومز"

قالت هولي:

- "أريد أن أراه"

"قاوم ڤال بداخله رغبة شديدة في أن يضع ذراعه في ذراعها:

- "أو.. هلا.."

قال ڤال:

- "لنخرج، سوف تريته عن قرب بشكل كاف. هلا أخبرتني عن أخيك چولي؟"

أخذته هولي إلي الشرفة الواسعة ناحية الأرض المزروعة بالعشب دون أن تجيب علي سؤاله؛ إذ كيف تصف چولي، الذي كان مثلها الأعلي ونموذجا لها؟

- "سوف أتعرف عليه فى أكسفورد، هل لديكم خيول؟"

أومأت برأسها وقالت:

- "هل تود أن ترى الإسطبلات؟"

- "يكون ذلك أفضل"

ساروا تحت شجرة البلوط خلال شجيرات رفيعة مزروعة في أرض الإسطبل. هناك تحت برج الساعة يرقد كلب يغطي جسده اللون

الأبيض والزغب البنى، كان عجوزًا جدًا لدرجة أنـــه لـــم يـــستطع أن ينهض لكى يلوح بذيله، من دون وعى لفه على ظهره، قالت هولى:

- "هذا بالثازار، إنه عجوز جدًا فى مثل سنى تقريبـــا، كلـــب عجوز مسكين كَرَّس حياته لأبى "

- "بالثازار، إنه اسم غريب، إنه هجين، أتعرفين ذلك؟".

"لكنه عزيز علينا جدا ." انحنت لكى تداعب الكلـــب. لطيـــف وذو خفة ورشاقة، رأسه الأسود، ورقبتـــه البنيـــة، ويـــداه البنيتـــان الرشيقتان، بدت لـــ ڤال غريبة ولطيفة. قالت هولى:

- "عندما مات جدى، لم يأكل لمدة يومين، لقد رآه وهو يلفـــظ أنفاسه الأخيرة، أتعرف هذا؟".

- "هل كان جدك هذا هو الجد چوليون؟ أمى دائما كانت تقول إنه أفضل شخص فى العائلة"

قالت هولى ببساطة، وفتحت باب الإسطبل:

- "لقد كان كذلك فعلا".

- "كان يقف حصان فضى اللون له ذيل أسود طويـــل". هـــذه مهرتى فيرى".

آه قال ڤال" إنها لطيفة جدا، لكن يجب أن تَهُزَّ ذيلهـــا ســـوف تكون أكثر جمالا وأناقة، ثم رأى على وجهها نظرة إعجاب، وجـــال بخاطره فجأة:

- "أنه لا يعرف أى شيء تحبه!"

ثم استنشق هواء الإسطبل، واستمر قائلاً:

- "الخيول جميلة، أليس كذلك؟ أبى... وتوقف عن الكلام؟

قالت هولى:

- "نعم؟"

تغلب عليه شعور ما بأن يفضى بما فى نفسه لكن ليس تمامًا:

- "أوه.. لا أعرف، هو شغوف بهم كثيرا، الركوب والمطاردة والصيد".

- "أنا وچولى نحب ذلك أيضا الركوب والمطاردة"

- "أنا أحب سباقات الخيل جدًا، وأتمنى كذلك أن أصبح فارسًا نبيلاً.

ونسى أنه بقى له يوم واحد على الأكثر فى المدينة، وأنه مرتبط فيه بموعدين.. اندفع قائلا:

"ما رأيك لو نركب الخيل معًا فى ريتشموند بارك غدًا؟".

شبكت هولى يديها ببعضهما وقالت:

- "أوه، نعم، أحب ركوب الخيل. لكن توجد مهرة چولى، لِمَ لا تمتطيها؟ ها هى، يمكننا أن نذهب بعد احتساء الشاى".

نظر ڤال إلي ساقيه في شك فقد تخيلهما وهو مرتدٍ أمامها حـذاء بنيًّا طويل الرقبة، وكذلك مرتدٍ أيضًا نسيج بدفورد المضلع طوليًا فقال:

- "لا أحب أن أركب حصانه، وهو ربما لا يرحب بذلك. بالإضافة إلي ذلك، خالي سومز يريد العودة، أتوقع ذلك. ليس لكِ خال، أليس كذلك؟ هذا أفضل"

أضاف ويلاطف حصان چولي؛ كان بنيًّا داكنًا، لذلك كان يظهر البياض في عينيه بوضوح:

- "أنتِ لم تقومي برحلات صيد، أليس كذلك ؟"

- "لا، لستُ متأكدة، إنني أريد أن أصطاد، من المؤكد أن ذلك سيكون مثيرا وشائقًا جدا، بالطبع؛ لكن ڤاس، أليس كذلك؟ چان تقول هذا أيضا"

تفوه ڤال قائلا :

- "ڤاس؟، أوه هذا كله هراء، من هي چان؟"

"أختي من أبي، إنها أكبر مني بكثير".

ثم وضعت يدها علي وجنتي مهرة چولى، أخذت تحك أنفها، ونتيجة لذلك، سُمِعَ صوت صهيل لطيف، وبدا به تأثير تنويمي على الحيوان، تأمل ڤال وجنتها وهى تستريح على الفرس، وعيناها تقطران حلاوة.

عادا إلى البيت وهما لا يتكلمان كثيرا، تبعهما هذه المرة الكلب بالثازار، يسير ببطء أكثر من أى شىء على الأرض، وانتظر منهما ألا يتجاوزا سرعته فى السير. قال ثال

- "هذا مكان ساحر من تحت شجرة البلوط، حيث توقفا حتى يصل الكلب بالثازار.

قالت هولى:

"نعم"، تنفست الصعداء، "بالطبع أريد أن أذهب إلى كل مكان. أتمنى لو كنت غجرية".

رد ثال وهو مقتنع بهذا:

"نعم، الغجريات فاتنات"؛ أنتِ تشبهينهم، أتعرفين ذلك؟"

سطع وجه هولى فجأة وبعمق، مثل الأوراق المصغرة بسبب أشعة الشمس.

- "أن تذهب كيف تشاء إلى كل مكان وترى كل شىء، وتعيش فى العراء... أوه.
- "أليس ذلك ممتعا ومرحا؟"
- "أوه، نعم، هيا!"
- "سوف تكون مقامرة كبيرة، فقط أنتِ وأنا"

ثم أدركت هولى تلك الطرافة والاندفاع فى الحديث والحماس. قال ثال بحماس، لكن احمر وجهه خجلا أيضا:

- حسنا يمكننا أن نفعل هذا، أنا أؤمن بأن الفرد يجب أن يفعل ما يريد، ما هذا المكان؟"

- "إنها حديقة المطبخ والبحيرة والصوبة والمزرعة"

- "لنذهب إلى هناك"

استرقا النظر إلى البيت .

- "حان ميعاد احتساء الشاى، أتوقع ذلك، إن أبى يـشير إلينـا بالحضور".

تمتم ثال، بصوت متذمر وهو يتبعها باتجاه البيت.

عندما دخلا مرة ثانية إلى الصالون، حيث كان رؤية اثنين من عائلة فورسايت فى منتصف العمر يشربان الشاى له تأثير سـاحر، وكانا صامتين قليلا.

جلس الاثنان جنبا إلى جنب على الأريكة التـى كانـت هـى وثلاثة مقاعد ذات تصميم واحد ولون وردى وفضى، وطاولة شـاى منخفضة أمامهم، كانا قريبين من بعضهما فى الجلسة، لذلك لم يحتاجا إلى النظر إلى بعضهما بعضًا طول الوقت، كانا يـأكلان ويـشربان أكثر من التحدث، اندهش چوليون من أسلوب سومز فى تناول الشاى والكيك، ففى الظاهر، لا يبدو سومز شخصية جشعة وطماعة، لكـن

كلاهما كان يتبع الذوق فى تناول الطعام، الاثنين الأصغر سنًا كانـــا رقيقين أكثر فى تناول الطعام، واستمر الصمت حتى كسره چوليــون وهو يشعل سيجارة، قال لـــ سومز:

- "كيف حال عمى چايميس؟"

- "هو ليس على ما يرام، شكرًا على السؤال"

- "نحن عائلة رائعة، أليس كذلك؟ ذلك اليوم كنت أحسب معدل العمر للعشرة الأفراد الكبار من عائلة فورسايت فى كتـــاب العائلة الخاص بأبى، وجدت متوسط العمر فى العائلة أربعة وثمانين، وخمسة أفراد منهم مازالوا على قيد الحياة، يجـــب أن يحطموا الرقم القياسى".

وهو ينظر بطريقة غريبة إلى سومز أضاف:

- "نحن لسنا مثلهم، أتعرف ذلك؟"

ابتسم سومز وقال: "هل تظن أننى سوف أعترف بأننى لـــست مثلهم؟" وبدا يقول، "أو أننى مجبر على تـــرك أى شـــىء، خاصـــة الحياة؟".

"ربما نعيش حتى نصل إلى مثل سنهم، ربما" تـــابع چوليــون الحديث، "لكن الوعى بالذات هو العقبة، وهذا هو الفارق بيننـــا. لقـــد فقدنا القناعة، كيف ومتى ولد ذلك الوعى الذاتى؟ لا أعرف، أبى كان

لديه القليل من الوعى بالذات، لكن لا أصدق أن أيّـا مـن كبـار آل فورسايت كان لديهم أى شىء من هذا القبيل، فأنت لا ترى نفسك كما يراك الآخرون، شىء رائع، التاريخ الكامل للقرن الماضى يكمن فى الاختلاف والفارق بيننا، وأضاف وهو محدق من خلال حلقة الدخان إلى ڤال وهولى وهو يشعر بالقلق وعدم الراحـة... سـيكون هنـاك فارق، فارق آخر يحيرنى، ولكن ما هو؟"

نظر سومز فى ساعته وقال:

- "يجب أن نذهب حتى نلحق بالقطار"

تمتم ڤال وفمه مملوء:

- "خالى سومز لم يفقد قطاره أبدا "

أجاب سومز ببساطة:" ولماذا يجب أن أفقده؟ ".

قال ڤال: "أوه لا أعرف، الآخرين يفعلون هذا"

عند الباب الأمامى ضغط ڤال على يد هولى وهو يسلم عليها.

همس قائلا: "انتظرينى غدًا، فى الساعة الثالثة سـوف أنتظـرك على الطريق؟". هذا سيوفر الوقت وسوف نركب الخيل معا؟" حَدَّق خلفه عبر البوابة، ولكن بمبادئ أهل القرية سوف يلوح بيده وهو يرحل، لـم يكن ڤال فى حالة تحتمل حديثًا مع خاله، ولكنه لم يواجه هذا الخطر فقـد حافظ سومز على هدوئه وصمته، وكان منشغلا بأفكاره الكثيرة.

تلك الأوراق الصفراء الذابلة التى تسقط على هـذين الاثنـين اللذين يسيران ميلاً ونصف، كان سومز يجتازها مئات المرات فـى الأيام الماضية، عندما أتى مع عروسه المجهولة لكى يرى ذلك البناء الفاخر للبيت، هذا البيت الذى كان ملكه فى يوم من الأيام وملكها هى التى يبحث الآن عن الانفصال عنها، نظر خلفه لأعلى حيث المنظـر الجميل بين صف طويل من الأشجار المصفرة فى الخريف، ثم قـال لـ چوليون:

- "يا له من زمن مضى لا أريد أن أراها.. هل هذا صـحيح؟ أنا مضطر لهذا"، فكَّر فى هذا ثم سرت بداخله رجفة اعتـاد على نوباتها ويقول إنها يمكن أن تودى به إلى القبـر، إلـى عالم بارد، عالم غريب. نظر خلسة إلى ابن أختـه وفكـر "أتمنى لو كنت فى سنه، ترى كيف أصبحت الآن؟"

الفصل الثامن

چوليون يواصل الثقة

عندما رحل سومز وابن أخته ڤال، لم يعد چوليون إلى اللوحة التى كان يرسمها؛ لأن ضوء النهار كان قد تلاشى، لكنه ذهب إلى غرفة المكتب متلهفا – دون وعى – على استرجاع بعض ذكريات والده، وهو يجلس على الفوتيه الجلد القديم ويضع ساقًا على ساق وعيناه تنظران أمامه من تحت جبهته الواسعة والمقعرة. فى هذه الحجرة الصغيرة، الأكثر هدوءًا فى البيت، ربما يحصل چوليون على لحظات من التواصل مع والده. لم يكن چوليون يؤمن بخلود الروح الإنسانية بعد الموت، الشعور الذى انتابه لم يكن منطقيا جدًا، لقد كان بالأحرى تأثيرا وهميًا عابرا، مثل رائحة، أو أحد هذه الانطباعات من الأشكال، أو تأثيرات الضوء حيث تكون عين الفنان بالأخص ميالة لهذا، هنا فقط فى هذه الحجرة الصغيرة التى لم تتغير – حيث كان والده يقضى معظم ساعات يقظته – يتمكن من استعادة الشعور الذى لم يكن قد ذهب تماما من داخله، الشعور بأن مؤازرة ومساندة ذلك الرجل الجد ودفء روحه ومشاعره ما زالت موجودة.

بم كان والده سينصحه الآن، فى هذا التجدد المفــاجئ لمأســاة قديمة؟ ماذا كان سيقول إزاء هذا التهديد الذى يواجهها؟ هى التى كان مولعًا بها فى الأسابيع الأخيرة من عمره؟ فكر چوليون:

– "يجب أن أفعل ما فى وسعى من أجلها؛ لقد أوصانى بها فى وصيته. لكن ما هو أفضل شيء يمكن عمله؟"

وكما لو كان يــسعى لاســتعادة الإدراك الفطــن والمتــوازن والراشد لهذا الرجل الجد من آل فورسايت، فجلس على الفوتيه القديم واضعا ساقًا على ساق. لكنه شعر فقط بظل شيء يجلس هناك؛ ولــم يأت الإلهام، بينما كانت الرياح تضرب بخفة ألواح النافذة الزجاجيــة المعتمة.

فكر: "هل أذهب وأراها؟ أم أطلب منها أن تأتى إلى هنا؟ كيف حالها، أنا متعجب؛ سيئ جدا أن أفكر فى هذه الأشياء فى هذا الوقت من النهار؟" مرة ثانية يعود إلى خاطره منظر ابن عمه واقفا، ويــده تمسك بالباب الأمامى ذى اللون الزيتونى الرائع، شديد الوضوح؛ مثل أحد هذه الأشكال التى تخرج من الــساعات القديمــة عنــدما تــدق؛ وكلماته ترن فى أذنى چوليون بوضوح مثل مجموعة أجراس كبيرة: "أنا أتولى شئونى الخاصة بنفسى. أخبرك الآن وللمرة الثانية: لــسنا فى البيت". الكراهية التى شعر به چوليون تجاه سومز تجاه وجنتيــه المسطحتين، وذقنه الحليقة ووجهه الممتلىء بالإصرار؛ تجاه جــسده النحيل، ولسانه المعسول المتربص نوعا ما كما لو كــان عظمــة لا

يمكن هضمها ـ أتى ثانية، وقح وعديم الاكتراث باللياقة والأصـول بشكل غريب متزايد. فكر:

- "أنا أكرهه، أكرهه بشدة، وهذا سوف يجعل الأمـر أسـهل بالنسبة لى لكى أدعم زوجتـه". نـصف فنـان ونـصف فورسايت".

كان "چوليون" نافرا بشكل طبيعى مما أسماه "الشجار"؛ إذا لـم يكن غضبانا، فقد اتفق مع ذلك الوصف الكلاسيكى للكـلاب حيـث تفضل الهروب عن القتال والمواجهة. ارتسمت ابتسامة على وجهـه. من المثير للسخرية أن يأتى سومز إلى هنا، إلى هذا البيت الذى شيد من أجله، كيف استطاع أن يتأمل أطلاله وأحلامه الماضية؟ مـسترقا النظر إلى الحوائط والسلم وكل شىء، وفكر چوليون بشكل حدسى:

- "أعتقد أن هذا الرجل، حتى الآن، يود أن يعيش هنـا؛ فـلا يمكنه أبدا أن يتخلى عن الرغبة فى شىء امتلكه ذات مرة.. حسنا، يجب أن أتصرف بصورة أو بأخرى؛ شىء مضجر، مضجر جدًا"

فى وقت متأخر فى المساء، كتب إليها فـى شـقة تشيلـسى، متسائلاً ما إذا كانت إيرين بإمكانها أن تقابله.

القرن الماضى، الذى شهد وضع أسس الفردية، كان مملـوءًا بالأشياء الساخنة، فشائعات الحرب أضافت إلى نشاط وصخب لنـدن مع اقتراب إجازاته الصيف. وبالنسبة لـ چوليون، الذى نـادرًا مـا

كان يذهب إلى المدينة التى كان لها منظر محموم بسبب سيارات الأتوموبيل الجديدة والعربات التى تجرها الخيول، والتى استنكرها من وجهة النظر الجمالية؛ كان قد أحصاهم ووجدهم يمثلون نسبة واحد إلى عشرين، بينما كانت النسبة من عام واحد هى واحد إلى ثلاثين، اعتقد چوليون أن هذه الأشياء أتت لتستقر وتشكل جزءًا من حياة الناس بصوتها المزعج ورائحتها الكريهة، فـ چوليون كان أحد هؤلاء الليبراليين القلائل الذين يعترضون على كل ما هو جديد عندما يأخذ الشكل المادى، وطلب من سائقه أن يذهب إلى ناحية النهر، بعيدا عن حركة المرور، راغبا فى رؤية المياه تجرى فى النهر خلال ذلك الحاجز اليانع من أشجار الدلب. عند مبنى صغير يضم مجموعة من الشقق، والذى استقر على بعد خمسين ياردة من الرصيف، أخبر سائق العربة أن ينتظر، ثم صعد إلى الطابق الأول.

- "نعم، السيدة هيرون فى البيت"

إن تأثير الدخل المستقر، حتى إذا كان متواضعا، كان واضحا على الفور بالنسبة له، خاصة عندما تذكر مظهرها البالى فى شقة صغيرة منذ ثماني سنوات عندما أخبرها بالثروة التى تركها والده لها. وقد أصبح كل شىء الآن جديدًا ومنظمًا، ورائحة الأزهار تملأ المكان. كان الفضى هو اللون الأساسى للشقة مع لمسات من اللون الأسود والذهبى. فكر: "امرأة ذات ذوق جيد". لقد تعامل الزمن مع چوليون بلطف، لأنه كان أحد أفراد آل فورسايت. لكنه تعامل مع إيرين بقسوة، أو أن ذلك كان مجرد انطباع لديه. لم تبدُ أكبر، ولو

بيوم واحد، عن آخر يوم رآها فيه. تقف هناك فى رداء من القطيفة المضلعة ذى لون قاتم؛ بعينيها الرقيقتين، والشعر الذهبى القاتم، ويداها منطلقتان، وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة.

– "هلا تفضلت بالجلوس؟"

لم يكن يشعر بالإحراج أوالارتباك.

قال: – "لم تتغيرى قط"

– "وأنت تبدو أكثر شبابًا يا ابن عمى "چوليون"

مرر "چوليون" يده فى شعره، الذى مازال كثيفا، وهذا ما جعله يشعر بالارتياح .

"أنا عجوز، لكنى لا أشعر بذلك. وتلك إحدى فوائد فن الرسم، فهو يبقيكِ دائما شابة. فـ تيتيان عاش تسعا وتسعين عامًا ولم يقدر عليه سوى الطاعون. هل تعرفين، فى المرة الأولى التى رأيتكِ فيها، ذكرتنِى بلوحة له؟"

– "متى رأيتنى أول مرة؟"

– "فى حدائق بوتينشيال"

– "كيف تعرفت علىَّ، إن لم تكن رأيتنى من قبل؟" قالت بهدوء.

– "عن طريق شخص ما أتى معكِ". كان ينظر إليها بتجهم، لكن تعبيرات وجهها لم تتغير"

- "نعم؛ منذ زمن".

- "ما هى وصفتك للشباب، إيرين؟"

- "الأشخاص الذين ليسوا على قيد الحياة أفضل حالاً"

مقولة صغيرة ولكن مُرَّة "الأشخاص الذين ليسوا على قيد الحياة" لكنها فرصة وقد انتهزها.

- "هل تتذكرين ابن عمى سومز؟"

رأى ابتسمتها تختفى، فاسترسل قائلاً :

- "أتى ليرانى قبل أمس، إنه يريد الطلاق. هل تريدين ذلك أنت أيضًا؟"

- "أنا؟" خرجت الكلمة من فمها بشكل مباغت. "بعد اثنى عشر عامًا؟ إنه ذلك متأخر جدًا. ألن يكون ذلك صعبًا؟"

نظر "چوليون" فى وجهها بتجهم وقال: "إذن لم..."

- "إذن لم يكن لدى حبيب الآن. لكننى لم يكن لدى حبيب أبدًا منذ ذلك الحين"

ما شعوره إزاء سلاسة وصراحة تلك الكلمات؟ ارتياح، تفاجؤ، شفقة فينوس بدون حبيب لمدة اثنى عشر عاما.

قال: "وبعد، أفترض أنكِ سوف تعقدين صفقة جيدة من أجل الحرية، أيضًا؟"

- "لا أعرف. بمَ يفيد ذلك الآن؟، إلا إذا كنتِ ستحبين ثانية؟"

- "يجدر بى أن أحب" فى هذه الإجابة البسيطة بدت معبرة عن الفلسفة التى اكتسبها شخص أدار العالم ظهره إليه.

- "حسنًا، هل هناك شىء ما تودين أن أخبره به؟"

- "فقط، أنى آسفة لأنه ليس حرًا. كانت لديه الفرصة ذات مرة. لا أدرى لماذا لم يغتنمها."

- "لأنه عضو فى عائلة فورسايت؛ نحن، أبدًا، لا نتخلى عن أى شىء، تعرفين، إذا لم نكن نريد شيئًا ما بدلاً عنه؛ ولكن ليس دائمًا"

ابتسمت إيرين.

- "ألست أنت كذلك؛ يا ابن عمى چوليون؟ أعتقد أنك فعلت الشىء نفسه"

- "بالطبع، أنا مهجن قليلاً، لست فورسايت نقيًا؛ فأنا لا آخذ أبدا بعض سنتات باقية من حساب فاتورتى بل أتركها"

- "حسنًا، ماذا يريد سومز بدلاً منى الآن؟"

- "لا أدرى؛ ربما الأطفال"

صمتت قليلاً ونظرت لأسفل. ثم تمتمت:

- "نعم، إنه شيء صعب. سوف أساعده لكى يكون حـــرًا، إذا استطعت"

حدق چوليون فى قبعته، وكـــان شـــعوره بالارتبـــاك يتزايـــد بسرعة؛ وكذلك كان إعجابه بها، ودهشته وشفقته. لقد كانـــت لطيفـــة جدًا ووحيدة جدًا. قال:

"حسنًا، سوف أضطر لمقابلة سومز إذا كان هنـــاك أى شـــىء يمكننى فعله من أجلك، فأنا دائمـــا فـــى خـــدمتك. يجـــب أن تعتبرينى بديلاً عن والدى. فى كل الأحوال سوف أخبرك بمـــا يحدث عندما أتحدث إلى سومز. ربما يجـــد طريقـــة مناســـبة لذلك".

هزت رأسها:

- "أنت تعرف، لديه الكثير ليفقده؛ وأنا ليس لدى شىء. أريـــد أن أساعده ليكون حرًا؛ لكننى لا أعرف ماذا يمكن أن أفعل؟"

قال چوليون:

- ولا أنا فى الوقت الحالى"

ورحل فى الحال. نزل إلى عربته. كانـــت الـــساعة الثالثـــة والنصف ربما يكون سومز فى مكتبه الآن.

قال للسائق فى العربة:

- "إلى بولترى، وأمام مبنى البرلمان وفى مكاتب الحكومة البريطانية، كان بائعو الصحف ينادون: "الوضع خطير في الترانسفال".

لكن الصيحات أفاقته بصعوبة؛ فقد كان مستغرقا فى التفكير فى ذلك الجسد الجميل، والنظرات الرقيقة لعينيها وكلماتها، لم يكن لديها حبيب منذ ذلك الحين، ماذا فعلت هذه المرأة بحياتها الراكدة هكذا؟ وحيدة، دون حماية، بترصد من كل رجل لأى نقطة ضعف فيها لكى ينقض عليها ويفترسها. واستمرت هكذا سنة بعد سنة.

كلمة بولترى فوق رءوس المارة، أعادته للواقع.

فورسايت، بوستارد وفورسايت، بحروف سوداء على أرضية بلون حساء البازلاء، ملأته بنوع من النشاط. صعد السلم الحجرى وهو يتمتم: "أملاك رديئة عفنة حسنًا، لا يمكننا أن نعيش دونها!"

قال للولد الذى فتح الباب: "أريد السيد سومز فورسايت،"

- "ما الاسم؟"

- "السيد چوليون فورسايت"

نظر إليه الشاب بفضول، فهو لم يرَ فردًا من عائلة فورسايت له لحية، ثم اختفى.

شغلت مكاتب فورسايت، بوستارد وفورسايت الدور الأرضى كله. لا تضم الشركة الآن سوى سومز وعدد من المديرين

والموظفين. "فالتقاعد التام لـ"چايمس " عن العمل منذ ست سنوات قد زاد من سرعة العمل، الذى أضيفت إليه لمسة السرعة النهائية عندما أخرج بوسترد وعندما تأثرت الشركة بسبب قضية "فراير ضد فورسايت"، كما اعتقد العديدون، لكن سومز بفطنته لم يسمح لهذا الشيء أن يزعجه، وعلى العكس أدرك دائما أن الادخار قد وفر له مائتى جليه فى العام خالصة بشكل مستمر، ولمَ لا؟

عندما دخل چوليون، كان ابن عمه يتفحص قائمة من الحصص فى البضائع التى سوف ينصح شركاته بطرحها فى الأسواق على الفور، بسبب شائعات الحرب، قبل أن تقوم الشركات الأخرى بذلك. ثم نظر حوله وجانبا ثم قال:

- "كيف حالك؟ دقيقة واحدة فقط. هلا تتفضل بالجلوس"؟ ووضع المسطرة فى المكان الذى توقف عنده، والتفت إلى "چوليون"، وهو يقضم أصابعه".

قال: - "نعم؟".

- "لقد رأيتها"

عبس وجه سومز وقال:

- "ثم"

- "لقد بقيت مخلصة للذكريات"

شعر چوليون بالخجل لقوله ذلك، وتلون وجه ابن عمه بلـــون أحمرٍ داكنٍ. ما الذي جعله يسخر هكذا.

- "علي أن أخبرك أنها آسفة لأنك لم تحصل علــى حريتــك. فاثنا عشر عامًا مدة طويلة. أنت على دراية بالقانون أكثــر مني، والفرصة التي يمكن أن يقدمها لك"

تمتم سومز بفضول، وبقي الاثنان بغير كلام لمدة دقيقة كاملــة "مثل الشمع" هكذا فكر چوليون، وهو يراقب ذلك الوجه العبوس حيث كانت الحمرة قد خمدت. "هو لن يعطيني إشارة لما يفكر فيه، أو لمــا سيفعله. مثل الشمع"، وحول نظره إلي تصميم تلك المدينة المزدهــرة بمحاذاة النهر، تلك التصميمات المستقبلية المعروضة علــى الحــائط لكي ترضي الغرائز الامتلاكية لعملاء الشركة. ومضت بداخله فكرة غريبة: "ترى ما إذا كنت سأحصل على فاتورة بالتكاليف لكل هــذا، تدخل السيد چوليون فورسايت في مسألة طلاقي، بزياراته لزوجتــي، ونصحه بالذهاب ومقابلتها ثانية".

فجأة قال سومز:

- "لا يمكنني أن أستمر هكذا. أخبرك، لا يمكننـــي أن أســـتمر هكذا".

كانت عيناه تتحركان من جانب إلى جانب، مثل عيني الحيوان عندما يبحث عن طريق للهروب. فكر چوليون، إنه حقــا يعانــــي، لا يمكنني أن أتجاهل ذلك لمجرد أنني أكرهه".

قال بلطف: "بالتأكيد، الأمر يتعلق بك أنت. الإنسان يمكنـــه أن يتعامل مع هذه الأشياء جيدا إذا ما أخذ الأمر على عاتقه"

التفت سومز إليه، بصوت بدا كما لو كان يأتى من الأعماق.

- "لماذا يجب أن أعانى أكثر مما عانيت بالفعل؟ لماذا؟"

تمكن چوليون، فقط، من أن يهز كتفيه. فعقله قَبِل ذلك، لكـــن غريزته ثارت ثائرتها، لم يتمكن من قول السبب.

استرسل سومز:

- "والدك اهتم بها... لماذا؟ الرب يعرف، وأعتقد أنك تفعل الشيء نفسه أيضا" ونظر إلى "چوليون" نظرة حادة "يبدو لى أن على المرء أن يظلم شخصا آخر لكى يحصل على التعاطف. لا أدرى ما الذى فعلته لألام عليه، لم أعرف أبدا. كنت أعاملها جيدا. لقد أعطيتها كل ما رغبت فيه، لقد أردتها".

مرة ثانية وافق عقل "چوليون"؛ ومـــرة ثانيـــة أيـــضا ثـــارت غريزته. فكر: "ما هذا؟ من المؤكد أن هناك شيئا ما خطأ بـــداخلى. ولو أنه موجود، فمن الأفضل أن أكون مخطئا بدلا من أكون محقا"

قال سومز، بنوع من الحدة: "بعد كل هذا، لقد كانت زوجتى"

راودت چوليون فكرة: "هى كذلك الممتلكات.. حـــسنًا، نحـــن جميعا نمتلك أشياء. لكن البشر، لا!"

قال بجفاف: "عليك أن تنتبه للحقائق، لأنك مُحتاج إليهم"

أعطاه سومز نظرة أخرى مريبة وسريعة .

قال: "مُحتاج إليهم؟ نعم، لكننى لست متأكدًا من هذا"

أجاب چوليون: "أرجو أن تعذرنى، لقد أخبرتك بما قالت. لقد كان واضحًا"

- "علمتنى تجربتى ألا أثق فى كلامها. سوف نرى"

نهض چوليون، قال باقتضاب:

- "إلى اللقاء،"

رد سومز: "إلى اللقاء،"؛ وخرج چوليون محاولا أن يفهم النظرة على وجه ابن عمه نصفها استغراب ونصفها تهديد. ذهب إلى محطة ووترلو وهو يشعر بالانزعاج، وعلى طول الطريق فى القطار، فكر فى إيرين وهى تعيش فى شقتها وحيدة ومنعزلة، وفى سومز وحيدًا فى مكتبه، وفى ذلك الشلل الغريب لحياة كل منهما. فكر: "فى المحكمة، كلاهما فى المحكمة، وهى جميلة جدا!".

الفصل التاسع
ڤال يسمع الأخبار

الإبقاء على الارتباطات والعلاقات لم يكن سمة واضحة في حياة الشاب "ڤال دارتى"، لذلك عندما نقض اثنين من الارتباطات وأبقى واحدًا، كان ذلك الحدث الأخير الذى سبب له الدهشة الشديدة، بينما كان عائدا إلى المدينة من روبين هيل بعد جولة على ظهور الخيل مع هولى. لقد كانت أكثر جمالا مما تصورها أمس، على فرسها الأغبر فضى اللون، ذى الذيل الطويل بولفرى وقد بدت له الفرصة حريصة فى غسق أكتوبر الضبابى وفى نواحى لندن، ولهذا لم يظهر منه سوى حذائه الطويل فى كل مكان ذهب إليه خلال ساعتى رفقتهما.. أخرج ساعته الذهبية الجديدة، هدية من چايمس ولم ينظر إلى الوقت، ولكن نظر إلى ملامح وجهه المنعكسة على ظهر علبتها المفتوحة. كان لديه بقعة مؤقتة فوق أحد حاجبيه، ولم يسره ذلك؛ فمن المؤكد أن هولى استاعت من رؤيتها فى وجهه. لم يكن لدى كروم أى بقع على جلده. معا هو وكروم كانا قد أثارا ذلك الموضوع فى متنزه باندييمنيوم. لم تكن لديه أدنى رغبة في التحدث معها عن والده اليوم.

والده كان يفتقد إلى الروح والإحساس، هذا الإحساس بالحيوية معها كان الأول فى ستين عمره التسعة عشر، الحرية مع سينتيا دارك هذا التجسيد الأسطورى للنشوة، حتى تلك اللحظات مع السيدة فى الحديقة سابقًا والتى لم يعرف سنها. كل هذا انتهى بالنسبة له منذ أن رافق ابنة عمه الرقيقة والخجولة ذات الشعر الأسود، هى أيضا تستطيع "ركوب الخيل" جيدا، لهذا كان الأمر الأكثر إطراءً وإرضاءً لغروره أن تتركه يتقدمها أثناء فترات العدو الطويلة فى حديقة ريتشموند على الرغم من أنها تعرفها أكثر منه. وبالنظر فى كل ما سبق، كان متحيرًا ومرتبكًا بسبب حديثه الفقير؛ شعر أنه من الممكن أن يقول أشياءً عديدة جذابة لو سنحت له الفرصة ثانية، وفكرة أنه يجب أن يعود إلى ليتيل هامبتون فى الغد، وإلى أكسفورد فى الثانى عشر من الشهر الجارى، إلى ذلك الامتحان البشع أيضًا دون أدنى فرصة لرؤيتها ثانية؛ تلك الفكرة سببت له إحساسا باليأس. وعلى الرغم من هذا يجب أن يكتب لها؛ فقد وعدته بالرد. ربما سوف تأتى إلى أكسفورد لرؤية أخيها. تلك الفكرة كانت كبارقة أمل ومضت بداخله عندما كان يمتطى الخيل فى إسطبل بادويك فى ميدان سلون. تمشى "قال" لكى يزيل إرهاق جسده؛ فقد ركب لمسافة تقرب من خمسة وعشرين ميلا. شخصية دارتى التى بداخله جعلته يساوم مدة خمس دقائق مع الشاب بادويك بخصوص الحصان كامبريدج شاير؛ ثم قال: "سجله على حسابى"، وسار بعيدًا، مباعدًا قليلاً بين ساقيه،

وهو ينقر حذاءه بعصاه الصغيرة. فكر: "لا أشعر بأدنى رغبة فى الخروج، أتعجب لو قلقت أمى أو ثارت فى ليلتى الأخيرة فى البيت". يمكن أن أمر بليلة عائلية لطيفة.

عندما نزل ڤال من الطابق العلوى، نظيفا كل النظافة بعد أن استحم، وجد أمه فى رداء النوم، وشعر بالقلق عندما دخل حيث توقف خاله وأمه عن الحديث فجأة؛ ثم قال خاله:

"يجدر بنا أن نخبره"

بهذه الكلمات التى كانت تعنى شيئا ما عن والده، بالطبع، كانت الفكرة الأولى التى بدرت إلى ذهن ڤال عن هولى. هل كان شيئا بشعا؟ ثم بدأت أمه الحديث قائلة بصوت رقيق: "والدك"، بينما كانت أصابعها تمسك بقطعة قماش مطرزة لونها أخضر فاتح، "والدك، يا ولدى العزيز، إنه ليس فى نيوماركت؛ إنه فى طريقه إلى أمريكا الجنوبية. لقد هجرنا".

نظر ڤال إليها ثم إلى سومز. ثم تركهم، هل كان حزينا؟ هل كان مولعا بوالده؟ بالنسبة له لم يعد يعرف. ثم، فجأة. وهو يدخن سيجارة، انتفض قلبه بداخله، شعر بالحزن والأسف؛ فالأب الذى يرتبط بابنه ويتعلق به، لا يمكنه أن يرحل بهذه الطريقة، شىء غريب، كلا، لم يكن ذلك الوغد الذى قابله فى المتنزه بانديمونيوم.

لقد كان هناك ذكريات قيمة تجمعهما، فى محلات الترزية، والخيول، والأفكار المفيدة أثناء الدراسة، والطيبة المفرطة فى فترات النجاح والتوفيق وغيرها.

قال: "لكن لماذا؟"، وقد شعر بالأسف كونه رجلا نبيلاً لأنه ويسأل هذا السؤال.

وكان التعبير الذى يغطى وجه أمه منزعجًا، فقال:

– "حسنًا يا أمي، لا تخبرينى فقط، ماذا يعنى هذا؟"

قالت:

" الطلاق، يا ڤال للأسف".

تمتم "ڤال" بتحيز غريب قليلاً، ونظر بغتة إلى خاله، هذا الخال الذى تعلم أن ينظر إلى "ڤال" على أنه دائما يقف ضد أبيه، حتى ضد دم دارتى الذى يجرى فى عروقه. الوجه ذو الوجنات المسطحة بدأ ينتفض، وقد أزعجه ذلك.

– "لن ينتشر الخبر بين العامة، أليس كذلك؟"

استعاد "ڤال" إلى خاطره بشكل مشتت بعض الذكريات. عيناه تتسمران أمام التفاصيل البذيئة للعديد من قضايا الطلاق فى الصحافة العامة.

– "ألا يمكن القيام بذلك فى هدوء بأى صورة من الصور؟ إنه شيء كريه جدا بالنسبة لأمى، وبالنسبة لكل شخص منا".

- "كل شيء سوف يتم بهدوء بقدر ما نستطيع، اطمئن"
- "نعم، ولكن، لماذا يعتبر ذلك ضروريا على كل حال؟ أمى لا تريد أن تتزوج مرة ثانية".

هو نفسه، والبنات، قد لطخوا على مرأى ومسمع من رفقائه فى المدرسة، وكروم، أمام زملائه فى أكسفورد، وأمام هولي شيء لا يحتمل فقال بحدة: "ماذا يمكن أن نجنى من وراء ذلك؟ هل ستستفيدين شيئًا يا أمى؟".

هكذا أصبحت تواجه شعورها تجاه الشخص الذى أحبته أكثر من أى شخص آخر فى العالم. نهضت وينفريد من مقعدها الذى كانت تجلس فيه، فقد رأت أن ولدها سينقلب ضدها إذا لم تخبره بكل شيء؛ وماذا بعد، كيف يمكنها أن تخبره؟ هكذا، لا تزال تمسك بالقماش الأخضر المطرز. حدقت فى وجه سومز. وكان "ڤال" أيضا يحدق فى وجه سومز. بالتأكيد هذا الرجل الذى يمثل الاحترام والإحساس بالتملك لم يكن يرغب فى أن يكون سببًا فى وقوع العيب على كاهل أخته

مسح سومز بمنديل صغير على السطح الناعم للمائدة ببطء؛ ثم، ودون الالتفات إلى ابن أخته، قال:

"أنت لم تفهم قدر المعاناة التى عاشتها أمك خلال العشرين عامًا الماضية. فقد كانت هذه هى القشة التى قصمت ظهر البعير، يا "ڤال" ونظر إلى وينفريد بجانبه، وأضاف:

- "هل أخبره؟"

كانت وينفريد صامتة. لو لم يتم إخباره، سوف يكون ضـــدها لكن سيكون من المخيف أن يتم إخباره بمثل هذه الأشياء عن والـــده، فأومأت وهى تزم شفتيها.

تحدث سومز بسرعة قائلاً :

- "لقد كان دائما عبئا ثقيلاً على عاتق والدتك. لقد دفعت ديونه مرات عديدة؛ كان دائما، سكيرًا، ويسيء معاملتها ويهددها، والآن يرحل إلى بوينوس إيريس مع راقصة". وكما لو كان يرتاب فى هذه الكلمات وتأثيرها على الولد، استرسل بسرعة قائلاً :

- "لقد أخذ لآلئ والدتك لكى يعطيها لهذه الراقصة"

حرك "ڤال" يده لأعلى، فى تلك اللحظة، صاحت وينفريد:

"هذا يكفى يا سومز، توقف"

دار فى داخل "ڤال" صراع بين دارتى وفورسـايت. الـديون والسكر والراقصات، كان أكيدًا؛ لكن اللآلئ... لا! ذلك كثيــر جـدًا! وفجأة وجد يد أمه تضغط على يده.

سمع سومز يقول:

"أنت تفهم، لن يمكننا أن نحصل على فرصة أخــرى. هنـاك دليل؛ يجب أن نضرب على الحديد وهو ساخن"

حرر "ڤال" يده من تحت يد أمه.

"لكن أنتم لن تستخدموا اللآلئ حجة، لا يمكننى تحمل ذلك، لا يمكننى"

صرخت وينفريد:

"لا يا "ڤال"، هذا فقط لكى أوضح لك أن الحياة أصبحت مستحيلة مع والدك"، وأومأ خاله موافقا. أخذ "ڤال" سيجارة؛ فقد كان والده قد اشترى له تلك العلبة الرفيعة. أوه لقد كان غير محتمل، للتو كان سيذهب إلى أكسفورد

قال:

"ألا يمكن حماية أمى بغير دون ذلك؟ يمكننى أن أعتنى بها، يمكن أن تقوم بذلك عندما يكون ضروريا"

ابتسم سومز للحظة، ثم تحولت بسمته إلى مرارة

- "أنت لا تعرف عمَّ تتحدث؛ لا شيء مهلك مثل تأجيل مثل هذه الأشياء"

- "لماذا؟"

- "سأخبرك، يا ولدى، لا شيء مهلك مثل التأجيل. أعرف ذلك من خلال تجربتى"

كان صوته يدل على الغضب والانزعاج، ڤال رآه، وقد اتسعت عيناه، لم يعرف "ڤال" خاله من قبل معبرا عن أى نوع من الإحساس. أوه نعم، تذكر الآن، هناك الخالة إيرين، وشىء ما كان قد حدث. شىء ما بقى سرا؛ سمع والده ذات مرة يستخدم كلمة لا تليق ذكرها وهو يتحدث عنها.

استمر سومز قائلا

- "لا أريد أن أتحدث بشكل غير جيد عن والدك، لكننى أعرفه جيدا وبشكل كافٍ يجعلنى متأكدا من عودته إلى هنا قبل مرور عام. يمكنك أن تتخيل ماذا يعنى ذلك بالنسبة لها وبالنسبة لكم جميعا بعد ما حدث، ليس أمامنا خيار سوى معالجة الأمر من الآن"

كان ڤال متأثرا رغما عنه، وبينما ينظر إلى وجه والدته، توصل إلى أول شعور حقيقى لديه، وهو أن مشاعره لم تكن تهم أحدا قط.

قال: "حسنا، يا أمى، سوف ندعمكِ. فقط أود أن أعرف متى سيكون ذلك. إنه الفصل الأول لى فى الدراسة، أنت تعرفين، لا أريد أن أذهب إلى هناك عندما تبدأ الإجراءات"

تمتمت وينفريد:

- "أوه يا ولدى العزيز، هذا الشىء مضجر بالنسبة لك".

كما جرت العادة، قالت ما كان يدل على الحسرة المؤلمة، وهذا ما ظهر فى تعبيرات وجهها.

- "متي سيتم ذلك، يا بسومز؟"
- "لا أعرف، ليس لشهور. يجب أن نحصل علي القرار أولاً"

فكر: "يا لك من داهية! يا لهؤلاء المحامين من وحوش أغبياء! شهور ولا أعرف شيئا واحدا؛ لن أتناول العشاء هنا! وقال:

- "آسف بشدة، يا أمي، أنا مضطر للخروج الآن لتناول العشاء"

علي الرغم من أن هذه كانت ليلته الأخيرة في البيت، أومأت وينفريد موافقة بامتنان؛ كلاهما شعر أنه ذهب بعيدا بشكل كاف للتعبير عن شعوره.

خرج ڤال من شارع جرين، مكتئبا وثائرا. ولم يلبث أن وصل بيكاديللي حتى اكتشف أنه ليس معه سوى ثمانية عشر بنسا، ولا يمكنه أن يتناول العشاء خارج المنزل بثمانية عشر بنسا، وقد كان جائعا جدا. نظر، بشوق، عبر النوافذ في نادي إبسييوم، حيث كان قد تناول شهى الوجبات مع والده، هذه اللآلئ لا مجال لنسيان ذلك! لكنه كلما مشى مسافة أطول واستغرق في التفكير، شعر بالجوع أكثر من الطبيعي. كان أمام "ڤال" مكانان يمكن أن يذهب إليهما. بيت جده في بارك لين، وبيت تيموثي في بايسووتر رود. أين يذهب؟ في بيت جده ربما يتناول عشاءً أفضل. أما في بيت تيموثي فيوفرون لك طعاما

جيدا وسعيدا إذا كانوا يتوقعون قدومك، وليس خلاف ذلك. قرر التوجه إلى بارك لين ولم يكن مكترثا بفكرة الذهاب إلى أكسفورد دون أن يحصل من جده على المصروف الذى كان – بالنسبة لكليهما – عادلا بالكاد. ربما تسمع والدته أنه كان هناك، بالطبع، وربما تعتقد أن ذلك ليس شيئًا جيدًا؛ لكن لا يمكنه أن يفعل غير ذلك. دق الجرس:

– "مرحبا، وورمسون، هل يوجد عشاء من أجلى؟"

– "إنهم بالداخل، يا سيد ڤال. السيد فورسايت سوف يكون مسرورا لرؤيتك. فقد كان يقول على الغداء إنه لم يرك هذه الأيام قط"

ابتسم ڤال:

– "حسنا، ها أنذا. أعد عشاءً جيدًا"

ابتسم وورمسون قليلاً، فى رأيه كان ڤال شابا صغيرا.

– "سوف أسأل السيدة فورسايت، يا سيد

تذمر ڤال، وهو يخلع معطفه: "يا الله، لم أعد فى المدرسة، أنت تعرف"

لم يكن وورمسون، دون روح للدعابة، فتح الباب بعد أن علق المعطف على الشماعة، وهو يقول:

- "السيد "قاليريوس، يا سيدتى"

فكر ڤال وهو يدخل: "اللعنة"

عانقته إيميلى بدفء، وهى تقول: "مرحبا، يا ڤال!"، وبصوت متهدج قال چايمس "ها أنت أخيرًا"، وقد عاد إليه الإحساس بالهيبة.

- "لمَ لم تعطنا خبرا قبل مجيئك؟ هناك فقط قطعة لحم ضأن".

قالت إيميلى: "الشمبانيا يا وومرمسون. ثم دخلوا".

على مائدة العشاء الكبيرة، جلس چايمس على رأس المائدة، وإيميلى على الطرف الآخر. أما "ڤال" فقد جلس فى منتصف الطريق بينهما. فى هذه اللحظات شعر كم يعيش جدّاه فى وحدة بعد أن تركهما أولادهما الأربعة. فكر: "أتمنى أن أستمتع بحياتى قبل أن أصبح عجوزًا مثل جدى، يا له من رجل عجوز مسكين، إنه بخيل جدًا " وقال لإيميلى بصوت منخفض بينما كان جده وورمسون يتجادلان على السكر فى الشوربة:

- "إنه شىء مزعج فى البيت، يا جدتى. أعتقد أنك تعرفين"

- "نعم، يا ولدى العزيز."

- "خالى سومز كان هناك عندما خرجت من المنزل. يا الله، ألا يمكن عمل أى شىء لمنع الطلاق؟ لماذا يريد ذلك ويصر عليه؟"

تمتمت إيميلى:

- "اسكت يا عزيزى، نحن نخفى ذلك الموضوع عن جدك"

سُمِع صوت چايمس من الطرف الآخر للمائدة:

- "ما هذا؟ عمَّ تتحدثان؟"

ردت إيميلى:

- "عن كلية ڤال، هناك شاب في باريس، يا چايمس، أنت تتذكر، تقريبا اقتحم البنك فى مونت كارلو"

تمتم چايمس قائلا:

"إنه لا يعرف شيئا، يجب أن يعتنى ڤال بنفسه هناك، وإلا ربما يقع في مشكلات".

ونظر إلي حفيده، وهو مكفهر الوجه. قال ڤال:

وهو ينظر فى طبقه:

- "ما يخيفنى هو أن أكون فى ضيق مالى. أنت تعرف"

بالغريزة علم أن نقطة ضعف ذلك الرجل الجد هو الخوف على أحفاده وسلامتهم.

قال چايمس، وقد سالت الشوربة من ملعقته: "رائع، سوف يكون لديك مخصصات مالية جيدة؛ لكن عليك أن تدبر حياتك فى حدود هذا المبلغ"

تمتم ڤال: "بالطبع، لو أنها كافية. ما المبلغ، يا جدى؟"

"ثلاثمائة وخمسون جنيها؛ إنه مبلغ كبير. لم أحصل على هذا المبلغ عندما كنت فى مثل سنك"

تنهد ڤال؛ فقد كان يتمنى أن يحصل على أربعمائة جنيه؛ لكنه، أيضا، كان يخاف أن يعطيه ثلاثمائة فقط. قال چايمس: "لا أعرف المبلغ الذى يأخذه ابن عمك الشاب من أبيه؛ فوالده رجل غنى".

سأل ڤال بتجهم: "ألست أنت كذلك ياجدى؟".

أجاب چايمس بارتباك: "أنا؟ لدى الكثير من النفقات. وصمت.

"ابن عمى چوليون لديه مكان جميل، فيه إسطبلات للخيل، لقد ذهبت إلى هناك مع خالى سومز

تمتم چايمس: "آه، ذلك البيت، أعرفه جيدا" وعاد إلى الاستغراق فى التفكير بوجه مكفهر. مأساة ابنه، والشرخ الذى سببته فى عائلة فورسايت، لا تزال تلقى به فى دوامة من الشكوك ومساورة المخاوف. ڤال الذى تاقت نفسه إلى الحديث عن روبين هيل، لأنها تعنى هولى بالنسبة له، التفت إلى إيميلى، وقال:

- "هل بنى هذا البيت من أجل خالى سومز؟ "أومأت جدته برأسها،

واسترسل قائلاً :

– "ألن تخبرينى عنه يا جدتى. ما الذى فعلته الخالة إيرين؟ هل لا تزال هاربة؟ يبدو عازما على شىء ما، بشدة، الليلة"

وضعت إيميلى أصابعها على شفتيها، لكن كلمة إيرين وصلت إلى أذنى چايمس.

قال، وهو يبقى قطعة لحم ضأن قريبة من شفتيه: "ما هذا؟ من يراها؟ أعرف أننا لم نسمع أى شىء عنها؟"

قالت إيميلى: "الآن، يا چايمس، تناول عشاءك. لا أحد يرى أحدا"

وضع چايمس شوكته، وقال:

– "ها أنتِ تبدئين، ربما كنت سأموت قبل أن تخبرينى بذلك. هل يسعى سومز للحصول على الطلاق؟"

قالت إيميلى فجأة: "ليس معقولاً؛ سومز شخص حسن الإدراك"

سوى چايمس الشعر الأبيض الطويل على جانبى وجهه. قال:

– "هى، لقد كانت دائمًا"

وبهذه الملحوظة الغامضة عاد إلى حديثه مع وورمسون. لكن فيما بعد، عندما تم تقديم الحلوى ذات المذاق الشهى بعد لحم الضأن، حصل ڤال على شيك بعشرين جنيهًا وقبلة من جده، ليست كأى قبلة فى العالم .

– "حدثينى عن خالى، يا جدتى. لماذا يصر على أن تحصل أمى على الطلاق؟"

قالت إيميلى بصوت يدل على الثقة الزائدة: "خالك سومز محامٍ يا ولدى العزيز، يثق أنه يعرف أفضل شىء يجب القيام به"

تمتم ڤال:

- "هل هو كذلك؟ لكن ماذا فعل مع الخالة إيرين؟ أنا أتذكر أنها كانت تبدو بمظهر رائع"

قالت إيميلى:

- "لقد تصرفت بشكل سيئ. نحن لا نريد التحدث فى هذا الموضوع".

قال ڤال:

- "حسنا، لا أريد أن يعرف أحد من زملائى فى أكسفورد عن شؤوننا. إنها فكرة بشعة. لمَ لا يمكن حل المشكلة مع أبى قبل أن يشيع الأمر؟"

تنهدت إيميلى، لقد عاشت دائما فى جو يشجع على الطلاق؛ بسبب ميولها العصرية، فقد كانت تجتمع مع العديد من الأشخاص الذين أكسبوها سمعة رديئة. وما عدا ذلك، فعندما يتعلق الأمر بعائلتها، فقد أحبتهم كما لم تحب أحدًا آخر، وكانت دائمًا امرأة شجاعة وعملية.

قالت:

- "والدتك سوف تكون سعيدة إذا حصلت على حريتها، يا ڤال. تصبح على خير، يا ولدى العزيز. لا ترتدى صدريات

مرتفعة فى أكسفورد، فليس وقتها الآن. ها هى هدية صغيرة"

وضعت خمسة جنيهات أخرى فى يده وشعر بدفء فى قلبه، لأنه كان يحب جدته كثيرًا. ثم خرج إلى بارك لين. هبت بعض الرياح التى بددت الضباب، وكانت أوراق الخريف تخف، والنجوم تلمع. بكل هذه النقود فى جيبه؛ تتملكه الرغبة فى أن يستمتع بحياته، لكنه لم يكن قد سار أربعين ياردة باتجاه بيكاديللى؛ عندما تذكر وجه هولى الخجول وعينيها الرقيقتين، وبدأت يده تشعر بالتنميل مرة ثانية من ضغط يدها الدافئة المغطاة بالقفاز. فكر: "لا، سوف أذهب إلى البيت!"

الفصل العاشر

سومز يستمتع بالمستقبل

كان الوقت مبكرا جدا عند النهر لكن الجو كان لطيفا والصيف يتكئ تحت الأوراق المصفرة التى تساقطت فى الخريف. وفى صباح الأحد تطلع سومز إلى يومه من حديقته المحاذية للنهر بالقرب من ما بلدرهام

وجمع سومز الأزهار بيديه فى عوامته الصغيرة، وجهَّز القارب الذى اقترح أن يأخذهم فيه عبر النهر بعد الغداء، فسوى الوسائد صينية المظهر ورتبها، ولم يقرر سومز بعد، ما إذا كان سيأخذ أنيت وحدها معه فى القارب أم لا؟ لقد كانت أنيت فتاة جميلة جدا، ترى هل يثق أنه لن يقول كلمات غير لائقة بعيدا عن حدود الحذر والفطنة، لا تزال الأزهار يانعة وسياج الشجيرات دائمة الخضرة، لذلك، بالكاد، كان هناك ما يلطف "الحالة المزاجية" فقد كان عصبيا ضجرا قليل الثقة بشكل غريب فى قدرته على أن يجعل اللقاء يسير فى الاتجاه الصحيح لقد أعد سومز لهذه الزيارة بحيث تصبح أنيت وأمها على دراية كافية بممتلكاته الشخصية لذلك يجب استقبالهم بمقدمة موسيقية مبجلة ربما رغب بها، بعد ذلك ارتدى سومز ملابسه بعناية شديدة فلم يقصد أن يبدو شابا صغيرا جدا أو رجلاً

كبير السن جدا، وحرص على أن يظهر شعره كثيفا ناعمـا ولـيس أشيبا ثم صعد إلى معرض لوحاته ثلاث مرات ومعتقدًا أنهم إذا كـان لديهم أدنى معرفة فإنهم سوف يدركون أن مجموعتـه الفنيـة هـذه وحدها تساوى على الأقل ثلاثين ألف جنيه إسترلينى. ذهـب سـومز ليتفقد حجرة نومه الجميلة المطلة على النهر حيث يمكـن أن تـصبح حجرتها إذا ما سارت الأمور على خير ما يرام، وأصـبحت أنيـت زوجته، ثم ذهب إلى حجرة تناول الطعام ومر بيديه علـى المفـرش الليلكى اللون والمثبت بشتى أنواع الدبابيس، وكان هنـاك مزهريـة يفوح منها أريج يجعل رأسه يدور قليلا.

آه، ستكون زوجته لو أن كل شىء سار على ما يـرام، ولـم يساورهم كابوس الطلاق ثم نظر سومز بوجه عبـوس إلـى النهـر المتلألئ خلف الورد والأرض المزروعة بالعشب لن تقـاوم الـسيدة "لاموت" هذا المنظر الطبيعى الرائع أبدًا، فمن المؤكد أنهـا تتمنـى لابنتها حياة رغدة مثل هذه الحياة التى يمكن أن يوفرها سومز لهـا، وأنيت لن تقاوم أمها أبدا .

كان لديه وقت للذهاب بعربته إلى محطة القطـار ليـستقبلهم بنفسه، يا له من ذوق تتمتع به المرأة الفرنسية، فقد وصـلت الـسيدة لاموت وهى ترتدى فستانا أسود عليه نسمات ليلية اللون، أما أنيـت فكانت ترتدى فستانا من الكتان لونه رمادى وقفازًا ذا لـون أصـفر باهت وقبعة أنيقة، لكنها بـدت شـاحبة بعـض الـشىء، وعيناهـا

الزرفاوان وديعتان. فى غرفة تناول الطعام، وقف سومز فى نافذة زجاجية قاتمة تطل على الحديقة منتظرا أنيت، وأمها حتى ينزلا لتناول الطعام، شعر بالبهجة والسرور فى تلك الشمس المشرقة والأزهار والأشجار التى وصلت لأوج ازدهارها وجمالها. كان سومز قد أمر بإعداد الغداء باهتمام كبير، وجهز نبيذًا من أفضل الأنواع، وقد كانت مواعيد تناول الوجبات محددة، يجب على الجميع احترامها، ثم احتسوا القهوة فى الشرفة الواسعة.. كان أسلوب أنيت فى الكلام وتناول الطعام واحتساء القهوة يدل على الجمال الواعى ذى الذوق الرفيع. قال سومز لنفسه "نعم، لو قضت هذه الفتاة عاما آخر فى لندن؛ فإن سلوكياتها ستفسد"........".

كانت السيدة لاموت تتحلى بأخلاقيات فرنسية وقورة ورزينة "بديع الشمس رائعة" كل شيء فى منتهى الجمال، أليس كذلك يا أنيت؟ "السيد سومز، نبيل حقا" تمتمت أنيت موافقة وفى عينيها نظرة لم يفهمها سومز ثم اقترح سومز القيام بجولة عبر النهر، لكنه فكر أنه عندما يركبا القارب سيكون أحدهما مستلقيا على تلك الوسائد الصينية ويكون الآخر منشغلا بتوجيه القارب، لذلك شعر بضياع الفرصة، ولذلك تمشوا باتجاه البانج بورن "فإذا بورقة صفرا ذابلة تسقط على أنيت أو على فستان أمها الأسود ولم يكن سومز سعيدا فقد أعياه التفكير كيف ومتى وأين، هل يمكننى أن أقول؟ ماذا يمكننى أن أقول؟ لم تعرف أنيت وأمها بعد أنه كان متزوجا، فربما إذا علما

بذلك ضاعت فرصة للزواج بها؟ إذا لم يُوصِل لهما فكرة عن الزواج بـ أنيت فإنها ربما تقع فى قبضة رجل آخر، فكرة مثل أن يحصل على الطلاق، ويكون حرا ليطلب الزواج منها. جلسوا يحتسون الشاى بالليمون كما طلبا .

قال سومز "سوف تقوم حرب"

بكت مدام لاموت قائلة بالفرنسية:

- "هؤلاء الرعاة المساكين!" ثم قالت بالإنجليزية "ألا يمكن أن يتركوهم وشأنهم؟"

ابتسم سومز؛ فقد بدا السؤال سخيفا بالنسبة له.

بالتأكيد، إنها بوصفها سيدة أعمال قد فهمت أن البريطانيين لن يتركوا أرباحهم ومكاسبهم التجارية المشروعة.

"آه، بالضبط!" لكن مدام "لاموت" اكتشفت أن الإنجليز منافقون إلى حد ما، فهم كثيرا ما يتحدثون عن العدالة ولا يفعلون شيئا لتنفيذها فى كل مكان، وكان السيد هو أول من تحدث معها فى ذلك الموضوع. علّق سومز

"البوير ليسوا متحضرين تمامًا؛ فهم يقفون فى طريق التقدم" "ماذا يقصد بقوله هذا"؟

يا لها من كلمة غريبة، فقد أصبح سومز فصيحا فقد تم استفزازه بهذه التهديدات الموجهة لمبدأ التملك، وأثارته نظرات أنيت

المحدقة فيه، وشعر بالسرور. وعندما قالت "أعتقد أن السيد على حق، فهم يجب أن يتعلموا الدرس" كانت على وعى تماما بما تقول "بالطبع" قال سومز" يجب أن نتصرف بشىء من الاعتدال، فأنا لست وطنيا متطرفاً ويجب أن نكون حازمين دون الاعتداء على الضعفاء" ما رأيكم لو تقعدوا معى لمشاهدة لوحاتى؟" وبالفعل صعدا معه وهم ينتقلون من واحده لأخرى بين هذه الكنوز التى لا تقدر بمال أدرك سومز أنهم لا يعرفون شيئا مروا أمام آخر لوحة له وكانت لوحة متميزة تعبر عن "عربة قش تعوْد إلى المنزل"، وكانت كأنها صورة فوتوغرافية.

راقب سومز رد فعلهما عند يَريا جوهرة لوحاته "إسرائيليات" والتى كان ثمنها يهبط ثم ارتفع ووصل إلى أعلى قيمة، وأصبحت الأعلى قيمة فى السوق مرة أخرى، ولكن للأسف لم تنتبها لها، فقد كان يتمنى أن يكون لدى أنيت ذوق رفيع بدلاً من أن يكون لديها ذوق متدنٍ وميل لا بأس به للتعامل مع الطبقة الوسطى الإنجليزية، وفى نهاية المعرض كانت هناك لوحة الماسونية والتى كان يشعر إزاءها بالخجل، وكانت مثبتة إلى الأسفل وقفت مدام "لاموت" أمامها قائلة:

"آه" الماسونية "يا لها من جوهرة" للتو شعر سومز بقيمتها

قال وهو يلمس ذراع أنيت بلطف "ما رأيك فى المكان يا أنيت؟"

لم ترد ونظرت إليه نظرة شاملة، ثم نظرت لأسـفل، وهـى تتمتـم:

- "ومن لا يعجبه؟ إنه جميل جدا"
- "ربما يوما"

كم كانت جميلة رابطة الجأش هادئة، لكنها أخافته تلك العيـون الزرقاء المتلألئة كزهرة الشوفان وتلـك الرقبـة الجميلـة الملفوفـة بمنحنياتها الرقيقة، إنها الإغراء متجسدًا فى امرأة إلالا! لا بد أن يتأكد من سلامة موقفه؛ فإذا لم يفعل هذا فإنه سيعذبها برجاء كاذب ثم التفت إلى مدام لاموت، التى مازالت تقف أمام "الماسونية"، وقال:

- "نعم إنها نموذج جيد للأعمال القادمة لهذا الفنـان يجـب أن تأتى إلى هنا مرة ثانية، سيدتى، يجـب أن تأتيـا كلاكمـا وتقضيا ليلة"
- "رائع أليس جميلا أن نراهم تحت الضوء؟ بـضوء القمـر أيضا من المؤكد أن النهر يكون ساحرا"

تمتمت قائلة "أنتِ عاطفية جدا يا أمى"

عاطفية هذه المرأة الفرنسية التى ترتدى ملابس لا يستهان بها أبدا، وفجأة شعر أنهما ليس لديها أى عاطفة هذا أفضل فمـا فائـدة العاطفة؟ و.....!

ذهب معهن فى العربة إلى المحطة ثم سار معهما إلى القطار، إلى وكانت يده فى يد أنيت وقد بدا له أن أصابعها قد استجابت له قليلاً، ثم ابتسمت له فى الظلام.

عاد أدراجه إلى العربة وقال للسائق "عُد إلى البيت يا جوردون، سوف أتمشى قليلاً.. ومشى سومز بخطوات سريعة فى الطرق المظلمة، تذكرها وهى تقول بالفرنسية "مساء الخير يا سيدى" كم كانت رقيقة وهى تقولها. لو يستطيع أن يعرف ما يدور فى رأس الفرنسيات، إنهن كالقطط،، لا تقول الواحدة منهن شيئا لكن،.. يا لجمالهن الفتان! يا لها من أم مناسبة لورثية.

وبابتسامه مرسومة على شفتيه، كان يفكر فى عائلته، وكيف أن زواجه بفتاة فرنسية سيكون مفاجأة بالنسبة لهم، وسيثور فضولهم حيال ذلك.

تنهدت أشجار الحور فى الظلام ونعبت بومة، كما فرشت الأشجار ظلالها على صفحة الماء. قال سومز لنفسه "يجب أن أحصل على حريتى؟ لن أضيع الوقت أكثر من ذلك سوف أذهب وأرى إيرين، فإذا أردت شيئا فيجب أن تفعله بنفسك، لابد أن أعيش حياتى مرة أخرى، أعيش وأفعل كل ما أريد بحرية ويصبح لى كيان، وفجأة فى صدى صوت ترتيل الكتاب المقدس بالكنيسة، دَقَّت الأجراس للنداء لصلاة الليل.

الفصل الحادى عشر

ويبزور الماضى

فى مساء الثلاثاء وبعد أن انتهى من تناول العشاء فى النادى، خرج سومز لينجز مهمة تتطلب منه شجاعة أكثر وربما رقة أقل من أى شيء قام به فى حياته. لقد اختار أن يذهب إليها فى المساء؛ ربما لأن إيرين تكون موجودة فى البيت فى ذلك الوقت، لكن السبب الرئيسى وراء ذلك هو أنه فشل طوال النهار فى إيجاد حل مرض، ومن ناحية أخرى كان يحتاج إلى أن يتناول بعض النبيذ لكى يعطيه جرأة أكثر.

ترك سومز عربته عند الرصيف وسار على قدميه حتى وصل إلى الكنيسة القديمة قاصدا بناءً يضم مجموعة من الشقق؛ حيث علم أنها تقيم فيه. كان ذلك البناء يقف منتصبا وحده خلف بناء ريفى أكبر منه بكثير، وقرأ الاسم "السيدة إيرين هيرون"، "هيرون فوروسون"، إنه لقبها قبل الزواج آه استخدمته مرة ثانية، ثم سار خطوات للوراء فى الطريق، ونظر إلى النوافذ فى الدور الأول. كان يحب الموسيقى، وقد تولد إحساس بالكره تجاهها عندما اعتبرت إيرين البيانو الخاص بها ملجأ تلوذ إليه، لأنها تعرف أنه لن يدخل عليها وهى تعزف.

انتظر طويلا حتى سمع صوتا بعث فى نفسه ذكريات مريرة فمن المؤكد أنها تعزف على البيانو واطمأن ساعتها أنه سيراها، ووقف مشتتا أكثر من أى وقت آخر، وتسللت الرعشة إلى جسده، وشعر أن حلقه جاف ودقات قلبه سريعة.

"ليس هناك ما يجعلنى اضطرب" حدَّث نفسه ثم تحركت شخصية المحامى بداخله، هل كان يرتكب شيئا أحمق؟ ألم يكن يجب أن يرتب لقاء رسميًا بينهما فى حضور وكيل وقفها؟ لا ليس أمام ذلك الرجل چوليون الذى تعاطف معها. لا.. ومرَّ عبر البوابة ببطء حتى يهدئ من سرعة دقات قلبه ويخفف من اضطرابه. صعد السلالم ودق الجرس. عندما فتح الباب أمامه، شعر برائحة الماضى تتسلل إلى داخله ومعها ذكريات مكتومة. إنه عبير المرسم الذى اعتاد دخوله، عبير بيت اعتاد أن يمتلكه، عطر أوراق الزهر المجفف بالعسل.

قال: "قولى لها، السيد فورسايت فى انتظارها، سيدتك سوف تقابلنى. أعرف ذلك".

وظن أنها ستأتى، حيث يمكن أن تظن أنه چوليون!

عندما انصرفت الخادمة وأصبح سومز وحيدا فى صالة صغيرة، حيث كان الضوء خافتا ينبعث من نجفة ذات لمبة واحدة، والحوائط والسجاجيد وكل شىء كان ملونا باللون الفضى، وقف سومز يفكر بطريقة تبعث على الضحك: "هل أدخل وأنا أرتدى المعطف أم أخلعه؟"

توقف صوت الموسيقى، ثم قالت الخادمة عند الباب "تفضل سيدى بالدخول"

"أنت، سمعها سومز تهمس بتلك الكلمة"

تدرب سومز على تفاصيل هذا المشهد مرات عديدة بشكل وهمى فى خياله، ولم تخدمه البروفة كثيرا، فهو ببساطة لم يستطع أن يتكلم ولم يفكر أبدًا أن رؤية تلك المرأة التى رغبها بشدة وسيطرت على مشاعره وامتلكتها، ولم يرها لمدة اثنى عشر عامًا يمكن أن تؤثر فيه هكذا. تخيل سومز نفسه يتحدث ويتصرف تارة كرجل أعمال، وتارة كقاض. والآن كأنه ليس فى حضور مجرد امرأة وحسب، أو زوجة ارتكبت خطيئة، ولكنها امرأة قوية ومراوغة مثل الشعور الذى بداخله؛ إنه نوع من السخرية الدفاعية تتدفق بداخله.

- "نعم إنها زيارة غريبة! أتمنى أن تكونى بخير"
- "شكرا، تفضل بالجلوس"

سارت إيرين بعيدًا عن البيانو، وذهبت لتجلس على مقعد الشباك وطوقت نفسها بذراعيها كان الضوء مسلطًا عليها هناك، ولذلك تمكن سومز من رؤية وجهها وعينيها وشعرها، لا تزال هذه الملامح الجميلة كما تذكرها تمامًا جلس سومز على حافة كرسى من الخشب الناعم المنجد بقماش فضى اللون، بالقرب من المكان الذى كان يقف عنده.

قال سومز:

- "لم تتغيرى"
- "لا، ما الذى أتى بك إلى هنا؟"
- "لقد علمت بما تريدينه من ابن عمك"
- "رائع"
- "أتمنى. كنت كذلك دائما"

صوتها متحفظ ومتحشرج أو مكتوم. وقوامها يبدو متوازنـــا، ومتأهبا. تراوده آلاف الذكريات عنها. تتحرك بداخله و.....

- "من الأفضل أن تعطينى معلومات أتصرف على أساســها. فالجميع يجب أن يمتثلوا لأمر القانون"
- "ليس عندى شىء لا تعرفه"
- "اثنا عشر عاما! هل تعتقدين أن؟ أصدق ذلك"
- "لا أظن أنك سوف تصدق أى شىء أقوله. ولكنها الحقيقة!"

نظر سومز إليها متجهمًا، وقد قال إنها لم تتغيــر، أدرك الآن أنها تغيرت بالفعل.

ليس فى المظهر إلا أنها كانت أكثر جمالا، وليس فى القوام إلا أنها كانت ممتلئة بعض الشىء أكثر من الماضى، لا! إنها تغيرت من

داخلها بشكل معنوى وليس ماديًا، على الأكثر، لا تزال كما كانت، لديها شيء من الحيوية والجرأة التى كانت مجرد مقاومة سلبية. آه حدث سومز نفسه قائلا:

- "إنّه دخلها المستقل! اللعنة على عمى چوليون"

- "أعتقد أنك ميسورة الحال الآن!"

- "نعم"

- "لِمَ لم تسمحى لى أن أساعدك؟ كنت على استعداد أن أفعل ذلك رغم كل شيء"

ارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة، ولكنها لم تُجب، قال سومز:

- "أنتِ لا تزالين زوجتى" لم يعرف سومز لماذا قال ذلك، وماذا كان يقصد.

لقد كانت تلك الكلمات غير معقولة، ولكن تأثيرها كان مذهلاً، فقد نهضت إيرين من مقعد النافذة.

وقفت لوهلة تنظر إليه ولاحظ أنها كانت تتنفس الصعداء، ثم التفتت إلى النافذة وفتحتها. قال سومز بحدة:

- "لماذا تفعلين ذلك؟"، سوف تصابين بالبرد، وأنتِ ترتدين هذا الفستان.

وارتسمت على وجهه ضحكة صغيرة حزينة.

- "لقد كانت، عادة"

قالها سومز بمرارة:

- "بالأحرى عادة غريبة، أغلقى النافذة"

أغلقت النافذة وجلست مرة أخرى. كم بدت قوية هــذه المـــرة هذه المرأة. هذه، زوجته.. شعر بذلك عندما رآها تجلس هناك، ودون وعى تقريبًا.

نهض سومز واقترب منها، لقد أراد أن يراقب تعبيرات وجههـــا وتقابلت عيناهما.. يا إلهى، كم كانتا صافيتين ولونهما البنى، وذلك الجلــد الأبيض والشعر الكهرمانى الذى يسترسل على كتفيها الأبيضين.

هذا إحساس مضحك يجب أن أكرهها.

- "من الأفضل أن تخبرينى، قال " الحرية مهمة بالنـــسبة لـــكِ كما هى مهمة بالنسبة لى"

- "لقد أخبرتك"

- "هل تقصدين أنك أخبرتنى أنه لا شىء، لا أحد؟"

- "لا أحد، يجب أن تعود إلى حياتك الخاصة"

لقد صدمته تلك الإجابة المحرجة، وسار سومز ناحية البيـــانو ثم عاد إلى الموقد، جيئة وذهابا، كما تعود أن يفعل فى المرسم فـــى الأيام الماضية، عندما يكون باله مشغولا. "قال سومز:

– "هذا ما لن أفعله، أنتِ هجرتينى"

رآها سومز وهى تهز كتفيها الأبيضين، سمعها تتمتم:

– "نعم. لماذا لم تطلقنى بعد؟ هل كان لى أن ألح فى طلب الطلاق؟"

وقف سومز وظل يحدق فيها بنوع من الفضول، ما الشىء الذى جعلها تفعل ذلك بنفسها؟ لو أنها حقا عاشت وحدها طيلة هذه السنوات؟ لِمَ لم يطلقها؟ راودها إحساسها القديم بأنه لم يفهمها أبدا، لم تفهمه، هو أطال النظر إليها. قال سومز:

– "لماذا لم تكونى زوجة جيدة لى؟".

– "نعم، لقد كان زواجى بك جريمة، وقد دفعت ثمن جريمتى، سوف تجد طريقة ما ربما لا تحتاج لتذكر اسمى، فليس لدى ما أخسره وأظن أنه من الأفضل أن ترحل الآن"

هاجمه إحساس بالهزيمة، خدع فى قدرته على إيضاح وتبرير الأشياء لنفسه، شعر أنه محاصر كنسمة الضباب الباردة، دون تفكير نهض سومز من مكانه، والتقط مزهرية من الخزف، وقال:

– "من أين أتيت بهذه؟ لقد اشتريت واحدة مثلها تماما من "جوبسون"

فجأة عادت إلى رأسه الذكريات، حيث إنهما من سنوات عديدة قد اشتريا أدوات الخزف معا، ووقف محدقا فى قطعة صغيرة من الخزف، كما لو أنها حوت بين جنياتها الماضى كله، ثم أثاره صوتها.

- "خذها، فأنا لا أحتاجها"

أعادها سومز إلي الرف ثم قال: "ألن تسلمي علي؟"

ارتسمت علي شفتيها ابتسامة باهتة، ثم مدت يدها لتسلم عليه، كانتا باردتين علي عكس يديه الساخنتين كأنهما محمومتان .

فكر سومز قائلا لنفسه: "كأن يديها مصنوعتان من الثلج لقد كانت دائما باردة مثل الثلج"؛ ثم اشتم رائحة العطر تفوح من فستانها وجسدها، أطلق سومز ساقيه للريح بسرعة؛ كما لو أن شخصا ما يطارده بسوط، لا يبحث عن تاكسي؛ ولكنه كان مسرورا لأن الكورنيش لم يكن به أحد.

لقد كان مرتبكا، منفعلا ويشعر بالحزن الذى يعتصر قلبه، وكان منزعجا بشكل يثير الغموض أيضا، كما لو أنه ارتكب خطأ كبيرا، لم يستطع أن يدرك عواقبه. حدث سومز نفسه قائلا: "فلو أنها قالت له، من الأفضل أن تبقي بدلا من أن تقول؛ من الأفضل أن تغادر كيف سيكون شعوره حينها؟ ماذا كان سيفعل؟ لا تزال تتملكه بجاذبيتها.. اللعينة، حتى بعد كل هذه السنوات من الإحساس بالغربة والأفكار المريرة التي ساورته!.

كان من الممكن أن تسيطر عليه بإشارة أو لمسه، تمتم سومز قائلا: "كان من الغباء أن أذهب إليها، لم أحقق شيئا من وراء ذلك، من كان يتخيل هذا؟ لم أفكر أبدا.. ثم عادت به ذاكرته إلي السنوات

الأولى من زواجه فقد خدعته وعذبته، إنها لـم تـستحق أن تحـتفظ بجمالها، لقد أفسدت عليه حياته وجرحت كبريـاءه بـشكل مميـت، فمجرد مظهرها البارد الجامد وكأنها امتلكت هذه القدرة فقـط لكـي تعكر صفوه وتكدره فلا عجب، فقد عاشت، كما أكدت، دون أن يدخل حياتها أحد طيلة الاثنى عشر عاما الأخيرة.

بالقرب من النادى في آخر الطريق، توقف لـشراء صـحيفة ولفـت نظره عنوان "البوير تتصلوا من السوزرانتي"

حدث سومز نفسه قائلا: "السوزرانتي، مثلها بالـضبط، لقـد كانت دائما تفعل ذلك، ما زلت أمتلكها، يجب أن تبقى وحدها هكـذا فى هذه الشقة اللعينة"

الفصل الثانى عشر

التغير في عائلة فورسايت

كان سومز عضوا فى ناديين اجتماعيين "نادى كونواسيرز" الذى التحق به رسميا ونادرا ما يتردد عليه، "ونادى ريموف" الذى لم يلتحق به رسميا، ولكنه تردد عليه كثيرا، وقد التحق بهذه الجمعية التقدمية منذ خمس سنوات إيمانا منه أن أعضاءها كانوا كلهم محافظين ويساندون الجمعية بقلوبهم وأموالهم؛ حتى إن لم يكونوا مؤمنين بمبادئها، وكان العم نيكولاس قد أقنعه بذلك. وقد كانت غرفة الاجتماعات مصممة على طراز آدام.

فى تلك الليلة نظر سومز فى الجريدة ليعرف أى أخبار عن الترانس فال، وقد لاحظ انخفاض أسعار البضائع بنسبة من ١٦ إلى ١٧٪ منذ الصباح، كان يسير ناحية غرفة الاجتماعات، عندما سمع صوتًا خلفه يقول:

- "حسنا سومز، لقد انتهى هذا على خير"

كان العم نيكولاس يرتدى سترة طويلة وياقتها ذات طراز خاص، ورابطة عنق سوداء تمر من خلال حلقة معدنية.

"يا إلهى، كم يبدو شابًا ونشيطًا فى الثانية والثمانين من العمر!"

"أظن أن روجر كان سعيدا، يتم كل شيء على ما يرام، البلاكليز؟ سوف أقوم بعمل مذكرة بخصوصهم، البوكستون لم يفعلوا شيئا جيدا لي، هؤلاء البوير يضايقونني، هذا الرجل تشامبرلين يقود البلد إلى الحرب، ماذا تعتقد أنت؟"

تمتم سومز: "الحرب وشيكة".

مر نيكولاس بيديه على وجنتيه النحيلتين والحليقتين بعناية، قد توردتا بعد علاجه في الصيف؛ زم شفتيه مستاء. هذا العمل قد أحيا كل مبادئه التقدمية والإصلاحية .

– "أنا لا أثق في هذا الرجل، إنه عصبي بشكل متهور، سوف تهبط أسعار العقارات إذا قامت الحرب، سوف يكون لديك مشكلة مع عقارات روجر، فقد أخبره كثيرا أنه يجب عليه أن يبيعها، كان أحمق".

فكر سومز: "كان هناك اثنان منك" لكنه لم يتنافس مع أي من أعمامه، بهذه الطريقة يظلون محتفظين برأيهم فيه أنه رجل عنيد وراع قانوني لأملاكهم.

قال نيكولاس، وهو يخفض صوته:

– "لقد أخبروني في بيت تيموثي أن دارتي قد رحل، سوف يؤدي ذلك إلى شعور بالارتياح لوالدك؛ فقد كان مثل بيضة فاسدة".

مرة ثانية أومأ سومز برأسه، لو كان هناك شيء يتفق عليه أفراد عائلة فورسايت، فهو مونتاج دارتى وشخصيته المثيرة.

قال نيكولاس:

- "يجب أن تنتبه وإلا سيعود مرة ثانية، فمن الأفضل لـ وينفريد أن تتخلص منه، فلا فائدة فى الاحتفاظ بالأشياء السيئة"

نظر إليه سومز نظرة بطرف عينه، فقد أثيرت أعصابه بسبب هذا اللقاء.

قال باقتضاب

- "أنا أنصحها دائماً"

قال نيكولاس:

- "حسناً، يجب أن أذهب إلى البيت، فأنا معتل بعض الشىء، سلامى إلى والدك، ولتأخذ فى الاعتبار دائماً روابط الدم".

سار نازلاً بخطواته الشابة، وارتدى معطفه المصنوع من الفرو عند البوابة الصغيرة.

"لم أعرف عمى نيكولاس إلا معتلاً جداً" اندهش سومز "أو يبدو كأنه يعيش للأبد، يا لها من عائلة!" وقارنه بنفسه، قائلاً "أمامى ثمانية وثلاثين عاماً من الصحة، حسناً، لن أضيعهم" ثم ذهب إلى

المرآة ووقف أمامها ينظر إلى وجهه. به بعض الخطوط البسيطة من التجاعيد، ثلاث أو أربع شعرات رمادية فى شاربه الأسود الـصغير، هل تقدم فى السن أكثر من إيرين؟

هو وهى فى ريعان الشباب، وباغتته فكرة غريبة.

شىء سخيف غبى لكنها باغتته مرة أخرى، ثانية وقد أنـذره ذلك التكرار، لأن النوبة الثانية من الرعشة تنذره بـالحمى، وجلـس على آلة حساب الوزن، فوجد أن وزنه لم يزد رطلين كاملين خـلال عشرين عامًا. ما عمرها الآن؟ إنها تقريبا فى السابعة والثلاثين مـن عمرها، ليست كبيرة فى السن على أن تنجب طفـلاً، سـوف تـتم السابعة وثلاثين فى التاسع من الشهر المقبل، إنه يتذكر تاريخ ميلادها جيدا، كان يحرص على تذكره دائما، حتى عيد ميلادها الأخير قبـل أن تتركه، عندما كان على ثقة من أنها خائنة، قـضت معـه أربـع سنوات احتفلت خلالها بعيد ميلادها أربع مرات، حيـث إن هـداياه كانت تعبر عن حبه لها، باستثناء عيد الميلاد الأخير الذى أغراه بأن يكون متدينا جدا، ثم خجل من الفكرة، ثم فكر فجأة:

- "الذكرى تُهيل الأوراق الجافة على الأحداث الماضـية كمـا تفعل على الجثث، فلا يبقى من تحتها إلا شىء غامض يجرح المشاعر، يمكننى أن أرسل إليها هدية فى عيد ميلادها، ففـى النهاية، نحن مسيحيون، ألا يمكن أن نعـود لـبعض ثانيـة!" وتنهد بشدة وهو يجلس هناك "أنيت آه!" لكن كان الطلاق يقف

حائلا بينه وبينها، ولكن كيف؟ قال چوليون يمكن للإنسان أن يحل هذه المشكلات لو أنه أصر على ذلك".

لكن لماذا عليه أن يتسبب لنفسه فى فضيحة ولحياته العملية بوصفه رجل قانون؟ هذا ليس عدلاً، فقد ظل منفصلا عنها لمدة اثنى عشر عاما، لم يأخذ خلالها أى خطوة لكى يحرر نفسه، وكان يمكن أن يتقدم إلى المحكمة وكانت الحجة موجودة وهى علاقتها ببوسينى ولكنه قَبِلَ ألا يفعل شيئًا مقابل أن يُؤَمن حياته المقبلة، وحتى لو تجمعت الأدلة الآن فسوف يكون مشكوكًا فيها إلى حد كبير، إلى جانب أن كبرياءه لن تسمح له يستخدم ذلك الحادث للحصول على الطلاق، لقد عانى من هذا كثيرًا، لا لشىء إلا ارتكاب إثم، وبخاصة الزنا فى وقت قريب من ناحيتها، لكنها أنكرت ذلك؛ وهو غالبًا صدقها، وهكذا بقى الأمر معلقًا.

نهض من المقعد الأجوف، ذى القطيفة الحمراء وهو يشعر بالضيق وعدم الارتياح، لن يستطيع النوم وكل هذا يدور بداخله، أخذ معطفه وقبعته وخرج، سائرًا ناحية الشرق، وفى ميدان ترافالجار، انتبه إلى بعض الفوضى وحوله من ناحية الساحل؛ تمثل ذلك فى بائعى الجرائد الذين كانوا ينادون بصوت عال جدا لدرجة عدم استطاعته أن يسمع كلماتهم، فتوقف سومز ليسمع، ومر به أحد بائعى الجرائد.

"إنذار نهائى من كروجر إعلان الحرب" اشترى سومز الجريدة. هكذا كانت تقول الجرائد. عندما قرأ ذلك الخبر راودته تلك

الفكرة "البوير ينتحرون" أما "الفكرة الثانية" التى أتت فى باله: "هل كان هناك أى شىء لا يزال يجب علىَّ بيعه؟ لو أن الإجابة نعم، فقد ضاعت عليه الفرصة، فسوف يعم الكساد فى الأيام المقبلة، لكنه ابتلع هذه الفكرة كنوع من التحدى. الإنذار وقح... فهذه الحرب ستضيع الأموال وتسبب خسارة كبيرة للناس. لقد أرادوا درسا لكى يتعلموه، إذن فليأخذوه لكن ذلك سيستغرق ثلاثة أشهر على الأقل حتى يصلوا إلى البداية، لم تكن القوات قد خرجت بعد، دائمًا ما يأخذ هذا بعض الوقت، ولكن بهذا أربكت الحكومة فئران الصحف هؤلاء، فما هى الفائدة من تنبيه كل شخص هكذا؟ كان موعد الإفطار فى الصباح التالى قد اقترب، شعر بالقلق على والده وقرر الذهاب إلى بارك لين، ثم استقل عربة وأمر السائق أن يأخذه هناك.

كان چايمس وإيميلى قد ذهبا للتو إلى حجرة نومهما، وبعد أن تبادل سومز الأخبار مع وورمسون، عاودته فكرته، فقال:

"ما رأيك فى ذلك، وورمسون؟"

توقف كبير الخدم وهو يمر بالفرشاة على القبعة الحريرية- سومز؛ التى كان قد خلعها بالطبع، ومال بوجهه للأمام، وقال فى صوت منخفض:

- "حسنا سيدى، ليس لديهم فرصة، بالطبع، لكنى علمت أنهم يصوبون جيدا، وأنهم رماة بارعون؛ فأنا لدى ابن فى الجيش".

- "أنت يا وورمسون؟ "الماذا؟ لم أعرف إنك متزوج؟"
- "سيدى، أنا لا أتحدث عن ذلك، أتوقع أنه سوف يخرج."

الصدمة الخفيفة التى شعر بها سومز حال اكتشافه أنه يعرف القليل عن شخص اعتقد أنه يعرف كل شيء عنه، راحت، عندما علم أن الحرب يمكن أن تمس أحدًا بشكل شخصى هكذا. بما أنه قد ولد فى العام الذى وقعت فيه حرب الكريميان، إن التمرد الهندى كان قد انتهى بمرور الوقت.

ومنذ ذلك الحين دخلت الإمبراطورية البريطانية فى حروب كثيرة ولكنها كانت احترافية تماما، وقد كانت بعيدة عن عائلة فورسايت إلى حد ما .لا يمكن توقع ما سيحدث فى هذه الحروب بالتأكيد، لكنه فكر فى عائلته فجأة حيث إن اثنين من أبناء هايمان قد التحقا بقوات اليومانرى أو بقوات أخرى – كما سمع – كانت قوات اليومانرى تتميز بأشياء معروفة، فقد اعتادوا أن يرتدوا الزى الرسمى الأزرق مع الفضى، ويركبون الخيول، وقد التحق أرشيبالد، كما يتذكر ذات مرة بالميليشيا الوطنية لكن تركها؛ لأن والده نيكولاس كان يشكو من تضييع وقته فى التبختر فى الزى الرسمى. مؤخرا سمع فى مكان ما أن الشاب نيكولاس الابن، قد أصبح متطوعا، "لا" فكر سومز، وهو يصعد السلالم ببطء:

- "لا فائدة فى ذلك!"

وقف على بسطة السلم خارج حجرة النوم الخاصة بوالديه مقلبًا الأمر فى ذهنه هل يدخل ليلقى كلمة طمأنينة أم لا؟ وبينما هو يفتح النافذة الموجودة على بسطة السلم كل ما سمعه كان صوت دمدمة من بيكاديللى. وباغتته فكرة:

- "إن سيارات الأتوموبيل قد تزايدت وسوف يؤثر ذلك فى العقارات"

كان على وشك السير إلى الحجرة المهيأة دائما لاستقباله؛ عندما سمع صوتًا أَجَشَّ لبائع الجرائد وها قد عبر من أمام البيت. نقر سومز على باب أمه ودخل.

كان والده جالسا فى السرير وأذناه مغطاة تحت الشعر الأبيض الذى أبقته إيميلى مقصوصا بشكل جميل، لقد بدا معافى ونظيفًا بشكل يفوق العادة فى جلوسه على وسادة وملاءة بيضاء، حيث قامته العالية النحيلة متهدلة عليها ملابس النوم. بدت عيناه وحديه رمادية وقليلة الثقة تحت رموشها المرتبكة، كانت تتحرك من النافذة لإيميلى التى كانت ترتدى رداءً خفيفًا للبيت وكانت تسير جيئه وذهابا، وهى تضغط على كرة مطاطية لزجاجة تفوح منها رائحة العطر، الحجرة انبعث منها رائحة ماء الكولونيا التى كانت ترشها "حسنا" قال سومز "ليس إطلاق النار. البوير أعلنوا الحرب هذا كل ما فى الأمر"

أوقفت إيميلى ما كانت تقوم به من رش الحجرة بالكولونيا.

– "أوه" كان كل ما قالته، ثم نظرت إلى جايمس

سومز أيضا نظر إلى أبيه. أخذ الأمر على عكس ما توقعوا كما لو أن فكرة غريبة عنهم، كانت تساوره تمتم فجأة:

– "هممم!، لن أعيش لأرى نهاية ذلك"

– "ليس معقولا چايمس، سوف ينتهى ذلك بحلول عيد الميلاد"

أجاب چايمس:

– "ماذا تعرفين عن ذلك؟، "إنها فوضى جميلة فى هذا الوقت من الليل أيضًا"

ثم عاد إلى الصمت وزوجته وابنه، كما لو أنهما ناما نومًا مغناطيسيًا، انتظراه ليقول: "لا يمكننى القول.. لا أعرف؛ عرفت كيف يئول الأمر لكنه لم يفعل. ثم تحركت عيناه الرماديتان، من الواضح أنهما لا تريان شيئًا؛ ثم حرك ركبتيه تحت مفرش السرير بشكل مفاجئ.

– "يجب أن يأخذوا روبرتى؛ فكل هذا بسبب ذلك الرجل جلادستون(*) وزوجته ماجوبا"

(*) ويليم جلادستون: سياسى بريطانى كان رئيسًا للوزراء بين عامى (١٨٦٨– ١٨٧٤) وبين عامى (١٨٨٠– ١٨٨٥). وكان يفضل تسوية النزاعات العالمية سلميًا وليس بالحرب، فى عام ١٨٩٢ كان عمره ٨٣ عامًا أصبح رئيسًا للوزراء لآخر مرة ولكنه استقال.

الاثنان المستمعان لكلامه قد لاحظا شيئًا غير طبيعيٍّ فى نبرة صوته، شيئًا من القلق الحقيقى، كما لو أنه قال:

- "لن أرى البلد مسالمة وآمنة ثانية، أنا سأموت قبل أن أعرف أنها انتصرت".

وعلى الرغم من الإحساس أنه يجب عدم تشجيع چايمس على إرهاق أعصابه، فقد تأثروا كثيرًا وحزنوا لحاله.

ذهب سومز إلى حافة السرير وربت على يد أبيه التى لم تكن مغطاةً بأغطية السرير. كانت طويلة وممتلئةً بالعروق. قال چايمس:

- "أصغ إلى كلامى، سوف يهبط سعر الأسهم بشدة، وللعلم قال ربما يلتحق بالجيش"

صرخت إيميلى قائلة:

- "أوه! على رسلك چايمس أنت تتحدث كما لو أن هناك خطرًا"

صوتها الممتلئ بالغضب واللوع... إلخ بدأ يهدأ، تمتم چايمس على الفور:

- "حسنًا، لقد أخبرتك إلى ما سيئول الأمر، أنا لا أعرف فقط، بل أنا متأكد.. إن أحدًا لا يخبرنى بشىء. هلا تنام هنا بنى؟"

لقد حلت الكارثة، يجب أن يضبط نفسه وأعصابه على الحد الطبيعى للقلق، ويؤكد لوالده أنه سيبيت فى المنزل، قربت على يديه ثم صعد إلى غرفته.

ظهر اليوم التالى كان اليوم الأشد زحامًا شهده بيت تيموثى فى المناسبات القومية مثل هذه. لقد كان مستحيلاً ألا يذهب إلى هناك. كان من الضرورى فقط أن يُطمئِن كل منهما الآخر أنه ليس هناك خطر.

نيكولاس حضر فى وقت مبكر. وكان قد رأى سومز قبل ليلة من أن يقول سومز إن الحرب أصبحت مؤكدة وحتمية، وهذا العجوز كروجر كان فى خرف الشيخوخة ولكن لماذا؟ فهو فى الخامسة والسبعين فقط، نيكولاس كان فى الثانية والثمانين، ماذا قال تيموثى: لقد تأثر جلادستون بشدة بعد ماجوبا. هؤلاء البوير جشعين! أما فرانسى ذات الشعر الأسود والتى وصلت فى أعقابه. والتى جاءت بشىء من التناقض الذى أصبح شيئًا مميزًا لشخصية ابنة روجر؛ قالت فجأة:

– "غلاية وإبريق، عمى نيكولاس، ما الثمن؟ ما الثمن حقا؟ تعبير جديد، يعود إلى أخيها چورچ".

العمة چوليا رأت أن فرانسى يجب ألا تقول شيئًا كهذا. ابن السيدة ماك أندر العزيز، شارلى ماك آندر واحد منهم "البوير"، ولا أحد أن يقول يستطيع أن ينعته بالطمع هنا.. تمتمت فرانسى بكلماتها المثيرة للاشمئزاز والاستنكار، وكررت مرارا:

– "حسنا أبوه أسكتلندى عصبى وأمه قطة شرسة".

أغلقت العمة چوليا أذنيها أخيرا، لكن العمة هيستر ابتسمت، أما نيكولاس فقد ذم شفتيه مستاءً.... تلك النكتة كانت صعبة جدا عليه.

ثم وصلت ماريان توتيمان، تبعها فى الحال الشاب نيكولاس، فنهض نيكولاس العجوز عندما رأى ابنه، وقال:

– "حسنا، يجب أن أذهب، نيك هنا، سوف يخبركم من سيفوز بالسباق".

وبهذه اللطمة لابنه الأكبر، الذى كان يعمل رئيسًا لقسم الحسابات ومدير شركة التأمين، لم يكن مولعا بالتسلية كما كان والده دائمًا، ثم، غادر المكان. عزيزى نيكولاس أى سباق هذا؟ أم كانت هذه إحدى نكاته؟ لقد كان رجلا رائعًا فى مثل عمره هذا! وكيف حال هايلز وجايمس؟ ظنت العمة چوليا أن قوات اليومانرى مشغولة الآن بحراسة الساحل على الرغم من أن البوير ليس لديهم سفن، لكن لم يعرف أحدًا ماذا يمكن أن يفعله الفرنسيون لو سنحت لهم الفرصة، خاصة منذ أحداث فاشودة(*) المروعة التى أقلقت تيموثى جدا! حتى إنه توقف عن الاستثمارات لمدة شهور بعد ذلك، إنه لجحود ونكران جميل من قبل البوير بعد كل ما تم عمله من أجلهم.... لقد سجن

(*) أحداث فاشودة: أرسلت فرنسا قواتها لتحتل مدينة فاشودة فى قلب أفريقيا واعترضت إنجلترا وأمرتها بالانسحاب وبالفعل انسحبت فرنسا دون صدام عسكرى مع إنجلترا.

الدكتور جايمسون، كان شخصًا لطيفًا كما كانت السيدة ماك آندر تقول دائما، والسيد ألفريد ميلر أُرسِل ليتحدث إليهم، يا له من رجل ماهر، وهى لم تعرف أبدًا ماذا أرادوا.

لكن فى هذه اللحظة حدث شىء مثير، ظهر شخص عزيز جدًا فى بيت تيموثى والذى تحضره المناسبات الكبيرة أحيانا، الآنسة چان فورسايت.

وقفت العمتان چولى وهيستر على أقدامهم. فى التو تهدج صوتهن من الاستياء المكتوم، وفاضت المحبة القديمة والفخر لعودة چان المسرفة! حسنًا،

لقد كانت مفاجأة! العزيزة چان... بعد كل هذه السنوات وكيف كانت تبدو، لم تتغير على كل حال!، كانتا تقولان: كيف حال جدك العزيز؟ وقد راح عن بالهما هذه اللحظة المدهشة أن چوليون المسكين يرقد فى قبره منذ سبع سنوات الآن، چان كانت لها شخصية شجاعة وصريحة وحاذقة أكثر من أى فرد آخر بين عائلة فورسايت، چان بعينيها المتوهجة وشعرها الذى يشبه الرايات، جلست رقيقة العود على كرسى مذهب ومطعم بالخرز، كأنه لم تمضِ عشر سنوات منذ أن رأتهم آخر مرة، عشر سنوات من السفر والاستقلال وتكريس حياتها للمساكين والمحتاجين، كان هؤلاء رسامين ونحاتين، لقد كانت تسأم كثيرًا من آل فورسايت ووجهات نظرهم المادية البعيدة عن الفن وتذوقه بشكل ميئوس منه. وتنظرِ چان حولها الآن

بنوع من التحدى الذى تسبب فى عدم ارتياح فى المكان؛ فهى لم تتوقع أن تقابل أى منهم ولم تعرف لماذا أتت لتراهم، ربما وهى فى طريقها من شارع أكسفورد إلى المرسم فى شارع لاتيمير، تذكرتهم بشىء من وخذ الضمير كاثنتين من المساكين المسنين الذين لم ترهم منذ فترة طويلة.

كسرت العمة چوليا الصمت مرة أخرى

- "عزيزتى كنا نتحدث عن هؤلاء البوير وكم هم جشعون، وأى حماقة كبيرة قد ارتكبها كروجر".

قالت چان:

- "حماقة، أعتقد أنه على حق. ليس لنا أن نتدخل فى شئونهم، فلو أنه طرد كل هؤلاء الملاعين، سوف يكون خيرًا. فهم يسعون فقط وراء المال"

فرانسى أيضًا كسرت الصمت قائلة:

- "ماذا؟ هل أنتِ متحيزة للبوير؟"

قطعًا كان هذا الاستخدام الأول لمثل هذا التعبير، قالت چان:

- "حسنا، لماذا لا نتركهم وشأنهم؟ كما فى سياسة الباب المفتوح"

ثم قالت الخادمة "السيد سومز فورسايت، زاد الأمر حساسية، فقد كانت التحية يصاحبها فضول لمراقبة كيف سيلتقى سومز بـ

جان حقًا لقد كان مريبا جدًا أنهما لم يتقابلا منذ ما حدث بين خطيبها بوسيني وزوجته إيرين. رأوهما يسلمان على بعضهما ويلمس كل منهما يد الآخر فقط، وينظر كل منهما في عين الآخر ثم أتت العمة چوليا على الفور لتنقذ الموقف قائلة:

– "العزيزة جان طيبة جدًا، تخيل سومز أنها تعتقد أن البوير على حق وليس عليهم لوم"

قالت جان:

– "هم فقط يريدون الحصول على استقلالهم"، ولِمَ لا يحصلون عليه؟"

أجاب سومز بابتسامة صغيرة:

– "لأن الأقدار شاءت أن يقبلوا قوانتا وسيطرتنا".

كررت جان بازدراء :

– "قوة وسيطرة، نحن لا نحب أن يفرض أحد سيطرته علينا، لقد حصلوا على الثمن لقاء ذلك"

أجاب سومز: "الاتفاقات ملزمة" ثارت ثائرة جان قائلة:

– "العقود لست دائما صحيحة وتامة، وعندما تكون كذلك فإنها يجب أن تتوقف، البوير هم الأضعف، لذلك يجب أن نكون كرماء"

تنهد سومز: "لا شأن للعاطفة فى هذا"

العمة هيستر التى لا شىء عندها أفظع من الاختلاف وعدم الاتفاق. انحنت للأمام وأبدت ملاحظة بشكل حازم:

- "يا له من طقس جميل فى هذا الوقت من العام!"

لكن چان لم تكن ملتفتة:

- "لا أعرف لِمَ يسخرون من بالعواطف هكذا. إنها أفضل شىء فى العالم"

ثم نظرت حولها بتحدٍ. واضطرت العمة چوليا للتدخل مرة ثانية سائلة:

- "هل اشتريت أى لوحات مؤخرا يا سومز؟"

غريزتها التى لا تُضاهَى فى سوء إختيار الموضوع لم تخذلها قط، احمر وجهه سومز، ففكرة الكشف لها وللعيان عن اسم آخر مشترياته أو مقتنياته سوف يقود الحديث إلى نفق الازدراء؛ لأن الكل وبشكل ما كان يعلم بميل چان الطبيعى وتحيزها إلى بعض الفنانين العباقرة وتقليلها من النجاح إن لم يكن لها يد فيه. تمتم سومز:

- "واحدة أو اثنتين".

لكن وجه چان تغير، فشخصية فورسايت التى بداخلها كانت ترى فرصتها سانحة الآن، لِمَ لا يشترى سومز بعض لوحات إيريك

كوبلى...... أحد رعاياها فى الفترة الأخيرة، وفـورا فتحـت نـار هجومها عليه:

- "هل يعرف سومز أعماله؟ إنها رائعة جدا".

"أوه، نعم، سومز عرف تلك اللوحة لإيريك كوبلى، وكانت وجهة نظره فيها أنها عمل مشتت ومبعثر ولن يجذب الناس ويسيطر عليهم.

استشاطت چان غضبا.

- "بالطبع لن يكون كذلك؛ فهذا هو آخر شىء يرغب فيه، ظننت أنك محامٍ، وليس تاجر لوحات"

قالت العمة بسرعة:

- "بالطبع سومز محاميا"، "ولديه ذوق فنى رفيع أيضا، يمكنه أن يتوقع أى الأعمال الفنية سيحقق نجاحا"

- "أوه" تكلمت چان لاهثة، وقفزت من الكرسى المغطى بالخرز، "أكره هذا النوع من النجاح، لِمَ لا يمكن للناس أن يشتروا أشياء لأنهم يحبونها؟"

"قال فرانس:

- "تقصدين لأنك تحبينها"

وفى لحظات توقفهم، سُمِعَ الشاب نيكولاس يقول بلطف إن ڤيوليت كانت تأخذ دروسًا فى الباستيل، ولم يعرف ما إذا كان هناك فائدة من ذلك أم لا.

قالت چان:

- "حسنا إلى اللقاء عمتى، يجب أن أذهب، وقبلت عماتها، ونظرت بتمرد عبر الغرفة".

ثم قالت: إلى اللقاء مرة ثانية، وذهبت.

بدت تنهيدة تمر معها، كما لو أنهم جميعًا قد تنهدوا.

النبأ الثالث أتى قبل أن يكون لدى أى منهم وقت لينطق:

- "السيد چايمس فورسايت".

دخل چايميس يتعكز على عصا ويرتدى المعطف الفرو الذى أعطاه حجمًا وهميًا فوقفوا جميعا لتحيته، چايميس الذى بدا عجوزا جدا لم يأت إلى بيت تيموثى منذ عامين. قال:

- "إن الجو حار هنا بالداخل".

خلع سومز عنه معطفه، وبينما هو يفعل ذلك شعر بالإعجاب إزاء الطريقة التى دخل بها والده، ثم جلس چايمس تمامًا وقال:

- "ما الذى يعنيه هذا؟".

على الرغم من أن كلماته لم تكن واضحة ومفهومة، عرفوا جميعا أنه كان يشير إلى چان، فعيناه تفحصت وجه ابنه.

- "فضلت أن آتي وأرى بنفسي؟ ماذا كان الرد على إنــــذار كروجر؟"

"التقط سومز جريدة مسائية وقرأ العنوان الرئيس:

- "إجراء سريع تتخذه حكومتنا.....تعلن حالة الحرب!"

تنهد چايمس

- "آه!، لقد كنت خائفا أن يهربوا مثــل الــسايق جلادســتون. يمكننا أن ننتهى منهم هذه المرة".

حدق الجميع فى وجه چايميس، چايميس دائما شكاء، عصبى، قلق، تابع چايمس قائلا:

"لقد أخبرتكم بما سيحدث" وتشاؤمه واستشعاراته الحذرة. كان هناك شيء غريب ومفزع فى هذا الحل الذى اقترحه أكبر فرد علــى قيد الحياة فى عائلة فورسايت قال چايميس:

- "أين تيموثى؟، يجب أن ينتبه لذلك"

قالت العمة چوليا إنها لا تعرف؛ تيمــوثى كــان يميــل إلــى الصمت كثيرا على الغداء اليوم، ثم نهضت العمة هيستير وخرجــت من الغرفة، وقالت فرانسى بخبث:

- "البوير، كحبة الجوز، يصعب كسرها، يا عمي چايميس"

تمتم چايميس:

- "أوه، من أين تأتين بمعلوماتك هذه؟ فلا أحد يخبرنى بشىء"

علق نيكولاس بصوته اللطيف قائلاً: إن ابنه كان يتدرب الآن بانتظام. تمتم چايميس:

"آه!"، وحدَّق أمامه.....كان يفكر فى فأل ثم قال:

- "عليه أن يعتنى بوالدته، ليس لديه الوقت للتدرب، وهذا الرجل والده"

هذه المقولة الغامضة أوجدت الصمت، حتى تحدث ثانية:

- "ما الذى كانت تريده چان هنا؟"

وكانت عيناه تنظران بارتياب وشك إليهم جميعا

- "والدها رجل غنى الآن"

ثم تحول الحديث ليصبح عن چوليون، ومتى رأوه آخر مرة. من المفترض أنه سافر إلى الخارج وتعامل مع كل أنواع البشر، وزوجته متوفية الآن؛ وألوانه ولوحاته معروفه وقد كان رجلاً ناجحًا، ذهبت فرانسى بعيدا لتقول:

- "أحب أن أراه مرة ثانية، كان شخصًا لطيفًا جدا"

استعادت العمة چوليا فى ذاكرتها كيف أنه يومًا ما ذهب لينام على الأريكة؛ حيث كان چايمس يجلس الآن. لقد كان حلو المعشر ولطيفًا، وقالت:

– "ماذا كان رأى سومز؟"

لأنهم كانوا جميعًا يعرفون أنه كان وكيل وقف إيرين، شعروا بحساسية ذلك السؤال، ونظروا باهتمام إلى سومز الذى توردت وجنتاه قليلا، وقال:

– "إنه شاحب الوجه وأشهب"

– "حقا، هل رأيته يا سومز؟"

أومأ سومز برأسه مؤكدًا، واختفى اللون الوردى من وجهه.

قال چايمس فجأة :

– "حسنا... لا أعرف، ليس لدى ما أقوله"

لقد عبر بالضبط عن شعور كل شخص من الحاضرين، بأن هناك سببًا ما خلف كل شيء، حتى إن أحدًا لم يعقب، لكن فى هذه اللحظة أعادت العمة هيستر الحديث بصوت منخفض:

– "تيموثى أحضر خريطة وضع عليها ثلاثة أعلام".

تنهد الجميع:

– "تيموثى، فعل ذلك!".

لو أن تيموثى حقا وضع بالفعل ثلاثة أعلام، حسنًا.. فقد أوضح بهذا ما يمكن أن يفعله الشعب عندما يثور، من الأفضل أن تنتهى الحرب.

الفصل الثالث عشر

چوليون يكتشف أين هو

وقف چوليون عند النافذة فى حجرة توم هولى القديمة، والتـــى تحولت إلى مرسم، ليس لأن بها مصدر إنارة من الشمال، لكن لأنها تطل على الطريق المؤدى إلى النصب التذكارى العظيم لإبسوم، ثـــم تحول إلى جانب النافذة التى تطل على أرض الإسطبل وصفر للكلب بالتازار الذى يرقد دائما تحت برج الساعة، فنظر الكلب لأعلى وهز ذيله. "عجوز مسكين" هكذا فكر چوليون، وهو يعـــود إلـــى النافـــذة الأخرى.

لم يكن يشعر بالاطمئنان هذا الأسبوع، منـــذ أن قـــرر تنفيـــذ الوصية، قلق فى ضميره الذى كان مرهقًا دائمًـــا، كـــان منزعجـــا لإحساسه بالشفقة التى كان من السهل إثارتها، ولديه إحساس غريب؛ كما لو أن إحساسه بالجمال قد استقبل تجسيدًا بصورة كاملة.

ألقى الخريف بآثاره على شجرة البلوط الجد، فكانت أوراقهـــا تذبل وتتحول إلى اللون البنى، وكانت أشعة الشمس حارة وكثيفة هذا الصيف، يمر البشر بما تمر به الأشجار، "يجب أن أعيش طـــويلاً"،

فكر چوليون؛ "إننى لا أطيق الحر، لو لم أتمكن من العمل، سوف أرحل إلى باريس"، لكنه لم يشعر بالسعادة عندما تذكر الأيام التى قضاها هناك، بالإضافة إلى ذلك كيف يذهب إلى هناك؟ يجب أن يبقى هنا ويراقب ما سيفعله سومز مع إيرين، "فأنا وكيل وقفها ومسئول عنها، ولا أستطيع أن أتركها هكذا بلا حماية"؛ فَكَّر چوليون. كان يدفعه فضول كيف أنه لا يزال يذكرها بوضوح فى غرفة استقبالها، والتى دخلها مرتين فقط، من المؤكد أن جمالها به نوع من الانسجام مع الألم! ليس هناك وصف وافٍ لشخصيتها؛ جوهرها..... آه ماذا؟...... الأصوات المزعجة لأرجل الخيول وهى تخب فى الأرض جعله يعود إلى النافذة الأخرى كانت هولى تركب حصانها "بولفرى" ذو الذيل الطويل فى أرض الإسطبل ثم نظرت لأعلى، فلوح لها بيده. لقد كانت هولى تميل إلى الصمت كثيرًا فى الفترة الأخيرة، إنها تكبر، يحسب أنها تفكر فى مستقبلها، كما يفعل الجميع.. الشباب!

الوقت كان دائمًا العدو! ومع الشعور بأن فقدان هذه السلعة سريعة الانتشار هى حماقة لا تغتفر، أمسك بالفرشاة ولكن بلا فائدة، ولم يستطع أن يركز بعينيه إلى جانب أن الضوء قد بدأ فى التلاشى، "سوف أذهب إلى المدينة" فكر چوليون فى ذلك، حين قابله خادم فى الصالون يقول:

- "هناك سيدة فى انتظارك، سيدى؛ السيدة هيرون"

صدفة غير عاديـة وهو يمر عبر معـرض اللوحـات، كما لا يزالون يسمونها، رأى إيرين تقف عند النافذة .

سارت نحوه وهى تقول:

- "لقد تسللت إلى هنا بشكل غير مباشر، جئت عبـر البـستان والحديقة فقد اعتدت دائما أن آتى من هـذا الطريـق لأرى عمى چوليون؟"

" قال چوليون"

- "هنا، أنتِ لا تتـسللين، الماضـى يجعـل هـذا مـستحيلاً، باعتبارك فردًا من العائلة، كنت أفكر فيكِ"

ابتسمت إيرين، وكأن شيئًا ما أشرق فى الأفـق؛ لـيس فقـط روحانيًا ورقيقًا ولكن معنويًا أيضًا، وكأنه افتتان.

أجابت إيرين:

- "الماضى!، ذات مرة قلت لعمى چوليون، إن الحـب يـدوم للأبد. حسنا هو لا يدوم، فقط النفور هو الذى يدوم".

حدق چوليون فى وجهها. هل تغلبت على ذكرى بوسينى فـى النهاية؟

قال چوليون:

- "نعم!، النفور أكثر عمقا من الحب أو الكراهية لأنـه شـىء طبيعى ولا نستطيع أن نغيره".

- "جئت لأخبرك أن سومز جاء ليراني؟ قال شيئًا أخافني، قال لي "أنت لاتزالين زوجتي!"

تفوه چوليون فجأة

- "ماذا؟، يجب ألا تعيشي وحدك."

واستمر يحدق في وجهها، وباغتته فكرة أنه حيث يكون الجمال لا شيء يسير على ما يرام، وهذا ما دفع الناس بلا شك في النظر للجمال بأنه شيء غير أخلاقي ومفسد.

- "ماذا حدث بعد ذلك؟"

- طلب مني أن أسلم عليه بيدي"

- "هل فعلت؟"

- "نعم. عندما دخل لم يرد أن يسلم على بيده، ولكن في أثناء وجوده معي غير رأيه وسلّم على في نهاية اللقاء".

- "آه بالتأكيد يجب ألا تعيشي وحدك هناك".

- "أنا لا أعرف امرأة يمكنني أن أطلب منها أن تعيش معي؛ ولا يمكنني أن أتخذ حبيبا أيضا، يا ابن عمي چوليون"

قال چوليون:

- "لا سمح الله!، يا له من وضع لعين! ما رأيك أن تنتظري هنا لتناول العشاء معي؟ لا؟ حسنًا، دعيني أوصلك إلى البلدة؛ أردت أن أذهب إلى هناك هذا المساء".

– "حقا؟"

– "حقا، سوف أكون مستعدا خلال خمس دقائق؟

وهما يسيران إلى المحطة، تحدثا عن اللوحات والموسيقى، ووضعا الشخصيات الإنجليزية والفرنسية في مقارنة ولاختلاف أساليبهم الفنية. أما بالنسبة لـ جوليون فإن الألوان التي تميز الأسوار المحيطة بالممر الطويل، زقزقة العصافير التي رافقتهم في طريقهم، رائحة العشب الجاف الذي يحترق، التفاتة عنقها الأبيض الجميل، روعة هذه العيون السوداء المثبتة عليه الآن، الإغراء الذي ينبعث من جسدها، كل هذه الأشياء جذبته وسحرته كثيرًا أكثر من الحديث الذي تبادلاً أطرافه، وبلا وعي سار بخطوات لينة.

وفي القطار، سألها عن الأشياء التي كانت تشغلها في حياتها.

صنعت فساتينها، تسوقت، زارت المستشفيات، عزفت البيانو الخاص بهما، وترجمت من اللغة الفرنسية.

كان لديها عمل منتظم مع دار النشر، وقد زاد ذلك من دخلها قليلا. كانت نادرا ما تخرج في المساء.

لقد عشت وحيدة لفترة طويلة، أعتقد أنني بطبيعتي أحب العزلة".

قال جوليون:

– "لا أصدق ذلك، هل تعرفين الكثير من الناس؟"

- "أعرف القليل من الناس"

فى ووترلو اخذو عربة ووصلها حتى باب منزلها. وهو يربت على يديها قال:

- "يمكنك أن تأتى دائما إلينا فى روبين هيل؛ يجب أن تسمحى لى أن أعرف كل ما يحدث، إلى اللقاء إيرين"

أجابت برقة:

- "إلى اللقاء".

عاد چوليون مرة أخرى إلى العربة، متعجبًا لِمَ لم يطلب منهـا أن تتناول العشاء معه ويذهبا إلى المسرح معًا. يا لها من حياة تملؤها الوحدة والعزلة والوحشة تعيشها!

قال للسائق وهو على باب العربة، نادى هونش بونش، فعربته كانت تقف عند الرصيف، ثم بدا له رجل يرتدى قبعةً ومعطفًا كـان يسير بسرعة بالقرب من الحائط حتى بدا أنه يحتك به.

فكر چوليون؛ "يا إلهى سومز نفسه؟ ماذا دهاه الآن؟"

أوقف چوليون العربة عند الزاوية، ثم خرج منها وسار بعض خطوات ووقف حيث يتمكن من رؤية المدخل إلـى تلـك المنـازل، سومز توقف هناك وكان ينظر لأعلى؛ إلى ضوء نوافذ إيرين فكـر چوليون:

- "إذا دخل ماذا سأفعل؟ ما حقى فى أن أفعل أى شىء؟ فما قاله الرجل صحيحًا؟، هى لا تزال زوجته، وبلا حماية تمامًا من مضايقاته. حسنًا، إذا دخل فسوف أتبعه بالداخل، وبدأ يتحرك ناحية المنزل، مرة أخرى تقدم سومز هو الآن أصبح فى المدخل تمامًا ولكنه توقف فجأة، دار بسرعة على عقبيه وارتد إلى ناحية النهر، فكر جوليون:

- "ماذا الآن؟ سوف يتعرف علىَّ فى غضون اثنتى عشرة خطوة".

ولكنه أدار ظهره، وقع أقدام وخطوات ابن عمه أبقته ساكنًا ولكنه استطاع الوصول للعربة قبل أن يصل سومز إلى زاوية البيت حيث كان يقف. فقال للسائق وهو فى العربة:

- "انطلق".

أشار سومز بيده للعربة، وقال:

- "مرحبًا هل العربة مشغولة"-

أجاب چوليون:

- "مرحبا، أنت؟"

ظهر ارتياب وشك فورًا على وجه ابن عمه، والذى كان يبدو واضحًا فى ضوء المصباح. قال چوليون:

- "يمكننى أن أوصلك لو كنت متجهًا ناحية الغرب"

أجاب سومز:

- "شكرًا" ثم دخل العربة.

قال چوليون عندما بدأت العربة فى السير:

- "كنت أزور إيرين".

- . "حقا؟"

- "أنت نفسك ذهبت لرؤيتها أمس، عرفت ذلك"

قال سومز:

- "نعم إنها زوجتى، أنت تعرف ذلك"

نبرة الصوت، الشفاه الفاغرة والمرفوعة قليلا، أثارت غضبًا مفاجئًا فى نفس چوليون، لكنه قهر ذلك الإحساس. قال چوليون:

- "يجب أن تعلم جيدا أنك إذا كنت تريد الطلاق، فليس من الحكمة أن تذهب لرؤيتها، أليس كذلك؟ قال امرؤ لا يمكن أن يريد شيئًا ويفعل شيئًا آخر".

قال سومز:

- "لطيف منك أن تحذرنى، لكننى لم أقرر بعد".

قال چوليون وهو ينظر أمامه باستقامة:

- "هى قد قررت، لا يمكنك أن تأخذ الأشياء ببساطة هكذا، فقد انفصلت عنها منذ اثنى عشر عاما"

- "أفهم ذلك جيدًا".

قال چوليون:

- "انظر، إنها فى وضع سيئ. وأنا الشخص الوحيد الذى يمكن أن يتصرف بشكل قانونى بالنيابة عنها".

أجاب سومز إجابة محرجة:

- "إلا أنا، أنا أيضا فى وضع سيئ، بالنسبة لها، هذا ما جنته على نفسها، وبالنسبة لى فهذا ما جنته علىَّ، ولست متأكدًا تمامًا إن كنت لن أطلب منها ألا تعود إلى بناءً على رغبتها الشخصية".

- "ماذا" تعجب چوليون؛ وسرت رعشة فى جسده.

أجاب سومز ببرود:

- "لا أعرف ماذا تقصد بـ "ماذا"، "كل ما يمكن أن تفعله هو أن تدفع دخلها؛ لو سمحت ضع هذا فى اعتبارك. لأننى فضلت ألا أهينها بالطلاق، استعدت حقوقى، وكما أقول. لست متأكدًا تمامًا أننى سوف أطلب مباشرة حقوقى هذه"

قال چوليون ثم ضحك ضحكة صغيرة: "يا إلهى".

قال سومز: "نعم"، وكان هناك نغمة قاتلة فى صوته. "لم أنسَ الاسم الذى أطلقه على والدك "رجل التملك!" لا يطلق على أسماء كهذه من فراغ"

"هذا رائع"، تمتم چوليون: "حسنًا، الرجل لا يمكن أن يجبر زوجته على الحياة معه. تلك أيام مضت على أى حال!" ونظر حوله إلى سومز وهو يفكر: "هل هذا الرجل هكذا حقًا؟"

لكن سومز بدا هكذا حقًا؛ يجلس معه بأناقة وشاربه مقصوص، ووجهه شاحب، وشفتاه مرفوعتان فى ابتسامة ثابتة. ساد الصمت، بينما چوليون يفكر: "بدلاً من أن أساعدها، تسببت فى تطور الأشياء للأسوأ"

- "هذا أفضل شىء يمكن أن يحدث لها على أى حال"، تسببت هذه الكلمات فى الهياج لـ چوليون، حتى إنه بالكاد تحمل بقاءه فى العربة. كان كما لو أنه صُفِعَ مئات الآلاف من المرات من أبناء وطنه، صفع بهذا الشىء فى الطابع المحلى الذى طالما كان مقززًا بالنسبة له، شىء عرف أنه غير طبيعى، ويبدو غير مفسر وغير منطقى، وهو إيمانهم الشديد بالعقود والاتفاقات والحقوق المكتسبة، إحساسهم بالرضا عن أنفسهم فى قوة انتزاع هذه الحقوق، وهنا بجواره فى هذه العربة تجلى أكبر تجسيد لهذه الأفكار، الوجود المادى

والعينى لغريزة الامتلاك، قريبه، شىء غريب ولا يحتمل، ولكن كان هناك شىء أبعد من ذلك فقد فكر بشعور معتل أن الكلب- كما- يُقَال يعود ليأكل فضلاته.

قال سومز: "كما قلت لك، لم أقرر بعد سوف أكون مضطرًا إذا كنت ستتركها وحدها".

عض چوليون على شفتيه، وهو الذى كان يكره المشادة والنزاع فى الرأى، رحب بالفكرة الأن .

- "لا يمكننى أن أقطع هذا الوعد". قال باختصار

قال سومز: "حسنا جدا، إذن نعرف أين نحن. سوف أنزل هنا الآن".

ويوقف چوليون العربة، وخرج سومز دون كلمة أو حتى إشارة وداع. ثم ذهب چوليون إلى ناديه .

كانت الأخبار الأولى تذاع عن الحرب فى الشوارع، ولكنه لم ينتبه لها. ماذا يمكنه أن يفعل لمساعدتها؟ لو كان والده لا يزال على قيد الحياة، كان سيفعل الكثير. ولكن لماذا لا يمكنه أن يفعل ما كان أبوه سيفعله؟ أليس ناضجا بشكل كاف؟.. وصل إلى الخمسين من عمره وتزوج مرتين ولديه بنات وابن. فكر: أمر غريب، فإذا كانت تشكو فيجب ألا أتردد بشأنها، الجمال هو الشيطان عندما تكون

حساسًا إليه ذهب بقلب منزعج إلى حجرة الاطلاع فى النادى حيث كان قد تحدث مع بوسينى فى ظهر يوم من أيام الصيف، تذكر جيدًا المحاضرة الغامضة والسرية التى أعطاها لهذا الشاب عن اهتمامات چان وحذره من جنون عائلة فورسايت، وقد تعجب كثيرًا من نوع تلك المرأة التى كان يحذره منها. والآن! هو فى حاجة لتحذير نفسه. "هذا شىء غريب ومثير للسخرية!" فكر چوليون. "حقًا، غريب ومثير للسخرية".

الفصل الرابع عشر

سومز يكتشف ما يريد

من السهل جداً أن نقول: "إذن، نحن نعرف أين نكون"، أكثر من أن نقصد شيئًا معينًا بهذه الكلمات. بهذا القول نفث سومز بالتأكيد عن غيرته، فقد خرج من العربة فى حالة من الغضب الحذر من نفسه لأنه لم يرَ إيرين، ومن چوليون لأنه رآها، والآن من عجزه عن قول ما يريده فعلا.

ترك العربة لأنه لم يحتمل أن يبقى جالسا مع ابن عمه، وسار بخطوات متسارعة ناحية الشرق وهو يفكر: "لن يمكننى الوثوق بهذا الرجل چوليون إنه فقط منبوذ، دائما ما كان منبوذا!" الرجل لديه ميل طبيعى إلى الانحلال لقد خجل من كلمة الخطيئة، لأنها كانت مثيرة بشكل مبالغ فيه فى استخدامها من قبل فرد من عائلة فورسايت.

كان التردد فى الرغبة بالنسبة له إحساسًا جديدًا، لقد كان كطفل حائر بين لعبة جديد وُعِدَ بها وواحدة قديمة أخذت منه، وكان مندهشا من نفسه. فى يوم الأحد فقط بدت تلك الرغبة بسيطة؛ فقط

حريته وأنيت "سوف أذهب وأتناول العشاء هناك". فكر. رؤيتها ربما تهدئ غضبه وتصفى ذهنه.

كان المطعم مزدحما إلى حد رهيب، كان هناك العديد من الأجانب وتجمعات بدت من مظهرها أدبية أو فنية. سمع أجزاء من الحديث مختلطة مع الصحون والأكواب.

سمع بوضوح التعاطف مع البوير من قبل المعارضين للحكومة. قال لنفسه: "لا تفكر كثيرًا فيما يقولون". تناول عشاءه وهو بارد الأعصاب واحتسى قهوته الخاصة دون أن يشعر أحدًا بوجوده، وعندما انتهى أخيرا من ذلك، كان حريصا ألا يراه أحد وهو يسير إلى حجرة مدام لاموت. عندما دخل كانوا يتناولون العشاء كما توقع، عشاء فاخر أفضل من العشاء الذى تناوله حتى شعر بنوع من الأسى... وألقى تحيته وقد بدر إلى ذهنه شك مفاجئ.

متأكد أنهم عرفوا أننى كنت هنا طيلة هذا الوقت. أمعن النظر فى أنيت، جميلة جدا وعلى ما يبدو صريحة، التفت إلى السيدة لاموت وقال: "كنت أتناول عشائى هنا" .

حقًا لو أنها فقط كانت تعرف كان هناك أطباق أفضل يمكنها أن تزكيها له؛ يا للأسف سومز كان متيقنا من شكه. "يجب أن أنتبه لما أفعل"، فكر بشدة.

- "فنجان صغير آخر من القهوة المخصوصة جدا سيدى، شراب كحولى"، ونهضت مدام لاموت لكى تطلب هذه الأشياء .

بقيت أنيت وحدها مع سومز الذى قال:

- "مرحبا أنيت بابتسامة صغيرة بين شفتيه.

احمر وجه الفتاة خجلا، يوم الأحد الأخير هـذا قـد وضـع أعصابه فى حالة اهتياج، أما الآن فإحساسه هو الإحساس نفسه الذى يشعر به الإنسان عندما يتملقه كلبه وينظر إليه. كان لديـه إحـساس فضولى بالقوة، كما لو أنه يستطيع أن يقول لها: "تعـالى وقبلينـى!" وإنها ستفعل، وكان غريبا، لكن كان هناك شخص آخر فى الحجـرة أيضا وخزه فى أعصابه، لوح برأسه فى اتجاه المطعم فقال:

- "لديكم بعض الزبائن غريبى الأطوار، هل تحبين هذه الحياة أنيت؟"

نظرت لأعلى إليه للحظة ثم نظرت إلـى أسـفل وتحسـست فستانها بيدها، قالت:

- "لا، لا أحبها".

"وجدتها"، فكر سومز، "لو أننى أريدها. لكن هل حقا أريـدها؟ لقد كانت لطيفة، جميلة... جميلة جدا، لقد كانت عصرية، كان لـديها ذوق رفيع نوعا ما".

عيناه نظرت بأرجاء الحجرة الصغيرة، ولكن عقله كــان فــى مكان آخر، نصف مضاء، حوائط فضية، بيانو خشبى وســيده تقــف بجواره، رجعت للوزاء كما لو كانت تهرب منـــه... ســيده أكتافهــا بيضاء كما عرفها والعيون السوداء التى سعى ليتعرف عليها، وشعر مثل الكهرمان. وكفنان يكافح من أجل اللامعقول ومــتعطش دائمــا. أثيرت تلك الأشياء بداخله فى لحظة تعطشه للعاطفة القديمة التى لــم يشبعها قط. قال بهدوء:

- "حسنا، أنت شابة كل شىء أمامك".

هزت أنيت رأسها:

"أظن أحيانا ألا شىء أمامى إلا العمل الشاق. أنا لا أحب العمل مثل أمى".

قال سومز وهو يسخر قليلا:

- "أمك سيدة رائعة، لم تسمح للفشل أن يدخل بيتها أبدا".

تنهدت أنيت: "مؤكد أنه من الأفضل أن تكون غنيا".

"أوه سوف تكونين غنية يوما ما"، أجاب سومز، مازال يسخر قليلا: "لا تخافي".

هزت أنيت أكتافها "السيد لطيف جدا" وبين شــفتيها وضــعت قطعة شيكولاتة.

- "نعم، عزيزتى"، فكر سومز، "إن شفتيكِ جميلتان حقا".

وضعت عودة السيدة لاموت، مع القهوة والكحول، نهاية لتلك المحادثة، لم يمكث سومز قليلا.

بالخارج فى شوارع سوهو، التى أعطته دائما الإحساس بأملاكه وثروته، استغرق فى التفكير:

- "لو أن إيرين قد وهبته ابنًا. لَمَا كان يلهث وراء النساء الآن!".

قفزت هذه الفكرة خارجًا من الصندوق المعتم فى داخله. ولد... شيء يتمناه كثيرا، شيء يجعل الباقى من حياته يستحق أن يعيشه، شيء ما يترك نفسه له، بعض الاستمرارية لنفسه ولاسمه. "لو أن لدى ابنا"، فكر فى ذلك بمرارة، ابن قانونى وشرعى. كل النساء سواء: لكن فى أثناء السير هز رأسه. لا امرأة واحدة تختلف عن الأخريات.

حاول مرارا أن يفكر فى الأيام الماضية من حياته الزوجية المتجمدة، ولكن كان يفشل دائما كما فشل الآن. كان يحاول أن يفكر فى أنيت بالطريقة نفسها التى يفكر بها فى إيرين. لكنها لم تكن مثلها، لم يكن لديها سحر العاطفة القديمة. وفكر:

- "وإيرين زوجتى، زوجتى الشرعية، لم أفعل شيئا يجعلها تبتعد عنى. لِمَ لا تعود إلىّ؟ هذا عين الصواب وقانونى أيضا وهذا لا يتسبب فى فضيحة، أو إزعاج. لو لم يكن هذا الأمر مقبولا بالنسبة لها... لكن لماذا يجب أن يكون كذلك بالنسبة لها وهى لم تعد تحب، لماذا يتعرض للتغيرات وضياع الكرامة والهزائم المتربصة بمحكمة الطلاق، إذا كانت هى هناك كالبيت الفارغ الذى فقط ينتظر أن يعاد شغله وامتلاكه من قبل هو الذى فعلا يمتلكها؟"

بالنسبة لشخص متكتم مثل سومز فكرة العودة للامتلاك دون إعطاء شىء للعالم كان ساحرا جدا. استغرق فى التفكير.

- "لا، أنا سعيد جدا لأننى ذهبت لرؤية هذه الفتاه أنا أعرف الآن ماذا أريد أكثر، لو أن إيرين أرادت العودة، فسوف أراعى شعور الآخرين كما تتمنى هى، يمكنها أن تعيش حياتها الخاصة، لكن ربما يمكنها أن تعود إلىّ".

كان هناك شىء ما فى حلقه يخنقه وبإلحاح على طول أسوار جرين بارك، باتجاه بيت والده، ذهب، محاولا أن يدوس على خياله أمامه فى ضوء القمر اللامع.

الجزء الثانى

الفصل الأول

الجيل الثالث

في ظهر يوم من أيام شهر نوفمبر، كان چولي فورسايت يقوم بنزهة فى هاي ستريت، أكسفورد، أما ڤال دارتي كان خارجًا من هناك. چولى كان قد بدّل ملابس التجديف لتوه وذهب إلى النادى الذى التحق به مؤخرا، أما ڤال فقد بدل ملابس ركوب الخيل وذهب إلى مكتب المراهنات فى سوق الغلال.

قال چولى: "مرحبا!".

رد ڤال قائلا: "مرحبا"

ابنا العم لم يلتقيا سوى مرتين قبل ذلك، كان چولى طالب العام الثانى فى أكسفورد قد دعا ابن عمه الطالب الجديد لتناول الإفطار معه، أما المرة الثانية فكانت فى تلك الليلة الأخيرة، حين التقيا فى ظروف غريبة إلى حد ما.

فوق محل ترزى فى سوق الغلال، كان يسكن أحد هؤلاء الشباب القُصَّر من الطبقات الثرية المرفهة، والذين يملكون تركات كبيرة وآباؤهم متوفون عنهم، والأوصياء عليهم بعيدون عنهم بجانب

امتلاكهم غرائز فاسدة، وفى سن التاسعة عشرة كان قد شرع فى أحد هذه الأعمال الجذابة الغريبة بالنسبة للأشخاص العاديين الذين يعتبرون الإفلاس شيئًا جيدا مثل وليمة.

بالفعل كان مشهورا بامتلاك طاولة الروليت الوحيدة للعب القمار فى أكسفورد، بهذا كان يتوقع أن يصبح ثريا جدا، إنه كروم، يبدو متورد الوجه ومن النوع القوى، بينما كان ينقص الأخير والأحدث عهدًا بأكسفورد ثال هذا الوهن الساحر. وبالنسبة لـ ثال فقد كان يذهب إلى هناك ويلعب القمار، ثم يعود إلى سكنه فى الكلية فى وقت متأخر من خلال نافذة كانت قضبانها غير مثبتة بشكل جيد.

وذات مرة، أثناء شعوره بالسعادة فى واحدة من تلك الليالى، وهو يعبر المروج الخضراء الخلابة استطاع وسط سحابة من الدخان أن يرى ابن عمه يقف هناك بعيدًا. ثم لم يره ثانية.

قال چولى: "تعالَ إلى النادى وتناول الشاى معى"، ثم دخلا إلى النادى.

ربما إذا رآهما شخص غريب، يمكن أن يلاحظ التشابه بين أبناء العمومة من الجيل الثالث لعائلة فورسايت؛ نفس تقاسيم العظام بالوجه، على الرغم من أن عينى چولى كان لونها رماديا قاتما وشعره خفيف مموج قليلا.

قال چولى: "جارسون شاى وكعك بالزبدة، لو سمحت".

قال ڤال: "تأخذ واحدة من سجائرى؟ لقد رأيتـك تلـك الليلـة الأخيرة. ماذا فعلت؟"

- "لم ألعب".

"لقد كسبت خمسة عشر جنيها"

على الرغم من رغبته فى تكرار التعليق الغريب لوالده عـن المقامرة – "عندما يذهب مالك، تصبح سقيما، وعندما تُذْهِب أنت مال الآخرين تكون حزينا....". جعل چولى يرضى نفسه، فقال:

- "أعتقد أنها لعبة حقيرة حقا، لقد كنت فى المدرسة مـع هـذا الشخص، إنه غبى بشكل بشع"

قال ڤال: "أوه! لا أعرف فالمرء ربما يتحدث بلهجـة دفاعيـة عن إله منبوذ مثلا، إنه رجل ممتاز وحلو المعشر".

نفسا دخان السجائر فى صمت، قال چولى:

- "لقد قابلت عائلتى، أليس كذلك؟ سوف يأتون غدا".

أحمر وجه ڤال قليلا:

- "حقا! يمكننى أن أعطيك نصيحة جيدة لسباق مانشيستر فـى نوفمبر".

- "شكرا، فقط أستمتع بالسباقات الهادئة".

قال ڤال: "لا يمكنك أن تصنع ثروة بهذه الطريقة".

- "أنا أكره ذلك" قال چولي: "حين يكون هناك جلبة وصخب وروائح كريهة. أحب الحفلات الصغيرة للخيول"، ابتسم چولي، وقد كانت ابتسامته تشبه ابتسامة والده. وقال:

- "لم أحصل على أي نقود فأنا دائما أخسر في المراهنات".

- "لابد أن تدفع لتحصل على الخبرة بالطبع".

- "نعم، لكن كل شيء يفسد بسبب الاهتمام المفرط بالناس".

- "بالطبع، أو إنهم سيفعلون ذلك معك... إنها الإثارة".

بدا چولي مستخفًا به قليلا:

- "ماذا تفعل في حياتك؟ التجديف؟"

- "لا... ركوب الخيل. وسوف ألعب البولو في تصف العام الدراسي الثاني لو تمكنت من إقناع جدي بدفع الرسوم لي"

- "عمي جايميس العجوز، أليس كذلك؟ كيف حاله الآن؟"

قال قال: "تجاوز الثمانين من العمر، ودائمًا يظن أنه سوف يهلك".

- "أعتقد بأن جدي وهو كانا أخوين شقيقين".

- "لا أعتقد بأن أيًا من هؤلاء الكبار في عائلة فورسايت كان مولعا بالرياضة، لقد قدسوا المال كثيرا".

قال چولى بحرارة: "جدى لم يكن كذلك".

نفض ڤال بطرف ظفره رماد السيجارة، وقال:

- "ليس هناك شيء يناسب المال سوى إنفاقه أتمنى أن يكون لدى الكثير من المال".

نظر چولي إليه مباشرة وباستعلاء، كأنه يحكم عليه، وقد ورث تلك النظرة من چوليون الجد، لم يتحدث أحدهما عن المال، وساد الصمت مرة ثانية، بينما كانا يحتسيان الشاى ويأكلان الكعك بالزبدة.

سأل ڤال: "أين ستقيم عائلتك؟".

- "فى رين بو، ما رأيك فى هذه الحرب؟".

- "سيئة إلى أبعد حد، هؤلاء البوير ليسوا لطفاء: لم لا يصرحون بأفكارهم وخططهم".

- "لِمَ يجب عليهم ذلك؟ لقد أُخِذَ عليهم كل شيء إلا طريقتهم فى القتال فهى تعجبنى كثيرا. يمكنهم أن يركبوا الخيل ويطلقوا الرصاص من فوق ظهورها بمهارة".

قال ڤال: "لكنهم مقرفون ورديئون. هل تعرف كروم؟"

- "كروم ميرتون؟ فقط أعرفه شكلا، إنه واحد من هؤلاء المتعسرين، أليس كذلك؟ وأكثر من ذلك هو ليس كما يبدو، فهو زائف وكاذب"

قال ڤال بثبات: "إنه صديقى".

- "أوه! آسف!" وجلسا يحدق كل منهما فى الآخـــر. وتبـــادلا وجهات النظر فى التعالى الاجتماعى. بالنسبة لــ چولى فقد كان بلا وعى ينجذب إلى مجموعة كان شعارها: "نتحداك أن تضجرنا، فالحياة ليست طويلة بشكل كاف، وسوف نتحــدث بنشاط أكثر وأسرع، نعمل أكثر ونعرف أكثر، ونتنـــاول أى موضوع بإسهاب وتفصيل أقل مما تتوقع. نحن الأفضل..". أما ڤال فقد كان ينجذب هوالآخر لكن إلى مجموعة أخــرى كان شعارها: "نحن نتحداك أن تثيرنا، فنحن يمكننا أن نمتلك أى شعور وإحساس، أما إذا لم يكن لدينا، فنتخيل أنه لــدينا، غلت حياتنا حتى أصبحت كل دقيقة فيها ذات قيمة كبيـــرة، يمكننا أن نتخلى عن قميصنا من أجـــل الــشعور باعتــدال المزاج ورباطة الجأش"

كلهم مدخنون. بلا استثناء! الروح التنافـسية المتعمقـــة فـــى شخصية الإنجليز خاصة؛ كانت تجبر هذين الشابين علـــى أن يكـــون لديهم نماذج يقتديان بها؛ وبحلول قرن جديد، تختلط النماذج والمُثل.

لكن كان هناك نفور قليل وواضح بين أبناء العـــم هـــذين.... يأتى من التشابه العائلى الذى استاء منه كلاهما؛ ومن الـــوعى غيـــر المكتمل بالخصومة القديمة التـــى مازالـــت مـــستمرة بـــين فـــروع

عشيرتهم؛ والذى تشكل من خلال كلمات غريبة أو تلميحات غير واضحة تفلت من الكبار. وبينما كان چولى يَصُك ملعقة شاى بالفنجان، كان مستغرقا فى التفكير:

- "دبوس رابطة عنقه وصديريته ومراهنته! يا إلهى!"

وبينما كان ڤال ينتهى من كعكته، كان يفكر: "إنه وحش صغير!"، قال: "أفترض أنك ستقابل عائلتك" ثم ينهض:

- "أتمنى لو تخبرهم أننى أود أن آخذهم ليشاهدوا كليتى... لو أنهم يودون ذلك".

- "شكرا، سوف أسألهم".

"هل يمكنهم أن يتناولوا الغداء معى؟ فلدىَ خادم جيد فى مسكنى فى الكلية".

كان چولى يشك فى أن يكون لديهم وقت لهذا.

- "مع هذا هل ستسألهم؟"

- "إنه لطف شديد منك" قال چوليون، يقصد فى الأغلب، أنهم لن يتمكنوا من الذهاب، لكنه أضاف بطريقة مهذبة: "من الأفضل أن تأتى وتتناول العشاء معنا غدا!"

- "بكل سرور متى؟"

- "فى الساعة السابعة والنصف".

- "بالزى الرسمى".

افترقا ولا تزال الخصومة بينهما.

وصلت هولى ووالدها بقطار الظهيرة. كانت تلك أول زيارة لها لمدينة الكنائس والأحلام. وقد كانت صامتة تنظر بخجل إلى أخيها الذى كان يشكل جزءًا من روعة المكان. وبعد الغداء تجولت متفحصه بيته ومحتوياته بفضول شديد وكانت الحوائط فى حجرة الجلوس فى بيت چولى مغطاة بألواح من الخشب، وكانت هناك مجموعة فنية لبارتولوزى، والتى كانت ملكًا لجده الجد چوليون، ومجموعة صور فوتوغرافية أُخذت فى الكلية لمجموعة من الشباب، شباب حقيقيين، بطوليين قليلا، وقارنتها بذكرياتها مع ڤال. وقد كان چوليون هو الآخر يتفحص بعناية كل هذه الأشياء فهى تدل على شخصية ابنه وذوقه.

كان چولى يشعر بالقلق أن يروه وهو يجدف، لذلك جلسوا فى الخارج بالقرب من النهر. وكانت هولى بين أخيها وأبيها، قد شعرت بالبهجة عندما التفتت الرءوس وتركزت العيون عليها. ولكى يروه جيدا وهو يجدف، عبروا النهر إلى ممر السحب.

كان أفراد عائلة فورسايت كلهم رفيقى العود، ماعدا سويزين وچورچ اللذين كانا ممتلئى الجسم... وهو يجدف كان چولى الثانى بين ثمانية، وكان قد بدا عاقد العزم على الفوز، وشعر چوليون

بالفخر لأنه كان يعتقد أن ابنه الأفضل بين الجميع. وهولي، كأختيه، أعجبت بواحد أو اثنين من الآخرين، لكنها لم تقل لأحد. لقد كان النهر متلألئًا تلك الظهيرة، المروج غزيرة، لا تزال الأشجار خلابة الألوان ونوع من السلام المميز يتشبث بالمدينة القديمة؛ وكان جوليون قد وعد نفسه بالرسم إذا كان الطقس جميلا. مر الثمانية مرة ثانية، وكانوا يبذلون مجهودًا كبيرًا.... كان وجه جولي كان مهيئًا بشكل كبير لتوضيح كيف أنه مزهو بنفسه. عبروا النهر وعادوا لينتظروه.

"أوه!" قال جولى فى مروج الكنيسة، "دعوت ذلك الشاب قال دارتي على العشاء معنا الليلة. فقد كان يود أن نتناول العشاء معه ويرينا كليته، لكنني رأيت أنكم لن تستطيعوا الذهاب، فدعوته على العشاء، أنا لا أحبه كثيرا"

أصبح وجه هولى الشاحب متوردا:

– "لِمَ لا؟"

– "أوه! لا أعرف إنه يبدو لى مستعرضًا وزائفًا وسيئ السلوك والآداب كيف تبدو عائلته، أبى؟ إنه فقط من أبناء عمومة الوالدين، أليس كذلك؟"

لجأ جوليون للابتسام قال:

– "اسأل هولى، لقد رأت خاله".

أجابت هولى محملقة فى الأرض أمامها:

"لقد أعجبنى ڤال، خاله مختلف جدا"

ثم استرقت نظرة إلى چولى من تحت رموشها. قال چوليون:

- "هل سمعتم عن تاريخ عائلتنا، أعزائى؟ إنها قصة غريبة تماما. إن چوليون فورسايت الأول حيث ما نعرفه عنه أنه جدكم الأكبر قد سكن فى أرض دورسيت على حافة البحر، وقد أصبح على علم بشئون الزراعة بالفطرة والاجتهاد. كما قالت عمتكم الكبرى، وكذلك نسله من المزارعين كما اعتاد جدكم الأكبر أن يسميهم".

"جعة صغيرة جدا" ثم نظر چوليون إلى وجه چولى لكى يرى كيف أن إحساسه بأصله العريق يقاوم ذلك، وبعينه الأخرى لاحظ سعادة هولى وسرورها.

ربما نفترض أنه كان مفتول العضلات وغليظا، كما كانوا فى إنجلترا قبل الثورة الصناعية، "أما چوليون فورسايت الثانى؛ جدكم الأكبر الذى يلى الأول، چولى كان مشهورا بأنه الأعلى مكانة فى عائلة فورسايت قام ببناء المنازل، لذلك كان التاريخ يسجل هذه الأحداث. أنجب عشرة أولاد، ثم هاجر إلى مدينه لندن، كان معروفا بشرب النبيذ الإسبانى القوى. يمكننا أن نعتبره يمثل إنجلترا فى وقت حروب نابليون،

وما حدث فى تلك الفترة من اضطراب وفوضى عامة. وقد كان چوليون الثالث، جدكم، هو الابن الأكبر بين الذكور الستة من أبناء چوليون الثانى؛ كان تاجر شاى ورئيس شركات، أحد المواطنين الإنجليز الذين تركوا علامة فى حياتهم... أما بالنسبة لى فهو أعز وأغلى الناس "فقد صوت چوليون نغمة السخرية التى كان يتحدث بها، وابنه وابنته حدقا فيه بهدوء" لقد كان شديد البأس وعطوفًا وقلبه قلب شاب، أنتم تذكرونه وأنا أذكره، فهو شخص لا يمكن أن ننساه أبدا، أما الآخرون! عمكم چايميس الكبير، جد ذلك الشاب ڤال، لديه ابن يسمى سومز وقصته " اللاحب الضائع"، ولا أعتقد أننى سأخبركم بها، چايميس والثمانية الآخرين، بقى منهم خمسة على قيد الحياة، ربما يقال إنهم مثلوا إنجلترا فى العصر الفيكتورى، ومبادئها التجارية والفردية والملكية... لو تعرفوا ماذا يعنى ذلك، على كل حال، فقد ضاعفوا ثلاثين ألف جنيه إلى مليون جنيه بينهم فى فترة حياتهم الطويلة. هم لم يفعلوا أشياء شريرة، باستثناء عمكم الكبير سويزين، والذى كما أعتقد كان محتالا، وكان يُسَمى "الأربعة فورسايت فى واحد" لأنه كان ممتلئ الجسم جدا. لقد كانوا يضيعون الوقت فى أشياء لا تفيد البلد، فقد كانوا مبتذلين ولكن كانوا حكماء أيضا. وأنا چوليون الرابع، مسكين يحمل اسم چوليون فقط"

قال چولى: "لا يا أبى" وربتت هولى على يده.

كرر چوليون: "نعم، نموذج مسكين، وأخشى أنه لا يقدم شيئًا إلا نهاية القرن، يحصل على دخله بلا تعب من الأسهم وما إليها

والهواية، والحرية الفردية، شيء مختلف عن الفردية والأنانية. چولى أتت چوليون الخامس، رجل كبير وناضج، وتفتتح القرن الجديد"

قال ذلك، وهم يعبرون بوابات الكلية قالت هولى: "إنه شـــيء رائع يا أبى"

لم يفهم أى منهم ماذا قصدت هولى، وكــان چوليـــون ســـاكتا وهادئا فى تلك اللحظة.

الرين بو، كانت مميزة، كدار استقبال متفردة تليق بأكـسفورد، كان بها حجرة جلوس خاصة، واحدة مغطاة بألواح خشب من شجرة البلوط، جلست فيها هولى، وقد كانت مرتدية فستانا أبـيض، وحيـدة تشعر بالخجل، عندما وصل الضيف الوحيد وكأنه يلمس فراشة رقيقة أخذ ڤال يدها ليسلم عليها، لم تكن تضع الوردة الحمراء؛ ستبدو رائعة إذا ما وضعتها فى شعرها، فأخذ زهرة جاردينيا من معطفه.

- "أوه! لا شكراً....لا أستطيع!" لكنها أخذتها ووضعتها عنـد عنقها، ثم تذكرت فجأة تلك الكلمة "مبهرج!" فعروة قميص ڤال تصدم الفروق؛ وقد أرادت هولى بشدة أن يحبه چولى. هل أدركت أن سلوك ڤال كان أفضل وأهدأ فى وجودهـا، وأنه ربما كان هذا نصف سر جاذبيته إليها؟

- "لم أقل أى شيء عن ركوبنا الخيل، قال"

- "ولا أنا؛ إنه سر بيننا"

كان الاضطراب في يديه والحركات العصبية في قدميه تعطيها إحساسًا لذيذًا بالقوة؛ وإحساسًا رقيقًا أيضا... والرغبة في أن تجعله سعيدا.

- "أخبرني عن أكسفورد، من المؤكد أنها جميلة جدا "

اعترف قال أنه من اللطيف والجميل أن تفعل ما تحب؛ لم تأتِ المحاضرات بجديد، وهناك بعض الأصدقاء الجيدين، ثم أضاف "فقط، كنت أتمنى أن أكون في المدينة، وأذهب لرؤيتك"

سحبت هولي إحدى يديها بخجل ووضعتها على ركبتها، ثم نظرت في الأرض.

قال فجأة مستجمعا شجاعته: "لقد نسيتِ أننا سنقوم بجولة معا؟"

ابتسمت هولي:

- "أوه! أعتقد أن المرء لا يمكنه أن يقوم بهذه الأشياء بعد أن يتقدم في السن؛ أنت تعرف"

قال قال: "أبناء العم يقدرون المال "العطلة الطويلة القادمة... تبدأ في يونيه، وتستمر للأبد... سوف نأخذ فرصتنا".

لكن على الرغم من الشك الذي سار بداخلها، هزت هولي رأسها، قائلة: "لن يسمحوا لي بهذا".

قال ڤال بعصبية: "لماذا؟، من سيمنعنا من القيام بالرحلة؟ ليس والدك أو أخاك"

فى هذه اللحظة دخل چوليون وچولى وقد تلاشت الرومانسية تحت جلد ڤال اللامع ورداء هولى الأبيض الحريرى، حيث كانت تلح وتوخز طوال أمسية لم تكن جيدة أو مشجعة على الود إطلاقًا.

كان هذا اللقاء حساسًا جدا، فقد شعر چوليون فى الحال بالصراع الدفين بين الأولاد، وحيرته هولى، لذلك أصبح ساخرا دون وعى لهذا الامتداد المقدر فى الشعور حتى بين الجيل الثالث من عائلة فورسايت، وكان قد تسلم خطابًا بعد العشاء جعله صامتا. بالكاد كسر ذلك الصمت عندما نهض چولى وقال ليذهبا فخرج معهما، وهو يدخن السيجار وسار مع ابنه حتى بوابات كنيسة المسيح، وبينما كان عائدا، أخذ الخطاب وقرأه مرة ثانية تحت ضوء المصباح.

عزيزى چوليون

"أتى سومز مرة ثانية، الليلة عيد ميلادى السابع والثلاثون لقد كنت على حق، يجب ألا أبقى هنا، سوف أذهب غدا إلى فندق بيدمون، أنا لن أسافر للخارج دون أن أراك أولا. فأنا أشعر بالوحدة والحزن"

المخلصة إيرين

طوى چوليون الخطاب وأعاده إلى جيبه وسار، مندهشًا من عنف مشاعره. ماذا قال الرجل؟ وماذا فعل؟ توجه إلى هاى ستريت

وسار على الأرض المزروعة بالعشب، وقد كانت أبراج الكنائس وقبابها وواجهات الكلية والحوائط متلألئة فى ضوء القمر القوى. هنا فى قلب أصالة وعراقة إنجلترا ذاتها كان من الصعب أن يدرك أن أرى امرأة وحيدة ليس لها أحد يدافع عنها، يمكن أن تتم مطاردتها واصطيادها، لكن ماذا يعنى خطابها؟ من المؤكد أن سومز يضغط عليها للعودة إليه مرة ثانية. قال رأى العام والقانون فى صفه أيضا! ألف وثمانمائة وتسع وتسعون، فكر چوليون وهو يحدق فى الزجاج المكسور الذى كان يلمع على قمة أسوار حديقة الفيلا؛ ولكن عندما يصل الأمر إلى الامتلاك، فإننا نصبح همجيين! سوف أسافر غدا فى الصباح. أستطيع أن أقول إنه من الأفضل لها أن تسافر إلى الخارج ثم أثارت الفكرة استياءه. لما يطاردها سومز خارج إنجلترا؟ إلى جانب إنه قد يتبعها، وهناك يمكن أن تكون أكثر ضعفا وأقل حيله أمام زوجها "يجب أن أتصرف بحذر" فكر چوليون: "ذلكم الرجل يظهر نفسه بمظهر كريه لم أحب تصرفاته فى العربة تلك الليلة الأخيرة! ثم تحول إلى التفكير فى ابنته چان هل يمكنها أن تساعد؟ فذات يوم كانت إيرين صديقتها العزيزة وهى الآن مسكينة"

لابد أن چان ستتعاطف معها! وعقد العزم على أن يرسل تليغرافا لابنته لكى تقابله فى محطة باوينجتون. اختبر عواطفه وأحاسيسه وهو يعود أدراجه باتجاه رين بو هل سيفعل هذا مع كل امرأة فى هذه الظروف نفسها، لا لن يفعل، هذه الصراحة قد أربكته.

عندما وصل وجد أن هولي ذهبت للنوم؛ فذهب هو الآخر إلى حجرته، لكنه لم يتمكن من النوم وجلس لفترة على مقعد النافذة ورمى معطفه في الغرفة دون ترتيب، وظل يراقب ضوء القمر على الأسطح. في الحجرة المجاورة كانت هولي أيضا مستيقظة وتفكر في الرموش التي تكسو عيني فال وكيف أنها يمكن أن تجعل جولي يحبه، وكانت رائحة زهرة الجاردينيا التي أعطاها إياها فال تملأ الغرفة. كان فال ينحني على نافذة حجرته في الدور الأول، حيث كان يحدق في الفناء مربع الشكل، والذي ينيره ضوء القمر، وذلك دون أن يرى شيئا على أي حال، فقط كان يرى هولي بدلا منه، رشيقة ترتدي فستانا أبيض، كما كانت تجلس بجانب الموقد عندما رآها أول مرة.

أما جولي فقد كان في حجرة نومه الضيقة كشبح، يضع يده تحت وجنته ويحلم بأنه كان مع فال في قارب واحد يجدف في سباق ضده، بينما كان والده ينادي من المرسى: "يا رقم اثنين! باعد بين يديك، باركك الله!"

الفصل الثاني

سومز يبدأ اتخاذ الإجراءات اللازمة

من بين كل هذه المؤسسات المتألقة التي تمتلئ واجهتها بالنوافذ، في ويست إند في لندن، كانت كيفيتز وكورنيجال بالنسبة لـ سومز الأكثر جاذبية وحداثة. لم يكن لديه أبدا ذوق عمه سويزين في الأحجار الكريمة والمجوهرات، وترك التعامل معها عندما تركته إيرين عام ١٨٨٧، لكنه مازال يعرف الماس الحقيقي فعندما يرى واحدة يستطيع أن يعرف ما إذا كانت ماسة حقيقية أم لا. خلال الأسبوع الذي سبق عيد ميلادها، كان ينتهز فرصة ذهابه إلى المزرعة أو عودته منها ليقضي بعض الوقت أمام محلات المجوهرات الكبرى، حيث يمكنك أن تحصل على ختم خاص للبضاعة المشتراة فقط إن كان لديك المال الكافي. التفكير المستمر منذ أن كان مع جوليون في التاكسي أقنعه أكثر وأكثر بأهمية تلك اللحظات من حياته والاحتياج الشديد لاتخاذ الإجراءات اللازمة على ألا تكون خطأ، وجنبا إلى جنب جفاف ومنطقية إحساسه فقد قرر إما أن يحدث الآن أو لن يحدث أبدا إذا ما أراد أن يعيد ترتيب حاله وينشئ عائلة، وقد تلاشت الدوافع الخفية لأحاسيسه التي كانت قد عادت للحياة برؤيتها، هي التي كانت زوجة محبوبة ومرغوبة

بالنسبة له، أيضا الاقتناع بأنه إثم وجريمة ضد التقاليد العامة وتقاليد فورسايت العظيمة أن يفقد زوجته.

وبرأى فى قضية وينفريد، نصحها مستشار الزواج، بأن تتخذ خطوات للأمام لاستعادة حقوقها الزوجية، وهذه النقطة لم يشك فيها سومز أبدا. فعندما يحصلون على مرسوم قضائىٍّ بهذا، لابد أن ينتظروا ليروا إن كان سينفذ وإن لم يحدث فسوف يرفعون دعوة قانونية. ويجب أن يحصلوا على دليل لإثبات سوء السلوك ويكتبوا التماسًا لطلب الطلاق. وقد عرف سومز كل هذا جديا. هذه البساطة فى قضية أخته تجعله يشعر بمدى صعوبة قضيته. وفى الحقيقة، كانت كل الظروف تدفع باتجاه حل بسيط وهو العودة إلى إيرين وإن كان هذا ضد رغبتها، فهو على الأقل لم يؤذها، وهذا هو الحل الوسط الذى يمكنه أن يعرضه عليها. يستطيع أن يمنحها أكثر مما لديها الآن، كان مستعدا لأن يعقد معها تسوية عادلة لا تغضبها، حتى إنه كان يدقق مظهره وسلوكه بشدة هذه الأيام، ولم يكن مغرورا أبدا مثل هذا الرجل دارتى ولم يتخيل نفسه أبدا أن يكون مجرد زوج لامرأة، لكن كانت لديه ثقة فى نفسه فقد كان زوجًا حسنًا، أنيقًا، محافظًا، صحته جيدة ولا يسرف فى الشراب أو أى شىء آخر شكل فكى فورسايت والتركيز على وجهه انعكس بقوة فى عينيه، الذكريات الجميلة والحنين والتى يعيش بها الإنسان حياته، ولو أمكنه من أن يقيم لها دليلاً واقعيًا على أن الماضى قد ولَّى وإنه سيبذل ما فى وسعه لكى يجعلها سعيدة، فلماذا لا تعود إليه؟

فى صباح التاسع من نوفمبر، دخل محل جـايفيز وكوتيچـال لكى يشترى بروچا من الماس، كلفه أربعـة أو خمـسة وعـشرون جنيهًا، ويصلح لسيدة فى مثل عمرها كما أنه كان مقتنعًا بـه تمامًـا لذلك اشتراه بدون أى اعتراض على الثمن الذى طلبه البائع، وذهـب إلى المزرعة ومعه تلك العلبة المراكشية الخضراء فى جيب سـترته العلوى، التى بها البروچ وظل يفتحها مرات عديدة ليلقى نظرة علـى تلك الأحجار السبعة اللامعة فى علبتها القطيفة.

- "لو أن السيدة لم تعجبها الهدية، يمكننى أن أغيرها فـى أى وقت بكل سرور"

لم يكن هناك خوف من ذلك، فلو حدث فلديه كم هائـل مـن العمل، وهو يعرف أن العمل وحده يستطيع أن يهدئ أعصابه. بينمـا كان سومز فى مكتبه وصله تلغراف، وكانت به تفاصيل من العميـل الذى يراقب دارتى فى بيونيس أيريس، واسم وعنوان المراقب الـذى سيكون مستعدا لأن يقسم بما هو ضرورى وفى صالح سومز وأخته، كان سومز كارهًا بشدة لأن يفضحه هكذا على المـلأ، وبينمـا هـو صاعد إلى القطار فى محطة فيكتوريا شعر بحافز قوى لتجديد حياته الزوجية، بسبب سوء ما نشر فى الجريدة المسائية عن دعوة طـلاق فى الطبقة العليا من المجتمع. على الرغم من فطرة عائلة فورسـايت التى تميل إلى الاضطراب والقلق، فإن روح التعاون أبقـتهم ثـابتين وأقوياء، جعله هذا يذهب لتناول العشاء فى "بارك لين" مـع بعـض

أفراد عائلته، ولكنه لم يستطع أن يفصح عن نواياه ليحتفظ بـالاحترام والكبرياء، ولكن فكرة أنه ربما يسعدهم هذا ويتمنون له الحظ الطيب إذا عرفوا كانت مشجعة.

كان چايمس في حالة نفسية سيئة وحزينة؛ لأن النـار؛ التـي أشعلها إنذار كروجر في داخله؛ كانت قـد بـردت بـسبب النجـاح المحدود في الشهر الأخير، والحث على التطوع للحرب في جريـدة التايمز، لم يعرف كيف ستكون النهاية. وحاول سومز أن يخرجه من هذه الحالة، لكنّ چايمس لم يستجب لتلك المحاولة وظل هكـذا فـي جحيمه الخاص. اعتقد أنهم سوف يرسلون في طلب التجـارة. لقـد فعلوا في حرب الكريميا وحاول سومز مواساتهم وكانت وينفريد قـد سمعت من قال عن إقامة مهرجان كبير ونيران موقدة فـي الهـواء الطلق إحياءً لذكرى فشل إحراق البرلمان الإنجليزي في ٥ نـوفمبر ١٦٠٥ في أكسفورد وأنه فرّ من طريق دهان وجهه باللون الأسود.

- "آه!" تمتم چايمس: "إنه شاب صغير ذكي" لكنه هـز رأسـه للأمام وعلق بأنه لم يعرف ماذا سيصبح ذلك الولد قال فـي المستقبل، وينظر إلى ابنه نظرة حزن قائلاً أن سـومز لـم يكن لديه ابن وقد أراد بشدة أن يكون لديـه حفيـد يحمـل اسمه. والآن ها قد أصبح لديه حفيد لكن لا يحمل اسمه.

وقف سومز على عقبيه. لم يتوقع مثل هذا التحدى لكى يبـوح بالسر الذى في قلبه. وإيميلى التى رأته يترنح قالت:

– "هذا سخيف، چايمس، لا تتحدث هكذا".

لكن چايمس ظل يتمتم وهو لا ينظر فى وجه أحـــد. روجـــر ونيكولاس وچوليون كلهم لديهم أحفاد. أما ســـويزين وتيمـــوثى فلـــم يتزوجا بعد. لقد فعل كل ما فى وسعه؛ لكنه ذهب هباءً وبدلا من أن يقول كلمات مواساة إلا أنه بقى صامتا، فقط، يأكل طعامه ويبتلعه.

بعد العشاء مباشرة غادر سومز بيت أبيه ولم يكن الجـــو بـــاردا حقا، لكنه ارتدى معطفه الفرو الذى حصنه ضد نوبات الرعشة العصبية التى كان عرضة لها طوال اليوم، أدرك بشكل لا شـــعورى أن مظهـــره فى ذلك المعطف بدا أفضل من مظهره فى المعطف الأسود المعتاد. ثـــم شعر بعلبة الماس المنبسطة فى جيبه فوق صدره، فاندفع خارجا، وعلـــى الرغم من أن سومز لم يكن مدخنا، فقد أشعل سيجارة، ودخنهـــا وظـــل يتمشى ببطء باتجاه نايتبدريدج، متوقعا أن يصل تشيلسى فـــى التاســـعة وخمسة عشر دقيقة. ترى ماذا تفعل كل ليلة فى هذا الجحـــر الـــصغير؟ وفكر كم من نساء غامضات أخريات عاش إلى جانبهن فترة طويلة ولم يعرف عنهن شيئًا؟ ماذا رأت فى ذلك الشاب بوسينى ذهب بعقلها هكذا؟ ما فعلته كان جنون... جنون ضيع كل إحساس بالقيم، دمَّـــرت حياتهـــا وحياته للحظة ملأه شعور بالفخر والثناء، لأنه على الرغم مـــن كونـــه رجلا تقرأ عنه فى الروايات والذى امتلك الروح المسيحية سوف يعيـــد لها السماح والنسيان؛ كل معـــانى الوجـــود، سيـــصبح الأب الروحـــى لمستقبلها، تحت شجرة مقابلة من ثكنات نايتسبريدج حيث كـــان ضـــوء

القمر ساطعا وصافيا، أخرج علبة الماس وفتحها تحت ضوء القمـر ثـم أغلقها، سرت بداخله قشعريرة وهاجمته رعشة عصبية، وسار بخطـى متسارعة ووضع يديه المغطاة بالقفاز فى جيبه، كان سـومز يأمـل أن تكون إيرين فى منزلها الآن. فكرة أنها امـرأة غامـضة عـادت إلـى إزعاجه مرة ثانية. تتناول عشاءها وحيدة ليلة بعد ليلة هنـاك... وهـى ترتدى ملابس المساء؛ كما لو أنها تعيش مع جماعـة! تعـزف علـى البيانو؛ لنفسها! ليس حتى لكلب أو قطة، كما رآها تفعل فـى الماضـى، وهذا ذكره فجأة بالمهرة التى رباها فى مابلدرهام؛ فعندما كان يذهب إلى هناك؛ كان يجدها وحدها، نصف نائمة، "سوف أعاملها بلطف ورقـة"؛ فكر سومز، سوف أحرص على ذلك. وبهذا التفكير الـشديد فـى حيـاة البيت والاستقرار الذى حرمه منها ذلك القدر الساخر الذى سيطر علـى حياته دائمًا. فى طريق "كينج" أتى رجل يترنح ويتلوى خارجا من حانـة كانت تُعزف بها قطعة موسيقية راقية وقف سومز يراقبه وهو يـرقص على الرصيف؛ ثم عبر الطريق مسرعا كى يتجنب الاحتكاك بـه ليلـة غريبة! يا لهؤلاء الناس من أوغاد! لكن الرجل لاحظ محاولـة سـومز لتجنبه، وانهمر سيل من السباب عليه وهو يعبر الطريـق "أتمنـى لـو سيطَروا على مثل هذا الوغد " فكر سـومز: "فكيـف يتركـوا هـؤلاء المشاكسين منطلقين هكذا فى الشوارع، والنساء يـسرن فـى الخـارج وحدهن!" ثم ظهرت امرأة أمامه فزادته ثقة فى رأيه هذا، مشيتها بـدت مألوفة بشكل غريب بدأ قلبه يخفق أسرع للزاوية لكى يتأكد، نعـم لقـد

كانت إيرين؛ إنه يعرف مشيتها جيدًا، فى ذلك الشارع الصغير شقت طريقها بين زاويتى ومن الزاوية الأخيرة رآها تدخل المبنى التى تسكن فيه، لكى يتأكد جرى بعض الخطوات وأسرع على السلالم فرآها تقف لدى باب شقتها، سمع صوت المفتاح يدور فى الباب ووصل إلى حيث تقف، فالتفتت حولها مذهولة فى مدخل الباب المفتوح.

- "لا تفزعى" قال لاهثًا، "لقد سعدت لرؤيتك، هل تسمحين لى بالدخول لدقائق"، ضمت ذراعيها على صدرها وبدا وجهها شاحبًا ثم تمالكت نفسها ومالت برأسها، وقالت: "حسنًا".

أغلق سومز الباب، هو أيضا يحتاج لأن يستعيد توازنه، منتظرًا دقيقة كاملة يأخذ أنفاسًا عميقة ليهدء خفقان قلبه فى هذه اللحظة المفعمة والمشحونة بالتفكير فى المستقبل فكر بإخراج علبة الهدايا المراكشية، لا، سيكون شيئًا فجًا وبما أنه لم يخرج العلبة وقف يفكر فى تقديم عذر لمجيئه بدون تمهيد بدأ صبره ينفذ لمواجهة هذه المشكلة، فلم يستطع إيجاد تبرير لحضوره. سمع صوتها بطريقة غير مريحة، "لماذا تأتى مرة ثانية إلى هنا؟ ألم تفهم أننى لا أريد ذلك؟". لاحظ ملابسها... فستان من القطيفة البنية ولفاح من فرو السمور وقبعة مستديرة صغيرة من الفرو نفسه، فقد كان لديها الآن المال لتنفقه على الملابس.

قال فجأة: "إنه عيد ميلادك، لقد أحضرت هذه لكِ"

- "لا..لا".

ضغط سومز على مشبك العلبة فظهرت سبع أحجار كريمة لمعت في العلبة القطيفة.

- "لم لا؟ فقط كدليل على أنكِ لا تكنين أي مشاعر بغيضة الآن".

- "لا أستطيع".

أخرج سومز الأحجار من العلبة محاولاً إعطاءها لها،

"أتسمحين لي أن.....". قاطعته متراجعة للوراء وقالت: "لا أستطيع" تبعها، مد يديه بالبروش ليضعها على فستانها، فتراجعت للوراء مرة أخرى.

أنزل سومز يده قائلاً:

- "إيرين، دعِ الماضي للماضي، إذ استطعت أنا فربما تستطيعين أنتِ، دعينا نبدأ من جديد كأن شيئًا لم يحدث، ألا يمكنك ذلك؟".

صوته كان متلهفا وعيناه مثبتة على وجهها وبهما نوع من الحنان،

إيرين التى وقفت وظهرها للحائط نظـرت إليـه بـازدراءٍ واحتقارٍ، كان هذا هو جوابها عليه.

"هل يمكنتك أن تعيشى كل أيامك نصف ميتة فى هذا الجحـر الصغير؛ عودى إلى وسوف أعطيكِ كل شىء سوف تعيشين حياتك الخاصة، أقسم بذلك".

رأى وجهًا ساخرًا.

كررها: "نعم، هذه المرة أعنى ما أقول. سوف أطلـب منـكِ شيئًا واحدًا فقط، أنا فقط أريد منك... فقط أريد ابنًا منكِ. لا تنظـرى إلى هكذا! أريد شيئًا واحدًا هل هو شىء صعب".

ثم تسارعت نبرة صوته، لذلك عرف بالكاد أنه يحدث نفسه، وأمال رأسه للخلف مرتين كما لو أنه يكافح من أجل التـنفس. كـان منظر عينيه المثبتة عليها بنوع من الخوف ما حول ذلـك التهافـتَ الجارح إلى غضب.

قال من بين أسنانه: "أليس هذا شيئًا طبيعيًا؟ أليس من الطبيعى أن يكون لدى طفل من زوجتى؟ لقد دمرتِ حياتى وأفسدت كل شىء. نحن نعيش نصف حياة ودون أى بوادر للمستقبل. أنا ما زلت أريدك زوجة لى. تكلمى... لأجل الرب! تكلمى".

بدت إيرين محاولة أن تقول شيئا، لكنها فشلت فى ذلك.

- "لا أريد أن أخيفك"، قال سومز بطريقة أكثر لطفا: "الرب يعلم. أنا فقط أريد أن تعرفى أننى لا أستطيع الحياة من دونك، أتمنى أن تعودى إلى. أنا أريدك".

رفعت إيرين إحدى يديها وغطت الجزء الأسفل من وجهها، لكن عينيها لم تفارق أبدا النظر فى عينيه لتبقى على المسافة بينهما، كل هذه السنوات، المرة والقاحلة، منذ... آه! متى.... غالبا منذ أول مرة عرفته فيها، تدفقت موجة من الذكريات مع سومز، ولم يستطع سومز أن يتحكم فى التشنجات التى ظهرت على وجهه.

قال: "لم يتأخر الوقت بعد أليس كذلك؟ لو أنكِ فقط تصدقينى".

أبعدت إيرين يدها عن شفتيها فى بادرة رفض أمام صدرها وحاول سومز وضع يده عليهما فبادرته قائلة ألا يفعل، ولكنه ظل ممسكا بهما محاولا النظر فى عينيها التى لم تتجه إليه، ثم قالت بهدوء:

- "أنا وحدى هنا. لن تفعل مرة ثانية كما فعلت من قبل!".

ترك يديها وكأنها معدن ساخن، ثم ابتعدت قليلا. هل من الممكن أن يكون هناك عدم صفح وتسامح هكذا! هل تصرفه الذى ينم عن التملك العنيف مازال حيًا بداخلها؟ هل هذه هى العقبة الكبيرة التى تقف أمامه؟ ثم قال متحاملا، بدون النظر إلى عينيها: "لن أرحل حتى تجيبنى، أنا أعرض عليكِ ما يمكن أن يعرضه القليل من الرجال، أنا أريد.. إجابة معقولة".

وفجأة سمعها تقول، لا يمكنك أن تحصل على إجابة معقولـــة. والعقل.لا يستطيع أن يفعل شيئا فى هذا. يمكنك فقط أن تحصل على الحقيقة الغليظة:

- "أفضل الموت على العودة إليك".

حدق سومز فيها.

أوه! وكأنه أصيب بنوع من الشلل عن الكلام والحركة، أصابه نوع من الاهتزاز والارتباك الذى يحدث عندما يستقبل الإنسان إهانة قاتلة ولا يعرف ماذا سيحدث له إثرها.

قال ثانية: "أوه! هذا شىء سيئ حقا؟ تفضلين الموت. جميل!"

- "آسفة. لقد أردت أن أجيبك، إنها الحقيقة وأنا لا أكذب. أليس كذلك؟"

فى تلك اللحظة التقط البورش وأعاده إلى مكانه فى العلبة، ثم وضعها فى جيبه.

قال: "الحقيقة، ليس هناك شـــىء كهـــذا لـــدى النـــساء. إنـــه الإحساس... الإحساس".

سمع الهمس:

- "نعم، الإحساس لا يكذب. ألم تكتشف هذا؟" كـــان صـــامتا، استحوذت عليه الفكرة. "سوف أكره هـــذه المـــرأة. ســـوف

أكرهها"؛ تلك المشكلة! لو أنه فقط استطاع أن يسترق النظر إليها هي التي كانت ساكنة وظهرها للحائط ورأسها مرفوعة ويديها مكتوفتين، كما لو أنها ستضرب بالرصاص.

قال بسرعة:

- "لا أصدق ذلك، لديكِ حبيب؛ لو لم يكن لديكِ حبيب، فأنتِ حقًا بلهاء لما كنتِ كمعتوه صغير".

كان مدركا لتعبيرات وجهها، حتى إنه تمتم بشيء ما " تهاية مزعجة". ثم عاد إلى الباب؛ لكنه لم يستطع الخروج، شيء ما بداخله شيء سري وعميق في شخصية فورسايت. منعه الإحساس بضرورة ألا يترك الإهانة تمر هكذا، فعاد مرة ثانية ووقف هناك، ظهره للباب كما كان ظهرها للحائط، وبينهما تلك المسافة من اتساع الحجرة.

قال: "هل فكرتِ أبدا في أحد غير نفسك؟".

ارتعدت شفتا إيرين ثم أجابت ببطء:

- "هل فكرت أبدا أنني أكتشف خطئي وبؤسي، الخطأ الفظيع... في الأسبوع الأول ذاته من زواجنا، حتى إنني تحملت ثلاث سنوات... أنت تعرف أنني كنت أصبر وأتحمل؟ كل ذلك لأجلي؟".

عض سومز على أسنانه: "الرب يعلم الحقيقة. لم أفهمكِ أبدا ولن أفهمك، لقد حصلتِ على ما أردتِ؟ ويمكنكِ مرة أخرى أن تحصلي على أكثر مما تريدين، ما الأمر؟"

- "أسألكِ سؤالاً واضحًا! ما الأمر؟، استغرب قائلا بلهجة عاطفية: لست أعرج، لست مقززا، لست غليظ الطبع. لست غبيا، فما الأمره ما الغريب فى أمرى؟".

تنهيدة طويلة كانت إجابته.

أومأ إليها بيده بشكل معبر وغريب قائلا: "عندما أتيت إلى الليلة، كنت أتمنى أن ننسى كل شىء فى الماضى ونبدأ من جديد. وأنتِ قابلتنى بعصبية وصمت وتنهدات. لا أدرك ماذا تريدين بالضبط، نعم، إنه مثل شبكة عنكبوت"

أثاره الهمس الذى سمعه عبر الغرفة ثانية

- "حسنا، لا أختار أن أكون فى شبكة عنكبوت. سوف أقطعها". سار سومز للأمام باتجاهها. "الآن" لم يعرف السبب الحقيقى وراء ذهابه إليها. ولكنه اقترب، وعندها أثارته تلك الرائحة القديمة المألوفة لملابسها.

ووضع يده على كتفيها وانحنى ليقبلها، لم يقبل شفتيها إذا أدارت وجهها بعض الشىء، ثم أبعدت وجهه بيديها؛ وسمعها تقول:

- "لا"، شعر بالخجل وانعدام الجدوى فرجع على عقبيه حتى الباب وخرج من منزلها.

الفصل الثالث
زيارة إلى إيرين

وجد چوليون چان تنتظره على الرصيف فى باديبجتون؛ فقد استقبلت تلغرافه بينما كانت تتناول وجبة الإفطار. كانت تسكن فى مسكن صغير مكون من مرسم وحجرتين فى شارع جونز وود جاردن. اختارت أن تسكن فيه لكى تشعر باستقلالها الكامل وبأنها غير مراقبة من قبل السيدة جراندى، ولا يعيقها الخدم. حيث يمكنها أن تستقبل من ترعاهم من المشردين فى أى ساعة من النهار أو الليل. لقد استمتعت بحريتها واحتضنت نفسها بنوع من العاطفة العفيفة؛ الدفء الذى غمرت به بوسينى... والذى أكسبها نوعًا من إصرار وصلابة فورسايت لابد أن هذا أتعبه كثيرا.

وهى الآن تنفق بشكل بطولى فى مساعدة المساكين والواعدين فى عالم الفن لقد عاشت فى الحقيقة لإنصاف هؤلاء المشردين والعباقرة وتحويلهم إلى المكانة التى يستحقونها. حماسه للاحتفاظ بها جعل حكمها على الأمور متحيزًا وغير سليم؛ لكنها كانت مخلصة وحرة كانت دائما تقف ضد ظلم وجهات النظر

الأكاديمية والتجارية! وعلى الرغم من أن دخلها كان كبيرا، فإن رصيدها في البنك كان قليلاً جداً.

أتت إلى محطة بادينجتون متحمسة لزيارة "إيريك كوبلي" صالة عرض بائسة رفضت أن تسمح لشخص عبقري مثل كوبلي أن يقدم عرض "رجل واحد" هناك ولكن مديرها الوقح، بعد زيارة إلى مرسمه قال إنه يمكن أن يقدم "عرض حصان واحد" من وجهة نظر البيع هذا نموذج لجبن رأس المال أن يساعد فنان في ضائقة مالية ويعول زوجته وطفلين، وهذا ما جعل الدم يتوهج في وجهها الصغير المليء بالتصميم والعزم وشعرها الأحمر الذهبي الساطع أكثر من أي وقت مضى. عانقت جان والدها، واستقلت العربة إلى جانبه، وكانت معه كمية من السمك لهما.

عندما وصل جوليون إلى كلمات: "عزيزتي، أريدك أن تأتي معي، واسترق النظر إليها لاحظ عينيها الزرقاوين تتحرك من جانب إلى جانب" مثل ذيل قطة مشغولة البال... حتى إنها لم تكن منتبهة "أبي، هل هو صحيح أنني لا يمكنني أن أحصل على أي من أموالي؟".

- "لحسن الحظ يمكنكِ أن تحصلي على الدخل فقط".

- "يا له من شيء فظيع! ألا يمكن أن أجد طريقة ما؟ لا بد أن يكون هناك حل، أستطيع أن أشتري صالة عرض لوحات صغيرة بعشرة آلاف جنيه إسترليني".

تمتم جوليون: "صالة عرض صغيرة، تبدو رغبة متواضعة، لقد تطلع جدك إلى مثل هذا"

صرخت چان بقوة، أعتقد أن كل هذا الاهتمام بالمال شيء بشع، عندما يكون هناك عباقرة كثيرون في العالم يتم قمعهم ببساطة وهرسهم بسبب الحاجة إلى القليل من المال. لن أتزوج ولن أنجب أطفالاً. لمَ لا؟ أقوم بعمل أشياء مفيدة وجيدة بدلا من تعقد الأشياء.

- "إننا نحمل اسم فورسايت، يا عزيزتي" رد جوليون في صوت ساخر لم تعتد عليه چان من قبل، "وكما تعرفين، أن كل أفراد عائلة فورسايت قد أوقفوا أموالهم بحيث إن أحفادهم يرثون آباءهم وليس أجدادهم. هل تفهمين ذلك؟ ولا أنا أفهمه لكن هذه هي الحقيقة، نحن نعيش بمبدأ أنه بقدر الإمكان يجب أن تظل الثروة في العائلة ولا يسمح لها بالخروج عنها أبدا. على أي حال: فإذا مت غير متزوجة فسوف تذهب أموالك إلى چولي وهولي وأطفالهما لو تزوجا وأنجبا، أليس سعيدا أن تعرفي أنك مهما فعلت. لا تستطيعين عمل شيء".

- "لكن لا يمكنني أن أقترض المال؟".

هز جوليون رأسه: "يمكنكِ أن تؤجري صالة عرض، بالطبع، لو استطعتِ أن تديري ذلك من دخلك"

قالت چان: "نعم؛ ولن يتبقى أي نقود لأساعد أي شخص"

تمتم چوليون: "طفلتى العزيزة، ألـــن تفعلـــى الـــشىء نفـــسه باستئجارك المعرض؟".

قالت چان بفطنة: "لا، يمكننى أن أشتريه بعشرة آلاف جنيـــه؛ هذا يمكن أن يكون فقط بعد أربع سنوات. لكننى يجب أن أدفع ألـــف جنيه إيجار سنة، وبهذا يمكن أن يتبقى لى خمسمائة جنيه. لكـــن يـــا أبى، لو امتلكت صالة العرض. فكر ماذا يسعنى أن أفعل. يمكننى أن أضع اسم إيريك كوبلى فى وقت قصير جدا، وأساعد العديدين أيضا"

والأسماء التى تستحق، تصنع نفـــسها بنفـــسها فـــى الوقـــت المناسب.

"عندما يكونون أمواتًا"

"هل عرفت قط أى شخص على قيد الحيـــاة، يـــا عزيزتـــى، استطاع أن يصنع اسمه؟"

– "نعم. أنت،" قالت چان وهى تربت على يديه.

تحرك چوليون فجأة قائلا: "أنا" ثـــم فكـــر: "أوه! الآن ســـوف تطلب منى أن أفعل شيئا، كل منا، نحن أفـــراد عائلـــة فورســـايت، نتعامل مع الأمور بطرق مختلفة".

اقتربت چان منه فى العربة قالت: "عزيزى، أنت يمكنـــك أن تشترى صالة العرض، سوف أدفع لك أربعمائة جنيه فى السنة ولـــن يسوء حال أى منا، إلى جانب أنه استثمار جيد".

تلوى چوليون وتخلص منها قائلا: "ألا تعتقدين أنـــه بالنـــسبة لفنان، شراء صالة عرض هو أمر مريب قليلا؟ إلى جانب أن عشرة آلاف مبلغ ضخم وأنا لست رجل أعمال".

نظرت چان إليه بإعجاب.

بالطبع لست كذلك، لكنك مثل رجال الأعمال. وأنا متأكدة أننا يمكن أن ندفع لشراء المعرض، بهذا سوف نحارب هـؤلاء التجـار الملاعين". مرة ثانية ضغطت ذراع أبيها.

عبر وجه چوليون عن يأسه من معارضتها. وقال:

- "أين يوجد هذا المعرض المرغوب؟ أظن أنه موقع رائع"

- "بالظبط آخر شارع " كورك "

فكّر چوليون: "آه! عرفته، إنه كان بعيدا فى مكان ما. أريد أن أفلت من هذه الورطة الآن".

قال: "حسنا، سوف أفكر فى الموضوع، لكن ليس الآن. هـل تتذكرين إيرين؟ أريدك أن تأتى معى لرؤيتها. فـ سـومز يطاردهـا مرة ثانية. سوف تكون فى مأمن لو أنكِ ساعدتيها وأعطيتيها مـأوى فى مكان ما".

الكلمة "مأوى" التى استخدمها چوليون بالصدفة. كانت كفيلـة لإثارة شفقة چان.

- "إيرين! لم أرها منذ زمن بعيد! بالطبع أود مساعدتها".

ربَّت چوليون على ذراعها؛ فى إعجاب داقئ بابنته المخلوقة الرقيقة ذات القلب الكبير والرقيق قال بنظرة مختلسة:

"إيرين ذات كبرياء وعزة نفس، ومن الصعب مساعدتها ويجب أن نكون حذرين ونتصرف بلطف حتى لا تحرج مشاعرها، هذا هو المكان. لقد أرسلت لى برقية بانتظارها هناك، دعينا نرسل بطاقتينا".

قالت چان وهى تصعد:

"لا يمكننى تحمل سومز، وهو يسخر من كل شىء ليس ناجحا".

كانت إيرين فى مكان يسمى بصالون السيدات فى فندق بيدمونت، بشجاعة أدبية كبيرة تقدمت چان ناحية صديقتها السابقة وقبلتها على وجنتها وجلست الاثنتان على أريكة لم يجلس عليها أحد منذ تأسس الفندق، كان چوليون يرى أن إيرين كانت متأثرة جدا بهذا الصفح اليسير

قال: "هل كان سومز يطاردك؟".

– "لقد زارنى تلك الليلة الأخيرة. وهو يريدنى أن أعود إليه؟"

قالت چان باندفاع: "لن تفعلى. بالطبع؟".

ابتسمت إيرين ابتسامة باهتة وهزت رأسها "متمتمة، لكن حاله مرعب".

– "إنه خطؤه؛ يجب عليه أن يطلقك عندما يتمكن من ذلك"

تذكر چوليون كيف كانت چان تتمنى بحماس فى الأيام الماضية أن يتسبب عدم الطلاق فى تلطيخ اسم حبيبها الخائن المتوفى.

قال: "دعينا نسمع ماذا تريد أن تفعل إيرين "

ارتعدت شفتا إيرين؛ لكن تحدثت بهدوء.

– "من الأفضل أن أعطيه العذر لكى يتخلص منى"

صرخت چان قائلة: "يا له من شىء مرعب!"

– "ماذا يسعنى أن أفعل؟"

قال چوليون بهدوء شديد: "بدون تساؤل، بدون حب".

ظن أنها كانت ستبكى؛ لكنها نهضت بسرعة، ثم أدارت ظهرها بشكل جزئى إليهم ووقفت تتمالك نفسها.

قالت چان، فجأة:

– "حسنا، سوف أذهب إلى سومز وأخبره أنه يجب أن يتركك لحالك. ماذا يريد فى سنه هذه؟".

– "طفل، إنه شىء طبيعى"

صرخت چان بازدراء "طفل"، "بالطبع لكى يترك له ثروته. إذا كان يريد طفلا بهذه الطريقة، فيكفى أن يحاول الزواج من أى واحدة أخرى لينجب طفلا؛ ثم يمكن أن يطلقك ويتزوجها".

أدرك جوليون فجأة أنه ارتكب خطأ بإحضاره چان. تعصبها العنيف كان يحارب سومز "سيكون من الأفضل لـ إيرين أن تأتى بهدوء إلينا فى روبين هيل، وترى كيف تسير الأمور.

قالت چان: فقط بالطبع.

وجهت إيرين نظرة لـ چوليون، وعندما حاول فيما بعد تحليلها؛ فشل فى ذلك.

- "لا يمكن أن أسبب لكم الكثير من المتاعب. سوف أسافر للخارج".

أدرك چوليون من نبرة صوتها أنه قرار نهائى، ثم ومضت فى عقله فكرة خارجة عن الموضوع. حسنا، يمكننى أن أراها هناك.

- "ألا تعتقدين أنك سوف تكونين أكثر ضعفا وأقل حيلة هناك، إذا ما تبعك سومز؟"

- "لا أعرف! ليس لدى غير المحاولة".

وقفت چان ثم سارت خطوات سريعة نحو الغرفة، قالت:

- "إنه شىء غريب؛ لماذا يجب أن يتعذب الناس ويبقون يائسين قليلى الحيلة عامًا بعد عام، بسبب هذا القانون المنافق الكريه؟".

لكن شخصًا ما دخل إلى الحجرة فأصيبت چان بحالة من الجمود والتوقف التام. وذهب چوليون إلى إيرين.

- "هل تحتاجين إلى نقود؟".
- "لا"
- "هل تريدين أن أستأجر شقتك؟"
- "نعم يا چوليون، إذا سمحت"
- "متى سترحلين؟".
- "غدا"
- "لن تعودى من هناك فى هذه الأثناء، أليس كذلك؟" هذا ما قاله بقلق غريب لنفسه.
- "لا؛ لقد حصلت على ما أريد هنا "
- "سوف ترسلين لى بعنوانك؟".

وضعت يدها على كتفه وقالت: "أشعر أنك تحس بالضجر".

قال وهو يربت على يدها بشدة: "لا فائدة من هذا الآن؛ لكن تذكرى أنه يسعدنى أن أفعل أى شىء لكى فى أى وقت إذا غيرتِ رأيك...! تعالى، يا چان وودعيها".

أتت چان عبر النافذة وعانقت إيرين "لا تفكري فيه" قالت يهمس: "استمتعي بحياتك وليباركك الله!"

ذهبا صامتين بذكرى صورة الدموع في عيني إيرين والابتسامة على شفتيها، ومرًّا بالسيدة التي قاطعت اللقاء في الغرفة وهي تقلب أوراق الصحيفة التي تقرؤها على الطاولة أمام المعرض القومي تعجبت چان: "من هذه القوانين المفزعة!"

لكن چوليون لم يجب. كان لديه شيء ما من توازن والده وقدرته على رؤية الأشياء بدون تحيز أو تعصب حتى مع اهتياج مشاعره كانت إيرين على حق فقد كانت حالة سومز أسوأ بكثير من حالته، بالنسبة للقانون فقد اهتم بالطبيعة البشرية والتي استقى منها وجهة نظر غير مكتملة. وأحس أنه إذا ما ظل برفقة ابنته فسوف يرتكب عملا طائشا وأحمق، أخبر چوليون ابنته أنه يجب أن يلحق بالقطار العائد إلى أكسفورد، واستقل السيارة ووعدها أنه سوف يفكر في موضوع المعرض، لكنه فكر في إيرين بدلا من ذلك الموضوع، الشفقة، كما قالوا، تشبه الحب! ربما يكون معرضا لخطر الوقوع في حبها، لأنه أشفق عليها بشكل أعمق وهو يفكر فيها تجوب أنحاء أوروبا وحيدة!

"أتمنى أن يحفظها الرب! "فكر چوليون" ربما تيأس وبسهولة "وفي الحقيقة، هي الآن تحررت من قيودها، لم يستطع أن يتخيل كيف ستعيش.....

مخلوقة جميلة حقا، مسكينة ومطمع سهل لأى شخص!

انزعاجه هذا كان أكثر من الخوف والغيرة النساء يفعلن أشياء غريبة عندما يكن فى مأزق أتعجب، ماذا سيفعل سومز الآن!". فكر جوليون: "وضع سيئ جدا وسخيف! وأظن أنهم سيقولون إن ذلك خطؤها هي!" وهو مشغول البال ومتألم، استقل القطار، ونسى أين وضع تذكرته، وعلى الرصيف فى أكسفورد خلع قبعته لامرأة بدا يتذكر وجهها ولا يتذكر اسمها، ولا حتى عندما رآها تتناول الشاى فى "رين بو"

الفصل الرابع

حيث يخاف آل فورسايت

وهو يشعر بالارتعاد لخيبة أمله والعلبة الخضراء القطيفة لا تزال منبسطة فى جيبه فوق قلبه؛ دارت فى رأس سومز أفكار مرة مثل الموت. شبكة عنكبوت! كان يسير بسرعة وهو لا يرى شيئا فى ضوء القمر، استغرق فى التفكير فى الموقف الذى مر به، فى ذكريات استحواذه عليها فى قبضته، والشيء الذى فكر فيه طويلا، والذى أصبح على يقين منه هو أن هناك شخصًا ما فى حياة إيرين.... فكلماتها " أفضل الموت!" ستكون مثيرة للسخرية إذا لم يكن لديها حبيب حتى لو لم تكن تحبه أبدا، فإنها لم تشتكِ حتى ظهر بوسينى فى حياتهما. لقد سقطت فى الحب هل سقطت فى الحب مرة ثانية؟ أم أنها لم تقل هذه الإجابة المثيرة للأشجان والعواطف، إلا بسبب العرض الذى قدمه له وكان معقولا فى كل الظروف والأحوال! حسنا تلك أمور بسيطة.

"سوف أتخذ الإجراءات اللازمة لكى أعرف موقفى"، فكر:

"سوف أذهب إلى بولتيد غدا فى الصباح الباكر"، لكنه وهو يقترح هذا الحل، يعلم أنه يمكن أن يسبب المتاعب لنفسه. لقد تعامل

مع مكتب بولتيد مرات عديدة فيما يخص عمله بوصفه محاميًا، حتى إنه مؤخرا قد تعامل معه فى قضية دارتى، لكنه لم يفكر أبدا أن يستخدمهم لمراقبة زوجته.

لقد كان ذلك مهينا له!

قام سومز وهو يفكر فى هذا الموضوع.. أو بالأحرى بقى ساهرا، وبينما هو يحلق تذكر فجأة أنها عادت إلى لقبها قبل الزواج وهو هيرون. لن يعرف بولتيد، ولن يعرف أنها زوجته، يمكن أن يدعى أنها زوجة أحد عملائه، وهذا مناسب جدا بالنسبة له.... فهو محاميه الخاص.

لقد كان حريصا على أن ينفذ خطته عندما تحين اللحظة المناسبة، مخافة أن يفشل بعد كل هذا التخطيط. وطلب من وورمسون أن يحضر له فنجان قهوة، وخرج خلسة من المنزل قبل ساعة الإفطار. وسار بخطى سريعة إلى أحد الشوارع الصغيرة فى نهاية الغرب، حيث كانت شركة بولتيد وشركات أخرى مملوكة للطبقة العليا والأكثر ثراء.

حتى فترة قريبة كان سومز يقابل السيد بولتيد فى مزرعته، لكنه يعرف عنوانه جيدا ووصل إلى شركته ساعة فتحها. فى المكتب الخارجى، حجرة مفروشة بشكل جيد، واستقبلته فيها سيدة تشبه المعلمات فى المدارس.

– "أرغب في مقابلة السيد كلود بولتيد. أنه يعرفني... لا داعي لذكر اسمي"

حرص ألا يعرف أحد أنه السيد سومز فورسايت؛ حتى لا يدركوا أنه يتجسس على زوجته.

السيد كلود بولتيد... مختلف جدا عن السيد لويس بولتيد... كان أحد هؤلاء الرجال ذوي الشعر الأسود، أنفه متحنية قليلا، وعيون بنية، ملامح تميل لليهودية، وقد استقبل سومز في حجرة غطت حوائطها الستائر وأرضياتها، تمت تغطيتها بالسجاجيد، ولم يلاحظ أي وثيقة في أي مكان.

حيّاه السيد بولتيد بمغالاة في التبجيل والاحترام. ثم أدار المفتاح في الباب الوحيد بالغرفة بتباهٍ شديد

– "لو أرسل العميل في طلبي"، كان في العادة يقول ذلك "فإنه يأخذ الاحتياطات اللازمة التي يريدها، ولو أنه أتى بنفسه، فنحن نقنعه أنه بعدم وجود تواقص لدينا. يمكنني القول إننا نقوده إلى الاتجاه الصحيح بأمان..... الآن يا سيدي، ماذا يسعني أن أفعل لمساعدتك؟"

ارتفع حلق سومز حتى إنه كان يتكلم بصعوبة فقد كان من الضروري أن يقتنع هذا الرجل بأنه ليس لديه مشكلة، ربما يفشل، ومن دون تفكير ، ارتسمت ابتسامة مصطنعة على وجهه.

- "لقد أتيت لك باكرًا هكذا؛ لأنه ليس هناك ساعة لنضيعها، فربما نفشل إذا ضاعت هذه الساعة، هل لديك حقًا امرأة جديرة بالثقة وقادرة على التحرك بلا أى مصلحة سوى المصلحة المهنية".

فتح السيد بولتيد درج مكتبه والتقط مذكرة وألقى نظرة فيها ثم أقفل الدرج ثانية وقال: "نعم لدى المرأة ذاتها"

وضع سومز ساق على ساق على... تورد وجهه قليلا وربما كان هذا هو لون بشرته المعتاد

- "أرسلها على الفور، لمراقبة السيدة إيرين هيرون التى تقطن فى الشقة D فى الدور الأول. فى مساكن ترورو مانشينز، تشيلسى، حتى إشعار آخر.

"بدقة" قال السيد بولتيد "الطلاق أخمن" وانحنى على جهاز الصوت على مكتبه ليقول "السيدة بلونش تتفضل بالدخول؛ أريد أن أتحدث إليها مدة عشر دقائق".

قال سومز: "تعامل مع التقارير بنفسك، وأرسلها لى شخصيا، ضع عليها كلمة سرى مختومة ومسجلة، فموكلى حريص على السرية القصوى"

ابتسم السيد بولتيد، وهو يقول لنفسه: "وكأنك تنصح جدتك، عزيزى"؛ ونظر إلى وجه سومز بطريقة غير لائقة.

قال يطمئنه: "هل تود التدخين؟"

- "لا" قال سومز: "افهمنى جيدا، لابد ألا يعلم أحد بهذا الموضوع، فلو تسرب اسم أو شك أحدهم فى المراقبة، سوف يكون لذلك عواقب وخيمة".

أومأ السيد بولتيد برأسه: "يمكن أن أضع التقارير فى فئة لها شفرة سرية. بهذا الأسلوب لا نستخدم أسماء، بل نتعامل بالأرقام".

فتح درجًا آخر بالمفتاح والتقط قصاصتى ورق، كتب عليها ثم سلمها لـ سومز "احتفظ بهذه يا سيدى؛ إنه مفتاحك للشفرة، سوف أحتفظ بالنسخة الثانية سوف تسمى القضية 7x، الطرف الذى تتم مراقبته سيكون رقم ١٧، أما المراقب سيكون رقم ١٩، المساكن رقم ٢٥، أنت.... أقصد شركتك ستكون رقم ٣١؛ شركتى رقم ٣٢، وأنا، أما فى حالة اضطرارك أن تذكر عميلك بالكتابة، فأنا أسميه رقم ٤٣ح، أى شخص يشك فيه سوف يكون رقم ٤٧، أى شخص آخر رقم ٥١"

- "هل هناك أى تلميح أو تعليمات معينة ننفذها؟".

قال سومز: "لا، كل شيء على ما يرام".

للمرة الثانية أومأ السيد بولتيد رأسه. "التكاليف"

هز سومز كتفيه قائلا: "فى المعقول" أجاب إجابة جافة، ونهض "أجعل الأمر برمته بين يديك أنت".

فقال السيد بيولتيد "تماما"، ثم ظهر فجأة بين سومز والباب:

- "سوف أقابلك مرة أخرى لنتناقش في تلك القضية الأخرى. صباح سعيد" ونظر سومز نظرة لا تليق بآداب المهنة، وفتح الباب.

- "صباح سعيد" قال سومز-وهو لا ينظر يمينًا أو شمالا.

في الشارع، أقسم بشدة وبهدوء أن يقطع شبكة العنكبوت، ولكي يقطعها لابد أن يتم كل شيء في سرية-تامة. وباستخدام هذا الأسلوب غير الشريف والكريه بالنسبة لشخص اعتبر حياته الخاصة الجزء الأكثر قدسية في ثروته، لكن سبق السيف العزل. لا يمكنه التراجع الآن. ذهب إلى المزرعة واحتفظ بعلبة الماس ومفتاح الشفرة في مكان آمن غريب أن هذا الشخص الذي قضى عمره يحول أنظار العامة إلى المشاكل والاضطرابات الخاصة والشخصية للآخرين، غريب أن تتحول أنظار العامة إلى أمره الشخصي.

عمل سومز بجد طوال اليوم وكان من المفترض أن تأتى ويتفريد في الساعة الرابعة، حيث كانا سيذهبان إلى لقاء المجيد، وبينما هو ينتظرها أعاد قراءة الخطاب الذي جعله تكتبه في اليوم الذي غادر فيه دارتي وكانت تطالبه فيه بالعودة:

"عزيزي مونتاج"

لقد تسلمت خطابك وعلمت أنك تركتني للأبد وأنك في طريقك لبيونس أيريس، لقد كانت صدمة كبيرة بالنسبة لي ولقد انتهزت أول

فرصة لأكتب لك وأخبرك أننى مستعدة لأن أنسى الماضى لو عدت لى على الفور. أرجوك أن تعود؛ فأنا أشعر بالحزن جدا، أرسل إليك هذا الخطاب مسجلا بالعنوان الذى تركته فى ناديك، لو سمحت. أرسل لى تلغرافا".

"زوجتك المخلصة لك، ويني فريد دارتى"

يا له من نصاب شرير! لقد تذكر وينيفريد عندما كان يملى عليها ما كتبته فى الخطاب، وكيف أنها قالت وهى تلقى القلم

"فرضًا أنه عاد يا سومز!" وفى مثل هذه النغمة الغريبة من صوتها، كما لو أنها لم تكن تعرف ما تريد. وأجابها سومز:

"لن يأتى حتى ينفق ماله" وهذا ما يجعلنا نتصرف بسهولة وبدون تأخير". أرفق بهذه النسخة من الخطاب النسخة الأصلية التى كتبتها دراتى،

"وهو سكران فى نادى أيسيبوم. بدا سومز كما لو كان يسمع القاضى يقول "لقد أخذتما، الموضوع بجدية شديدة، بجدية شديدة لدرجة أنكما كتبتما له كما فعلتما! هل تعتقدون أنه قصد ذلك! لا بأس! كانت الحقيقة واضحة وهى أن دارتسى أبحر ولن يعود، بالإضافة إلى ذلك كونه لم يرسل برقية للرد الذى من المفترض أن يكون مستحيل أن أعود، دارتى" هز سومز رأسه وفكر: "أنه إذا لم يتم ترتيب الخطوات واتخاذها فإنه خلال الشهور القادمة، يمكن أن

يعود دارتى، مثل البنس الردىء ويتطلب ذلك أن تستغنى عن ألف جنيه فى السنة للتخلص منه ومن القلق الذى ربما يساور وينفريد حياله. "يجب أن نؤكد على عودة مسار الزواج". فكر سومز: "يجب أن نتابع الأمر باهتمام".

وينفريد التى انتابها نوع من الانتحاب الحفيف إلى أن أصبح صفة ملازمة لها وصلت إلى مكتب سومز، وسومز لم يرها فى المدينة منذ أن تقاعد والده عن العمل منذ خمس سنوات.

"الأيام تتغير" فكر سومز: "الزمن يتغير المرء لا يعرف ماذا سيحدث فيما بعد، حتى إن القبعات العالية فى تراجع الآن" سأل عن ڤال: فقالت وينفريد: "كتب لى أنه سوف يلعب البولو فى النصف الثانى من العام الدراسى" وكانت وينفريد مطمئنة لأنه فى حالة جيدة. أضافت تقول: "هل سيعرف أحد بشأنى، يا سومز؟ هل من الممكن أن يصل الموضوع إلى الجرائد؟ إنه شىء سيئ للغاية بالنسبة له وللبنات"

وهو يشعر بمصيبته التى كانت مكتملة بداخله، أجاب:

- "الصحافة فئة وصولية؛ فمن الصعب جدا أن تحتفظى بأى شىء بعيدا عنها، وهم يظنون أنهم يحرسون الأخلاقيات العامة، وهم يفسدونها بتقاريرهم المزعجة الكريهة، لكن الأمر لم يصل إلى هذا الحد بعد سوف نرى اليوم مستشار الزواج لتقديم طلب للمحكمة بالطبع يفهم أنه لكى يحصلوا

على الطلاق لابد أن تبدى قلقة من أجل دارتى، وأنِ تَـوَدِّي عودته... ربما عليكِ أن تتظاهرى بالقلق اليوم"

تنهدت وينفريد

- "أوه! مونتى هذا، يا له من مهرج!" قالت وينفريد.

نظر سومز إليها بحدة؛ فقد كان واضحا أمامه أنها لم تأخذ الموضوع بجدية، وسوف تتراجع إذا ما سنحت لها الفرصة. كانت غريزته قوية فى هذا الأمر من أوله فهو يحاول اجتناب فضيحة صغيرة لأخته وأولادها، والتى ستسبب لهم إهانة حقيقية وربما تدمرهم، إذا ما سُمِحَ لدارتى أن يعود إليهم.

لينفق المال الذى تركه جايمس لابنته. على الرغم من استقرار الأمور، فإن هذا الرجل يمكن أن يدمر استقرارهم ويجعل عائلته تدفع ما تملكه، لكى ينقذوه من الإفلاس أو ربما السجن!

نزلوا من العربة الأنيقة ذات الجياد الأنيقة أيضا، وساروا حتى مكتب المستشار فى "كراون أوفيس رو"

"السيد بلباى هنا، يا سيدى"، قال الموظف "المستشار سوف يحضر خلال عشر دقائق".

السيد بلباى الصغير... ليس صغيرا كما يبدو، ربما، فـ سومز يتعامل فقط مع المحامين الكبار ذوى السمعة المحترمة؛ شعر

بشىء من الغموض حول كيفية نجاح هؤلاء المحامين فى تأسيس سمعتهم القوية التى تجذب سومز وأمثاله إليهم.. كان السيد بلباى جالسا يلقى نظرة أخيرة فى أوراقه. لقد وصل من المحكمة وهو يضع الشعر المستعار على رأسه ويرتدى حُلة المحاماة التى تناسب أنفا بارزة مثل أنفه، وعيناه زرقاوان وصغيرتان وشفة سفلى كبيرة وبارزة... ليس هناك شخص أفضل يؤمن لهم مستشار زواج.

كانت المقدمة رائعة وبارعة بالنسبة لـ وينفريد، ثم غيروا الموضوع وتحدثوا عن الحرب

قاطعه سومز فجأة:

"لو أنه لم يستجب، فلا يمكننا أن نتقدم فى الإجراءات قبل ستة أشهر أريد أن نستمر فى الإجراءات".

ابتسم السيد بلباى الذى كان يظهر فى لهجته روح اللهجة الأيرلندية لـ وينفريد وتمتم: "القانون يأخذ وقته لإتمام الإجراءات، يا مدام دارتى"

- "ستة أشهر! "كررها سومز؛ سوف تنتظر حتى يونيو! لن نبدأ فى القضية حتى بعد الإجازة الطويلة، يجب أن نبدأ يا بلباى"....

- "السيد المستشار سوف يراك الآن يا سيدى"

اصطفوا جميعا بحيث يدخل السيد بلباى أولا، وثم يدخل سومز ومعه وينفريد بعد فتره فاصلة عبارة عن دقيقة واحدة بساعته.

كان الرجل يرتدى روب المحاماة، ولكنه لم يكن يرتدى الشعر المستعار، وكان يقف أمام الموقد. له أنف كبيرة وفوقها النظارة وله شعر رمادى قليلا على جانبي وجهه وشفته السفلى صغيرة أعطت صوته نبرة مكتومة كان له أسلوب مميز فى التحاور مع العملاء؛ حيث كان يلتفت فجأة إلى الشخص الذى يتحدث معه مع عادة الزمجرة التى تسبق كلامه، وقد كان يراجع مع السيد بلباى الأحداث والحقائق الخاصة بالقضية ثم زمجر قائلا:

- "أعرف كل هذا"، والتفت إلى وينفريد وحام حولها، وقال بصوت مكتوم:

"نريد أن نعيده، أليس كذلك يا مدام دارتى؟".

قال سومز بحدة: "إن وضع أختى طبعًا لا يمكن احتماله"

زمجر الرجل: "بالضبط. الآن هل يمكننا الاعتماد على الرفض تلغرافيًا، أم هل يجب الانتظار إلى ما بعد عيد الميلاد المجيد، لكى نعطيه فرصة أن يرسل الرد مكتوبًا، هذه هى النقطة المهمة. أليس كذلك؟".

قال سومز: "الأسرع".

- "ما رأيك يا بلباى؟". قال الرجل وهو يحوم حوله.

تنفس السيد بلباى الصعداء ككلب صيد.

- "ولن تبدأ حتى منتصف ديسمبر. نحن لا نحتاج أن نعطيه مهلة أكثر من ذلك"

قال سومز: "لا، لماذا يجب على أختى أن تكون مرهونة باختياره أن يرحل...."

"إلى جيريكو!" قال الرجل مرة ثانية، وهو يدور حوله: "يجب ألا يذهب الناس إلى جيريكو، أليس كذلك، يا مدام دارتى؟"

- "أوافق، يمكننا أن نتقدم فى الإجراءات. هل هناك شىء آخر؟"

- "لا شىء فى الوقت الحاضر" قال سومز: "أردتك أن ترى أختى"

زمجر الرجل قليلا: "أسعدنى لقاؤكم، وعمتم مساءً!"

اصطفوا خارجين من الغرفة، نزلت وينفريد السلم وتلكأ سومز، فعلى الرغم من كل شىء تأثر بالرجل وبطريقته.

قال سومز لبلباى: "الدليل جاهز الآن، أعتقد ذلك، إذا لم نحصل على ما نريد بسرعة فإننا فى الغالب لن نستطيع أن نحصل عليه. هل تعتقد أنه يفهم ذلك؟"

قال بلباى: "سوف أفهمه كل شىء، إنه رجل جيد، على الرغم من كل شىء رجل جيد"، أومأ سومز برأسه وأسرع خلف أخته، وقد

وجدها تقف فى الهواء، تعض على شفتيها خلف الوشاح وقال على الفور: "ستكون الحجة كافية تماما".

ثم تجمد وجه وينفريد؛ وذهبا إلى العربة. وساد الصمت فى طريق العودة إلى شارع جرين

حيث دارت فى رأسهما فكرة واحدة: "لماذا، لم يجب أن أعرض سوء حظى على الناس هكذا؟ لماذا أضطر لاستخدام جواسيس لكى يدققوا فى مشاكلى الخاصة؟ لم أكن السبب فى هذا على الإطلاق".

الفصل الخامس

چولى يقرر

غريزة التملك، التى فشلت دائما؛ كانت تحفز فردين من عائلة فورسايت على التخلص مما لم يعودا يمتلكانه، فقد كانت تزداد صلابة كل يوم فى المجتمع البريطانى، وكان نيكولاس دائم لقلق بخصوص الحرب التى ستؤثر على الأملاك، وقد سمع يقول: "إن هؤلاء البوير خنازير؛ يتسببون فى خسائر وتكاليف كبيرة، وكلما لقنوا الدرس سريعًا، كلما كان أفضل".

وكان يرسل ليزلى للخارج ليستطلع الأخبار، فيعرف أكثر مما يعرفه البقية، حتى إنه يعتبر أكثر أفراد عائلة فورسايت ثروة، أدرك بأن بولر لم يكن الرجل المناسب، وأنه بدأ يتصرف كالثور الهائج، وإذا لم يأخذوا حذرهم فسوف تسقط ليدى سميث.

وفى أوائل ديسمبر عندما مروا بأسبوع أسود، كان يقول:

"أخبرتكم بذلك "

ففى أثناء هذا الأسبوع المملوء بالأحداث الحزينة والمشؤومة، والذى لا يتذكره أحد من عائلة فورسايت، كان الشاب نيكولاس قد

حضر العديد من التدريبات العسكرية فى الجيش، وكان نيكولاس قد استشار طبيب العائلة فى حالة ابنه الصحية وفزع كثيرا عندما اكتشف أن ابنه سليم تماما، وكان الولد قد قبل فى هيئة المحامين، وكان يشكل كابوسا بالنسبة لوالديه، لأنه ربما فى الوقت الذى تقوم فيه الحرب يلتحق ولدهما بالخدمة العسكرية وقد تأفف جده من هذه الفكرة حيث يعتقد أن الحروب البريطانية قليلة، ولكن احترافية وقوية.

فى أكسفورد على الرغم من ذلك كان هناك رأى آخر أخذ فى الصعود، سادت مشاعر الحماس المتأصلة فى مجموعة الشباب خلال شهرى نصف العام الدراسى قبل الأسبوع الأسود، وكان حماسهم هذا قد تبلور فى معارضات واحتجاجات وكان الاتجاه المحافظ فى إنجلترا على الرغم من عدم أخذ الأشياء على محمل من الجد، عنيفا جدا ومتحمسا للقضاء على البوير. وقد كان ڤال دارتى عضوًا بشكل تلقائى فى هذه العصبة السياسية الأوضح انتشارا. ومن ناحية آخرى كان ينتمى للاتجاه الراديكالى قليل العدد، ولكن ربما أكثر صراحة وجرأة وأعلى صوتا، فقد كانوا ينادون بوقف الحرب وإعطاء البوير الحكم الذاتى وحتى الأسبوع الأسود، كانت التجمعات بدون مظهر محدد، بدون احتكاكات وتوترات وبقيت المجادلة والمناقشة بشكل أكاديمى. وكان چولى أحد هؤلاء الذين لم يعرفوا أين يقفوا، فمسحة من حب جده الجد چوليون للعدالة والإنصاف منعته من النظر إلى جانب واحد فقط والتحيز إليه دون تفكير، والأكثر من هذا أنه فى

مجموعته الخاصة والتى تدعى الأفضل كانت هناك أفكار تقدمية، وكان چولى مترددا، والده أيضا بدا مرتابا فى وجهات نظره، وعلى الرغم من كونه سلوكًا طبيعيًا لشاب فى سن العشرين، فقد أبقى عينيه على أبيه، ليراقب العيوب التى مازالت تعالج، وقد كان لدى والده أسلوب أعطى نوعا من الرونق لإيمانه بالتسامح الساخر. الفنانون كانوا مثل هاملت(*)، ولهذا الحد، يجب على المرء أن يسقط والده من حساباته هو؛ حتى إذا كان يحبه. أصالة چوليون، إذا وجدت أو لم توجد، فإنها تعتبر عامل جذب لابنه الذى كان يؤمن بالأصالة والنبل. من ناحية أخرى لم يستطع چولى أن يطيع وضعه غريب الأطوار، ووضع ڤال المزهو بنفسه؛ لذلك كان يحاول من أجل أن يتزن ويعتدل عندما دقت ساعة الأسبوع الأسود. واحد... اثنان... ثلاثة، جاءت ردود الفعل المشؤومة فى ستورمبورج، ماجيرسفونتين، كوليزو، حيث استجابت الشخصية الإنجليزية العنيفة للثورة، حيث كان هناك جانب يشجع الحرب وجانب آخر يدعو لوقف الحرب. وتصدعت الأمور. وقال چولى لنفسه:

- "لا! اللعنة! يجب أن نضرب بعنف الشحاذين الآن؛ لا يهمنى ما إذا كنا على خطأ أم على صواب!"

وإن كان يدرى، فإن والده كان يفكر هكذا أيضا!

(*) يقصد أهم كانوا مترددين، كما كانت الشخصية الشكسبيرية الأشهر.

الأحد التالى فى نهاية نصف العام الدراسى، حانت الفرصة لـ چولى أن يشرب مع واحد من هؤلاء الذين يعتبرون الأفضل. بعد النخب الثانى صاح:

- "اللعنة على البوير"

ثملاً وبكأس فارغة من الخمر البرغندية، لاحظ أن ڤال دارتى أيضا كان ضيفا هناك، كان ينظر إليه بابتسامة وقال شيئًا للشخص الذى يجلس بجواره كان چولى على يقين أنه كان يقول شيئًا عنه. چولى الذى لا يحب التفاخر ولا يسبب الإزعاج للناس، قد احمر وجهه وأغلق فمه وقد زاد إحساسًا بالعداء الغريب تجاه....ابن عمه: "حسنا!" فَكَّرَ، "انتظر، ياصديقى" الكثير من النبيذ كان جيدًا له، كما جرت العادة، ساعده أن يتذكر عندما التقيا فى الخارج فى بقعة منعزلة؛ أمسك ذراع ڤال" قائلا:

- "ماذا قلت عنى هناك؟".

- "أليس لى الحق فى أن أقول ما أريد؟"

- "لا"

- "حسنا، لقد قلت أنك من أنصار البوير، وهكذا أنت".

- "أنت كذاب!"

- "هل تريد الشجار؟!"

- "بالطبع، لكن ليس هنا، فى الحديقة!"

- "حسناء هيا"

سارا، كل منهما يمعن النظر فى الآخر، متسائلين، متـرنحين، عازمين على الشجار، وتسلق أسوار الحديقة، وقد مزقت المـساميرالشائكة قميص فال، وقد ضايقه ذلك، وكان رأس چـولي مـشغولا بفكرة أنهما كانا سيتقاتلان فى منطقة خاصة بجامعة غريبـة علـى كليهما، لكن لا بأس مع هذا الفتى البشع!

سارا فوق العشب فى الظلام الدامس تقريبا وخلعا معطفيهما.

"أنت خائف؛ أليس كذلك؟". قال چولى فجـأة: "لا يمكننـى أن أقاتلك إذا كنت خائفا"

- "ليس أكثر منك"

بدون أن يصافحا بعضهما، وضع كل منهما نفـسه فـى وضـع الدفاع. لقد أسرفا كثيرا فى الشراب وكان كل منهما أيضا حريص علـى اتخاذ الوضع الصحيح حتى لكم چولي فال على أنفه بشكل مفاجئ.

كانت الدنيا مظلمة وهناك شيء ما مزعج في الظلال العميقـة للأشجار الكبيرة، ثم فضَّا الاشتباك وترنحا للـوراء. عنـدما سـمعا صوتا يقول:

- "على رسلكم أيها الشباب النبلاء، أسميكما أيها الشابان".

مع هذا الاستفسار القادم من تحت المصباح عند بوابة الحديقة، مثّل استجوابًا من الرب، فقدا أعصابهما، ثم خطفا معطفيهما، وجريا بسرعة إلى الأسوار الحديدية وعبراها ثم ذهبا إلى المنطقة المنعزلة التى وقفا فيها أخيرا قبل أن يذهبا للمشاجرة. هنا فى الضوء الخافت مسحا وجهيهما ومشيا فى صمت عشر خطوات حتى بوابة الكلية، وكان ڤال يسير باتجاه شارع فى محاذاة مصنع الجعة، أما چولى فقد نزل إلى الممر باتجاه هاى إستريت وكانت رأسه مازالت مشغولة، مشغولة بالندم على أنه لم يظهر براعة أكثر فى القتال، مستعرضا الكلمات ويصد الضربات التى يستلمها. وقد ضل عقله وتاه فى معركة خيالية، مختلفة عن تلك التى مر بها، تخيل نفسه جسورا يحارب بالسيف والزنار كأنه أحد أبطال روايات معشوقه "دوماس"، فقد تخيل نفسه "لامول"، "بوسى"، "شيكوت"، ودارتانيان مجتمعين فى شخص واحد، لكنه فشل أن يتخيل ڤال مثل "كوكوناس"، "برياك" أو "روشيفورت" فهو مجرد ابن عم بغيض ولعين، لكن لا بأس فقد نعته مرتين بنصير البوير.

كانت الكلمات "نصير البوير" مازالت تحز فى نفسه، ولكن لا بأس فقد أوسعه ضربا، ثارت فى عقله فكرة الالتحاق بالجيش، وركوب الخيل وإطلاق النار ببراعة بينما يهرب البوير كالأرانب، وهو يحرك عينيه الحاذقتين؛ رأى النجوم تلمع بين قمم البيوت فى "هاى إستريت"، وتخيل نفسه مستلقيا فى أى مكان وملفوفا فى بطانية ومعه بندقية مجهزة، ويحدق فى السماء المتلألئة.

كان ضغطه مرتفعا جدا فى صباح اليوم التالى، ولذلك وضع رأسه فى ماء بارد بعد أن صنع لنفسه فنجان قهوة سادة الذى لم يتمكن من احتسائه، ورشف القليل من النبيذ الألمانى على الغداء. فكرة أن أحد المخبولين قد هاجمه عند أحد المنعطفات بدت مبررًا جيدًا للكدمات على وجنتيه، فلن يذكر أبدا أى شىء عن المشاجرة لكى لا تحط من مستواه الاجتماعى.

فى اليوم التالى سافر إلى روبين هيل، لم يكن أحد هناك سوى چان وهولى حيث كان والده قد سافر إلى باريس. وقد قضى إجازة غير مستقرة وغير مريحة، وغير متواصلٍ مع أختيه، حيث كانت چان مشغولة بالمساكين الذين تساعدهم، ولم يطقهم چولى، خاصة إيريك كوبلى وعائلته، "أشخاص غرباء مساكين"؛ والذين كانوا دائما ينثرون المهملات فى البيت أثناء إجازته، أما هولى فقد كان بينهما انشقاق مريب، كما لو كانت بدأت فى أن يكون لديها آراؤها الخاصة التى كانت... غير ضرورية. ركب الخيل وحده فى منتزه "ريتشموند بارك"، جاعلاً هدفه قفز الحواجز التى كانت قريبة من العشب. وكان قلقًا من أن يكون خائفًا أكثر من معظم الأولاد. وقد اشترى بندقية أيضا، وجعل من البيت ميدان للرماية، مصوبًا عبر البركة على حائط حديقة المطبخ، ومفسدًا الكثير من عمل البستانيين، ومعتقدًا أنه سوف يلتحق بالجيش ويحمى جنوب أفريقيا كمستعمرة فى قبضة بلاده. فى الحقيقة؛ الآن وهم يقدمون الطلبات للالتحاق بالجيش، كان الولد حائرا تماما. هل يجب عليه أن يلتحق؟ لم يقدم على هذا أى من

مجموعة الأفضل كما يعرف، ولكن كان هناك شباب كثيرون ممن يعرفهم يودون الالتحاق بالجيش. ولو أنهم اتخذوا خطوة في هذا الاتجاه، فإنه سوف يلتحق هو الآخر على لفور... بحماس شديد، فهو لا يتحمل أن يبقى وحده في الصف الأخير في أي شيء... لكن أن يفعل هذا بمفرده، وربما يبدو مختالا، لأنه بالفعل ليس من الضرورى أن يفعل هذا. إلى جانب ذلك، فهو لا يرغب في الذهاب، لأنه بالنسبة للجانب الآخر من شباب عائلة فورسايت الذين تراجعوا عن الفكرة؛ كانت الأفكار مختلطة ومتقابلة بداخله، وقد أصبح على عكس طبيعته الهادئة والمترفعة.

وفى يوم ما رأى ما أثار الغضب بداخله بشدة... اثنين يركبان الخيل، في ساحة المتنزه وقريبين من بوابة هام، وكانت هى على شماله، إنها هولى تركب حصانها الفضى، وهو على اليمين، إنه ڤال دارتى الفظ. كانت رغبته الأولى أن يسرع إليهما ويسأل عن مبرر وجوده مع أخته، ويطلب من ڤال أن يرحل ويأخذ هولى إلى البيت. لكنه رأى أنه سيظهر بمظهر الأحمق أمامهما لو أنهما رفضا ما يقوله.

كبح جماح حصانه خلف شجرة وأدرك أنه من المستحيل أن يراقبهما، ولا شيء أمامه سوى الذهاب إلى البيت وانتظار عودتها! هى التي تتسلل للخروج مع هذا الوغد الشاب! لا يمكنه أن يتشاور مع چان فى هذا الأمر، لأنها ذهبت هذا الصباح لتوصل إيريك كوبلى

وعائلته إلى القطار، ووالده مازال فى باريس؛ تلك المدينة العفنة شعر أن هذه إحدى اللحظات التى درب نفسه على التعامل معها، مجتهدا فى المدرسة، حيث كان هو وولد يسمى "برنت" يشعلان النار فى الصحف القديمة ويضعانها فى منتصف غرف دراستيهما لكى يعتادا على التصرف بهدوء فى لحظات الخطر. لم يشعر بالملل وهو ينتظرها فى ساحة الإسطبل، حيث كان يداعب الكلب بالثازار، الذى يرقد كراهب عجوز ممتلئ الجسم، وحزين لغياب سيده، حوّل وجهه، لاهثا بنوع من العرفان بالجميل لهذه العناية به. مرت نصف ساعة قبل أن تأتى هولى، متوردة وأجمل كثيرا من أى وقت مضى، ورآها تنظر إليه بسرعة ... تشعر بالذنب بالطبع ... ثم تبعته إلى الداخل، وأخذها من ذراعها إلى داخل مكتب جدها، لم تعد الحجرة تستخدم كثيرا الآن، ولكن لا تزال يتم التردد عليها من قبلهم هما الاثنين لإحساسهم بأنها تحوى بين جنباتها ذكريات جميلة لجدهم، حنانه، وشاربه الأبيض الكبير، ورائحة السجائر التى كان يدخنها وضحكاته.

هنا، جولى الشاب، فى أوج شبابه، قبل أن يذهب إلى المدرسة، كان قد اعتاد على أن يصارع جده الذى كان فى الثمانين من العمر ويلعب معه، وعلى الرغم من هذا؛ كان يحافظ على عادة لا تقاوم بالنسبة له، وهى أن يضع ساقًا على ساق عندما يجلس. وهنا أيضا كانت هولى تجلس على مرفق الكرسى الكبير

المصنوع من الجلد وتداعب شعره المتدلى على الأذن؛ التـــى كانـــت دائما تهمس فيها بأسرارها.

وخلال هذه النافذة كانوا هم الثلاثة ينـــدفعون خـــارجين مـــرات عديدة؛ لكى يلعبوا الكريكيت على الأرض المزروعة بالعـــشب ولعبـــة أخرى غريبة تدعى ويسبى دوزل، لا يستطيع فهمها الغربـــاء، كانـــت ترهق الجد چوليون كثيرًا. هنا، ذات مرة فى ليلة دافئة، ظهرت هـــولى فى ملابس النوم، تحلم بكابوس، وبدأ چولى يومه هنا بطريقة سيئة حيث وضع فوار الماغنيسيوم فى طعام الآنسة بيوس، وساءت الأمور بـــشدة، عندما استرسل فى غياب والده فى المحادثة التالية:

- "الآن يا ولدى، يجب ألا تستمر فى فعل هذه الأشياء"
- "حسنا، لقد لكمتنى على أذنى يا جدى، لذلك لكمتها أيضا، ثم لكمتنى ثانية"
- "مهاجمة سيدة؟! إن هذا لا يجوز أبدا، هل اعتذرت لها؟"
- "ليس بعد"
- "إذن يجب أن تذهب وتعتذر لها على الفور. هيا اذهب"
- "لكنها هى من بدأت، يا جدى؛ وقد ضايقتنى مرتين أما أنـــا فضايقتها مرة واحدة فقط"

- "عزيزى، ما فعلته كان سيئا جدا"
- "حسنا، لقد فقدت أعصابها، ولم أفقد أعصابى"
- "هيا اذهب"
- "تعال أنت أيضا، يا جدى"
- "حسنا... هذه المرة فقط"

وذهبا يدا فى يد.

هنا، حيث روايات ويفرلى وأعمال بايرون، و"الإمبراطورية الرومانية"، لـ جيبسون و"الكون" لـ هامبولدت وغيرها من الأعمال الفنية الرائعة، وتماثيل من البرونز على حافة الموقد وتلك الرائعة التى تنتمى للمدرسة الزيتية" "قوارب الصيد الهولندية فى وقت الغروب!" الثابتة مثل القدر، وفى الماضى كان چوليون الجد بجبهته العريضة يجلس هناك فى سكون، يضع قدمًا على قدم، على الكرسى الكبير المصنوع من الجلد، ويحدق بشدة فى جريدة التايمز البريطانية. إلى هذا المكان أتى هذان الحفيدان، وقال چولى:

- "لقد رأيتكِ أنت وذلك الفتى فى المتنزه"

رؤية الدم يندفع فى وجنتيها أعطته بعض الرضا؛ لا بد أنها تشعر بالخجل!

قالت: "حسناً"

فوجئ چولى؛ فلم يتوقع ذلك، وقال:

- "هل تعرفين أنه أهاننى وقال إننى من أنصار البوير، فى النصف الأخير من العام الدراسى؟ وأننا تعاركنا"

- "من فاز؟".

تمنى چولى لو أنه يقول أنا الفائز! لكن لم يستطع

قال:

- "ماذا يعنى ذلك، دون إخبار أى أحد".

- "ولم لا، أبى ليس هنا، لم لا أركب معه الخيل".

- "يمكنكِ أن تركبى الخيل معى. أرى أنه شاب بشع"

صار وجه هولى شاحبا من الغضب.

- "إنه ليس كذلك. إنه خطؤك لأنك لا تحبه!"

ومرت من أمام أخيها وخرجت، تاركة إياه يحدق فى تمثال "فينوس" البرونزى تجلس على سلحفاة، والذى لم يكن يراه بسبب رأس أخته الأسود تحت قبعة ركوب الخيل الرقيقة.

شعر چولى بانزعاج غريب، واهتزاز فى مبادئه الشابة، وشعر، كأن الهيمنة التى كان يشعر بها طوال حياته قد تحطمت

وتبعثرت عند قدميه. ثم سار إلى تمثال فينوس وتحسس السلحفاة بدون تفكير.

لما لم يحب ڤال دارتى؟ لم يعرف. كان يجهل تاريخ العائلة، ولكنه كان على وعى بوجود خصومة غامضة بدأت منذ ثلاثة عشر عامًا، عندما ترك بوسينى چان من أجل زوجة سومز، ولا يعرف حقيقة أى شيء عن ڤال، فقد كان فى البحر، هو فقط لا يحبه، ومع ذلك ما الذى يجب عليه أن يفعله، وڤال دارتى، من أبناء عمومة الوالدين بالنسبة لهما، ولكن هذا لا يجعل هولى تخرج معه وعلى الرغم من هذا لم يكن ليخبر أحدًا بما رآه صدفة، لأن هذا كان ضد عقيدته ومبادئه. شاعرًا بورطة؛ ذهب وجلس فى الفوتيه الجلد ووضع ساقًا على ساق، ساد الظلام بينما كان يجلس هناك يحدق خلال النافذة فى شجرة البلوط الجدة، والأوراق التى تفترش الأرض. والتى أصبحت ببطء مجرد شكل مظلم قاتم تبع على الغسق.

"جدى!". كان يفكر بلا تركيز وخلع ساعته لم يستطع أن يرى عقارب الساعة، ولكن الساعة الدقاقة كانت تشير إلى الخامسة، أول ساعة ذهبية يمتلكها جده، تصقل وتزداد قيمة كلما تقدم بها العمر. كان صوت دقات الساعة يبدو كصوت صغير يخرج من ذلك العصر الذهبى، عندما أتوا أول مرة من جونزوود لندن، إلى هذا البيت... أتوا مع جدهم فى عربته التى يجرها حصان، وجذبته تلك الأشجار حيث كان يتسلقها، بينما يسقى جده نباتات الجيرانيوم! ماذا يجب على

أن أفعل؟ أخبر والدى أنه يجب أن يعود إلى البيت؟ أم أخبر چان؟ هى فقط مندفعة أم لا أفعل شيئا وأترك الأمور للحظ؟ بعد كل هذا عندما تنتهى الإجازة سوف أذهب وأرى ڤال وأحذره وأطلب منه الابتعاد عنها؟ لكن كيف أحصل على عنوانه؟ لن تعطينى هولى إياه! متاهة من الطرق وسحابة من الاحتمالات. أشعل سيجارة وهو يفكر، وعندما دخنها ارتخت جبهته كأن يدًا نحيلة وعجوزة مرت عليها بلطف؛ وسمع صوتًا يهمس فى أذنيه:

- "لا تفعل شيئًا؛ فقط كن لطيفا مع هولى، كن لطيفا معها، يا عزيزى!!" وتنفس چولى الصعداء راضيا عن هذه الفكرة، ونفث الدخان من أنفه......

لكن فى حجرتها فى الطابق العلوى، على غير عادتها، كانت هولى عابسة

- "هو ليس كذلك....هو ليس كذلك!"

كانت هذه الكلمات لا تزال على شفتيها.

الفصل السادس

چوليون بين رأيين

كان چوليون يقيم فى فندق صغير فوق مطعم شهير بـالقرب من شارع جير ليزير فى باريس خاف أن يقابل أحد أفـراد عائلـة فورسايت فى الخارج فهم مثل سمكة خارج المياه، فهم يتجولون فـى أنحاء باريس: فى الأوبرا، رود ريفولى، ومولان روج. ميلهم للسفر إلى هناك، ميلهم إلى تغير المكان كلما استطاعوا وحَسْبْ، قد ضـايقه كثيرا. لكن لحسن الحظ لم يقترب فرد أخر من ال فورسـايت مـن مسكنه؛ حيث كان لديه موقد يحرق فيه الخشب لتدفئة غرفـة نومـه وكانت القهوة ممتازة لقذ كانت باريس جذابة أكثر بالنـسبة لـه فـى الشتاء، النكهة التى تنبعث من الغابات ومجامر القسطل، وحِدَّة أشـعة الشمس الساطعة فى الشتاء، المقاهى المفتوحة فى تحدٍّ لبرودة الشتاء القارصة، والازدحام فى شوارع باريس؛ كل هذا جعله يشعر أنه فى الشتاء يمتلك روحًا تشبه طائرًا، يطير بعيدًا فى هجرة الصيف.

لقد تحدث الفرنسية بطلاقة، كان لديه بعـض الأصـدقاء، وعـرف القليل من الأماكن التى تقدم أطباقًا شهية. وأنـواع غريبـة أيـضا، شـعر بفلسفتـه فى باريس، وازدادت حدة السخرية لديه؛ فقد عـاش حياتـه بـلا هدف، وبركود، أصبح كضرب من الظلام به بعض ومضات من الضوء.

في الأسبوع الأول من ديسمبر، قرر الذهاب إلى باريس؛ كان بعيدا عن الأعتراف بأن وجود إيرين في حياته كان يؤثر فيه، لم يكن هكذا قبل يومين من سفره عندما تملكته رغبة قوية في رؤيتهــا، وأن هذا هو سبب سفره تقريبًا. في إنجلترا لم يعترف المــرء بمــا كــان طبيعيا. ورأى أنه من الأفضل أن يراها ويتحدث إليها عــن تــأجير شقتها وموضوعات أخرى، لكن في باريس عــرف الأفــضل علـــى الفور. كان هناك سحر ورونق يهيمن على المدينة. وفي اليوم الثالث كتب إليها، واستقبل الإجابة على خطابه الذي أصابه بالسعادة:

"عزيزي چوليون"

يسعدني كثيرا أن أراك.

"إيرين"

ذهب إلى الفندق الذي تقيم فيه، في يوم ســاطع، فــي داخلــه إحساس كان عادة ما يشعر به؛ عندما يذهب لمشاهدة لوحة يعــشقها. كما تذكر "أنه لم تستطع امرأة من قبل أن تلهمه بهذا الحس الجمــالي واللاذاتي. كان سيجلس ويمتع عينيه، كان هذا شعوره عندما أتت إليه في البهو الصغير والمنسق للفندق الهادئ القريب من النهر، وكان قد سبقها خادم صغير يقول، "مدام" حين أوصلها إلى موضوع چوليــون ثم اختفى. كانت ملامح وجهها وابتسامتها، ورشاقتها كما رآها بعــين الخيال، كانت تعبيرات وجهها تقول: "صديق!"

قال: "حسنا، ماأخبارك فى المنفى؟"

- "لا جديد"
- "لا شىء من سومز؟"
- "لا شىء":
- "لقد أجرت شقتك، وكخادم أمين أحضرت لكِ بعض المال. ما رأيكِ فى باريس؟"

بينما كان يقول ذلك، بدا له أنه لم ير شفاهًا رائعة ورقيقة مثل شفتيها من قبل، الشفة السفلى مضمومة قليلا لأعلى، أما الشفة العلوية فقد صنعت من جانب واحد نغزة رقيقة. كان من الصعب عليها أن تبقى وحدها فى باريس؛ فباريس لها أسلوب حياتها الخاص، ولكنها اعترفت أنها ليست ضارة مثل الصحراء فلا يوجد بها شىء بالإضافة إلى ذلك لم يكن الإنجليز محبوبين الآن

قال چوليون: "تلك هى قضيتك، فيجب أن تقتربى من الفرنسيين"

- "هذا له أضراره"

أومأ چوليون برأسه

"حسنا"، اسمحى لى أن آخذك فى نزهة، أثناء تواجدى. "سوف نبدأ غدا. تعالى وتناولى العشاء معى فى المطعم، وسوف نذهب إلى أوبرا كوميك"

كان هذا اللقاء بداية اللقاءات اليومية، التي كانوا يقومون بها.

اكتشف چوليون فى الحال، أنه بالنسبة لهؤلاء الذين يرغبون فى حالة عاطفية مستقرة كانت باريس أول وآخر مكان يُقْضَى به وقتًا لطيفًا مع امرأة جميلة.

كان الوحى والإلهام ينزلان من قلبه كطائر مغرد: أحيانا بدا ذلك طبيعيا، أحيانا سخيفًا ومضحكًا... حالة سيئة من النشوة الطاعنة فى السن. منبوذا من المجتمع، لم يشعر هكذا منذ أصبح يأخذ بعين الاعتبار القواعد السلوكية والأخلاقية، ثم أن فكرة الحب والتى لن تستطيع هى أن تستعيد الشعور به، وكيف لها هذا مع شخص فى مثل سنه.

كان يشعر أيضا بالقلق الشديد، للضياع والوحدة التى تملأ حياتها، وأدرك كم تكون سعيدة وهادئة النفس خلال جولاتهم القصيرة، لذلك كان حريصا بشدة على ألا يقول أو يفعل شيئا يدمر هذه السعادة. كان ذلك مثل مراقبة نبات متعطش يشرب الماء، فهو يراها تروى ظمأ نفسها فى صحبته. وبما أنه لا أحد يعلم عنوانها سواه كانت غير معروفة فى باريس، لكنه معروف قليلا، لذلك بدا لهما من غير الضرورى أن يحسنا التصرف فى مشيتهما، فى حديثهما، فى زياراتهما للحفلات الموسيقية، معارض اللوحات، المسارح وتناول العشاء معا، ورحلاتهما الاستكشافية لفيرسيلز، كلود، حتى فونتانيلو، ومر زمن أحد هذه الشهور الطويلة التى عاشها دون أن يفكرا فى ماضٍ أو مستقبل ما. كان فى شبابه متهور

العاطفة، لكنه الآن عميق الإحساس وأكثر رقة، وكانت هذه الصحبة الحمائية يرافقها الإعجاب والإحساس بالشهامة، ولا ينتظر من ورائها شيء سوى إسعادها.

كانت تبدو جميلة بالنسبة له سواء من الناحية المادية أو الروحية فقد كانت فلسفتها فى الحياة تتوافق مع فلسفته، فلسفة متعلقة بالعواطف والمشاعر أكثر من المادة، وكانت متسامحة ومرهفة الشعور، وخلال هذا الشهر، لم يفقد أبدا ذلك الإحساس الذى لازمه منذ اليوم الأول؛ كأنه وهب لمشاهدة عمل فنى جميل. رغبة مجهولة قوية. المستقبل قاس بالنسبة للحاضر الذى حرص على ألا يواجهه حتى لا يُضيِّع تلك اللحظات الهادئة؛ لكنه قام بوضع خطط لتجديد هذه اللحظات فى أماكن أخرى أكثر جمالا وبهجة، حيث تكون الشمس دافئة ويكون هناك أشياء غريبة يشاهدانها ويقومان برسمها؛ لكن النهاية جاءتْ سريعة فى العشرين من يناير حيث وصله تلغراف يقول.

أصبحت مجندًا فى الحرس الوطنى للإمبراطورية

جولى

استلم چوليون التلغراف؛ بالضبط حينما كان يجول فى الخارج ليقابلها فى متحف اللوفر وجال فى خاطره أن يعود، فبينما يعيش هو هنا بتراخٍ، اتخذ ابنه هذه الخطوة الكبيرة باتجاه الخطر، المشقة، ربما حتى الموت. شعر بالانزعاج والقلق الشديدين، وأدرك فجأة كيف أن

إيرين تملكت كيانه وسيطرت علـــى مـــشاعره وأدرك چوليــون أن استمتاعهم بالأشياء بهدوء قد ذهب للأبد، ورأى أن إحساسه بالافتتان هذا شيء سخيف ومضحك. ربما، لكن فى الحقيقة أنه آجلا أو عاجلا سوف يكشف نفسه، والآن بدا له، أنه لا يمكن بل يجــب ألا يكــشف عن تلك المشاعر، فأخبار جولى وقفت عقبة فى طريق ذلك؛ فقد كان مفتخرا بابنه والتحاقه بالجيش دفاعًا عن الوطن، مفتخرًا بــ چــولى "نصير البوير" فالأسبوع الأسود قد ترك آثــارًا، لا يمكنه أن يفعــل ذلك ويكشف عن تلك المشاعر وبهذا جاءت النهايـــة قبــل البدايـــة! حسنا، لحسن الحظ لم يصدر عنه أبدا ما يشير لشيء!

عندما دخل صالة عرض اللوحات كانت تقف أمـــام لوحـــة؛ "عذراء الصخور"

رشيقة، مستغرقة فى اللوحة، مبتسمة وغير واعية لما حولها، "هل أتخلى عن رؤية ذلك؟" فكر چوليون: "إنه شيء غير طبيعـــى، كما أنها ترغب أن أراها"، وقف چوليون، يشاهدها دون أن تعــرف، ليحتفظ بصورتها، حاسدًا اللوحة التى كانت تنحنـــى أمامهـــا، أدارت رأسها مرتين ناحية المدخل، ففكر:

– "إنها تبحث عنى"! فى النهاية ذهب ناحيتها.

قال: "انظرى"

قرأت التلغراف. ثم سمعها تتنهد.

التنهيدة كانت لأجله أيضا! فوضعه قاسٍ حقا! كأب مخلص فى حبه لابنه يجب عليها أن يصافحها ويذهب. وكإنسان مخلص للإحساس الذى يملأ قلبه يجب على الأقل أن يخبرها بماهية ذلك الإحساس. هل ستفهم، هل ستتفهم الصمت الذى كان يحدق به فى تلك اللوحة؟ قال أخيرا:

- "أنا أسف، يجب أن أعود إلى البيت على الفور؟ سوف أفتقد كل هذا بشدة"

- "وأنا أيضا، لكن بالطبع يجب أن تذهب"

قال چوليون وهو يسحب يده

- "حسنا!".

قابلت عيناه عينيها، ورأى فيضا من المشاعر، أغرقه تقريبا، وقال:

- "هذه هى الحياة اعتنى بنفسك يا عزيزتى!"

كان إحساسه قويا لدرجة أنه أربك قدميه، كما لو كان عقله يرفض أن يأمر قدميه بأن تحمله بعيدا عنها. من عند الباب، رآها ترفع يدها وتلمس بأصابعها شفتيها، وكأنها ترسل له قبلة، فرفع قبعته فى صمت مؤثر، ولم ينظر وراءه ثانيةً.

الفصل السابع

دارتى ضد دارتى

القضية، دارتى ضد دارتى، من أجل رد هذه الحقوق الزوجية التى كانت وينفريد مترددة بشدة بصددها، كان يوم إصدار رأى القضاء فيها يقترب وهذا الموعد لن يكون قبل عيد الميلاد المجيد، حيث ترفع القضايا، وقد كان ترتيب القضية الثالث فى القائمة حين بدأت المحاكمات ثانيةً. وقد قضت وينفريد إجازة عيد الميلاد وهى تفكر فى هذه الأشياء التى تحتفظ بها فى قلبها. أما جايميس فقد كان سخيا معها هذا العيد، معبرا عن تعاطفه الشديد معها وشعوره بالارتياح لاقتراب فرصة فسخ زواجها بهذا "الوغد الشرير"، وقد شعر چايمس بالارتياح لهذا، ولكن لم تستطع شفتاه أن تلفظ بكلمة.

جعل اختفاء دارتى من الهبوط فى الأسهم أمرًا بسيطًا؛ وبالنسبة للفضيحة..... والحقد الذى شعر به ضد هذا الرجل، فإن الصعود فى العقارات والذى أحرزه سمعة رجل من عائلة فورسايت على وشك أن يموت جعله يتغاضى ويتناسى ذلك الأمر. وما أقلقه كمحام وأب؛ هو الخوف من عودة مفاجأة لدارتى وأن ينفذ أمر المحكمة عندما يصدر، وهذا ماجعله يعطى وينفريد شيكًا بمبلغ كبير

هذا العيد ويقول: "هذا من أجل ذلك الرجل هناك، حتى يبقى بعيدا ولا يعود"

وكانت تلك خطوة لتأمينه من الإفلاس إذا ما سارت إجراءات الطلاق على ما يرام وطلب من وينفريد أن تؤكد له أنها أرسلت المال إليه. ولقد غصها بشدة أن ترسل ما سيجد طريقه إلى هذا المخلوق التافه عديم الفائدة؛ عندما عرف سومز بهذا هز رأسه بالإيجاب، إنهم لا يتعاملون مع فرد فى عائلة فورسايت، متعقل ومتمسك بما يريد، لذا كانت مخاطرة كبيرة ألا يعرفوا ما يحدث هناك بالخارج. حيث كانت القضية تسير بشكل جيد، وكان يرى أن منسق الزواج سوف ينهيها وقال بشكل مفاجئ ترى إلى أين سيتجه هذا "الباليه" بعد الأرجنتين وكان يعرف أن وينفريد مازال لديها نقطة ضعف، إذا لم تكن من أجل دارتى، فعلى الأقل، هى تخشى من فضيحه أمام الناس. وعلى الرغم من أنه ليس من الجيد أن يظهر إعجابه، فإنه اعترف أنها تتصرف بشكل جيد جدا مع أولادها فى البيت والذين يتوقون لسماع أى أخبار عن والدهم... فـ إيموجن كانت تعلم أنه سافر، وقال متململ فى الأمر كله. لقد شعر أن فال هو قلب الموضوع بالنسبة لـ وينفريد، فقد أحبته أكثر من أولادها الآخرين. ولذلك كان سومز حريصا على أن يخبر فال بأخبار القضية وإجراءاتها. وفعل ما فى وسعه. طلب سومز من فال أن يتناول العشاء معه فى نادى ريموف وأثناء ما كان فال يدخن سيجاره؛ حدثه فى موضوع عرف أنه الأقرب إلى قلبه.

قال: "سمعت أنك تريد أن تلعب البولو في أكسفورد"

استرخي ڤال قليلا في مقعده.

قال: "نعم!"

تابع سومز قائلا: "حسنا، إنه عمل مكلف. وليس من المحتمل أن يوافق جدك إلا إذا علم أن ذلك لن يكلفه شيئًا"، وتوقف ليرى ما إذا كان ڤال قد استوعب الموضوع أم لا.

أخفت رموش ڤال الكثيفة عينيه، لكن ظهرت تكشيرة خفيفة على فمه الواسع، وتمتم: "أعتقد أنك تقصد والدي"

قال سومز: "نعم، أنا آسف".

إنه يعتمد علي ما إذا كان سيستمر فيما هو فيه أم لا "ولم يقل شيئًا أكثر ليسمح لـ ڤال أن يفكر في كلامه.

لكن ڤال كان يفكر هذه الأيام في حصان فضي اللون وفتاة تمتطيه، فعلي الرغم من أن كروم كان في المدينة، وكان هناك عرض لسينسيا دارك، فإن ڤال لم يهتم بذلك؛ وتجنب كروم وعاش حياة غريبة حتى بالنسبة له، أما بالنسبة لوالدته، وإخوته البنات وأخيه الصغير، فقد بدأ يقضي هذه الإجازة في رؤية رفاقه نهارًا والنوم في البيت مساء، فلم يكونوا يقترحون عليه أي شيء بالنهار، إلا ويقول: "آسف، لا بد أن أذهب لأرى صديقي" وقد كان ڤال يدخل إلي البيت ويخرج منه في أوقات غير عادية دون أن يلحظه أحد بملابس الفروسية؛ حتى أصبح

عضوا فى نادى حبوت، كان قادرا على نقلهم إلى هناك، حيث يمكنه أن يغير ملابسه ويرتديها ثم يخلعها بعد ذلك عند عودته إلى ريتشموند بارك، فقد احتفظ بمشاعره لنفسه ولم يخبر أحدًا بها، لم يكن لينطق بكلمة واحدة لقاء أى شىء لأى من أصدقائه، الذى كان لا يراهم أصلاً، فشىء مثل هذا سيكون سخيفًا من وجهة عقيدتهم الفكرية، وعقيدته. ولم يستطع فعل شىء تجاه هذا إذ إنها كانت ستحجب عنه ميوله وشهواته الأخرى، فقد كانت تقف بينه وبين المتع التقليدية للشباب وكل ما كان يشغل باله هو أن يرتدى ملابس الفروسية ويذهب خلسة إلى أبواب روبين هيل، حيث تظهر الفرسة الفضية تمشى الخيلاء برزانة وتمتطيها راكبة رشيقة ذات شعر داكن، ويسيران معا على أوراق الشجر الذابلة، ويتحدثان كثيرا جدا، ويقومان بسباقات ركوب الخيل، أحيانا، وتتشابك أيديهما أكثر من مرة. مرارًا فى المساء، فى لحظة نشوة، حاول أن يخبر والدته بمشاعره تجاه ابنة عمه الجميلة الخجولة والتى تملكته، وسيطرت على حياته، ولكن التجربة المرة أثبتت أن كل من هم فوق الخامسة والثلاثين، مفسدون للمتعة، وإخوته البنات لهن طبيعة ساخرة وغير عاطفية، وإن أخاه أسوأ منهن، لذلك لم يكن هناك شخص يثق به.

إلى جانب مشكلة الطلاق اللعينة هذه! يا له من سوء حظ أن يكون لديك اسم لا يحمله الآخرون! لو فقط كان اسمى جوردون أو سكوت أو هاوارد أو أى اسم شائع ولو قليلا! لكن دارتى، ليس

هناك دارتى آخر! وهكذا سارت الأمور حتى يوم منتصف يناير افتقد الحصان الفضى وراكبته كثيرا، وهو يتلكأ فى البرد، كان يفكر فـــى الذهاب إلى بيتها، لكن ربما يكون جولى هناك، وذكرى تلــك الليلــة المظلمة ما زالت حية بداخله، فيجب ألا أقاتل أخاها دائما! لذلك عــاد إلى المدينة وقضى ليلة بائسة، وفى الإفطار فى صباح اليوم التــالى، لاحظ أن والدته كانت ترتدى فستانا غير مألوف وقبعة، وقــد كــان الفستان أسود، به لمسات من الأزرق الطاووسى. والقبعة أيضا كانت سوداء وكبيرة، بدا مظهرها رائعًا بشكل استثنائى. لكن بعد الإفطــار عندما قالت:

"تعال، يا ڤال".

وأخذته إلى غرفة الاستقبال، حاصرته الشكوك على الفــور. ثم أغلقت وينفريد الباب بحرص ومررت منديلها على فمهــا؛ لتــشم رائحة العطر الذى عطرته بها، وفكر ڤال:

- "هل اكتشفت شيئا عن علاقتى بـــ هولى؟".

وكان صوتها مترددًا وهى تقول:

- "هل ستكو لطيفًا معى يا ولدى العزيز؟"

ابتسم ڤال ولا يزال الشك بداخله.

- "هل ستأتى معى هذا الصباح؟"

بدا قال يقول:

"سوف أرى.."، لكن شيئًا ما فى وجهها أوقفه، قال:

- "أنتِ لا تقصدين..."، نعم، يجب أن أذهب إلى المحكمة هذا الصباح، بالفعل، هذا الشيء الملعون الذى لطالما نجح تقريبا فى نسيانه منذ توقفوا عن الحديث فيه. وبتوتر، وقف يقرض أصابعه. ثم لاحظ أن شفتى أمه ممتعضة، فقال باندفاع:

- "حسنا، يا أمى، سوف آتى معك"

الوحشية. أي وحشية لم يعرفها، ولكن المصطلح لخص بالضبط شعورهم المتشابه وسجل قدرًا من الاتزان ورابطة الجأش.

وتمتم:

- "يجب أن أذهب لأغير معطفي"،

ذهب بسرعة إلى حجرته ثم ارتدى معطفا آخر. قال وهو ينظر إلى نفسه فى المرآة، قال:

- "جيسنا! أنا ملعون، إذا كنت سأظهر أى شيء!"

ونزل فوجد عربة جده تقف عند الباب، وجدها مرتدية الفراء، كأنها ذاهبة لحضور اجتماع فى مجلس العموم، ثم جلسا جنبا إلى جنب، وفى الطريق إلى المحكمة، لمَّح قال لأمه مرة واحدة فقط على موضوع اللآلئ قائلا:

- "لن يكون هناك شيء ما عن موضوع اللآلئ، أليس كذلك؟"

ارتعشت شعرات وينفريد البيضاء. قالت:

- "لا! لن أؤذيه، أرادت جدتك أن تأتى أيضا، ولكن لم أسمح لها بالحضور. أعتقد أنك يمكن أن تعتنى بى. أنت تبدو رائعا جداء يا ڤال. فقط ارفع ياقة معطفك قليلا للوراء... هذا جيد"

بدأ ڤال يقول:

- "لو أنهم تتمروا عليك...".

- "لن يفعلوا، سوف أكون هادئة. إنها الطريقة الوحيدة"

- "ألن يطلبوا منى أن أقدم حجة أو أى شيء؟"

- "لا، يا عزيزى، كل شيء منظم"

وربتت على يده ولكن الطريقة التى تحدثت بها والدته جعلته يشعر بالاضطراب والهياج، وشغل نفسه بخلع القفاز ولبسه. هكذا وصلوا بعد الساعة العاشرة تقريبا، وكانت تلك هي زيارته الأولى للمحاكم، وشعر بالصدمة على الفور عندما رأى المبنى. صاح معبرًا عن اندهاشه وهم يدخلون صالة المحكمة:

- "بحق السماء!"

كان سومز ينتظرهم عند السلم. قال:

"تفضلوا!" دون أن يصافحهم، كأن ما يحدث جعلهم يعتادون على هذه الرسميات.

"إنه هابرلى براون، قاعة واحد، سوف نكون فى أول القائمة"

شعر ڤال بإحساس كالذى عرفه عندما كان يضرب الكرة فى لعبة الكريكيت، لكنه تبع والدته وعمه، وهو يفكر أن الجو خانق وبدا الناس متربصين فى كل مكان وجذب سومز من كم قميصه.

"أقول، يا خالى، إنك لن تسمح لهذه الجرائد اللعينة أن تتناول القضية، أليس كذلك؟".

نظر إليه سومز بطرف عينه وبقى صامتًا.

قال: "لا تحتاجين لخلع فرائك هنا، يا وينفريد"

دخل ڤال خلفهم، ثائرا وقلقا. فى هذا الجحر اللعين بدا كل شخص - وقد كان هناك العديد- يجلس فوق ركبة الآخر، ويفصلهم عن بعضهم بعضًا مقاعد خشبية طويلة ذات مساند؛ وكان ڤال يشعر أنهم ربما ينزلقون معا على الأرض، بالإضافة إلى المحامين والقضاة الذين يرتدون العباءة السوداء والشعر المستعار، والوجوه والأوراق، كلهم يهمسون.....قبل أن يجلس بجوار أمه فى الصف الأول، كان سعيدا بالرائحة الجميلة لعطر البنفسج التى تنبعث من منديلها، وخلع قفازه للمرة الأخيرة، وكانت والدته تنظر إليه؛ وفجأة أدرك بشدة أنها كانت تريده حقًا أن يكون بجانبها.

- "حسنا! سوف يريهم!" ووضع ساقًا على ساق وحدّق بشدة فى قفازه ثم دخل "جونى العجوز وهو يرتدى الشعر المستعار مثل امرأة مضحكة، من باب عند المنصة العالية المقابلة لهم، واضطر ڤال بسرعة لأن يجلس دون أن يضع ساق على ساق، ويقف كما وقف كل شخص فى القاعة.

"دارتى ضد دارتى!"

لقد بدا لـ ڤال أنه من المثير للاشمئزاز بشكل كبير أن يُنَادى اسمه هكذا بين العامة، وفجأة أدرك أن شخصًا ما خلفه تقريبا بدأ يتحدث عن عائلته، فأدار رأسه ورأى شخصًا عجوزًا يرتدى الشعر المستعار، وكان يتحدث بطريقة غريبة كأنه يمضغ الكلام... وكان مظهره غريبًا ومثيرًا، نوع من الرجال رآه مرة أو اثنتين يتناول العشاء فى بارك لين، ويشرب النبيذ البرتغالى، وكان سيستمر فى التحديق لولا أن أمه لمست ذراعه، فأقلع عن ذلك وركّز عينيه على وجه القاضى.

لماذا يكون لهذا الرجل الجد ذى الفم المثير للسخرية والعينين سريعتى الحركة القدرة على التدخل فى شئونهم الخاصة... أليس له هو الآخر شئونه الخاصة كالآخرين، وربما تكون كريهة؟ وتحركت فى داخل ڤال كل الأنانية والفردية التى اكتسبها من خلال تربيته وأصبحت مثل مرض. وسمع صوتًا خلفه يطن طويلا.

- "إنها خلافات حول المسائل المالية.... وإسراف من قبل المدّعى عليه"

يا لها من كلمة! هل كان والده هكذا حقا، الموقف متوتر، غياب وهجران من قبل السيد دارتى. سيدى، إن موكلتى سوف تقبل قراركم... إن دارتى يتسبب في تدمير حياتهم الزوجية... فهو يقامر على طاولات الروليت وفى سباقات الخيل"... فكر قال: "هذا صحيح، وقد بدأت الأزمة مبكرا فى أكتوبر عندما كتب المدعى عليه خطابه من النادى المشترك فيه" فوقف قال وأذناه تجترق:

- "أقترح أن تقرأه بالتصحيحات الضرورية لرسالة كتبها رجل نبيل وهو يتناول عشاءه يا سيدي؟"

فكر قال: "وغد عجوز"، واحمر وجه بشدة؛ "لم يدفع لك لكى تمزح!"

- "لن تسنح لك الفرصة لكى تهيننى ثانية فى بيتى، سوف أرحل غدا، انتهت اللعبة، إنه تعبير، سيادتكم، ليس غير، شائع على ألسنة الذين لم يحققوا نجاحا بارزا"

فكر قال: "أشخاص غبية تظهر بمظهر العلماء" وتوهج وجهه احمرارا مرة أخرى "لقد سئمت من إهانتك لى؛ سوف تخبركم موكلتى أن هذه التى يسميها إهانات هى عبارة عن الكلمات "الحدود"... تعبير دمث، وأجازف بأن أقول ذلك تحت أى ظرف".

استرق ڤال النظر إلى وجه أمه الجامد التى تجلس بجانبه، نظر فى عينها ثم فكر "أم مسكينة" ولمس ذراعها برفق، ما زال الصوت خلفه يطن"

- "سوف أعيش حياة جديدة. إمضاء مونتاج دارتى"

وفي اليوم التالى سيادتكم، غادر المدعى عليه مبحرا إلى بوينوس إيريس، ومنذ ذلك الحين لم يصلنا شيء منه سوى تلغراف رفض فيه العودة؛ ردا علي خطاب كتبته موكلتى فى اليوم التالى لمغادرته، وهي تشعر بالحزن الشديد ترجوه فيه أن يعود لها، وبعد إذن سيادتكم سوف نضع السيدة ويلفريد دارتي على منصة الشهادة.

عندما نهضت أمه، كان لدى ڤال دافع قوى لكى ينهض ويقول "انتبهوا، سوف يكون من اللطيف أن تعاملوها بشكل جيد". ثم سمعها تقول: "الحقيقة، الحقيقة كاملة ولا شيء غيرها" ثم نظرت لأعلى، وقد ظهرت بمظهر امرأة غنية، وهي ترتدى ذلك الفراء، وتضع تلك القبعة الواسعة، وجنتاها المتوردتان، وهدوءها، وجرأتها فى قول الحق، كل هذا جعل ڤال يشعر بالافتخار بها، وهى تواجه كل هؤلاء المحامين الملاعين، ثم بدأ التحقيق معها، وكان يعرف أن هذا الإجراء يتم من أجل الطلاق، وتابع ڤال الأسئلة التى صيغت لكى تعطي الانطباع إنها حقا تريد عودة أبيه، وبدا له أنهم يحتالون ببراعة علي هؤلاء المسنين أصحاب الشعر المستعار!

وشعر بصدمة عنما قال القاضى فجأة:

"الآن، لماذا هجرك زوجك... ليس أنك طلبت منه وضع حدود! أتعرفين؟"

رأى ڤال خاله يرفع عينيه إلى منصة الشهادة دون أن يتحرك وجهه، وشعر ساعتها أن القضية أصبحت فى خطر. هل خاله سومز ونلك الرجل الجد خلف إفسادها؟ وكانت والدته تتحدث ببطءٍ وتتصنع قليلا"

- "لا يا سيدى، لكن ذلك استمر لفترة طويلة"
- "ما هذا الذى استمر؟".
- "خلافنا حول المال"
- "لكنك كنتِ تزودينه بالمال. هل تقصدين أنه تركك لكى يحسن وضعه".

فكر ڤال فجأة: "الوغد! الوغد العجوز، ولا شىء آخر إلا أنه وغد!" وقد خامره الشك فى أنه يحاول أن يصل إلى الحقيقة! وظل قلبه مقبوضا. لو... لو أنه ضغط عليها، بالطبع يمكن أن يكتشف أنها لا تريد عودة والده حقا". ثم تحدثت والدته ثانية.

-"لا يا سيدى، لكن سيادتك ترى أننى رفضت أن أعطيه أموالاً أكثر، أخذ وقتًا طويلاً حتى صدَّق هذا، لكنه فعل فى النهاية... وعندما..."

"أرى أنكِ رفضتِ. لكنك أبعدته".

- "لقد أردته أن يعود سيدى"
- "وتظنين أنه سيعود إليك بهذه الطريقة؟".
- "لا أعرف يا سيدى، تصرفت طبقا لنصيحة والدى"

كان هناك شيء ما فى وجه القاضى، فى صوت الأوراق خلفه، فى تصرفه المفاجئ بوضعه قدمًا على قدم جعله يتأكد أن والدته قد أعطت الجواب الصحيح". فكر ڤال ماكرًا: "يا له من هراء هذا كله! وكان القاضى يتحدث" سؤال واحد فقط، يا سيدة دارتى، هل مازلتِ تحبين زوجك؟"

قبض ڤال على يديه". ما الذى يجعل القاضى يسأل عن تلك المشاعر الإنسانية فجأة؟ ويجعل والدته تتحدث عن أشياء داخلها وتقول ربما لا تعرف هى نفسها، أمام كل هؤلاء الناس هكذا! لم يكن ذلك لطيفا نوعا ما. وأجابت والدته بصوت منخفض" نعم، يا سيدى "رأى ڤال القاضى يومئ برأسه، فكر باستخفاف" أتمنى له أن يشعر بالخجل!" ثم أتت والدته لتجلس بجانبه على مقعدها، وتابع الشهود الإدلاء بشهادتهم على هجران والده، أحد الخدم، صدم ڤال بقوله:

كان هناك أحاديث كثيرة، كلها هراء، ثم نطق القاضى بإعلان رد الحق الشرعى إلى صاحبه، ونهضوا؛ ليخرجوا من القاعة سار ڤال خارجًا وراء أمه، ذقنه مرعبة، رموشه مدلاة، وأفاقه صوت والدته من غيبوبة غضب:

- "لقد تصرفت بشكل رائع ياعزيزى، كان جيدًا أنى اصطحبتك معى، سوف أذهب أنا وخالك لتناول الغذاء".

"حسنا"، قال ثال: "سوف أذهب لأرى صديقًا" وتركهم فجأة وبفتور خطا على السلالم؛ لينزل إلى الطابق السفلى وغادر إلى خارج المبنى. ثم استقل عربة وذهب إلى نادى "جوت" كا يفكر فى هولى، وماذا سيفعل أمام أخيها عندما تظهر قضيتهم على صفحات الجرائد فى الغد؟

عندما تركهما ثال، اذهب سومز ومعه أخته وينفريد إلى شيشاررتشيز، وقد اقترحه مكانًا يقابلان فيه السيد بلباى؛ حيث إنه كان لديهم هذه الساعة المبكرة من الظهيرة، واعتقدت وينفريد أنه من المدهش أن ترى هذا المكان الشهير جدا، ثم انتظرا وصول السيد بلباى ومعه النادل لكى يدله على مكان وجودهما، وبعد ساعة ونصف من الترقب والقلق دخلا مستر بلباى تتقدمه أنفه، وجدهم مكتئبين بقدر ما كانا مبتهجين، حسنًا لقد حصلا على حكم قضائى برد الحق الشرعى، فما الأمر إذا؟ قال سومز:

- "حسنًا ولكننا سوف نبدأ من جديد لإقامة الدليل. ومحاولة طلب الطلاق سيكون مثيرا للشبهة والشك، لو اكتشفوا أننا كُنَّا نعرف سوء السلوك من البداية".

وقد أوضحت تساؤلاته بشكل كافٍ أنه لم يرضَ بهذا القرار المراوغ، قال السيد بلباى بسعادة:

- "سوف ينسى!"

فهو ينظر فى مئات القضايا بين الحين والآخر، إلى جانب أنه مرتبط بضرورة وجود طلب الطلاق، ولو أن هذه الحجة مرضـية، سوف يحكم بفسخ الزواج،" ولن نسمح له أن يعرف أن السيدة دارتى على علم بالحقائق وقد أدى المحامى عمله بنجاح".

أومأ سومز برأسه موافقا

"وأهنئكى، يا مدام دارتى"، واستمر السيد بلباى قائلا:

- "فأنتِ تمتلكين ملكة طبيعية وقدرة على تقديم الدليل، وأنـتِ ثابتة ورابطة الجأش كالصخر".

هنا وصل النادل ومعه ثلاثة أطباق متوازنة علي ذراع واحد.

هتف السيد بلباى لوصول الغداء، لكن سومز ووينفريد نظـرا بفزع إلى أطباقهما التى تحتوي على قطع بنية في شـربة، أمـسكاها بالشوكة باحتراس على أمل أن يعرفا ما هي، ثم بـدآ فـى تـذوقها، واكتشفا أنهما جائعان أكثر مما تصورا، ثم انتهي الثلاثة من وجبـتهم واحتسوا النبيذ البرتغالى. وتحول الحديث إلي الحرب، اعتقد سـومز أن ليدى سميث سوف تسقط أو ربما تصمـد عامًا آخـر. أما بلباي فقد اعتقد أنه سوف يتم التغلب عليها بحلول الـصيف، وقـد اتفـق كلاهما علي مدى الاحتياج إلي مجندين ورجال أكثر، ومن المؤكد أن النتيجة سوف تكون النصر الكامل، وأن الأمـر الآن يمـس الهيبـة

والكرامة عادت وينفريد بالحديث للوراء بقولها إنها تريد تأجيل قضية الطلاق حتى تبدأ إجازات الصيف فى أكسفورد، فالأولاد سينسون هذا الأمر الآن قبل أن يذهب ڤال مرة ثانية، وقد طمأنهـا المحـامون أن هناك فترة فاصلة من ستة أشهر... وكلما كان الوقت مبكرًا كلما كان أفضل، بدأ الناس الآن يدخلون إلى المكان فـافترقوا، سـومز إلـى المدينة، بلباى إلى مكتبه، ووينفريد استقلت العربة عائدة إلى بـارك لين لكى تخبر أمها لمدى نجاحها، وكان من المهم أن تخبر چايمس، الذى لم يكف عن القول يوما بعد يوم أنه لا يعرف شيئًا عن شـئون وينفريد وحياتها، لم يستطع فعل شىء؛ حيـث إن أيامـه أصـبحت معدودة، الاهتمام بالأمور الدنيوية أصبح يحزنه أكثر، كمـا لـو أن إحساسه أنه يجب أن يفعل منها الكثير قدر المستطاع، فقريبًا لن يقلق بشأن أى منها، وأعطى وينفريد شيكًا وهو يقول:

- "أعتقد أن لديكِ كثير من النفقات الآن، هل هذه قبعة جديـدة التى تضعينها جديدة، لما لم يأتِ ڤال ليرانا؟"

وعدت وينفريد بإحضاره لتناول العشاء معهـم فـى أقـرب فرصة، ثم ذهبت إلى بيتها، ودخلت حجرتها حتى تكـون وحـدها، صدر قرار الآن من المحكمة يجبر زوجها على العودة إلى سـجنها، وإذا لم يقبل، فسيتم إبعاده عنها للأبد؛ كانت تحاول بكل قوتها وبرغبة شديدة أن تعرف، ماذا أرادت حقا.

الفصل الثامن

التحدى

فى الصباح؛ كان الجو باردًا ممتلئًا بالضباب؛ وعلى وشك أن يتكون السقيع، لكن الشمس سطعت، بينما كان ڤال يتقدم بثبات وتؤده ناحية بوابة روهامتون، التى كان يدخل منها إلى مكان اللقاء المعتـاد وكانت معنوياته ترتفع بشكل سريع، ولم يكن هناك شىء سـيئ فـى أحداث الصباح، أكثر من حالة الخزى العام للخـصوصية المنتهكـة فكر ڤال:

"لو كنا مخطوبين! فإن ما حدث لم يكن ليهم"

شعر حقًا مثل كل الآدميـين الـذين يركلـون، ويـصرخون، متذمرين يستعجلون أمر الزواج، ركض على عشب الشتاء الجـاف فى متنزه ريتشموند، خائفًا من أن يكون قد تأخر، لكن للمرة الثانيـة، كان وحده فى مكان اللقاء، وهذا الإخفاق للمرة الثانية من ناحية هولى أزعجه بشدة، لن يستطيع أن يعود لرؤيتها اليـوم أيـضا! مغـادرًا الحديقة تابع سيرة ناحية روبين هيل ولم يجدد مـن سيـسأله عنهـا، وافترض أن أباها يمكن أن يكون قد عاد من باريس، أو أن أخاها أو أختها هناك، ولكنه فى النهاية قرر أن يجازف، ويسأل عنهم جميعـا،

حتي إذا جالفه الحظ ولم يكونوا هناك؛ فمن الطبيعي في النهاية أن يسأل عن هولي؛ أما إذا كان أحدهم هناك فمن المؤكد أن عذره من أجل جولة قصيرة سيكون جديًا.

- "فقط الآنسة هولي بالداخل، يا سيدي".

- "أوه! شكرا. هل يمكنني أن آخذ جولة بحصاني في أرض الإسطبل؟ وهل يمكن أن تخبر هولي أن ابن عمها، السيد ڤال دارتي ينتظرها".

عندما عاد ڤال كانت هولي تنتظره في الصالون، وجهها متورد جدا وخجولة، وقادته إلي الطرقة بعيدا عن الصالون، وجلسا علي مقعد النافذة الواسعة قال ڤال في صوت منخفض:

- "كنت قلقا بشدة لأجلك، ما الأمر؟"

- "چولي يعرف بأمر ركوبنا الخيل معًا".

- "هل هو هنا؟"

- "لا! لكنني أتوقع عودته قريبًا".

اقترب ڤال للأمام ناحيتها، وأمسك يديها وحاولت هولي سحبها ولكنها فشلت، ولذلك أقلعت عن المحاولة، ونظرت إليه نظرة لهفة يشوبها الحزن، قال ڤال:

- "أولاً، وقبل كل شيء، أريد أن أخبرك بشيء عن عائلتي، أبي، أنت تعرفين، ليس إنسانًا جيدًا... أقصد، لقد ترك والدتي، وهم الآن يحاولون طلاقها منه؛ لذلك أصدرت المحكمة قرارا بعودته، تفهمين، وسوف ترين هذا الخبر في الجرائد غدا"

استغرقت عيناه في اهتمام مخيف، وربتت يداها على يده، ولكن بروح المجازف في داخل قال قال:

- "بالطبع، ليس هناك الكثير من العواقب في الوقت الحالي، لكن سوف يكون، أتوقع ذلك، قبل النهاية، قضايا الطلاق كريهة ومزعجة. أردت أن أقول لكِ، لأن... لأن لأنكِ يجب أن تعرفي... لو...".

وبدأ قال يتلعثم، وهو يدقق النظر في عينيها القلقتين.

- "لو أنك تحبينى، يا هولى، أحبك... جدا، وأريد أن أتزوج بكِ".

فعل ذلك بطريقة متدنية جدا حتى إنه كان من الممكن أن يضرب رأسه بقبضته، وسقط على ركبتيه، محاولاً أن يقترب أكثر من هذا الوجه الرقيق "أنت تحبينني... أليس كذلك؟ لو أنكِ لا تحبينني..."

سادت لحظة من الصمت الشديد حتى إنه تمكن من سماع صوت آله قص الحشائش البعيدة جدًا فى الخارج على الأرض المزروعة بالعشب، مالت هولى للأمام، ولمست بيدها شعرها، لهث قائلاً:

"أوه، يا هولى!"

أجابت برقة:

"أوه، ڤال! "

لطالما حلم بهذه اللحظة، ولكن فى شكل السيد الأمر والأعلى فى العلاقة، والآن شعر بالخضوع والاستسلام فلمسها مرتجفًا. كان خائفًا من تعثر قدميه، ثم سقطت فى قبضته وعيناها مغلقتان، وشفتاه تقتربان منهما، ثم فتحت عينيها اللتين بدتا دامعتين إلى حد ما؛ وضغط شفتيها بشفتيه. وفجأة اضطرب كأنه سمع آثار أقدام، نظر حوله، لكن لا أحد! كانت. فقط الستائر الطويلة المنسدلة على الصالون الخارجى تهتز.

- "يا إلهى! من كان هذا؟".

هولى أيضا كانت على أعقابها. همست قائلة

- "ربما كان چولى"

قال:

- "حسنا! لا يهمنى، الآن نحن مرتبطان".

واتجه نحو الستائر، وسحبهم جانبا وكان چولى يقف عند الموقد مديرًا ظهره بتعمد. ثم سار ڤال للأمام وواجهه چولى، قال ڤال:

- "أرجو أن تسمعنى"

بنية صافية تماما، لم يستطع ڤال أن يشعر إلا بالإعجاب بـ چولى فى تلك اللحظة، فوجهه كان صافيًا وصوته هادئا، وقد بدا مميزا نوعا ما.

قال ڤال بشكل مباغت: "حسنا! إن الأمر لا يعنيك "

قال چولى: "أوه! تعالَ معى".

تبعه ڤال عبر الصالون وعند باب المكتب شعر بيد تلمس ذراعه؛ وصوت هولى تقول:

- "سوف آتى أنا أيضا"

"لا " قال چولى

"بلى" قالت هولى

فتح الباب ودخل ثلاثتهم، فى الحجرة الصغيرة، وقفوا على شكل مثلث بثلاثة أضلاع على السجادة التركية، معتدلى القامة،

لا ينظر كل منهم للآخر، غير قادرين على رؤيــة الجانــب المثيــر للضحك فى الموقف، ثم كسر ڤال الصمت قائلا:

- "هولى وأنا مرتبطان عاطفيا".

تراجع چولى للوراء وانحنى على النافذة، وقال:

- "أنت فى بيتنا، لن أهينك هنا، لكن أبى بعيدا فى الخارج وأنا مسئول عن أختى. وأنت قد استغللتنى".

رد ڤال بحرارة: "لم أقصد ذلك"

قال چولى:

- "أظن أنك فعلت، لو أنك لا تقصــد، لكنــك تحدثت إلــى، أو انتظرت أبى حتى يعود وتتحدث معه".

قال ڤال: "هناك أسباب"

- "ما هى الأسباب؟"

- "عن عائلتى.... لقد أخبرت هولى للتو. فقد أردت أن تعرف كل شىء عنى قبل أن يحدث أى شىء"

أصبح چولى فجأة أقل وجاهة وقال:

- "أنتم أطفال، وأنتم تعلمون هذا"

قال ڤال: "لست طفلا"

- "أنت كذلك... لم تصل إلى سن العشرين بعد".

- "حسنا وماذا عنك؟"

- "أنا فى سن العشرين"

- "على كل حال أنا رجل طيب وجيد مثلك"

احمر وجه چولى، ثم اكفهر، فقد كان يشعر بصراع بداخله، وكان ڤال وهولى يحدقان فيه، فقد كان ذلك الصراع واضحا أمامهم، حتى إنهم سمعاه يتنفس، ثم أصبح وجهه صافيا وهادئًا بشكل غريب وقال:

- "سوف نرى، أتحداك أن تفعل ما سأفعل".

- "تتحدانى؟".

ابتسم چولى: "نعم، يا ڤال "أتحداك، وأعرف تماما أنك لن تفعل".

محاولا إقحام الشك والريبة إلى داخل ڤال الذى كان غير واعٍ للحديث، قال چولى ببطء:

- "لم أنس أنك مستفز، أعتقد أنك هكذا؛ فقد ناديتنى بنصير البوير".

سمع ڤال صوت شهيق بالإضافة إلى صوت تنفسه الصعب، وكان وجه هولى يميل قليلاً للأمام، فى شحوب وعيناها جاحظتان.

- "نعم" استرسل چولى بابتسامة قائلا:
- "سوف نرى، قريبا سوف ألتحق بالجيش، وأتحداك أن تفعل مثلى، يا سيد ڤال دارتى"

ارتج وجه ڤال كأنه تسلم لكمة بين عينيه، فذلك لم يخطر بباله تماما، وكانت صدمة قاسية وسط أحلامه الوردية؛ نظر إلى هولى بعينين متفاجئتين وقد ظهر عليه الإنهاك والهزال، قال چولى:

- "اجلس، خذ وقتك، فكر مليا".

وجلس على مرفق الكرسى الخاص بجده، لم يجلس ڤال؛ ووقف ويداه مندفعتان بعمق فى جيبى سرواله وهى ترتعش، فقد صدمته بشاعة القرار. وإذا لم يتخذ خطة جريئة، فسوف يهان فى عين هولى وفى عين العدو، أخيها الوغد الشرير. أما إذا اتخذها. سوف يختفى كل شيء...وجهها، عيناها، شعرها، قبلاتها! التى بدأت الآن فقط، قال چولى مرة ثانية:

- "خذ وقتك، لا أريد أن أكون ظالما".

ونظر كلاهما إلى هولى التى تراجعت إلى الوراء حتى وقفت عند أرفف الكتب التى تصل إلى السقف؛ وانحنى رأسها الأسود على عمل جيبونز "الإمبراطورية الرومانية"، تركزت عيناها الممتلئتان بالمعاناة على ڤال، وهو الذى لم يؤتَ الكثير من الفراسة، انتابه فجأة وميض فكرة، ستكون فخورة بأخيها، هذا الوغد! لكن ستشعر بالعار والخجل منه إذا لم يفعل! ثم أخرج يديه من جيوبه.

- "حسنا!"، قال: "موافق"

كان وجه هولى.... غريبا! رأى وجهها وقد تورد مرة أخرى، لقد أخذ القرار الصحيح، وكان وجهها مشرقا بإعجاب تشوبه اللهفة والحزن ثم وقف چولى وانحنى قليلا كالذى يقول: "نجحت!"

- "غدا"، قال: "سوف نذهب معا".

تحرر ڤال من الحافز والحماس الذى جعله يأخذ هذه الخطوة ونظر إليه من تحت رموشه ويفكر:

"حسنا" سوف أضطر إلى الالتحاق... سوف أنتصر عليك نوعا ما،"

وقال بنبل ووقار:

- "سوف أكون مستعدا".

سوف نتقابل فى المكتب الرئيسى للتجنيد، ثم قال چولى:

- "فى الساعة الثانية عشرة!" وهو يفتح النافذة، خارجًا من الشرفة الواسعة، محافظا على ثباته ورباطة جأشه اللتين تحلى بها عندما رآهما فى الصالون، بقى ڤال وحده فى الغرفة معها، وهى التى دفع هذا الثمن غاليًا من أجلها. كانت حالة التباهى والتفاخر ما زالت هى المسيطرة فقال:

- "يجب أن نقوم بجولات كثيرة من ركوب الخيل والرماية، على أى حال"

وقد أعطاه نوعا من السعادة الرهيبة أن يسمعها تتنهد من أعماق قلبها.

- "الحرب ستنتهى قريبًا قال، ربما لن نضطر للرحيل، لا أهتم إلا بكِ".

فى هذه الفترة سيكون قال بعيدا عن إجراءات الطلاق الكريهة والمزعجة، شعر بدفء يدها التى تتسلل إلى يديه. ربما ظن چولى أنه أوقف ذلك الحب بين أخته وقال، هل حقًا فعل؟. ضمها قال إليه بشدة، ونظر إليها برقة، ابتسم لكى يشعرها بالبهجة، ووعدها بأنه سيأتى ويراها قريبا، وشعر نوعا ما بأنه أطول منهما بست بوصات أشعرته بسيطرته عليها أكثر من أى وقت مضى، وكان قد قبلها مرات عديدة قبل أن يمتطى حصانه ويعود إلى البلدة، هكذا، بسرعة وبإثارة قليلة، تنمو غريزة التملك.

الفصل التاسع

العشاء في بيت چايمس

لم تكن حفلات العشاء تقام إلا في بيت چايمس في باركلين... فبالنسبة لكل بيت؛ تأتي اللحظة؛ عندما يقوم السيد أو السيدة بدعوة عدد من الأشخاص، ولا تكفي تسعة أطباق رئيسة لأكثر من عشرين شخصًا.

لذلك؛ بشيء ما مثل السرور والإثارة؛ مازالت إيميلي ذات السبعين عاما، تحب تغيير نمط الحفلات ولهذا أمرت بإعداد العشاء لستة أفراد بدلا من اثنين وكتبت بنفسها بعض الكلمات بلغات أجنبية على بطاقات الدعوى ونشرت الأزهار، ميموزا من الريفيرا، زهرة الياقوتية البيضاء الرومانية، سوف يكون على العشاء، بالطبع، چايمس، وهي، سومز ووينفريد، وڤال، وإيموجن، لكنها أرادت أن تستعيد الماضي بلحظاته السعيدة، فارتدت ملابسها بشكل مثير حتى إن چايمس لاحظ ذلك، قائلا:

- "ما الذي ترتدينه؟ سوف تصابين بنزلة برد"

لكن إيميلي عرفت جيدا أن الشباب والحيوية لدى النساء يتطلبان التألق والسطوع لكي يتم الحفاظ عليهما، وأجابت:

- "دعنى أساعدك كى ترتدى أحد هذه الملابس التى أحضرتها لك، يا چايمس؛ ستضطر فقط لأن تغير سروالك، وترتدى معطفك القطيفة، فــ ڤال يجب أن يراك دائما تبدو رائعًا"

- "يا للشيطان! أنتِ دائما تضيعين المال على أشياء تافهة".

وتمتم قائلا: "إنه شاب مسرف، يا للأسف"

ظهر لمعان قليل فى عينيه، وتوردت وجنتاه قليلا أكثر من المعتاد، واتخذ مقعده فى غرفة الاستقبال؛ ينتظر سماع أول جرس يدق الباب.

قالت إيميلى بارتياح:

- "لقد أعددت لحفلة عشاء مناسبة؛ أظن أن ذلك سيكون تدريبًا جيدًا لإيموجن.... يجب أن تعتاد على ذلك منذ الحين".

تفوه چايمس بصوت غير مفهوم، فكر فى إيموجن كما اعتادت أن تتسلق ركبتيه أو تأخذ منه بسكويت عيد الميلاد، تمتم:

- "سوف تكون جميلة، لا أشك فى هذا"

قالت إيميلى: "إنها جميلة حقا، يجب أن تخرج وتنطلق"

أجاب چايمس:

- "ها أنتِ تبدئين، إنها تفضل البقاء فى البيت والاعتناء بوالدتها"

تجربة مونتاج دارتى أخرى مع حفيدته الجميلة سوف تقضى عليه، فلم يسامح چايمس، إيميلى قط لأنها خُدعت فى شخصية مونتاج دارتى كما حدث معه هو الآخر:

- "أين وورمسون؟" أريد أن أحتسى كوبًا من الماديرا الليلة؟"

- "لدينا شمبانيا، يا چايمس"

هز چايمس رأسه قائلا:

- "ليس هناك أحد أستفيد منه بشىء"

انحنت أمامها وجنبها للموقد، ثم دقت الجرس.

- "سيدك يريد كوبًا من الماديرا، يا وورمسون".

- "لا، لا" قال چايمس، وطرفا أذنيه يرتعدان بعنف، وعيناه ترتكزان على شىء لا يراه إلا هو، شىء يتخيله:

- "انظر هنا، انزل إلى القبو، وفى منتصف الرف فى نهاية الوعاء على الشمال، سوف ترى سبع زجاجات؛ خذ الزجاجة التى فى الوسط ولكن لا تهزها. إنها زجاجة الماديرا الأخيرة التى حصلت عليها من السيد چوليون؛ عندما أتى إلى هنا... لم تتحرك من مكانها أبدا، لابد إنها على حالتها الأولى؛ لا أعرف، لا يمكننى الجزم بذلك".

أجاب وورمسون وهو ينسحب من بينهم: "حسنا سيدى"

قال چايمس: "كنت أحتفظ بها من أجل الاحتفال بالعيد الـذهبى لزواجنا. لكن لن أعيش ثلاث سنوات أخرى".

قالت إيميلى: "هذا شيء سخيف يا چايمس، لا تتحدث هكذا"

تمتم چايمس: "يجب أن أحصل عليها بنفسى، سـوف يهزهـا وورمسون"، استغرق فى صمت استعاد فيه ذكرياته الجميلـة. فلـين القنينات المشبع بالخمر الجيد، والذى كان أحد المشهيات فى مناسبات عديدة، هذا الخمر الموجود فى القبو قد سجل تاريخ أربعين سنة مـن عمره منذ أن أتى إلى بارك لين مع هذه العروس الشابة وبحـضور الكثير من المعارف والأصدقاء، الذين لا يعرف كيـف حـالهم الآن، قنيناتها الفارغة وأوعيتها المستنفذه التى حفظت بـداخلها الأحـداث البهيجة للعائلة... مناسبات الزواج، أعياد المـيلاد، مـوت أى مـن أصدقائه أو أنسبائه، لم يعرف ماذا حدث لزجاجة الماديرا خاصـته، ربما فسدت أو شربها أحد، يجب ألا يندهش!

وقد أيقظه قدوم ابنه من أحلام اليقظة التـى اسـتغرق فيهـا، وتبعته فى الحال وينفريد وابناها الكبيران نـزلا ذراعـًا فـى ذراع، چايمس مع إيموجن، وقد أسعدته حفيدته الصغيرة، وينفريد وسـومز، إيميلى مع ڤال والذى لمعت عيناه من النظر إلى الأصداف المتلألئة، هذا وقد تناول كوبا أو كوبين وأصبح يشعر بالـسعادة والاطمئنـان الكافيين لأن يخبرهم بالمفاجأة الصاعقة التـى تـدل علـى وطنيتـه الشديدة، أو بالأحرى مثـال علـى جرأة شخصيتـه، أو يقول إنـه

سعيد بما فعل من أجل الملكة والوطن، وأن قراره كان نابعا من داخله تماما، وهو الآن مرتبط بالخيل والبنادق؛ كان لديه الحق فى أن يفخر ويختال، يجب أن يعلن ذلك بهدوء، عندما تسود لحظة من الصمت فى جلستهم. وهو ينظر نظرة خاطفة إلى مائدة الطعام، عقد العزم على أن هذه هى اللحظة المناسبة. يمكن أن يكون هناك هيبة أكيدة أثناء تناولهم الطعام، وبعد أن حاول مرة أو مرتين البوح بقراره، تذكر فجأة أنهم لا يخبرون جده بشىء! وقد كان يشرب الماديرا فرحا، بالإضافة لأنه يجب أن يسعد لأن إجراءات الطلاق تسير على مايرام، ورؤية خاله بالمقابل منه كانت دافعًا قويًا، من الأفضل أن يخبر أمه وحدها لأنْ ذلك القرار سوف يزعجهم ويقلقهم! لقد كان ڤال حزينا لأجلها ولكن بعد كل هذا، لا يمكنه أن يراعى شعور الآخرين عندما يضطر أن ينفصل عن هولى" تحول صوت جده إليه وهو يقول:

- "ڤال جَرب بعض الماديرا فلن تحصل على هذا فى الجامع".

راقب ڤال السائل وهو يصب فى كوبه، الزيت ضرورى للخمر القديم كى يطفو على السطح، ثم استنشق رائحتها وفكر: "الآن! إنها لحظة ثرية".

فرشف رشفة من كوبه وسار التوهج فى عروقه، وبنظرة سريعة قال ڤال:

- "لقد التحقت بالجيش اليوم، يا جدتى"

وانتهى من كوبه كاملا "ماذا؟" كانت هذه كلمة أمه الوحيدة

- "ذهبت وچولى فورسايت معا إلى هناك"

قال سومز: "لم تخبرنا؟".

- "وسوف نذهب إلى المعسكر يوم الإثنين!"

صرخت إيموجن: "يا الله!"

نظر الكل إلى چايمس وكان ينحنى للأمام ويداه على أذنيه. قال:

- "ما هذا؟ ماذا يقول؟ لا يمكننى أن أسمع"

تقدمت إيميلى للأمام لكى تربت على يد ڤال:

- "لقد التحق ڤال بقوات الجيش الإمبريالية، يا چايمس، هذا رائع بالنسبة له. سوف يبدو أفضل مظهرًا فى الزى الرسمى"

قال چايمس بصوت عال:

- "التحق بـ... هراء! أنت لا تعرف شيئًا لا يمكنك أن ترى أبعد من أنفك، سوف يضطر لأن يذهب بعيدا هناك، لماذا! سوف يُقَاتِل قبل أن يعرف أين هو".

رأى ڤال عينى إيموجن ويملؤهما الإعجاب به، ومازالت أمه تبدو رائعة بوشاحها هذا قبل أن تضعه على فمها.

فجأة تحدث خاله: "أنت تحت السن القانونى للالتحاق بالجيش"

ابتسم قال:

- "لقد فكرت فى هذا، سجلت سنى أحد وعشرين عاما"

سمع جدته وهى تعبر عن إعجابها به: "رائع قال هذه شجاعة منك"

ووعى لـ وورمسون وهو يصب له كأسا من الشمابنيا؛ وصوت جده يتأوه:

- "لا أعرف ماذا ستصبح لو استمريت هكذا".

وكانت إيموجن تربت على كتفيه، وخاله ينظر إليه بطرف عينه، أما أمه فقد جلست ساكنة دون حراك، حتى تأثر بسكونها، فقال قال:

- "تعرفون؛ كل شىء على ما يرام، سوف نجعلهم يهربون قريبًا، فقط أتمنى لو استطعت فعل شىء"

شعر بالبهجة، والحزن، والأهمية، شعر بكل هذا دفعة واحدة، فهذا سوف يبين لخاله ولجميع آل فورسايت كيف يصبحون أبطالاً وإنه رجل حقيقي. لقد فعل شيئا بطوليا بالتأكيد واستثنائيا أيضا فى تسجيل سنه أحد وعشرين عاما بدلا من سنه الحقيقى.

جعله صوت إيميلى يصحو من أحلامه وتخيلاته

- "يجب ألا تصب كأسًا أخرى لـ چايمس"

"ألن يكونو مندهشين فى بيت تيموثى!" صاحت إيموجن

- "يمكننى أن أفعل أى شىء لأرى تعبيرات وجوههم. هل لديك سيف يا فال، أو حتى بلدقية؟"

قال سومز:

- "ما الذى جعلك تفعل هذا؟"

جعله صوت خاله يشعر ببعض الاضطراب فى معدته لتفكيره كيف تكون الإجابة؟

كان ممتنا لإجابة جدته المريحة:

"حسنا أعتقد أن هذه شجاعة من فال. أنا متأكدة أنه سيكون جنديا عظيما؛ فلديه الجسد الملائم لذلك. سوف نكون فخورين به.

"ما الذى جعل جولى فوسايت يفعل هذا. لماذا ذهبتما معا؟ تابع سومز قائلا " "أظن أنك لم تكن لطيفا وودودا معه؟"

"لم أكن" تمتم فال "لكنى لم أكن لأدعه يتفوق علىّ" رأى خاله ينظر إليه بشكل مختلف تماما، وكأنه موافق. كان جده يومئ برأسه أيضا وجدته تهز رأسها، كلهم اتفقوا على ألا يتفوق عليه ابن عمومته، يجب أن يكون هناك سبب، وقد كان على وعى شديد بوجود شىء مزعج وغريب لا يراه، ربما تكون بداية لمشكلة كبيرة، وحدَّق فى وجه خاله، الذى كانت لديه نظرة غير مفهومة للمرأة ذات العيون

السوداء، والشعر الذهبي والرقبة البيضاء، وذات الرائحة الرائعة، التي ترتدي ملابس حريرية جميلة التي أحبها كثيرا، عندما كان صغيرا. نعم الخالة إيرين! اعتادت تقبيله، ذات مرة قرض ذراعها، مازحا غير جاد، لأنه أحبها... يا لرقتها! وكان جده يتكلم:

- "ماذا يفعل والده؟"

٦ قال فال:

- "ذهب إلي باريس"

محدقا في التعبيرات الغريبة جدا، التي ظهرت علي وجه خاله فصار مثل كلب يكشر عن أنيابه

قال چايمس:

- "الفنانين!".

الكلمة التي خرجت من أعماقه كانت نهاية.

وهو يجلس في المكان المقابل لأمه في العربة وهما في طريقهما إلي البيت. تذوق فال أولي ثمار البطولة، قالت إنه يجب عليه فقط أن يذهب إلي الترزي في الحال، لكي يصنع زيه بشكل مناسب وسليم، وألا يرتدى الزي الذي سيسلمونه إياه، كان يشعر أنها قلقة جدا، وكان علي شفا أن يقول إنه سيكون بعيدا عن إجراءات الطلاق، لكن وجود إيموجن، ومعرفة أن هذا لن يغير من إحساس والدته جعله يعرض عن هذا. وشعر بالحزن لأنها لم تبدُ فخورة به. ولكن عندما ذهبت إيموجن إلي سريرها، قال:

- "أنا آسف جدا لأننى سأتركك يا أمى"

- "حسنا يجب أن تتصرف بشكل سليم. يجب أن نحاول ونحصل لك على شهادة برتبة عسكرية بأسرع ما يمكن أنت؛ حتى لا تعانى من الحياة الخشنة هناك. هل تعرف أى تمرينات عسكرية يا ڤال؟ إنها ليست مشاجرة، أتمنى ألا يرهقوك ويقلقوك كثيرا، سوف آخذك لنشترى الأشياء اللازمة غدا. تصبح على خير، قبِّلْنِى".

بهذه القبلة الرقيقة والحارة، بين عينيها وهذه الكلمات،

"أتمنى ألا يرهقوك ويقلقوك كثيرا"، التى لا تزال فى أذنيه، جلس ليدخن سيجارة أمام الموقد الذى كانت تنبعث منه الحرارة....". وسوف أكون مع هذا الشاب چولى "فكر وهو يصعد السلالم ببطء، عابرًا أمام الغرفة؛ حيث كانت أمه تعض وسادتها لكى تكتم إحساسها بالحزن والأسف والذى كان يبكيها. وشخص واحد فقط من هؤلاء الذين تناولوا العشاء فى بيت چايمس كان يقظا، ألا وهو سومز، فى حجرته فى بيت أبيه.

هكذا ذلك الرجل چوليون فى باريس... ماذا يفعل هناك؟ يحوم حول إيرين. كان التقرير الأخير الذى أرسله السيد بولتيد قد أشار إلى أنه من الممكن أن يكون هناك شىء ما قريبًا. هل يكون هذا؟ هذا الرجل بلحيته وطريقته الحلوه اللعينة فى الكلام... ابن الرجل العجوز

الذى أعطاه ذلك اللقب. "الرجل المتملك" واشترى ذلك البيت اللعين منه، وكان سومز قد استاء من بيعه البيت فى روبين هيل؛ ولم يسامح عمه لشرائه إياه أو ابن عمه لأنه عاش فيه.

مستهترا ببرودة الجو، فتح النافذة وحدق عبر المتنزه، المقفر والمظلم فى ليلة من ليالى شهر يناير، وكان يسمع صوتا منخفضًا للمارة؛ والثلج ينزل على الأشجار؛ وكانت هناك نجمة أو اثنتان فى السماء" سوف أرى بولتيد غدا، فكر:

- "يا إلهى! أنا مجنون، أما زلت أريدها؟ ذلك الرجل! إذن... أمم... لا!"

الفصل العاشر

موت الكلب بالثازار

كان چوليون الذى عبر من كاليس عائدا إلى بيته فى الليل قد وصل إلى روبين هيل صباح يوم الأحد، ولم يكن قد أرسل أى أخبر مقدمًا عن عودته، لذلك سار من المحطة، ودخل ضيعته من ناحية الأيكة، ثم أتى إلى جذع الشجرة المقطوع وجلس عليه، ولكنه وضع معطفه أولا.

"اللمباجو(*)!" فكر؛ هذا ما ينتهى إليه الحب فى مثل عمرى! وفجأة بدت إيرين قريبة جدا، كما كانت فى ذلك اليوم الذى تحولا فيه فى فونتين بلو عندما جلسا على جذع الشجرة ليتناولا غداءهما وملأت أنفه الرائحة التى تنبعث من الأوراق الساقطة من الأشجار، "أشعر بالسعادة لأننا لسنا فى فصل الربيع! مع رائحة العصارة، وتغريد الطيور، سيكون هذا غير محتمل! أتمنى أن أتغلب على هذا فيما بعد، كم أنا عجوز أحمق!"

التقط معطفه، وسار عبر الحقل، ثم مر بالبركة، وصعد التل ببطء.

(*) اللمباجو: ألم عصبى فى الفقرات القطنية أسفل الظهر.

من مكان قريب، سمع صوتًا أجش ينبح وهناك، فـــى الأرض المزروعة بالعشب أعلى حقول السرخس، تمكن من رؤية الكلب الجد بالثازار، الحيوان الذى ضَعُف بصره ظن أن سيده غريبًا، فكان ينبح محذرا أهل البيت، لذلك أطلق چوليون صفارته الخاصة. وعلى بعــد مائة ياردة أو أكثر أمكنه أن يرى الكلب، ويتعرف على جسده البدين ذى اللون البنى والأبيض.

ثم نهض الكلب بعجزه، وذيله، المثنى على ظهره، وقــد بــدا واهنا، متملقا بشكل مثير؛ ثم تقدم للأمام، واستجمع قواه، واختفى عند حافة حقل السرخس. وكان چوليون قد توقع أن يقابلــه عنــد البــاب الصغير فى البوابة، لكن بالثازار لم يكن هناك. أقلقه ذلك؛ فدخل فـــى حقول السرخس، ووجد الكلب العجوز يرقد على جنبه السمين محدقا بعينيه.

صرخ چوليون:

– "ماذا بك أيها الصديق العجوز المسكين؟".

فتحرك فقط ذيل بالثازار الزغبى المتكــور، وبــدت عينــاه المغطاه بغشاء رقيق تقول:

– "لا يمكتننى أن أنهض سيدى، لكننى سعيد لرؤيتك"

نزل چوليون على ركبتيه، كانت عيناه ضــعيفتين، بــصعوبة أمكنه أن يرى حركة التنفس الثقيل فى جنب بالثازار والذى يتوقــف تنفسه ببطء. رفع رأسه قليلا، كان ثقيلاً جدا.

- "ما الأمر أيها الصديق العزيز، ما الذى يؤلمك؟".

وتحرك ذيله مرة واحدة؛ وفقدت عيناه نظرة الحياة. ثم مـــرر چوليون يديه على جسده الدافئ الخامد. لم يكن هناك شـــىء، فـشل القلب بسهولة فى هذا الجسد البدين فى التأثر بعودة سـيده. وتمكــن چوليون من أن يتحسس أنفه، حيث نما الشعر الأبيض، مبردا شـفتيه بالفعل، وبقى لدقائق جالسًا على ركبتيه ويديه تحت رأس الكلب. وقد كان الجسد ثقيلا جدا عندما حمله إلى بقعة عالية من الحقـل؛ حيـث جرف أوراق الشجر هناك، وغطى جسده بها، ولم تكن هناك ريــاح، وهذه الأوراق يمكن أن تحفظه من العيون الفضولية حتى الظهيـرة. فكر چوليون

- "سوف أدفنه بنفسى".

ثمانية عشر عاما مرت منذ أن ذهب أول مرة إلى البيت فـى شارع جونزوود وهو يصطحب معه ذلك الكلب الصغير من الغريب أن يموت ذلك الكلب العجوز الآن! هل هذا نذير شؤم؟ واتجه ناحيـة البوابة لينظر إلى تلك الربوة الخمرية اللون، ثم سار بـبطء ناحيـة البيت، وبداخله إحساس خانق.

كانت چان فى البيت؛ ونزلت بسرعة عندما سـمعت أخبـار التحاق چولى بالجيش، وقد قهرت وطنيته شعورها بالتعـاطف مـع البوير. الجو العام فى بيته كان غريبا وفارغا، عندما دخل چوليـون وأخبرهم بموت الكلب بالثازار. فقد كان لهذه الأخبار تـأثير واحـد

عليهم؛ حيث كسرت حلقة اتصالهم بالماضى... الكلب بالثازار! اثنان منهم لا يمكنهم تذكر شيء قبل يومه؛ بالنسبة لـ چان مثَّل السنوات الأخيرة في حياة جدها؛ وبالنسبة لـ چوليون مثَّل تلك الحياة من الضغط العائلي والكفاح من أجل الفن والجمال قبل أن يعود ثانية إلي مملكة الحب والثروة الخاصة بأبيه! وها قد رحل!

في الظهيرة ذهب هو وچولي حاملين المعاول إلى الحقل واختارا بقعة قريبة من الربوة الخمرية اللون، حتى لا يضطرا لأن يحملاه بعيدا وبدءا عملية الحفر، حفرا فى هدوء لمدة عشر دقائق، ثم استراحا.

قال چوليون:

- "حسنا، أيها الفتى الناضج، فكرت مليا؟".

أجاب چولي: "نعم"

- "أنا معجب بك أيها الولد الكبير. لا أصدق أنه كان بإمكاني أن أفعل شيئا كهذا عندما كنت في مثل سنك، هذا كثير جدا بالنسبة لفرد في عائلة فورسايت، أنا آسف، لكن أفترض أن نسل عائلتنا يصبح أكثر رفعة ونبلاً مع تعاقب الأجيال. ابنك، لو أنه أصبح لديك ابن، ربما يكون ممن يراعون حاجات الناس وسعادتهم أكثر من نفسه، من يعرف؟".

- "إذن لن يكون مثلى، يا أبى؛ أنا أنانى بشكل كريه"

"لا، يا عزيزى، أنت لست كذلك على الإطلاق"

هز چولى رأسه وبدأ يحفر ثانية.

قال چوليون فجأة:

- "يا لها من حياة غريبة يعيشها الكلب. الحيوان الوحيد الذى مشى على أربع ولديه إحساس بالإيثار وإحساس بالرب!"

نظر چولى إلى أبيه وقال:

- "هل تؤمن بالرب، يا أبى؟ لم أعرف ذلك من قبل"

فى سؤال دقيق كهذا يوجهه من شخص إلى شخص من المستحيل أن تكون إجابته مجرد إجابة فقط، توقف چوليون للحظة لشعوره بالألم نتيجة قيامه بالحفر:

- "ماذا تعنى بالرب؟ هناك فكرتان متناقضتان عن الرب. قاعدة الخلق المجهولة وأنا أؤمن بها، وهناك الخير فى الإنسان، ويشكل فطرى أن أؤمن بها"

- "أفهم، هذا يغفل المسيح، أليس كذلك؟".

حدق چوليون المسيح، حلقة اتصال بين الفكرتين! وهذا ما شرحه المذهب الأرثوذكسى بشكل عملى فى النهاية! العقيدة الرفيعة والسامية لحياة السيد المسيح كانت محاولة قام بها الإنسان لكى يربط

بين هذين المفهومين المتنافرين للرب، ومنذ أن كان الخير في الإنسان، جزءًا من قاعدة الخلق المجهولة قبل أى شيء آخر في الطبيعة والكون، فربما يتم اختيار الربط السيئ بعد كل هذا:

- "رائع! كيف سار المرء خلال الحياة دون رؤيتها بهذه الطريقة".

قال:

- "ماذا تعتقد، أيها الفتى الناضج؟"

عبس چولى قائلاً:

- "بالطبع، خلال دراستى فى العام الأول فى الجامعة تحدثنا بشكل جيد قليلا فى هذا الأمر وفى العام الثانى، أقلعت عن هذا؛ لا أعرف لماذا، هذا يبدو شيق جدا"

تذكر چوليون أنه أيضا قد تحدث بشكل جيد فى هذا الأمر فى عامه الأول فى كامبريدج، وأقلع عن ذلك فى العام الثانى.

قال چولى:

- "أفترض أنك تقصد، إنه الرب الثانى، الذى كان العجوز بالثازار لديه الإحساس به".

- "نعم، أو أنه لم يكن قلبه العجوز المسكين ليتمزق، بسبب شيء ما خارج عن نفسه".

- "لكن ألم تكن تلك عاطفة أنانية، حقا؟".

هز چوليون رأسه:

" لا، الكلاب ليست أفرادًا نقية من عائلة فورسايت، لكنهم أحبوا شيئا ما غير أنفسهم".

ابتسم چولى، وقال:

- "حسنا، أظن أننى أحدهم. أنت تعرف، أنى التحقت بالجيش فقط لكى أتحدى ڤال دارتى أن يفعل ذلك!"

- "لكن لماذا؟".

قال چولى باختصار:

- "كل منا يعترض طريق الآخر"

"آه!" تمتم چوليون. وهكذا بدأت الخصومة فى الجيل الثالث، هذه الخصومة الجديدة التى لم يكن لها هذا الأسلوب العلنى؟

- "هل أخبر الولد عنها؟". فكر!" لكن إلى أى نهاية... لو أنه اضطر إلى أن يتوقف مختصرا من طرفه؟"

وفكر چولى:

- "إن الأمر يعود إلى هولى، فهى صاحبة الحق فى أن تخبر والده عن ذلك الشاب، ولو أنها لم تفعل، فهذا يعنى أنها لا

تريده أن يعلم بذلك، ويجب ألا أشى بها. على أى حال، لقد كففت عن هذا، فمن الأفضل أن أترك أثرًا طيبًا قبل رحيلى من هنا!"

وهكذا استمرا فى عملية الحفر فى صمت، حتى قال چوليون:

- "الآن، أيها الرجل الراشد، أعتقد أن هذه الحفرة كبيرة بشكل كاف"

وارتاحا قليلا على المعاول، هما يحملقان فى الحفرة؛ حيث سقطت بعض الأوراق القليلة بسبب الرياح التى تهب مع غروب الشمس.

قال چوليون فجأة:

- "لا يمكننى تحمل هذه المرحلة من الدفن".

- "دعنى أفعل هذا يا أبى. هو لم يهتم كثيرا بى"

هز چوليون رأسه:

- "وسوف نرفعه بلطف ونهيل الأوراق، لا أريد أن أراه ثانية، وسوف أجره من رأسه الآن!"

رفع جسد الكلب الجد باهتمام شديد، وغطته أوراق الأشجار التى قلبتها الرياح. وقد كان ثقيلاً وباردًا، وفى القبر كان هو وچولى يهيلان أوراق الشجر عليه، بينما كان چوليون خائفا من إظهار أى

تأثر أمام ابنه، بدأ بسرعة يجرفان التراب عليه. وقد دفنا الماضى معه. لو كان هناك فقط مستقبل سعيد ومبهج يتطلعان إليه! بدا الأمر وكـــأن الأرض تتطبع خاتمها على حياة الفرد منـــا. وضـــعا بعـــض التربـــة بأعشابها وحشائشها على الربوة المستوية قليلا، وكانا ممتنين لأنـهما لم يجرحا إحساس بعضهما بعضًا، ثم عادا إلى البيت ذراعًا في ذراع.

الفصل الحادى عشر

تيموثى يُحجم عن الهراء

لقد انتشرت أخبار التحاق فردى العائلة بسرعة شديدة فى المحيط العائلى، مع تقرير بأن چان قد قررت أن تصبح ممرضة فى الصليب الأحمر. وقد كانت هذه الأحداث ساخنة جدا، وقد كان بيت تيموثى مكتظا فى ظهر الأحد التالى بأفراد يحاولون أن يكتشفوا ما شغل بالهم.

وتبادلوا الإحساس بأهمية العائلة بالنسبة لكل فرد منهم. لم يعد أى من جايز وجيس هايمان يدافعان عن الساحل، لكنهما سيذهبان إلى جنوب أفريقيا قريبا؛ أما چولى وڤال فسيتبعونهما فى إبريل؛ كما هو الحال بالنسبة لـ چان أيضا .. حسنا، أنتم لا تعرفون ماذا ستفعل هى حقًا.

التقاعد من سبيون كوب، وغياب الأخبار الطيبة من أرض المعركة أحاطه بجو من الحقيقة، حُسِم فى الأسلوب المباغت من قبل تيموثى، وهو الأصغر بين أفراد عائلة فورسايت الكبار... فى الثمانين من عمره، فى الحقيقة يشبه أباهم دوزت العظيم. حتى فى أكثر صفاته شيوعًا وهى شرب خمر الماديرا، وكان قد اختفى لوقت

طويل حتى ظنوا أنه شخصية خيالية، وقد مضى جيل طويل منذ المجازفات التى كان يقوم بها فى دار النشر، والتى ضغطت على أعصابه فى سن الأربعين من عمره، ولهذا خرج فقط بخمسة وثلاثين ألف جنيه، وبدأ يكسب عيشه بالاستثمار الحذر والحريص. وقد ضاعف رأس ماله سنويًا عن طريق الفائدة المركبة خلال أربعين عامًا. وهو الآن يضع جانبا ألفى جنيه إسترلينى فى العام، وكان يهتم بنفسه كثيرا كما قالت العمة هيستر. لكى يضاعف رأس ماله مرة ثانية قبل أن يموت. فيما ستفيده هذه الأموال، وقد توفت أخواته البنات وهو نفسه ميت، وكان أمثال فرانسى وبوفيميا، والشاب نيكولاس الثانى وكريستوفر يستفسرون بشكل سافر عن هذا الأمر، وقد كانوا يقرون أن هذا معروف جيدًا لـ تيموثى نفسه وربما يكون كذلك بالنسبة لـ سومز.

هؤلاء القلة من عائلة فورسايت والذين رأوه رجلاً له مظهر متين البنية وحميم ليس طويلا جدا، وله بشرة ذات لون بنى وشعر رمادى وملامح دمثه.

كان معظم أفراد عائلة فورسايت من الزوجة الكبرى، امرأة لها بعض الجمال والطبع اللطيف الدمث. كان معروفا عن تيموثى أن لديه اهتمامًا مفاجئًا بأخبار الحرب، فمنذ أن بدأت الحرب وهو يثبت الأعلام على الخريطة، وقلقا مما يمكن أن يحدث لو تم استدراج الإنجليز إلى البحر، وعندها لا يمكنه أن يضع الأعلام فى الأماكن

الصحيحة. ولمعرفته بتحركات العائلة وأخبارها كوَّن وجهات نظره فيهم، فالعمة هيستر كانت دائما تقول إنه كان منزعجًا. لقد كان من سوء الحظ أنه عندما كان أفراد عائلة فورسايت يصلون يوم الأحد إلى بيته، بعد تقاعده من سبيون كوب، أصبحوا على وعى، واحدًا تلو الآخر بكيان يجلس على الكرسى الوحيد المريح حقا؛ ظهره للضوء، يخفى جانب وجهه بيده الكبيرة، وكان يجيبه صوت متهيب، صوت العم هيستر:

- "عمكم تيموثى، يا أعزائى"

تحية تيموثى لهم كانت إلى حد ما وكأنها ذاتية، فرانسى كانت موجودة، أما يوستيس فقد جاء فى سيارته؛ ووينفريد أحضرت إيموجن، لكى تكسر حالة البرود التى يسببها الطلاق الذى تسير فى إجراءاته فى ظل دفء وتقدير العائلة لالتحاق فال بالجيش؛ وحضرت ماريان تويتيمان ومعها آخر الأخبار عن جايلز وجيس. هؤلاء والعمة چولى وهيستر، الشاب نيكولاس يوفيميا، و... كل الأهل والأقارب!... وچورج الذى أتى مع يوستيس فى السيارة، قد شكلوا اجتماعًا جديرًا بالعائلة. ولم يكن هناك كرسى فارغ فى غرفة الاستقبال، مما جعلهم يشعرون بالقلق خشية أن يصل شخصٌ آخر ولا يجد مقعدًا يجلس عليه.

أجبرهم وجود تيموثى، على توجه المحادثة اتجاها عسكريًا، حيث سأل چورج العمة چوليا عندما كانت ستلتحق بالصليب الأحمر، جعلها تشعر بحالة من السعادة التفت إلى نيكولاس وقال:

- "الشاب نيكولاس محارب جرىء أليس كذلك؟ متى سيقوم بصنع البذلة العسكرية؟"

ابتسم الشاب نيكولاس بنوع من عدم الاستنكار؛ فقد أبلغوه أن أمه كانت قلقة للغاية، وكانت العمة چولى تقرقر، وچورچ كان مسليا! هل يمكن لـ هيستر أن تحضر خريطة تيموثى؟ ثم يمكنه أن يريهم أين كانوا.

عَبَّرَ صوت تيموثى عن موافقته، وخرجت العمة هيستر من الحجرة لتحضر الخريطة.

وقد تابع چورچ تصوره لنمو عائلة فورسايت، لَقَّبَ تيموثى بالفيلد مارشال(*)؛ وإيموجن التى لاحظها كفتاة جميلة!... مثل فيفانديرا، ثم أمسك قبعته بين ركبتيه، وبدا ينقر عليها بأصابعه. وضحك الجميع... فقد كان سلوك چورچ فوضويا؛ لكن الجميع شعروا أن العائلة تفسد؛ وهذا بدا لهم غير طبيعى. الآن، بهذا، سيكون خمسة من أفراد العائلة قد دخلوا فى خدمة المملكة. ربما يرحل چورچ بعيدا الآن، وكان هناك شعور بالارتياح عندما نهض ومد يديه للعمة چوليا، وسار ناحية تيموثى وحياه ثم قبله وقال:

(*) الفيليد مارشال: رتبة عسكرية تعطى لكبار الضباط الذين شاركوا فى ميدان الحرب مشاركة فعلية.

"أوه! ما هذه المعاملة، يا عزيزى! تعال، يا يوستيس!"

وخرج يتبعه الحزين يوستيس الذى لم يبتسم قط.

ثم ارتبكت العمة چوليا وقالت:

- "تخيلوا لم ينتظر حتى تأتى هيستر بالخريطة! لا تشغل بالك به، يا تيموثى. إنه مهرج!"

وحرك تيموثى يديه من فوق فمه. سمعوه يقول:

- "لا أعرف إلام ستئول الأشياء، ما كل هذه الأخبار عن الذهاب إلى هناك؟ هذه ليست الطريقة لهزيمة هؤلاء البوير"

فرانسى وحدها كان لديها صعوبة فى أن تلاحظ:

"ماذا بعد ذلك، يا عمى تيموثى؟ كل هؤلاء المتطوعين وهذه النفقات... تتسبب فى تدفق الأموال خارج البلد".

ثم أحضرت العمة هيستر الخريطة، وكانت تعاملها كطفل مدلل، ثم وضعتها على البيانو بمساعدة يوفيميا. وقد كان معروفًا أن هذا البيانو قد عزف عليه آخر مرة فى الصيف الذى سبق وفاة العمة آن منذ ثلاثة عشرة عامًا، ونهض تيموثى، ثم سار ناحية البيانو، ووقف ينظر إلى خريطته بينما كانوا يلتفون حوله. قال:

- "ها أنتم هناك، هذا هو الوضع الجديد، وياله من وضع بائس"

قالت فرانسى بجرأة شديدة:

- "نعم، لكن كيف ستغيره، يا عمى تيموثى، بدون المزيد من الرجال؟".

رد تيموثى:

- "الرجال! أنت لا تحتاجين إلى رجال، وتهدرين أموال البلاد. أنت تحتاجين إلى شخص مثل نابليون، كان سينهى الأمر فى شهر".

- "وماذا إن لم يكن لديك نابليون، يا عمى تيموثى؟".

رد تيموثى:

- "هذه هى القضية إذا، لماذا أبقينا على الجيش، لكى يأكلوا رءوسهم فى وقت السلام! يجب أن يخجلوا من أنفسهم. يأتون إلى البلد لكى تساعدهم هكذا! فليسمحوا لكل فرد أن يستقر فى عمله، وسوف نتغلب وننتصر".

ونظر حوله ثم أضاف بغضب:

- "التطوع، حقا! إنهم يضيعون المال الذى يجب أن نوفره! يجب أن نحافظ علي الطاقة التى هى الطريق الوحيد للانتصار"

وبصوت طويل، ليس نفسًا وليس نحيزًا، أصدره تيموثى؛ جرح شعور يوفيميا ثم خرج تاركا إحساسًا غريبًا خلفه.

إن تأثير مقولة ما بالإدانة من قبل شخص قام بتضحية لقولها لشيء يؤخذ دائمًا فى الحسبان. وقد تُرِك ثمانية من أفراد عائلة

فورسايت كلهن نساء باستثناء الشاب نيكولاس، كن صامتين للحظة حول الخريطة؛ حتى قالت فرانسى:

- "بالفعل أعتقد أنه على حق، أنتم تعرفون، ما فائدة الجيش؟ يجب أن يعرفوا؛ إنه فقط يشجعهم"

صرخت العمة چوليا:

- "عزيزتى! لكنهم كانوا متقدمين جدا، يفكرون فى خلع بذلهم ذات اللون القرمزى. لقد كانوا دائما فخورين بها، والآن بدوا كلهم مدانين، وقد كنا هيستر وأنا نقول بالأمس فقط إننا كنا متأكدين أنهم يجب أن يشعروا بهذا أكثر. تخيلوا ماذا قال الدوق أيرن؟"

قالت وينفريد:

- "اللون الجديد أنيق، قال" يبدو رائعا تماما فيه"

تنهدت العمة چوليا:

- "أتعجب كيف يبدو ابن چوليون بالفعل، لم نره أبدا من قبل! من المؤكد أن والده فخور به".

- "والده فى باريس" قالت وينفريد

ارتفع كتف العمة هيستر كما لو كانت تصد التعليق التالى لأختها، لأن وجنتى العمة چوليا المكرمشتان توهجتا.

- "بالأمس كان لدينا السيدة ماكانديز الصغرى، عائدة للتو من باريس. وتوقعوا من رأت هناك فى الشارع؟ لن تخمنى"

قالت يوفيميا:

- "لن أحاول، يا عمتى"

- "إيرين! تخيلوا! بعد كل هذا الزمن؛ تسير مـــع شـــخص ذى لحية شقراء"

- "عمتى! أنتِ تمزحين، شخص ذو لحية شقراء...".

قالت العمة چوليا بشدة:

- "كنت سأقول، رجل ذو لحية شقراء، ولم تكبر ولـــو ليـــوم واحد؛ لقد كانت دائما جميلة"، أضافت بنوع مـــن الاعتـــذار المتباطئ.

صاحت إيموجن:

- "أوه! حدثينا عنها يا عمتى، أستطيع أن أتذكرها. لقد كانت مثل هيكل عظمى وسط العائلة، أليس كذلك؟ إنهم مضحكون"

جلست العمة هيستر، حقا، چوليا فعلتها الآن!

تمتمت يوفيميا:

- "لم تكن هيكلاً عظميًا كما تقولين، على ما أتـــذكرها، كـــان قوامها لطيفًا"

قالت العمة چوليا:

- "عزيزتى! يالها من طريقة شاذة وغريبة تتحدثين بها عنها.....ليست لطيفة"

صممت إيموجن:

- "لا، فكيف كانت تبدو إذن؟".

قالت فرانسى:

- "سوف أخبرك يا طفلتى، نوعا من فينوس العصرية، حسنة المظهر جدا"

قالت يوفيميا بحدة: "فينوس لم تكن ترتدى شيئًا، وعيناها كانتا زرقاوين مثل الياقوت الأزرق".

فى هذه المرحلة من الحديث غادر نيكولاس، قالت فرانسى وهى تضحك:

- "السيدة نك صارمة جدا".

قالت العمة چوليا:

- "لديها ستة أطفال، شىء عظيم أن تهتم بهم وتحرص عليهم".

لاحقت إيموجن وهى تحرك عينيها السوداوين من وجه لوجه:

- "هل كان الخال سومز حقا مغرمًا بها؟"

أومأت العمة هيستر بيأس، وأجابت العمة چوليا:

- "نعم، خالك سومز كان مرتبطا بها بشدة".
- "أعتقد أنها هربت مع شخص ما؟".
- "لا، بالتأكيد لا؛ هذا.....ليس مؤكدا"
- "ماذا فعلت إذن، يا عمتى؟".

قالت وينفريد: "هيا، يا إيموجن، يجب أن نعود إلى البيت"

لكن العمة چوليا قالت بتصميم وحزم:

- "إنها... إنها لم تتصرف بأدب"

صاحت إيموجن:

- "أف! هذا أكثر ما يمكننى معرفته دائمًا"

قالت فرانسى:

- "حسنا، يا عزيزتى، كان لها علاقة غرامية انتهت بموت الشاب؛ وبعد ذلك تركت خالك، لطالما أُعجِبتُ بها".

تمتمت إيموجن:

- "اعتادت أن تعطينى الشيكولاتة، ورائحتها كانت رائعة".
- "بالطبع" علقت يوفيميا

ردت فرانسى:

- "ليس بالطبع على كل حال! بشكل خـــاص كانـــت تـــستخدم عطرًا مركزًا وغالى الثمن من زهرة الجيلى لنفسها"

قالت العمة چوليا وهى ترفع يدها:

- "لا أدرى ما الذى نفعله، نتحدث فى مثل هذه الأشياء!"

سألت إيموجن وهى لدى الباب:

- "هل طلقت؟".

ردت العمة چوليا:

- "بالتأكيد لا، هذا لم يحدث".

سمعوا صوتا عند الباب البعيد فقــد دخـــل تيمـــوثى غرفـــة الاستقبال مرة أخرى قائلا:

- "عدت من أجل خريطتى"

ثم قال: "من طلق؟"

أجابت فرانسى بصدق تام: "لا أحد، ياعمى".

التقط تيموثى الخريطة من فوق البيانو.

- "لا تسمحوا بحدوث شىء من هذا النوع فى العائلة، كل هذه الالتحاقات بالجيش سيئة بشكل كاف. البلـــــد ينهــــار؛ لا أعرف إلى أين نذهب"

وأشار بأصبعه إلى داخل الغرفة وقال:

- "هناك العديد من النساء اليوم، ولا يعرفن ماذا يردن".

بينما كان يقول ذلك، أمسك بالخريطة بثبات بكلتا يديه، وخرج كأنه يخاف أن يجيبه أحد.

تمتمت النساء السبع اللاتى خاطبهن، فقالت فرانسى:

- "حقا، آل فورسايت!"

والعمة چوليا قالت:

- "يجب أن يضع قدميه فى الماء الساخن والخردل الليلة"

أما العمة هيستر؛

- "هل ستخبروا چان؟ سرى الدم إلى رأسه ثانية، أنا آسف......".

فى تلك الليلة، عندما كانت هى وهيستر تجلسان وحدهما بعد العشاء، أتمت غرزة بإبرة الكروشية ثم نظرت لأعلى وقالت:

- "هيستر، لا أدرى أين سمعت أن العزيز سومز يريد أن تعود إليه إيرين مرة ثانية. من أخبرنا أن جورج سخر منه بقوله لن يكون سعيدا حتى يحصل عليها"

أجابت العمة هيستر من خلف جريدة التايمز:

- "يوستيس لقد كانت فى حوذته، لكنه لم يُرنا إياها".

كانت العمة چوليا صامتة، تفكر مليًّا. ثم دقت الساعة، صوت طقطقة عقارب الساعة، وتزايد صوت حفيف وخرخرة النار، العمة چوليا أتمت غرزة أخرى.

قالت چوليا:

- "هيستر، أتت إلى هذه الفكرةِ المخيفة"

- "إذا لا تخبرينى" قالت العمة هيستر.

"أوه! لكن يجب أن أقول. لا يمكنك أن تتخيلى كم هى مخيفةَ!" وبات صوتها يهمس:

"چَوليون....چوليون، هم يقولون، إن له، آ... له لحية شقراء، الآن"

الفصل الثانى عشر

التقدم فى المطاردة

بعد مرور يومين من تناول العشاء فى بيت چايمس، أمد السيد بولتيد سومز بمعلومة جديدة ومهمة، قال وهو ينظر فى مفتاح الشفرة فى يده اليسرى:

- "رجل نبيل"، رقم ٤٧ كما نقول قد لفت انتباه رقم ١٧ أثناء الشهر الأخير فى باريس؛ لكن في الوقت الحاضر يبدو أنه لا يوجد شىء حاسم.

وقد كانت المقابلات تتم في أماكن عامة، وليس فى الخفاء.... فى المطاعم، أو الأوبرا، أو متحف اللوفر، حدائق لوكسمبورج، أوصالة الفندق وفي الخارج ولم تدخل غرفته أبدا، ولم يحدث العكس حيث لم يدخل حجرتها، وقد ذهبا إلي "فونتان بلو"... لكن لا شىء له قيمة، باختصار، الموقف يبشر بالخير، ولكن يتطلب بعض الصبر".

ثم نظر لأعلى فجأة، وأضاف:

- "نقطة أخرى تثير الفضول، ٤٧ لديه الاسم نفسه الذى يحمله..... ٣١".

فكر سومز:

"هذا الرجل يعرف أننى زوجها".

استمر السيد بولتيد قائلا:

- "اسم مسيحى غريب، چوليون، نحن نعرف عنوانه فى باريس ومكان إقامته هنا. أتمنى بالطبع ألا نسير فى الاتجاه الخطأ".

قال سومز:

- "استمر، لكن كن حريصا".

شعر سومز بفطرته أن هذا المخبر فهم سره، وهذا ما جعله يلزم الصمت أكثر. قال السيد بولتيد:

- "إئذن لى، سوف أرى إن كان هناك شىء جديد".

ثم عاد ومعه بعض الخطابات، وأغلق الباب بالمفتاح مرة أخرى، ثم نظر خلسة إلى الخطابات:

- "نعم، هناك خطاب شخصى من ١٩ لى"

قال سومز: "حسنٌ".

قال السيد بولتيد:

- "تقول: إن ٤٧ غادر عاد لإنجلترا اليوم. العنوان على أمتعته "روبين هيل". افترق عن ١٧ فى صالة عرض اللوحات فى

متحف اللوفر فى الساعة الثالثة والنصف، لا شيء ذو أهمية، أعتقد أنه من الأفضل أن أبقى وأستمر فى ملاحظة ١٧، التى سوف تتعامل مع ٤٧ فى إنجلترا، إن كان هذا مرغوبًا بلا شك".

ثم نظر السيد بولتيد بطريقة لا تليق إلى سومز، كما لو كان سيجمع المادة لكتاب عن الطبيعة الإنسانية بعدما يترك العمل ويتقاعد:

- "امرأة ذكية جدا ١٩ هذه ورائعة؛ لأنها تكسب مالها بطريقة جيدة، لا عجب أنها تُراقِب هكذا، ولكن بمرور الوقت كما نعرف الأشخاص ذوى الحساسية العالية يشعرون بهذا، وإذا كنا نريد الاستمرار، فإنى أقترح أن نترك مؤقتًا مراقبة ١٧ ونبقى العين على ٤٧، لا يمكننا أن نتراسل بدون خطر كبير. أنا أنصح بشدة بهذا فى هذه المرحلة؛ لكن يمكنك أن تخبر موكلك أن ذلك يبدو جيدا،"

ومرة أخرى سطعت عيناه الضيقتان حين نظر إلى عميله قليل الكلام.

"لا" قال سومز فجأة، "من الأفضل أن تبقى المراقبة فى باريس ولا تهتم بالطرف الآخر".

رد السيد بولتيد:

- "حسنا" "يمكننا أن نفعل هذا"

"... ما طبيعة العلاقة بينهما؟".

قال السيد بولتيد:

"سوف أقرأ لك ما كتبته".

ثم فتح درج المكتب ليلتقط ملفًا به أوراق، فقد لخصت هذا فى جزء ما هنا بشكل سرى، نعم ها هو ذا:

- "١٧ جذابة جدًا، ٤٧ أكبر سنًا؛ من الواضح أنه يعيش منتظرًا دوره، ١٧ ربما تكبح نفسها لكن لوقت معين، بالتفكير فى الأمر إجمالاً تبدو لا تعرف ما تريد، ويومًا ما ربما تتصرف بعفوية، الاثنان لديهما حس فنى وأناقة".

قرأ الخطاب ثم قال سومز من بين شفتين مغلقتين:

- "ماذا يعنى هذا؟"

تمتم السيد بولتيد باتسامة، أظهرت العديد من الأسنان البيضاء:

"حسنًا"، "تعبير نستخدمه، بطريقة أخرى، نهاية الأسبوع مشحونة بالأعمال، سوف يفعلون شيئًا ما ذا أهمية معًا أو لن يفعلوا أبدا.

تمتم سومز: "آه! هذا كل شىء، أليس كذلك؟".

قال السيد بولتيد: "بلى، لكنه مبشر".

فكر سومز: "رجل كالعنكبوت"، وقال: "إلى اللقاء".

ذهب سومز إلى جرين بارك، وربما يمر على محطة فيكتوريا ويأخذ المترو إلى المدينة؛ ولأنهم كانوا فى أواخر يناير؛ فقد كان الجو دافئا؛ مشمسا، عير الضباب، ويتلألأ العشب الذى يغطيه الصقيع، بيت العنكبوت، العناكب الصغيرة والعناكب الكبيرة! وشبكاتها وشبكته الخاصة الأكثر لزوجة، دائما تلف شرنقتها حول أى شىء أى طريق واضح، ما الذى لاحظه هذا الرجل حول إيرين؟ هل حقا كما اقترح بولتيد؟ أو أن جوليون فقط كان يشفق عليها فى وحدتها، كما يمكن أن نسميه، رجلاً عاطفيًا متطرفًا كما يكون دائما؟ لو أن الأمر حقا! كما أشار بولتيدا... توقف سومز فلا يمكن أن يكون الرجل هكذا! فالرجل أكبر منه بسبع سنوات، ليس أفضل منه فى المظهر! ليس أغنى منه! ما الذى جذبها إليه!

إلى جانب ذلك، فقد عاد من باريس. فكر سومز:

– "هذا لا يبدو منطقيًا، سوف أذهب وأقابله!" والتقط بطاقة، كتب عليها.

"إذا لم تكن مشغولا" مدة نصف ساعة بعد الظهر من هذا الأسبوع سوف أكون فى نادى "كوتاسيرز" فى أى يوم بين الساعة الخامسة والنصف والساعة السادسة، أو يمكننى أن أحضر إلى هوتش بوتش لو أنك تفضل ذلك، أريد أن أراك...

سومز فورسايت

ثم سار إلى شارع چايمس وأعطى البطاقة إلى البواب فى نادى هونتش بونتش وقال:

- "أعطِ هذا للسيد چوليون فورسايت بمجرد أن يأتى" ثم أخذ سيارة تاكسى إلى المدينة... تسلم چوليون هذه البطاقة فى ظهر اليوم نفسه، وذهب إلى نادى كونواسيرز "ماذا يريد سومز الآن؟ هل أتته أخبار من باريس؟ وهو يخطو عبر شارع چايمس، عقد العزم ألا يخفى أمر زيارته لها" لكنه فكر:

- "هذا لن يجدى، فسوف يعلم أنها هناك، إذا لم يكن يعلم بالفعل".

فى هذه الحيرة، وصل إلى حيث كان سومز الذى جلس يشرب الشاى بجوار نافذة بارزة صغيرة.

قال چوليون:

- "لا أريد شايًا، شكرا، لكن سوف أدخن سيجارة لو أمكن".

لم تكن الستائر مفتوحة، على الرغم من أن المصابيح بالخارج كانت مضاءة، وجلس ابنا العم، ينتظر كلٌّ منهما الآخر ليبدأ.

قال سومز أخيرا:

- "لقد سمعت أنك كنت فى باريس".

- "نعم، وصلت للتو".

- "أخبرنى ڤال، هو وابنك سيرحلان، إذن؟"

أومأ چوليون برأسه.

- "ألم تر إيرين، من الواضح أنها بالخارج فى مكان ما؟"

التفت چوليون لينفث دخان السيجار قبل أن يجيب:

- "بلى، لقد رأيتها".

- "كيف كانت حالها".

- "بخير تماما".

ساد الصمت مرة أخرى؛ ثم نهض سومز من مقعده وقال:

- "عندما رأيتك آخر مرة، كنت بين رأيين، تحدثنا، وعبرت لى عن رأيك ولا أرغب فى فتح المناقشة مرة أخرى، لكننى فقط أردت أن أقول: إن وضعى معها صعب للغاية. لا أريـدك أن تستخدم نفوذك وتأثيرك ضدى، ما حدث كان منذ فترة طويلة. سوف أسألها أن ننسى الماضى ونبدأ من جديد".

تمتم چوليون: "ولكنك قد سألتها بالفعل"!!

- "الفكرة كانت غريبة عليها حينها، أتت مثل صدمة، لكـن إذا فكرت مليا فيها، فسوف تتأكد أنها المخرج الوحيد لكلينا".

قال چوليون بهدوء شديد:

- "هذا ليس انطباعى عن رأيها، سامحنى فى القول، إنك أسأت فهم الأمر، لو كنت تعتقد أن الأمر له علاقة بالعقل والمنطق".

لاحظ أن وجه ابن عمه الشاحب يزداد شحوبا فقد استخدم، دون أن يدرى كلمات إيرين. تمتم سومز:

- "شكرا، لكنى أرى أشياء ربما أكثر وضوحا مما تعتقد، أنا فقط أريد أن أكون متأكدًا أنك لم تحاول التأثير فيها ضدى".

قال چوليون:

- "لا أدرى لِمَ تظن أن لدى تأثيرًا فيها لكننى فقط أفعل ما أظن أنه فى مصلحة سعادتها، فأنا أعتقد أننى من يسمونه نصير النساء".

- "نصير النساء كررها سومز، كما لو أنه يسعى لأن يكسب وقتًا، هل هذا يعنى أنك تقف ضدى؟"

قال چوليون:

- "بصراحة تامة، أنا ضد أن تعيش امرأة مع رجل تكرهه تمامًا، يبدو لى هذا شيئًا عفنا ومزعجًا".

- "وأفترض أنك فى كل مرة تراها تزج بآرائك هذه فى عقلها".

- "لست أبدوَ رجلاً يراها بانتظام".

- "ألن تعود إلى باريس؟

قال چوليون مدركا قصدية مراقبته فى وجه سومز:

- "لا، ليس قريبًا على ما يبدو".

- "حسنا، هذا كل ما يمكننى قوله، أى شخص يدخل بين رجل وزوجته، أنت تعرف، يجلب على نفسه مسئولية ثقيلة".

نهض چوليون وانحنى انحاءة خفيفة قائلاً: "إلى اللقاء" وبدون مصافحة باليد، ذهب تاركًا سومز يحدق فيه من الخلف. فكر چوليون وهو يستقل العربة:

- "نحن أبناء عائلة فورسايت، متحضرين، لو أن ابنى لم يكن ذاهبًا للحرب... الحرب".

ثم ساورته نفحة فجائية من الشك. حرب قيم! هيمنة على الناس والنساء! محاولات التسيد وامتلاك هؤلاء الذين لا يريدونك! إنكار السلوك والآداب اللطيفة، غريزة الامتلاك، الحقوق المكتسبة، وكل من يرفض هذا يصبح منبوذًا، قال:

- "حمدًا لله أنى أشعر دائمًا برفض هذا".

حتى إنه يتذكر قبل زواجه الأول المشئوم؛ الاهتياج فى أيرلندا المرغومة على أمرها، وقضايا الزواج المتعلقة بالنساء اللواتى

يحاولن التحرر من رجال يشعرهن بالاشمئزاز، الكهنة يفهمــون أن حرية الروح والجسد أشياء مميزة ومختلفة، مبدأ خبيث وعقيدة فاسدة، وعلى هذا فالجسد والروح لا يمكن أن ينفصلا، ولكن الإرادة الحــرة هى القوة لأى رباط وليست نقطة ضعف، فكر:

- "كان يجب أن أخبر سومز، أنه مثير للــسخرية، ومــسكين أيضًا!"

هل كان هناك أى شىء آخر، حقا، أكثر مأساوية فى العــالم من رجل استعبدته غريزة التملك، لم يتمكن من رؤية الحيــاة علـــى حقيقتها، أو أن يتدخل فيما يشعر به شخص آخر! يجب أن أكتب لها وأحذرها؛ فسوف يحاول مرة أخرى، وعلى طول الطريــق إلـــى روبين هيل، ثار على قوة هذا الواجب تجاه ابنه الأمر الذى منعه من إرسال خطاب بالعودة إلى باريس.

لكن سومز جلس طويلا على مقعده، فريــسة يقــضمه الألـــم والغيرة، كما لو كان قد اكتشف أن هذا الرجل سبقه ونــسج خيــوط المقاومة فى طريقة.

- "هل هذا يعنى أنك تقف ضدى؟"، لم يُحَصِّل شيئًا مــن هــذا السؤال غير الصريح. "تصير النــساء"، هــراء، ينبغـــى ألا أستعجل الأمور، فلن يعود إلى باريس، إن لم يكن يكــذب، سوف أنتظر حتى الربيع، فكر كيف يمكن أن يخدمه الربيع، يضيف إلى ألمه، لم يعرف، وحدق فى الأسفل فى الــشارع،

حيث يرى الأشكال أمارة يعبرون من بقعة ضوء إلى أخرى تحت المصابيح، ثم فكر.

"لا شيء يبدو جيدا على أى حال.... لا شيء يستحق، أنا أشعر بالوحدة، هذه هى المشكلة".

أغلق عينيه، وعلى الفور بدا يرى إيرين فى شارع مظلم بجوار كنيسة، تدير رقبتها حتى يرى عينيها وجبهتها البيضاء تحت القبعة السوداء الصغيرة التى تتخللها خيوط ذهبية، ووشاح يتدلى خلفها، فتح عينيه... رآها بوضوح شديد! امرأة كانت تمر فى الشارع، لكن ليست هى!

أوه، لا، لم يكن هناك أى شيء على الإطلاق!

الفصل الثالث عشر

ها نحن من جديد

كانت فساتين ايموجن فى موسمها الأول تراعى ذوق أمها ورأيها وإنفاق جدها خلال شهر مارس، وكعادة أفراد عائلة فورسايت كانت وينفريد تحب الكمال فى كل شيء، لقد أقلعت عن التفكير فى الطقوس التى يمكن أن تعطيها حريتها، المشكوك برغبتها فيها أصلا، كذلك أقلعت عن التفكير فى ولدها ورحيله الوشيك جدا من أجل الحرب التى صارت أخبارها مضطربة.

ومثل النحل المتهمك جدا على أزهار الصيف أو الفراشات اللامعة الهائمة التى تحلق وتندفع بسرعة فوق أزهار الخريف، كانت هى وابنتها الشابة التى كان لها طول أمها تقريبًا ومقاس صدر لا يصغره بكثير، قد ترددتا على المحلات فى شارع ريجنيت، والمتاجر فى ميدان هانوفر وشارع بوند، وكانتا تهتمان باختيار الأقمشة، بينما كانت أعداد من الفتيات ذوات التصرفات العجيبة والمشيات الشاذة غير المألوفة يستعرضن الموديلات... الجيدة جدا والحديثة أمام ايموجن ووينفريد... التى تحولتا عنها على مضض، كانت كثيرة، من الممكن أن تملأ متحفًا وتفرغ رصيد چايمس من البنك ليس جيدًا، عدم إنجاز الأعمال الكاملة، لذلك شعرت وينفريد

من وجهة نظر الحاجة إلى ضرورة أن تجعل هذا الموسم الأول فريدا وناجحا. كانت التجربة لـ ايموجن غير سارة بالمرة، لكنها بدت رائعة على كل حال وقد كانت تُتَمَلق فى كل مكان، لقد كان هذا مسليًا وممتعًا.

فى ظهر العشرين من مارس، قبل أن يصلوا إلى سكاى ورديس اشتروا المشروبات، وهم على طريق كراميل وبيكار وأخذوا الكثير من الشيكولاتة المغطاة بالكريمة، ثم عادوا أدراجهم إلى البيت عبر ميدان بيركلى فى ليلة تشبه ليالى الربيع، فتحوا الباب.. المطلى حديثا بلون زيتونى فاتح، لم يهملوا أى شىء فى العالم حتى يقيموا حفلة وداعٍ رائعة لـ ايموجن.... سارت وينفريد باتجاه السلة الفضية لكى ترى ما إذا كان أحد قد زارهم أم لا، وفجأة اختلج أنفها، ما هذه الرائحة؟

أخذت ايموجن رواية أرسلت من المكتبة، ووقفت مستغرقة بعمق؛ بسبب الإحساس الغريب الذى خالجها، ثم قالت لها وينفريد:

- "خذيها إلى أعلى، يا عزيزتى، واستريحى قبل العشاء".

وبينما كانت ايموجن تصعد إلى أعلى، فإنها كانت تقرأ باستمرار، وعندما سمعت وينفريد صوت باب حجرتها يغلق بعنف أخذت نفسًا طويلاً، هل كان الربيع يبهج إحساسها، يخطفها حنين غير سوىٍّ إلى الماضى، مهرج فى مواجهة الحكمة مكتملة.

رائحة رجالى! رائحة سيجارة ضعيفة وماء اللافندر لم تشمهما منذ الخريف الماضى، أى منذ ستة أشهر، عندما نادته بأنه تعدّ للحدود.

"من أين أتت تلك الرائحة؟ أهى بقايا رائحة انبثقت من ذكرياتها؟"، نظرت حولها لا شىء، لا يوجد أى صوت فى الصالون، ولا فى حجرة تناول الطعام، كانت هناك كروت جديدة فى السلة الفضية، اثنين من السيد والسيدة بولجيت، تشممتها، ولكن كانت رائحتهما عادية، لابد أنى متعبة، سوف أذهب لأرتاح قليلا، بالأعلى كانت غرفة الاستقبال مظلمة، بانتظار من يضيئها فى الليل، ثم سارت إلى حجرة نومها التى كانت هى الأخرى خافتة وستائرها نصف مفتوحة؛ فقد كانت الساعة السادسة، وخلعت وينفريد معطفها... تلك الرائحة ثانية!... ثم وقفت كما لو كانت قد صدمت، تسمرت مكانها فعند قضبان السرير كان شىء ما أسود اللون ينهض من الأريكة فى الزاوية البعيدة، كلمة تدل على الرعب... فى عائلتها،

- "يا إلهى!"

قال الصوت:

- "انه أنا... مونتى".

أمسكت قضبان السرير، ثم نهضت وأدارت مفتاح النور فى حجرة ارتداء الملابس الخاصة بها ظهرًا للتو على حافة محيط دائرة

الضوء، صدره ووجهه كانا غير واضحين قليلاً، كان يبدو نحيفًا أو هذا هو تأثير الإضاءة، تقدم قليلاً فبدا واضحًا الآن من أخمص قدميه إلى شعر رأسه الداكن، غابت عنه علامات النبالة من سلسلة ساعة فى أسفل جيبه وحتى مقدمة حذائه؛ بُنيَّة نظيفة، ولكن منفرجة من الأمام، من المؤكد أنه قد شاب قليلا! كان وجهه مكفهرا، شاحبًا، وشاربه الأسود قد فقد بروزه، أصبح شكله ساخرًا، ظهرت على وجهه خطوط لم تعرفها من قبل، لم يكن هناك دبوس فى رابطة عنقه. بذلته... آه!... لقد عرفت ذلك.... ليست مهندمة، غير معقولة! ثم حدقت مرة ثانية فى حذائه، شيء ما قاس حدث له، شيء سحقه وأذله وأعاده، بقيت وينفريد ساكنة لا تتحرك، بل أخذت تحدق فى مقدمة حذائه المنفرجة. قال:

– "حسنا! لقد وصلنى الخطاب، وقد عدت".

بدأت وينفريد تتنفس الصعداء، فالحنين إلى زوجها الذى حركته تلك الرائحة كان يكافح بغيرة أعمق مما شعرت به أبدا، ها هو ذو خياله القاتم يساق بالقوة لشخصيته المعسولة والصفيقة، ما القوة التى فعلت به هذا، عصرته مثل البرتقالة حتى آخر نقطة! تلك المرأة!

"عُدْتُ" قالها ثانية:

– "لقد مررت بفترة سيئة من حياتى، يا إلهى!، جئت فى أرخص مكان للسفر، على ظهر سفينة، لا أملك أى شىء سوى ما أرتديه وهذه الحقيبة".

صرخت وينفريد فجأة:

- "ومن لديه الباقي، كيف تجرأ أن تعود إلي هنا، أنت تعرف أنك لم تتسلم هذا الخطاب إلا من أجل إجراءات الطلاق، لا تلمسني".

أمسكا في قضبان السرير الكبير، حيث قضيا العديد من الليالي معا طوال السنوات الماضية مرات عديدة، نعم.... مرات عديدة أرادته أن يعود، ولكن الآن حال عودته، ملأها هذا الشعور بالاستياء - شعور بارد وقاتل.

وضع يده على شاربه، لكن لم يبرمه أو يلويه كعادته القديمة المألوفة، بل سحبه لأسفل:

- "لو تعرفين كيف كنت أعيش هناك؟ هائمًا على وجهي".

- "سعيدة لأنني لا أعرف!"

- "هل الأولاد بخير؟"

أومأت وينفريد برأسها "كيف دخلت إلى هنا!"

- "بمفتاحي".

- "إذن فالخدم لا يعرفون بوصولك، لا يمكنك أن تبقى هنا يا مونتي؟".

ارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة:

- "أين إذن؟"

- "فى أى مكان؟"

- "حسنا، انظرى إلى هذه الملعونة..."

صرخت وينفريد:

- "لو ذكرتها سأذهب إلى بارك لين ولن أعود".

فجأة، فعل شيئًا بسيطًا، لكنه غير مميز حتى إنه أثارها، أغلق عينيه كما لو كان يقول:

- "حسنا، أنا ميت فى نظر الناس!"

قالت:

- "يمكنك أن تبقى فى إحدى الغرف الليلة، أشياؤك الخاصة مازالت هنا، لا يوجد هنا أحد من الأولاد فى البيت سوى إيموجن"

سند على قضبان السرير قائلاً:

- "حسنا، الأمر كله بين يديك"، لقد عانيت كثيرا بما فيه الكفاية، فلا داعى للقسوة... الأمر لا يستحق كل هذا، أشعر بالخوف.. أشعر بالخوف يا فريدى"

اسم التدليل الذى لم يستخدم، ولم تسمعه لسنوات طويلة أصابها برعشة، فكرت:

– "ماذا أفعل معه؟ ماذا علَى بحق الرب أن أفعل؟"

قال:

– "هل يمكن أن آخذ سيجارة؟"

أعطته واحدة من صندوق صغير أبقته هناك لكى تدخن، عندما لا تتمكن من النوم بالليل وأشعلتها، وفى الحقيقة قد أحيا ذلك أشياء كثيرة بداخلها.

– "اذهب وخذ حمامًا دافئًا وسوف أجهز لك بعض الملابس ويمكننا أن نتحدث فيما بعد".

أومأ برأسه وتركزت عيناه عليها، بحيث بدوا ساكنين كالموتى، أو كأنهما كانا غير قادرين على طى أهدابهما. فكرت:

– "إنه ليس الرجل الذى عرفته، لو لم يكن هو فماذا سيكون؟"

قال: "حسنا"، وسار ناحية الباب متحركًا بشكل مختلف، مثل رجل فقد الأوهام والشكوك حول ما إذا كان يستحق أم لا.

عندما ذهب وسمعت وينفريد صوت الماء ينـدفع؛ أخرجت ملابس كاملة ووضعتها فى غرفة تغيير الملابس ونزلت إلى الطابق السفلى وأحضرت بعض البسكويت والويسكى وارتدت معطفها ثانية،

ثم سارت إلى الشارع فى تردد، إنها الساعة السابعة الآن "هل سيكون سومز فى ناديه أو فى بارك لين؟" وأسرعت نحو بارك لين؛ فقد كان سومز خائفا على الدوام من أن يحدث هذا...، أحيانا تمنت ذلك... أن يعود، هكذا تحبه مهرجا، ها نحن من جديد! سوف تجعل منهم جميعًا حمقى، القانون، سومز، ونفسها! ناهيك أنه سيحدث بالقانون، ألا تكون لديها تلك السحابة المظلمة عليها وعلى أولادها! يا له من شعور بالارتياح! آه! لكن كيف تتقبل عودته؟ هذه المرأة دمرته، أخذت منه عاطفته وحبه وهما ما لم يمنحه لها، حتى إنها ظلته غير قادر على المنح، كانت هذه الوخزة التى أفاقتها، هذا المهرج الوقح والتى لم تسخر منه فى يوم من الأيام، قد أهين وسحق من قِبَل امرأة أخرى،

مهين! مهين جدا ليس من الصواب، وليس من الحكمة أن تقبل عودته، وهذا ما طلبته؛ القانون سيحقق لها هذا! لقد كان زوجها كما كانت زوجته، فكرت في الموضوع بعيدا عن المحكمة! وكل ما أراده، لا شك، هو المال؛ لكى يشترى السيجار وعطر اللافندر! تلك الرائحة! بعد كل هذا، فكرت:

- "لست متقدمة فى السن، لكن تلك المرأة التى جعلته يتدلى ليقول تلك الكلمات. أنا خائف... خائف يا فريدى!"

اقتربت من بيت أبيها. بينما طوال الوقت كان التيار بداخلها كـ فورسايت يشدها إلى نتيجة وهى أنه أحد ممتلكاتها وتفضل الاحتفاظ به على أن تتركه يُسرق منها، بهذه الفكرة دخلت إلى بيت أبيها؛

- "السيد سومز في حجرته سوف أصعد له؛ لا تقل إنني هنا؟"

كان أخوها مرتديًا ملابسه، وجدته يقف أمام المرآة، قال وهو يتأملها في المرآة:

- "مرحبا، ما الأمر؟".

قالت وينفريد بطريقة جافة: "مونتي!"

التفت سومز إليها: "ماذا؟"

- "لقد عاد!"

تمتم سومز "لماذا لم تسمحي لي استخدام الشدة والقسوة؟ علمت دائما أن هناك مخاطرة في هذه الطريقة

- "لا تتحدث هكذا، وقل لي ماذا سأفعل؟"

أجاب سومز، بصوت شديد العمق:

- "حسنا، ماذا قال ليبرر ما فعله؟"

- "لا شيء"

حدق سومز في وجهها وقال:

- "آه!" بالطبع! ليبدأ مرة ثانية. هذا سوف يقضى على أبى"

- "ألا يمكننا أن نبقى هذا الموضوع بعيدا عنه؟"

- "مستحيل، لديه نفاذ بصيرة بشكل غريب جدا بالنسبة لأى شىء مقلق؟"

وأطال التفكير، وأصابعه تمسك بشيالات بنطلونه الزرقاء الحريرية، تمتم:

- "لا بد أن هناك طريقة قانونية، لكى تجعله مأمونًا".

صرخت وينفريد:

- "لا، لا، لن أرتكب حماقة أخرى، سوف أتحمله"

حدق كل منهما فى الآخر، وعلى الرغم من أن قلبيهما كانا مليئين بالإحساس، فإن ذلك لم يظهر على وجهيهما... إنهما من عائلة فورسايت.

- "أين تركته؟"

"فى الحمام"، ابتسمت ابتسامة مُرَّةً، "الشىء الوحيد الذى عاد معه عطر اللافندر"!

قال سومز:

- "اهدأى!" أنتِ مضطربة تماما، سوف أعود معكِ إلى البيت".

- "وما الفائدة. يجب أن نتناقش، ونضع معه شروطًا واتفاقات، سيعود كما كان دائمًا عندما يشفى، الورق والمراهنة. السكر و...!".

ثم صمتت لتتذكر النظرة على وجه زوجها، الطفل المحترق، ربما كان كالطفل المحترق! أجاب سومز:

- "يشفى؟ هل هو مريض؟"

"لا، أحترق، فقط، هذا كل ما فى الأمر"

التقط سومز الصديرية من فوق الكرسى وارتداها، أخذ معطفًا ولبسه، ثم منديله المعطر بماء الكولونيا ووضع ساعته وقال:

"ليس لدينا أى حظ".

وفى وسط انزعاج وينفريد وقلقها كانت آسفة جدا عليه، كما لو كانت الكلمة الصغيرة قد كشفت عمق انزعاجه بمشكلته الشخصية. قالت:

- "أود أن أرى أمى"

- "إنها مع أبى فى حجرتها، انزلى بهدوء إلى حجرة المكتب وسوف أحضرها".

نزلت وينفريد خلسة إلى الطابق الأسفل ودخلت إلى حجرة المكتب الصغيرة المظلمة، والذى كان به بعض التقارير القانونية، لم تقرأ أو تفتح لأعوام، وقفت وظهرها للستائر المغلقة ذات اللون العسلى تحدق فى الموقد الفارغ؛ حتى دخلت أمها ويتبعها سومز. قالت ايملى:

- "أوه، عزيزتى المسكينة! تبدين بائسة جدا هنا من المؤكد أن هذا سيئ جدًا بالنسبة له".

كعائلة حموا أنفسهم من العاطفة الرائجة التى يمكن أن تغمر العديد من الناس ولذلك كان من المستحيل أن تذهب وتحضن ابنتها لتواسيها، لكن كان هناك ارتياح فى صوتها الذى يشعرها بالحماية، وأكتافها تحت الدانتلا السوداء، استدعاء الفخر وعدم الرغبة فى إزعاج والدتها، قالت وينفريد:

- "حسنا يا أمى، كفى تدليلاً"

قالت ايميلى وهى تنظر لـ سومز:

- "لا أفهم لماذا لم تخبره وينفريد بأنها سترفع دعوى ضده، لو لم يترك البيت لقد أخذ جواهرها ولم يعدها، هذا كافٍ تماما".

ابتسمت وينفريد. سيقدمون العديد من الاقتراحات، لكنها عرفت بالفعل ماذا ستفعل، وتلك كانت.... لا شيء، الإحساس، إنها بعد كل هذا، فازت بنوعٍ من الانتصار أعاد لها ما امتلكته، كان للحظة قد استحوذ عليها، لا إنها أرادت معاقبته، ستفعل ذلك فى البيت وليس على مرأى ومسمعٍ من الناس.

قالت ايملى:

"حسنا، ادخلى إلى حجرة الطعام بهدوء يجب أن تبقى وتتناولى العشاء هنا واتركى لى أمر إخبار والدك".

فتحركت وينفريد باتجاه الباب وأشعلت النور، وإلى هذا الحين لم يكونوا قد وعوا إلى الكارثة فى الطرقة، لقد اجتذب الضوء المنبعث من حجرة لم تكن مضاءة أبدا شخصًا ما، چايمس واقفا يرتدى شاله الداكن اللون المصنوع من شعر الجمال، لذلك لم تكن ذراعاه منطلقتين، وبدا شعره الأشيب مقصوصا، وقف چايمس بشكل فريد وعلى وجهه تعبير كما لو أنه رأى أمامه ضفدعة كبيرة جدا تريد أن تبتلعه.

قال:

– "ما الأمر؟ أخبرى والدك؟ أنتم لا تخبرونى بشىء أبدا؟"

فى اللحظة التى لم تجد فيها ايملى ردًا ملائمًا؛ كانت وينفريد قد ذهبت إليه ووضعت يدها على ذراعيه المسكينتين، وقالت: "مونى لم يفلس يا أبى، إنه فقط، قد عاد، توقع الثلاثة أن يحدث شىء غريب وكانوا سعداء أنها بقيت ممسكة بذراعيه، لمعرفتهم بعمق أصالة ذلك الرجل الجد غير واضح المعالم من عائلة فورسايت، شىء ما فى فمه وذقنه المحلوق، شىء ما بين سوالفه الطويلة الشيباء ثم قال بنوع من الهيبة:

– "عرفت كيف سيكون موتى، إنه سيكون المتسبب فيه".

قالت وينفريد بهدوء:

"لا تقلق يا أبى، سوف أجعله يحترم نفسه، ويتصرف بطريقة لائقة".

هنا قال چايمس: "آه، اخلعوا عنى هذا الشىء، أنا أشعر بالحر".

خلعوا عنه الشال، التفت وسار بحزم إلى حجرة الطعام، قال لـ ورومسون:

- "لا أريد حساء".

وجلس فى مقعده ثم جلسوا جميعا وهى لا تزال ترتدى قبعتها، بينما كان "وورمسون" قد جهز المكان الرابع على السفرة، وعندما ترك الحجرة، قال چايمس

- "ما الذى أعاده معه؟"

- "لا شىء يا أبى".

ركز چايمس فى صورته المنعكسة على ملعقة السفرة وتمتم:

"الطلاق، هراء! ما الذى أفعله؟ يجب أن أدفع له لكى يبقى بعيدا عن إنجلترا، اذهب إليه يا سومز وأعرض عليه هذا".

لقد بدا اقتراحا بسيطًا وصائبًا حتى إن وينفريد كانت متفاجئة عندما قالت:

- "سوف أحتفظ به ما دام قد عاد، يجب أن يحترم نفسه.... هذا كل ما فى الأمر".

نظروا جميعا إليها، كان معروفا عن وينفريد أنها دائما جريئة.

قال چايمس:

- "من يعرف ماذا حدث له بالخارج، ربما يكون قد أفلس! فتشى عن مسدسه(*)، لا تذهبى للنوم دون أن تفعلى. يجب أن تأخذى وورمسون لينام فى البيت، سوف أراه غدا بنفسى".

لقد أثَّر فيهم ذلك التصريح الذى أدلى به چايمس، وقالت إيملى بارتياح:

- "هذا صحيح يا چايمس، يجب أن نضع كل الاحتمالات فى الحسبان".

تمتم چايمس: "آه لا أعرف".

حوَّل قدوم وورمسون بطبق السمك اتجاه المناقشة والحديث.

بعد العشاء، عندما ذهبت وينفريد لكى تقبل أباها وتقول له؛ "تصبح على خير"، نظر بعينين يملؤهما التساؤل والحزن، وهذا ما جعلها تتكلم بكل ارتياح تقدر عليه حتى تطمئنه.

- "كل شىء على خير ما يرام، يا أبى، لا تقلق، لن أحتاج إلى أى أحد... إنه لطيف، سوف أكون حزينة فقط إذا شعرت أنت بالقلق، تصبح على خير، باركك الرب!"

(*) كان من عادة المفلسين أن ينتحروا بإطلاق الرصاص على أنفسهم.

كرر جايمس الكلمات ذاتها "باركـكى الرب!" كمـــا لو كـــان لا يعلم تماما ماذا تعنى هذه الكلمات، وتابعها بعينيه حتى الباب.

وصلت إلى البيت في الساعة التاسعة ثم صعدت إلى أعلى.

كان دارتى يرقد فى حجرة الملابس، وقد ارتدى البذلة الزرقـــاء، كانت يداه معقودتين خلف رأسه ورائحة السجائر تنبعث من فمه.

تذكرت وينفريد بشكل يثير الضحك الزهـــور فـــى صـــناديق نافذتها بعد يوم صيفيٍّ حار جدا، حين ذبلـــت قلـــيلا، أو بـــالأحرى وقفت..... تيبست تربتهم، ثم ارتاحوا بانسحاب الـــشمس وغروبهـــا، كان كما لو أن قطرات ندى سقطت بالفعل على زوجها المحترق.

قال وهو متبلد الإحساس:

- "أظن أنكِ كنتِ فى بارك لين. كيف حال الرجل الجد؟".

لم تجد وينفريد سوى هذه الإجابة المرة: "ليس ميتًا"

انتفض، بالفعل انتفض قالت:

- "افهم مونتى، لن أقلقه أبدا؛ لو أنك لن تحترم نفسك، ســتعود من حيث أتيت، ستذهب إلـــى أى مكـــان. هـــل تناولـــت عشاءك؟".

- "لا".

- "أترغب في عشاء؟".

هز كتفيه.

- "إيموجن عرضت علي بعضًا. لم أرد شيئًا"

- "إيموجن!" لشدة انفعالها نسيت أنها موجودة في البيت.

- "إذا أنت رأيتها؟ ماذا قالت؟".

- "قبلتني".

لاحظت وينفريد وجهه المستهين المرتاح ففكرت. "نعم! إنه يهتم لأمرها، ولا يهتم لأمري!"

كانت عينا دارتي تتحركان من جانب لآخر.

قال: "هل تعرف شيئًا عني؟".

شعرت وينفريد في هذه اللحظة أن هذا هو السلاح الذي تحتاجه فهو يحرص على عدم تشويه صورته في عيون أولاده.

- "لا، فال يعرف، الآخرون لا يعرفون؛ هم فقط يعرفون أنك سافرت بعيدًا".

سمعته يتنهد بارتياح! قالت بثبات:

- "لكنهم سيعرفون، لو أنك أعطيتني مبررًا لهذا"

تمتم: "حسنا"، "اضربيني! ها أنا ذا!"

اقتربت وينفريد إلى السرير، وقالت:

- "انظر، يا مونتى! لا أريد أن أضربك، لا أريد أن أؤذيك، لن أبوح بأى شىء، لا تقلق، فما الفائدة؟". ثم صمتت للحظة، "لا يمكننى التحمل أكثر من ذلك، ولن أتحمل! أنت تعرف هذا جيدًا. لقد تسببت فى معاناتى لكننى اعتدت على هذا على كل حال...".

قابلت عينيه البُنيتين ذات الأهداب الثقيلة بنظرة لأسفل بعينيها الخضراوين؛ لمست يده فجأة، ثم أدارت وجهها ودخلت حجرتها.

جلست هناك طويلا أمام مرآتها، تتحسس خواتمها، وتفكر فى هذا الرجل المعتم الخاضع، كأنه غريب عنها، أما فى الغرفة الأخرى على السرير؛ فلم يكن قلقًا، لكن تأكله الغيرة على ما مر به، والآن، ولمرة ثانية، يشعر بالإشفاق على حاله.

الفصل الرابع عشر

ليل غريب

انتظر سومز بعناد حتى حلَّ الربيع، ليست مهمة سهلة لرجل يعرف أن الوقت ينفذ منه، وفرصة بعيدة ليست فى متناول يديه، ولا يوجد مخرج من شبكة العنكبوت هذه.

لم يخبر السيد بولتيد سومز بشئ آخر، غير أن المراقبة مستمرة... وقد كلفه ذلك أموالاً كثيرة، أما ڤال وابن عمه فقد ذهبا إلى الحرب، حيث أتت أخبار جيدة من هناك؛ أما دارتى فقد كان يحترم نفسه إلى أبعد حد؛ واستعاد چايمس صحته وازدهرت الأعمال جدا... لم يكن هناك شىء يقلق سومز باستثناء ما عطله وجعله لا يتمكن من اتخاذ أى خطوة فى أى اتجاه.

لم يتجنب تماما الذهاب إلى سوهو؛ لأنه لن يتحمل ما سيفكرون فيه، لكنه كان مضطرا لأن يكون حذرا، حيث من الممكن أن يمر أمام مطعم "بريتان" دون الدخول، ويتجول فى هذه المنطقة التى كانت دائما تعطيه الإحساس بالخروج عن القاعدة.

تجول هكذا فى ليلة من ليالى شهر مايو فى شارع ريجنت وكان الازدحام الشديد الذى أثار دهشته، أناس يصرخون،

ويصفرون، ويرقصون، ويتزاحمون، وشكلهم الغريب مثير للضحك، وكان الناس مرحين وفرحين ويضعون أنوفًا صناعية فوق أنوفهم الطبيعية ويضعون الأرغن في أفواههم، كل ألوان البلاهة كما بدت له، من هؤلاء الناس؟ ماذا يكونون، من أين أتوا؟ من نهاية الغرب؟

ثم ضحك وصفَّرت أذناه من الضوضاء، اندفع هذا الوابل من الناس من كل حى، تماما مثل الذى يحدث عندما تفتح قوة الدفع بوابات الفيضان، وتسمح للمياه بأن تتدفق، وكان كأنه يسمع صوتها، ربما لم يصدق شيئًا.

هكذا هى الديمقراطية، هؤلاء هم عامة الناس، يمثلون التدمير الحى الذى يفوق الحصر للدماثة واللطف وكل نظرية فورسايت فى الحياة. هذه هى الديمقراطية! انبعثت منها رائحة كريهة، وصرخات، شنيعة! فى أقصى الشرق، أو حتى سوهو، ربما، لكن هنا فى شارع ريجينت، فى بيكاديلى! ماذا ستفعل الشرطة!

ما يحدث فى مجمله لا يوصف! هؤلاء الناس، لا يقيدهم شىء، بدأوا يظنونه مضحكا ومثيرا للسخرية، مثل هذه الحشود منهم، وقحة، جافة، مضحكة... ويا له من شىء مثير للضحك!

لا شىء مقدس بالنسبة لهم! يجب عليه ألا يفاجأ إذا ما بدأوا بتكسير النوافذ فى "بال مال" أمام هذه المساكن؛ والتى لكى يدخلها أحد لابد أن يدفع ستين جنيها، هذا الصراخ، والصفير، الرقص هذا الحشد

كان يندفع بشدة من نوافذ ناديه كان ينظر إليهم بدهشة. لم يدرك! لماذا، لقد كان ما يحدث خطيرا... ربما يتسبب فى حدوث شىء ما الناس كانوا مبتهجين، لكن يوما ما ربما يتحول مرحهم وتتقلب أمزجتهم! تذكر ذلك التجمهر الذى حدث فى أواخر الثمانينيات، عندما كان فى برايتون وحطم المتظاهرون أشياء كثيرة، وأقاموا احتجاجات، لكنه شعر بشىء أكبر من الخوف، شعر بمفاجأة عميقة.

لقد كانوا مصابين بنوبات عصبية... لم تكن لها صيغة إنجليزية! الأمر كله عن الشعور بالارتياح فى بلدته الصغيرة مثل واتفورد كبير جدًا التى تبعد ستة آلاف ميل. ضبط النفس، التحفظ، هذه الصفات كانت عزيزة عليه أكثر من الحياة، هذه الخواص التى لا يمكن الاستغناء عنها للثروة والثقافة، أين كانوا؟ لم تكن هذه التجمعات إنجليزية! لا، لم تكن إنجليزية! لذلك استغرق سومز التفكير، كان كما لو رأى شخصًا ما يخرج عن الشروط القانونية لميثاق الامتلاك، أو رأى وحشًا يتربص ويترصد فريسته فى المستقبل، رغبته فى إخفاء الانفعالات ورغبته فى المحافظة على الوقار والتبجيل! كأنه يكتشف أن تسعة أعشار الناس فى إنجلترا كانوا أجانب. ولو أن الأمر كذلك، فربما يحدث أى شىء!

فى هايد بارك قابل چورچ فورسايت الذى لوحته الشمس من السباق، يمسك أنفًا صناعيًا فى يده.

قال: "مرحبا، يا سومز! تأخذ أنفًا!"

أجاب سومز بابتسامة باهتة:

"حصلت على هذا من هؤلاء"

استمر جورج، الذى كان يتناول العشاء:

- "طرَحته أرضا... لأنه حاول أن يحطم قبعتى، أنا أقول، فى يوم من هذه الأيام سوف نضطر لمحاربة هؤلاء الشباب إنهم وقحون ملعونون... كلهم متطرفون واشتراكيون. إنهم يريدون بضائعنا. أخبر عمى جايميس أن هذا سيجعله ينام"

أومأ سومز فقط، ثم سار إلى هاملتون، لم يكن هناك سوى القليل من هؤلاء فى بارك لين، لكنهم لم يكونوا مزعجين كثيرا وهو ينظر إلى المنازل فكر:

- "بعد كل هذا، نحن العمود الفقرى للبلد. لن يزعجونا بسهولة؛ فهناك تسع نقاط خاصة بالملكية فى القانون!"

لكن ما إن أغلق باب بيت والده وراءه، تحول هذا الكابوس الغريب الشاذ فى الشوارع إلى ما يشبه الحلم، ونام، ثم استيقظ صباحًا دافئًا ومرتاحًا.

بينما كان يسير وسط غرفة الاستقبال الكبيرة، وقف ساكنًا.

- "زوجة شخص للتحدث معه، شخص لديه حق....! اللعنة، شخص لديه الحق".

الجزء الثالث

الفصل الأول

سومز فى باريس

لم يسافر سومز فى حياته سوى مرات قليلة، ففى سن التاسعة عشرة سافر فى جولة سياحية صغيرة مع أبيه وأمه ووينفريد إلى "بروكسل" و"نهر الراين" وسويسرا ومر بباريس فى طريق العودة للوطن، أما فى سن السابعة والعشرين - تمامًا - عندما بدأ يهتم بشراء اللوحات والتحف الفنية، فقد قضى خمسة أسابيع ساخنة فى إيطاليا متأملا عصر النهضة الأوروبية، ولم يجد به الكثرة كما كان يتوقع، وقد أمضى أيضا أسبوعين فى باريس، وهو عائد لإنجلترا متأملا حاله، فقد وجد نفسه فردا من عائلة فورسايت، محاطًا بأناس غرباء، لا يفكرون إلا فى أنفسهم مثل هؤلاء الفرنسيين. وكان قد اكتسب معرفته بلغتهم أثناء دراسته فى المدرسة الإنجليزية الخاصة، لكنه لم يفهمهم عندما كانوا يتحدثون، لذلك آثر سومز الصمت، فقد وجده أفضل بالنسبة لكل الأطراف، ومن ثم لا يرتكب حماقة فى حق نفسه، من الأشياء التى لم تعجبه فى باريس طراز الملابس التى يرتديها الناس والعربات المغلقة التى تجرها الخيول والمسارح التى بدت مثل خلايا النحل ومعارض اللوحات التى كانت رائحتها تشبه رائحة شمع العسل، وقد كان حذرا وخجولا جدا عندما كان يكتشف

ذلك الجانب من باريس، والذى يعتقد آل فورسايت دائما أنه سر جاذبيتها تحت هذا اللون الوردى، لكن لشخص يجمع التحف والمجموعات الفنية فلم تكن صفقة يمكن امتلاكها! وكما يقول نيكولاس ربما... كانوا فئة جشعة، وعاد سومز مضطربا يقول: إن الجميع كانوا يبالغون فى تقدير باريس وتقييمها. وعلى الرغم من هذا ففى شهر مايو ذهب سومز إلى باريس ولم تكن هذه إلا المرة الثالثة له إلى مركز الحضارة، هذه المرة وعلى الرغم من امتداد الكتلة السكنية حتى ماهوميت فإنه شعر أنه أكثر تحضرًا من باريس، وربما كان كذلك فعلاً، علاوة على ذلك فقد كان لديه هدف محدد فلم تكن هذه زيارة إلى مركز المتع ومزار الملذات، ولكن لمتابعة شئونه القانونية والشرعية، فذهب إلى هناك لأن الأمر لم يعد يطاق ولأن كل شىء كان أقرب ما يكون إلى أضحوكة، المراقبة استمرت واستمرت، ولكن لا شىء ولا شىء! وچوليون لم يعد إلى باريس ولم يكن هناك مشتبه فيه آخر.

كان سومز يدرك تماما أهمية السمعة لمحامى إجراءات مثله، وقد انشغل بكل ما هو جديد فى ذلك الموضوع الذى حافظ بقدر ما يستطيع على سريته، لكن فى إحدى الليالى جلس مع نفسه يفكر كيف أن الوقت يضيع وأنه يهدر أموالاً كثيرة بلا فائدة وكيف أن مستقبله متجمد فى ظل هذا الوضع غير المستقر، ومنذ تلك الليلة الاحتفالية علم سومز أن هناك طبيبًا شابًا كان يحوم حول أنيت وقد رآه مرتين... "شاب جميل ومرح وأحمق، لا يتجاوز عمره الثلاثين".

لا شيء يضايق سومز جدًا مثل المرح، فهو له صـــفة غيــر محتشمة وتسودها المبالغة، وليس لها علاقة بـــالواقع، خلــيط مــن المشاعر والرغبات والآمال بداخله كانت تعذبه كثيرًا.

ظن سومز أن إيرين أدركت أن هناك من يتعقبها ويلاحقهـــا، وهذا ما قاده للذهاب إليها ورؤيتها بنفسه؛ ومحاولاً مــرة أخــرى أن يكسر نفورها ورفضها أن تجعل الطريق ممهدةً بينهما ولــو بــشكل نسبى، فلو فشل مرة ثانية... حسنا، سوف يرى ماذا فعلت بنفــسها، على كل حال!

ذهب سومز إلى فندق فى "روكو مارتين"، وهذا الفندق مفضل لآل فورسايت كثيرا، حيث لا أحد يتحدث الفرنسية. لم يــضع خطـــة محددة، ولم يرد أن يباغتها، ولكنه حرص على ألا تتهرب منه، وفى الصباح التالى خرج وكان الطقس رائعا.

كان يسود باريس جو من السرور والمـــرح، والبريــق الــذى يضايق سومز فى الغالب سار سومز بخطوات رصينة ووجهه يملــؤه الفضول، تمنى الآن أن يفهم الأشياء بالفرنسية، ألم تكن أنيت فرنـــسية؟ كان هناك الكثير ليستفيدوا من زيارته هذه، لــو أنـــه فقــط اســتطاع الحصول عليه. كانت حالته المزاجية جيدة وعندما وصل إلـــى ميــدان "الكونكورد" كان منهوك القوى، ثم جاء إلى "كورز لارين" حيث يوجد الفندق الذى تقيم فيه إيرين، لم يقرر سومــز مـــاذا سيفعــل أو مـــاذا سيقــول لهـــا. وهو يعبـــر إلى الجانب الآخر من النهـــر،

لاحظ المبني، كان أبيض ومظهره يبعث على البهجة، ويرى أشـــعة الشمس خضراء من خلال نافذة مصنوعة من شـــجر الـــدلب، رأى سومز أنه من الأفضل أن يقابلها خارج الفندق بدلا من أن يجـــازف بالتحدث إليها عبر الهاتف، فجلس على مقعد خـــشبي طويـــل حيـــث يتمكن من مراقبة مدخل الفندق. ولم تكن الساعة قد دقـــت الحاديـــة عشرة تمامًا، ولذلك لم يكن من المحتمل أن تكون قد خرجت، وبينما كان سومز جالسا يراقب مدخل الفندق كانت هناك بعض الحمامـــات تتبختر وتسوى ريشها بمنقارها فى ضوء الشمس الساطع بين ظـــلال الأشجار المورقة، وكان أحد العمال يَرتدى قميصا أزرقَ قد رمى لهم الفتات الذى تبقى من وجبة غدائه، كما مرت أمامه عربـــة تجرهـــا الخيول وكان سائقها يرتدى معطفا أزرق وقبعة سوداء.

كان سومز يعتقد أن التكلف والتصنع بدآ يلتصقان بكل شىء، نوع من التصوير المثير للصور الذهنية قد عفا عليها الزمن. شـــعب متكلف ومسرحى، الفرنسيون! وأشعل إحدي سجائره الفاخرة، وهـــو يشعر بأنه مجرَوح؛ لأن القدر يزج بحياته إلـــى ميـــاه ضـــحلة ولا عجب لو أن إيرين قد استمتعت بحياتها تماما هنا فى الغربـــــة؛ لـــم تكن إنجليزية كما ينبغى... حتى في مظهرها! بدأ سومز يخمـــن أى هذه النوافذ تخصها. كيف يمكنه أن يقول ما جـــاء لأجلـــه ويواجـــه كبرياءها وعنادها؟ نفض رماد سيجارته على حمامة، وهو يفكر:

- "لا يمكنني أن أبقى هنا للأبد أعبث بأصابعي، ومن الأفضل أن أكف عن هذا وأتصل بها بعد الظهر".

لكنه بقي جالسا مكانه، حتى سمع الساعة تدق الثانية عشرة، ثم دقت الثانية عشرة والنصف، قال لنفسه: "سوف أنتظر حتى تدق الساعة تمام الواحدة، فهي على وشك ذلك" لكنه نهض، ثم جلس مرة أخرى في حالة من التوتر، وفجأة خرجت من الفندق سيدة ترتدي فستانًا لونه أصفر باهت، ومظلة ذات لون بني فاتح تحميها من أشعة الشمس، إيرين! أنها إيرين ذاتها! انتظر سومز حتي ابتعدت لكي لا تلاحظه وتتعرفه، ثم سار وراءها، فقد كانت تمشي الهويني؛ كما لو أنها لم تحدد وجهتها بعد، تسير - لو أنه على صواب - ناحية بوادو بولون، ظل يتبعها لما يقرب من نصف ساعة على الأقل وهو على الجانب الآخر من الطريق؛ حتى دخلت "بوادو بوبون" هل كانت ستقابل شخصًا ما؟ فرنسي لعين... ربما يكون أحد هؤلاء الشباب الذين لا يشغلهم شيء سوى مطاردة النساء... تابع السير في ممر تظلله الأشجار، لم يعد يراها الآن بعدما انحرف الممر، أثناء ذلك عاد إلي الماضي وتذكر كيف أنه في إحدي الليالي في منتزه "هايد بارك" تسلل من شجرة إلي شجرة ومقعد إلي مقعد على غير هدى، بشكل مثير للسخرية وتحرقه الغيرة لكي يتعقبها هي والشاب بوسيني. انحنى الممر بشدة، وهو يسرع خطواته، وفجأة وجدها تجلس أمام نافورة صغيرة... كان ينسدل من رأسها وشاح لونه

أخضر داكن، كانت تحدق فى حوض المياه وعيناهـــا مغرورقتـــان بالدموع، سار ناحيتها بشكل مفاجئ، ووقف ســـاكنا قبـــل أن يلتفـــت ويخلع قبعته، لم تفزع، فقد كانت دائما تمتاز بالقدرة علـــى الـــسيطرة على ذاتها... وتلك هى أحد الأشياء التى أعجبت سومز كثيرا وجذبته إليها، وكانت أيضا إحدى الأشياء التى أخذها عليها، فهو لم يكن قادرًا على أن يعرف فيما كانت تفكر، هل علمت أنه كان يتبعهـــا؟ ثقتهـــا الشديدة فى نفسها أغضبته، واستهان بتقديم مبررات لوجـــوده هنـــاك وأشار إلى وشاحها ذى اللون الكئيب قائلا:

– "إنه شىء جميل".

شعر سومز أنها كانت تحاول بشدة الحفاظ على ثباتها ورباطة جأشها.

– "لم أرد أن أباغتك، هل هذا أحد الأماكن التى تترددين عليها؟"

– "نعم".

– "وحيدة إلى حد ما"، عندما قال ذلك كانت هناك سيدة تتنـــزه، وقفت للحظات تتأمل النافورة ثم ذهبت.

تابعتها عينا إيرين.

قالت وهى تنخس الأرض بطرف مظلتها:

– "لا، أبدا لست وحيدة، المرء دائما لديه ظله".

فهم سومز ما قصدته ونظر إليها متجهمًا، ثم قال:

"حسنا، إنه خطؤك أنتِ. يمكنكِ أن تتحرري منه في أي لحظة. إيرين عودى إلىَّ، وكونى حرة".

ضحكت إيرين.

- "لا كفى!" صرخ سومز، وهو يضرب الأرض بأخمص قدميه، "هذا شيء لا إنساني. اسمعى! هل لديكِ أى شروط للعودة إلىَّ؟ لو وعدتك ببيت مستقل... وزيارة واحدة فقط بين الحين والآخر؟"

نهضت إيرين، والغضب يسرى بداخلها ويظهر على وجهها.

- "لا! لا! لا! ربما تأخذنى إلى القبر، لكنى لن أعود إليك"

استعاد سومز الذكريات. وهو ثائر ومتوتر.

قال بحدة: "لا تقيمى الدنيا وتقعديها هكذا!" ووقف كلاهما ساكنين بلا حراك، وهو يحدق فى وشاحها الأخضر الذى كان يتلألأ تحت أشعة الشمس.

تمتم سومز: "هل هذا رأيكِ الأخير، وجمع يديه؛ أنتِ تحكمين علينا نحن الاثنين ألا نُشفَى أبدًا".

أدارت إيرين رأسها قائلة: "لا يمكننى العودة... إلى اللقاء".

شعر سومز بالظلم الفظيع.

قال: "توقفى! واسمعينى للحظة، لقد أعطيتينى عهدًا مقدسًا،.. أتيتِ إلىّ وليس معك بنس واحد، لقد امتلكتِ كل ما استطعت أن أعطيك إياه، لكنكِ كسرتِ هذا العهد بدون سبب، لقد جعلتِ منى مضرب مثلٍ للسوء، أنكرتِ علىّ الحق فى أن يكون لدىّ طفل منكِ، تركتيلى فى سجن، أنتِ... أنتِ ما زلتِ تحركين مشاعرى، لذلك أريدك... أريدك، حسنا، ماذا تظنين نفسك؟".

التفتت إيرين، وكان وجهها شاحبًا جدًا، وعيناها تتقدان. قالت:

- "الرب خلقنى كما أنا، شريرة لو أن ذلك يرضيك... لكن لست شريرة جدًا لدرجة أن أسلم نفسى مرة ثانية لرجل أكرهه".

سطعت أشعة الشمس على شعرها عندما ابتعدت، وبدا جميلاً وهو يتدلى على فستانها ذى اللون الأصفر الباهت.

عجز سومز عن الحديث أو حتى الحركة، كلمة "أكرهه" قاسية جدًا، وجديدة عليه جدًا، هزت شخصية فورسايت بداخله، سار من حيث اختفت، وهذه الكلمة ما زالت فى أذنيه، واصطدم بتلك المرأة التى كانت تمشى الهوينى... الحمقاء فى الخلف، الحمقاء غير واضحة المعالم!

كان يتصبب عرقا وهو يسير فى المتنزه.

قال لنفسه: "حسنا، لا أحتاج إلى أن أراعي شعورها الآن، سوف أريها اليوم أنها ما زالت زوجتي".

في طريق عودته إلى الفندق الذي يقيم فيه؛ أجبر على وضع النهاية لهذا الوضع، لكنه لم يعرف كيف ستكون هذه النهاية. فلعن رقة مشاعره ولطفه في التعامل معها، ورأى أنها لا تستحق أي مراعاة أو اعتبار، لكنه للأسف يستحق بعض هذه المشاعر من وجهة نظره!

ثم جلس دون أن يتناول طعام غدائه في صالة الفندق؛ حيث كان الكثير من السائحين يمرون به كل لحظة، وفي أيديهم دليل السائحين، وشعر سومز أن حياته كلها، بكل ما فيها من لحظات حنين ورغبات قد تجمدت وتوقفت، وكل هذا بسبب القدر الذي ساقه منذ سبعة عشر عاما لكي يضع قلبه وعقله في يد هذه المرأة بشكل كامل؛ حتى إنه أصبح الآن بلا قلب حقيقي ليضعه في يد امرأة أخرى غيرها! ملعون ذلك اليوم الذي قابلها فيه، وملعونة عيناه التي رأت فيها أي شيء غير الوحشية؛ لكنها كانت كـ"فينوس"! ولا تزال صورتها أمام عينيه وأشعة الشمس تسقط على فستانها المصنوع من الكريب الصيني، وتمتم وهو يبتسم قليلاً، حتى إن أحد السائحين المَارين فكَّر أنه "رجل يتألم! لنر! ماذا سأتناول على الغذاء؟"

فيما بعد وهو يجلس أمام مقهى بالقرب من الأوبرا، وهو يحتسي كوبًا من الشاي البارد بالليمون، فكر بطريقة خبيثة في أن يذهب ويتناول العشاء في الفندق الذي تقيم فيه. فإذا كانت هناك فإنه

الصفراء الصغيرة، وتجول هنا وهناك والسائق كلما توقف ليسأل "هنا يا سيدى؟ وتكون إجابة سومز" لا، اذهب."حتى مل الرجل وتوقف عن السؤال، واستمرت تلك العربة الصفراء فى السير بين واجهات المنازل العالية التى تملؤها النوافذ، وفى الشوارع العريضة التى تصطف أشجار الدلب على جانبيها، فكر:

- "مثل حياتى، بدون هدف، تسير وتسير!"

الفصل الثانى

فى شبكة العنكبوت

عاد سومز إلى إنجلترا فى اليوم التالى، وفى صباح اليوم الثالث زاره السيد "بولتيد" وكان يضع زهرة فى الجاكيت ويرتدى قبعة بنية اللون. وقاده سومز إلى مقعد

قال السيد بولتيد:

- "الأخبار من ميدان الحرب ليست سيئة جدًا، أليس كذلك؟ أتمنى أن تكون بخير، يا سيدى!"

- "شكرا جزيلا! أنا بخير!"

انحنى السيد بولتيد للأمام، وابتسم ثم فتح يديه ونظر فيهما قائلا بهدوء:

- "أعتقد أننا أنجزنا عملك حتى النهاية"

قال سومز فجأة وبقوة: "ماذا؟"

- "لقد أخبر ١٩ فجأة بدليل قاطع وكافٍ" ثم توقف السيد بولتيد عن الكلام.

- "حسنًا".

صارت بصيرة سومز ناقدة بشكل مفاجئ؛ فقد ثارت حماسة الرجل المهنية:

- "النصر الأكبر في مهنتي؛ فقد حصل رجل على الطلاق لزيارته حجرة نوم زوجته! يمكن أن أتحدث عن هذه الأشياء عندما أتقاعد!" وللحظة فكر: "لمَ لا؟! على كل حال، هناك مئات الرجال لديهم طول متوسط وأقدام صغيرة، ومظهر مذنب!"

فقال باختصار: "لست مخولاً لأن أتخذ أي مجازفة!".

نظر السيد بولتيد لأعلى؛ قائلاً:

- "وا أسفاه! تلك القضية بدت محكمة جدًا".

نهض سومز:

- "لا بأس بهذا، لو سمحت استمر في مراقبة رقم ٤٧، لحرص على أن تجد وكر المهرة، أسعدت صباحًا"

تألقت عينا السيد بولتيد عندما سمع الكلمات "وكر المهرة"

- "جيد جدا. سوف نبقيك دائمًا على علم بآخر الأخبار".

وعندما غادر السيد بولتيد صار سومز وحده مرة ثانية. عمل قذر، مثير للاشمئزاز. وضع ذراعيه على الطاولة، ومال بوجهه عليهم واستراح هكذا لمدة عشر دقائق حتى أيقظه موظف إدراي بنسخة

لوثيقة وعائية من الأسهم الجديدة، وهذه الأسهم عليها إقبال شديد في بورصة "مايتفولد" و"توبينج". وفي الظهيرة ترك العمل مبكراً، وسار نحو مطعم بريتان حيث كانت السيدة لاموت وحدها بالداخل:

- "هل يرغب السيد في تناول العشاء معها؟"

انحنى سومز قليلاً لتحيتها.

عندما جلسا في زاوية صحيحة بالنسبة لكل منهما في الحجرة الصغيرة؛ قال بشكل مباغت:

- "أريد أن أتحدث إليكِ مدام"

رفعت السيدة عينيها البنيتين الصافيتين بسرعة، مما جعله يشعر أنها توقعت أن تسمع تلك الكلمات منه

- "يجب أن أسألكِ أولاً هذا الطبيب الشاب... ما اسمه؟ هل هناك شيء ما بينه وبين أنيت؟"

تألقت كما هي عادتها، مثل الكهرمان الأسود، صافٍ، قوي ولامع، قالت:

- "أنيت شابة وهذا الرجل طبيب وتتحرك الأمور بسرعة بين الشباب؛ لكن أنيت ابنة طيبة ومطيعة، آه! يا لها من جوهرة طبيعية!"

الفصل الثالث

متنزه ريشموند

في وقت الظهيرة عندما عبر سومز إلى فرنسا، تسلَّم "چوليون" برقية في روبين هيل:

-"ابنك قد أصيب بنزلة معوية، لا خطـر فـي الوقت الراهن سوف نرسل برقية أخرى".

وصلت هذه البرقية إلي البيت، وكان الجميع قلقـين لمغـادرة چان الوشيكة، والتي كان سريرها محجوزًا في الباخرة فـي اليـوم التالي، كانت، حقا، قد أودعت إيريك كوبلي والعائلة في أمانة أبيها.

لقد أخذت القرار بأن تصبح ممرضة في الصليب الأحمر تحت حافز انضمام چولي للجيش، وقد أنجزت هذا العمل بإخلاص شـديد، ولكن أفراد عائلة فورسايت شعروا بالانزعاج والندم لما قصر مـن حرياتهم الفردية، وقد كانت چان متحمسة بشدة لروعة العمل، لكنهـا بدأت بعد شهر تشعر أنها يمكن أن تدرب نفسها أفضل مما يمكن أن يدربها الآخرون، ولو أن هولي لم تصر على أن تسير علي خطـي أختها وأن تتدرب أيضا، فمن المؤكد أنها كانـت سـتغير رأيهـا، ومغادرة ڤال وچولي مع فرقتهما العسكرية قـد صـلب عزيمتهمـا

تلك العلاقة، لذلك تحدى قال أن يلتحق بالجيش، لقد كان خطئى، يا أبى، وأريد أن أذهب أنا أيضا، فلو حدث أى مكروه لكليهما سوف أشعر بالذنب. بالإضافة فقد تدربت مثل چان".

حدَّق چوليون فيها بذهول كان يشوبه التهكم، "هذا هو حل اللغز الذى كان يحيره" ففى النهاية وبعد كل هذا فأبناؤه الثلاثة لديهم خصال عائلة فورسايت بالتأكيد كان لابد أن تخبره هولى بذلك من قبل! لكنه كتم السخرية فى حلقه، فقد كان يعتقد أن الوسيلة المثلى للتعامل مع الشباب هو العطف والحنان. لقد حصل بلاشك، على جزائه، مرتبطان عاطفيا! هذا السبب إذن وراء فقده التواصل معها وبعدها عنه! وبالنسبة للشاب قال دراتى ابن أخت سومز! كان الأمر فظيعا وكريها. طوى حمالة لوحة الرسم أسند لوحته إلى الشجرة.

- "هل أخبرتِ "چان"

- "نعم؛ وقالت إنها سوف تأخذنى معها فى قمرتها على السفينة. إنها قمرة لفرد واحد، لكن أحدنا سينام على الأرض. وإذا وافقت، يا أبى، سوف تذهب الآن وتحصل على التصريح"

فكر چوليون:

- "أوافق؟ تأخرت فى أن تسألنى هذا السؤال!" لكنه ضبط نفسه مرة ثانية.

- "أنتِ صغيرة جدا عزيزتي، لن يسمحوا لكِ بذلك"

"تعرف چان بعض الناس! الذين ساعدتهم على الذهاب إلى "كيب تاون". وإذا لم يسمحوا لي بالتمريض. يمكنني أن أبقى معهم واستمر في التدريب هناك، اسمح لي بالذهاب". ابتسم "چوليون" بدلاً من أن يصرخ وقال:

- "لن أمنع أبدا أي شخص من فعل أي شيء"

احتضنت هولي رقبته بذراعيها.

- "أوه! يا أبي، أنت أفضل شخص في العالم".

فكر چوليون:

- "هذا يعني أسوأ شخص في العالم، لو أنه شك في عقيدته، إيمانه بالتسامح الذي أبداه بعد ذلك".

قال:

"لست على علاقة ودية مع عائلة قال. ولا أعرف قال شخصيا ولكن چولي لا يحبه".

نظرت هولي من بعيد وقالت: "أنا أحبه".

قال چوليون بطريقة جافة:

- "هذا يجعل الموضوع منتهيًا".

ثم لاحظ تعبيرات وجهها، وقبلها وهو يفكر:

لم يتم جيدا، فقد كان جائعا بعد كل هذا الخضوع والاستسلام الذى وجده "آل فورسايت" صعب الوصول إليه، فقد تربوا على طريقتهم، وتركو آباءهم ميسورى الحال، لكنه غفل بعد الفجر ورأى حلمًا غريبًا.

كان يقف على مسرح له ستائر عالية... عالية مثل النجوم... تمتد فى نصف دائرة من صف الأضواء السفلية هنا إلى صف الأضواء السفلية هناك، وكان هو نفسه صغيرًا جدًا، شكل أسود صغير غير ساكن يتجول أعلى وأسفل، والغريب أنه لم يكن نفسه، بل كان سومز أيضا، ولم يكن يشعر به قط لكن، كان يراقبه، كان هو وهذا الشكل، أى هو وسومز، يحاول أن يجد طريقة للخروج عبر الستائر، التى كانت ثقيلة وسوداء ولم يستطع الخروج وبقى بالداخل. عبر من أمامهم مرات عديدة، قبل أن يرى بسعادة مفاجئة فتحة ضيقة وطويلة من الجمال لون أزهار السوسن القذحية، مثل نظرة خاطفة للجنة، لكنها بعيدة، وهو يخطو بسرعة للأمام لكى يعبر، وجد الستائر تغلق فى وجهه. كان ذلك محبطا بمرارة، لـه... أم كان لـ سومز؟... سار وظهرت الفتحة مرة ثانية بين الستائر التى أغلقت مرة ثانية على الفور، واستمر الوضع هكذا ولم يستطع أن يمر خلالها حتى استيقظ وكلمة إيرين على شفتيه... أزعجه الحلم كثيرا. خاصة أنه تعرف عليه هو وسومز.

فى صباح اليوم التالى. وجد أنه لا يستطيع أن يكمل عمله، وقضى ساعات راكبًا حصان چولى وهو يبحث عن الشعور بالإنهاك

والتعب، وفى اليوم التالى عزم على الذهاب إلى لندن وليرى مـا إذا كان بإمكانه الحصول على تصريح اللحاق بأبنائه في جنوب أفريقيـا أم لا، ويدأ يحزم أمتعته فى الصباح التالى؛ عندما تسلم هذا الخطاب:

"فندق جرين، ١٣ يونيه، ويتشموند"

"عزيزى چوليون،

سوف تفاجأ عندما تعرف مـدى قربـى مكانيًا، فباريس أصبحت لا تطاق... .لقد أتيـت إلى هنا لكى أستطيع أن آخذ بنصائحك. سـوف أكون سعيدة لرؤيتك مرة ثانية، فمنذ أن تركتنى فى باريس، لا أظن أننى قابلت أحدا يمكـن أن أتحدث إليه. هل كل شىء على ما يـرام معـك ومع ابنك؟ لا أحد يعرف، على ما أظن، إننـى هنا فى الوقت الحالى".

"صديقتك المخلصة دائما"

"إيرين"

إيرين على بعد ثلاثة أميال منه! وحرة ثانية وهاربة! وقـف، وابتسامة غريبة مرسومـة على شفتيـه، هـذا كان أقصى ما تمناه.

خرج فى الظهيرة وسار عبر "ريتشموند بارك"، بينمـا كـان يسير على هذا الطريق الطويل

- "لقد وصلت للنهاية؛ لو إنكِ تريديني فها أنا ذا!!"

الكلمات "إيرين، أعشقك!"

هربت منه تقريبا، ثم تخيل ابنه "چولى" يرقد وقد تحول وجهه الأبيض إلى حائط أبيض، ولم يصدق صفاء تلك الصورة الذهنية ووضوحها هكذا.

قال بهدوء:

- "ولدى مريض جدا هناك"

"وضعت إيرين" ذراعها فى ذراعه

- "لنتمشَّ؛ أتفهم ذلك"

ليس هناك تفسير يائس لهذه المحاولة! لقد تفهمت حالته، وسارا بين حقول السرخس، بين جحور الأرانب وأشجار البلوط، يتحدثان عن چولى ثم تركها بعد حوالى ساعتين عند بوابة ريتشموند هيل وبعد ذلك توجه نحو البيت وفكرً:

- "إنها تعرف مشاعرى تجاهها، بالطبع! فالمرء لا يمكن أن يخفى شيئا كهذا عن امرأة كهذه".

الفصل الرابـع

علي ضفاف النهـر

كان چولي متعبا حتى الموت؛ بسبب الأحلام التي كانت تهاجمه؛ فقد تركوه الآن شاحب اللون مصفرًا، تركوه ممددًا، خدرًا، وضعيفا ليحلم ثانية. تركوه يتذكر أشياء قديمة جدا، كان بالكاد قادرا على أن يحرك عينيه ويتأمل مجرى النهر الذى يشق طريقه بين الرمال عبر النافذة القريبة من سريره لقد عرف ما هي الصورة الآن، حتى لو أنه لم يرَ أحد البوير يتدحرج كأرنب أو يسمع أزيز الرصاصات المتطايرة؛ فقد تسلل هذا الوباء إلى جسده قبل أن يشتم رائحة البارود. ربما أصيب بهذا المرض بسبب يوم من العطش، وشراب ملوث، أو ربما فاكهة فاسدة... من يعرف؟ ليس هو؛ هو الذى لم يتبقَّ لديه أى قوة حتى ليشكو أو ليتذمر من الأشياء السيئة، يكفى تماما أن يعرف أن هناك العديدين يرقدون هنا معه، حتى إنه كان مستاءً من تلك الأحلام التى اجتمعت عليه؛ يكفى تماما أن يراقب النهر ويكون قادرا على أن يتذكر بطريقة واهية هذه الأشياء البعيدة.....

الفصل الخامس

قرارات سومز

يقى خطاب مكتوب بخط اليد مرسل من السيد "بولتيد" مطويا في جيب سومز لمدة ساعتين نظرًا لانشغاله بالمباشرة المتواصلة لشئون شركة "نيوكوليرى" التي منذ أن تقاعد جوليون الجد من رئاسة مجلس إدارتها في انهيار، وقد أخذت وتيرة هذا الانهيار في التسارع مؤخرا، حتى لم يبقَ أمامها سوى أن تصفى أعمالها. وأخرج الخطاب من جيبه في موعد الغداء في نادى المدينة. كانت عادة مقدسة بالنسبة لـ سومز أن يتناول الغداء هناك مع والده في أوائل السبعينيات، عندما اعتاد جايمس أن يأتى به معه ويريه طبيعة حياته المستقبلية.

هنا في زاوية بعيدة أمام طبق لحم الضأن والبطاطس المهروسة، قرأ:

"سيدى العزيز

طبقا لاقتراحكم قمنا بتحويل الأمر إلى الطرف الآخر بنتائج مرضية. وتمكنا من خلال ملاحظة رقم ٤٧ أن نعرف أن رقم ١٧ موجود في فندق

– "لقد تسلمت خطابك. لقد توصلت إلى قرار، أعتقد أنك تعرف جيدا من تكون السيدة التي تراقبها؟"

كان التعبير الذي ظهر على وجه السيد بولتيد طريفا، وكان ما قاله بوضوح:

– "حسنا، ما رأيك؟ إنها فقط أصول المهنة، أرجوك سامحني".

ولوح بيده قليلا كالذي يقول:

– "مثل هذه الأشياء تحدث لنا جميعا".

قال سومز وهو يرطب شفتيه بلسانه:

"حسنا جدا، ليس هناك حاجة لقول أكثر من ذلك: سوف أعطي تعليماتي لـ ليتكمان وليفر من بادج رو بأن يتصرفا نيابة عني، لا أريد أن أستمع إلى دليلك، لكن قم بتحضير تقريرك لهما في الساعة الخامسة واستمر في الملاحظة في سرية تامة".

بعينين نصف مفتوحتين ظهر السيد بولتيد، كما لو أنه امتثل، وقال:

– "حسنًا يا سيدي العزيز".

سأله سومز:

– "هل أنت مقتنع؟ هل هذا كاف؟"

حرك السيد بولتيد كتفه قليلا، وتمتم:

– "يمكنك أن تخاطر بما لدينا وبالطبيعة البشرية".

نهض سومز قائلا:

– "سوف تسأل عن السيد لينكمان، شكرا، لا تنهض".

فلن يتمكن من احتمال السيد بولتيد وهو يقف بينه وبين الباب، مسح جبهته فى ضوء الشمس الشديد فى بيكاديللى. كان هذا الجزء الأصعب فى الموضوع كله، يمكنه تحمل الغرباء بشكل أفضل.. وعاد إلى المدينة لكى يفعل ما فكر فيه.

فى هذه الليلة فى بارك لين، وهو يراقب والده وهو يتناول العشاء غمره الشوق القديم لأن يكون لديه ابن... ابن يراقبه وهو يأكل، لكى يأخذه على ركبتيه كما فعل چايمس معه فى الماضى، ابن من صلبه، يمكنه أن يفهمه لأنه جزء منه... من لحمه ودمه، ويصبح أكثر ثراءً وثقافة منه لأن بدايته ستكون أفضل، فكر سومز أنه سيكبر ويصبح عجوزا مثل ذلك الجسد النحيل، الهزيل الجالس هناك ويكون وحيدا مع أملاكه المكدسة حوله؛ والتى سوف تحول من يديه إلى هؤلاء الذين لم يهتم بهم قط مثقل ذرة. لا! سوف يكسر كل هذا الجمود الآن، يجب أن يكون حرا ليتزوج ويكون لديه ابن يرعاه قبل أن يكبر ويصبح رجلا عجوزًا مثل والده، يراقبه بلهفة وحزن الآن. أمنيته الآن ابن...

فى هذه الحالة ذهب إلى فراشه، لكن وهو راقد بدأت بين هذه الشراشف الرائعة التى فرشتها إيميلـــى، تهاجمـــه الـــذكريات والآلام ورؤى إيرين، الإحساس الجامد بجسدها يحاصره، لماذا كـــان مـــن الحمق ليذهب ويراها ثانية ويسمح لهذا الفيضان أن يحاصـــره حتـــى أصبح من المؤلم له كثيرا أن يفكر فيها وهى مع هذا الرجل اللص.

الفصل السادس

نهار صيفى

كان چولى غائبا بشكل نادر وغريبًا عن ذهن أبيه فى تلك الأيام التى تلت جولته الأولى مع إيرين فى متنزه "ريتشموند"، لم تأتِ أخبار أكثر من الاستعلامات فى دائرة الحرب فلم تستخلص أى معلومة، ولا يتوقع أن يصله أى خطاب من چان وهولى قبل ثلاثة أسابيع على الأقل. وفى هذه الأيام شعر أن ذكرياته مع چولى لم تكن كافية وكيف أنه كان أبًا هادئًا، ليس هناك ذكرى واحدة لعب فيها الغضب دورًا، ولا يذكر مصالحة واحدة، وذلك لعدم وجود شقاق أو خصام بينهما، ولم يفتح أحدهما قلبه للآخر، حتى عندما ماتت والدة چولى، لا شىء سوى تعاطف نصف ساخر. كان خائفًا جدا أن يتحمل أى مسئولية، خائفا من أن يقيد حريته أو أن يتعارض مع حرية ابنه.

فقط فى وجود إيرين كان يشعر بالارتياح، وكان معقدًا جدا بسبب إحساسه المتنافى بأنه منقسم بينها وبين ابنه، فقد كان مرتبطا مع چولى بالاستمرارية والعقيدة الاجتماعية التى تشرب منها وهو شاب، ومرة ثانية عندما كان ولده فى المدرسة الخاصة أو الجامعة

كل ذلك الإحساس بعدم العودة للوراء يعود إلى ما توقعه الأب والابن كل منهما من الآخر... أما مع إيرين فقد كان مرتبطا بالسرور والسعادة بالجمال الطبيعى وبدأ يعرف رويدا رويدا أى هذين الإحساسين أقوى بالنسبة له. كان چوليون مع ذلك منتبها بوقاحة لهذا الشلل العاطفى. فى ظهر يوم ما بالضبط عندما كان يقطع الطريق إلى "ريتشموند"، مر بشاب يركب دراجة وكان وجهه مألوفًا بشكل غريب، تقدم الشاب للأمام مبتسما وهو يقول:

- "السيد چوليون فورسايت؟ شكرا" وضع فى يد چوليون ظرفًا ثم ذهب بدراجته بعيدا

فتح چوليون الظرف وهو مرتبك.

غمره إحساس بالعار وضياع الكرامة تبعه رد فعل سريع!"لماذا"، هذا هو الشىء الذى تريده ولا تحبه! لكن من المؤكد أنها حصلت على واحد هى الأخرى. ويجب أن أذهب إليها على الفور، سار بعيدا، لقد كان عملاً مثيرًا للسخرية مهما كان الذى قاله الكتاب المقدس عن القلب، فقد انتابه شعور أكبر من مجرد الرغبة فى إرضاء القانون، يمكنهم تماما أن يدافعوا عن هذه القضية، على الأقل إذا لم يكن حبيبها بالفعل، فإنه كان يرغب فى ذلك وعرف أنها كانت على استعداد أن تأتى إليه؛ فقد شعر بذلك، عندما نظر فى وجهها، ليس لأنه بالغ فى تقدير شعورها نحوه؛ بل لوجود عاطفة كبيرة لديها ولم يكن يتوقع أى شىء منها فى مثل هذا السن، لكنها

وثقت فيه وكانت تكن المودة والعطف له، ومن المؤكد أنها تشعر بأنه ملاذ وملجأ بالتأكيد، لن تطلب منه أن يدافع عن القضية، حيث تعرف أنه يعشقها! الحمد للرب أنها ليست لديها تلك النظرية الإنجليزية في الذمة والضمير التي ترفض السعادة فقط من أجل الرفض! يجب أن تكون سعيدة بهذه الفرصة لكي تحصل على حريتها بعد سبعة عشر عاما من الحياة كالموت! من الشائع أن فعلا كهذا سوف يثير الغضب، لن يكون من العيب أن يدافع عن القضية، كان لدى چوليون شعور كفرد من عائلة فورسايت، أن حياته الخاصة مهددة، لو أنه استُدْعِيَ من قبل القانون! علاوة على ذلك فإن فكرة وقوفه على منصة الشهادة وقَسَمَه بأن يقول الحقيقة أنه لم تكن هناك لا إيماءة ولا كلمة حب مرت بينهما، بدت له أكثر إهانة من أن تلصق به وصمة بأنه زانٍ، سوف يحط ذلك من قدره باعتبار المشاعر التي في قلبه وسيصيب ذلك أولاده بالألم والمهانة. فكرة أن يفسر إن استطاع أمام القاضي واثني عشر إنجليزيا في المتوسط، مقابلاتهم في باريس. وجولاتهم في "ريتشموند". أفزعته احتمالية عدم تصديقه، إنه كان يريد فقط رؤيتها، وإنه فقط ينظر إليها كتجسيد للجمال والطبيعة. كيف يمكن أن يقف هناك أمام كل هذه الأعين المرتابة، الشامتة؟ سيكون هذا فظيعا وشنيعا بالنسبة له. أن يدافع عن القضية معناها فضيحة في لندن، ومبيعات للصحف.

لا، لا! من الأفضل ألف مرة أن يقبل ما أرسله سومز والآلهة.

بالإضافة إلى ذلك، فكر من أجل ولدى، ربما وقفت عند هـذا الحد؟ على أى حال، سوف تحرر من هذه الورطة فى النهاية! وهـو مستغرق إلى هذا الحد كان بالكاد يشعر بالبرق وأصـبحت الـسماء ملبدة بالغيوم الأرجوانية، وبعض الخطوط البيضاء. صاعقة برقيـة نثرت أمامه شكل نجمة صغيرة على الأرض وهو فى طريقـه إلـى داخل المتنزه. وفكر:

- "عاصفة! أتمنى لو أنها لا تأتى لمقابلتى"؛ لكن فى اللحظـة التى رأى فيها إيرين تدخل البوابة فكر: "يجب أن نسرع إلى روبين هيل!"

مرت العاصفة على المزرعة فى الـساعة الرابعـة وألهـت الموظفين فى كل مكاتب العمل، وكان سومز يحتـسى فنجانـا مـن الشاى عندما وصلت إليه رسالة قصيرة:

"سيدى العزيز

"فورسايت" ضد "فورسايت وفورسايت"

"طبقا لتعليماتك، نعلمك أننا لاحقنا المـدعى عليـه والمـدعى عليها فى هذه القضية اليوم فى "ريتشموند" وروبـين هيـل، علـى التوالـى".

المخلصان،

"لينكمان وليفر"

حدق سومز للحظات فى الرسالة. منذ أن أعطاهما تلك التعليمات وهو يحاول أن يوقفها، لقد كان ذلك فاضحا وشائنًا، يا له من ضياع للكرامة، الدليل أيضا الذى سمعه منه لم يبد حاسمًا بالنسبة له. بطريقة ما أخذ الاطمئنان يعتريه رويدًا حيث عرف أن هذين الاثنين أصبحا متقاربين جدًا وسوف يقودهما هذا إلى الوقوع فى الإثم. أتعبه التفكير المستمر فى كون هذا الرجل يحصل على حبها، بينما سومز فشل فى ذلك! هل كان ذلك متأخرًا جدا؟ لقد أُدِّبا جيدًا باستلامهما هذه الدعوة، لسوف يستخدم كل وسيلة ليجبرهما على الانفصال.

وأخذ يفكر: "لكن إذا لم أتصرف على الفور"، سوف يكون الوقت متأخرًا جدا، الآن حصلا على هذا الدليل، سوف أذهب وأقابله. سوف أذهب إليه.

وأعياه القلق، فأرسل فى طلب إحدى السيارات، ربما يأخذ الأمر وقتا طويلا لكى أطرح هذا الرجل أرضًا، والرب وحده يعلم ما القرار الذى ربما توصلا إليه بعد هذه الصدمة وفكر:

- "إذا لم أكن مغفلا. أفترض أننى يجب أن آخذ سوطًا أو مسدسا أو أى شىء!"

وقد أخذ بدلا من ذلك حزمة من الأوراق الخاصة بقضية "ماجنتى" ضد ويك! فقد كان ينوى قراءتها فى الطريق. ولكنه لم يتصفحها حتى، وجلس ساكنا وهادئا ثم أثيرت أعصابه، فقد بدأ يعى

تيار الهواء الذى يصطدم بمؤخرة عنقه، أو رائحة الزيت التى تنبعث من السيارة. كان عليه أن يقتضى بالوضع الجسمانى للسائق، ألا وهو أن يبقى رأسه مجمية، بدأت لندن بالفعل تعج بالعاملين بها كلما اقترب من بوتني بريدج كانت كومة من النمل(*) تتحرك للخارج يا له من عدد هائل من النمل، وربما لأول مرة فى حياة سومز يفكر:

"يمكنني أن أسمح لها بالذهاب لو أرادت لا شيء يمكن أن يمسني، يمكنني أن أطبق أصابعي عليها، أعيش كما أرغب... وأمتع نفسي! لا! المرء لا يمكنه أن يعيش حياته كما هي... ينفق المال والسمعة التى صنعها. حياة الإنسان هي ما يمتلكه وما يسعى لامتلاكه. فقط الحمقى يفكرون بطريقة مختلفة، الحمقى والاشتراكيون وأصحاب مذاهب الحرية!"

كانت السيارة تمر بالمنازل الريفية المحاطة بالحدائق، تقطع مسافة طويلة. خمسة عشر ميلاً فى الساعة. استغرق سومز فى التفكير! هذا سوف يجعل الناس يعيشون خارج المدينة! وفكر فى الأملاك والعقارات التى يمتلكها والده... هو نفسه لم يذهب إلى هذا النوع من الاستثمار ووجد المجازف والمقامر بداخله مخرجًا فى لوحاته وتحفه الفنية. وأسرعت العربة أسفل التل أمام أرض ويميلدون هذه المقابلة! بالتأكيد رجل فى سن الثانية والخمسين مع

(*) هو ينظر للعمال فى كثرتهم نظرته إلى حشود النمل، ويؤكد هذا تحامله على طبقة العمال ونظرته إليهم نظرة دونية كأنهم حشرات.

أبناء كبار ومنضبطًا فى مسار حياته بالتأكيد لن يكون طائشًا فكر "هو لا يريد إهانة العائلة" فكر:

- "هو كان شغوفا بوالده مثلى وقد كانا أخوين، هذه المرأة جلبت الخراب، ما أمرها؟ لم أعرف أبدا". دارت العربة بمحاذاة الغابة وسمع صوت طائر الوقواق يشدو، ربما هذه هى أول مرة يسمعه هذا العام. كان الآن قريبا من المكان الذى اختاره فى الأصل ليكون بيته والذى رفضه بوسينى واختار مكانًا آخر، بدء يمرر منديله على وجهه ويده، ويتنهد بعمق لكى يحصل على بعض الثبات وفكر "توازن، توازن!" وصلت السيارة إلى حيث يريد، وسمع صوت الموسيقى من الداخل، لقد نسى أمر ابنتيه. قال للسائق:

- "ربما أعود مباشرة، وربما أغيب لبعض الوقت".

ودق جرس الباب. عندما عبر الستائر فى الصالة الداخلية وهو يتبع الخادمة، شعر بالارتياح. تأثير هذه المقابلة سوف يتم كسره بسبب چان أو هولى أيا من كان يعزف هناك؛ لذلك صفعته المفاجأة عندما رأى إيرين تجلس إلى البيانو وچوليون يجلس على المقعد يستمع، وقفا عندما رأياه واندفع الدم إلى مخ سومز ولم يعرف ماذا يفعل، عادت إليه ملامح أجداده الفورسايتية العنيدة من جده دوسيت الأكبر، ظهرت بصعوبة على وجهه وقال:

- "جميل جدا!!"

سمع الرجل يتمتم:

– "ليس هذا بمكان مناسب، سوف نذهب إلى المكتب لو لم يكن لديك مانع".

ومر كلاهما عبر الستائر المفتوحة، وفى الحجرة الصغيرة التى تبعهم إلى داخلها، ووقفت إيرين بجانب النافذة المفتوحة والرجل قريبا منها بجانب كرسى كبير أغلق سومز الباب خلفه، أعاده ذلك الصوت للوراء سنوات عديدة إلى اليوم الذى أغلَق فيه الباب فى وجه "چوليون"... وطرده خارج المنزل لأنه يتدخل فى شئونه.

قال: "حسنا، ماذا ستقولان لتبررا موقفكما؟" كانت لدى الرجل الوقاحة ليبتسم.

– "التليغراف الذى تسلمناه اليوم أخذ حقك فى السؤال، أتخيل بأن تكون سعيدا بتخلصك من هذا الموقف البائس".

قال سومز: "أوه! أنت تعتقد ذلك، أتيت لأخبرك أننى سوف - أطلقها مع توجيه كل الإهانات لكما، إذا لم تقسما أن تبقيا بعيدين عن بعضكما بعضا من الآن وصاعدا".

لقد كان مندهشا من طلاقته فى الحديث لأن عقله كان يتلعثم ويداه ترتجفان. لم يرد أحدهما، لكن وجهيهما بديا محتقرين له.

قال: "حسنا، أنت... يا إيرين".

ارتعدت شفتاها، لكن چوليون وضع يده على ذراعيها...

فقال سومز بعنف: "ابتعد عنها، إيرين، هل ستقسمين بهذا؟"

- "لا".

- "أوه! وأنت؟"

- " لا "

- "لذلك أنتما مذنبان، أليس كذلك؟"

- "نعم، مذنبة"، كانت إيرين تتحدث بهذا الصوت الهادئ الذى أغضبه كثيرا وصرخ: "أنتِ شيطانة".

"اخرج! اترك المنزل وإلا سوف أؤذيك".

هذا الرجل يتحدث عِن الأذى! هل علم مدى اقتراب رقبته من قطعها؟

قال: "وكيل أموال، يختلس أملاك! لص، يسرق زوجة ابن عمه!"

- "نادنى بما تحب، لقد اخترت دورك، ونحن قد اخترنا أدوارنا، اخرج!"

لو كان سومز قد أحضر سلاحا لكان قد استخدمه فى تلك اللحظة، قال:

"سوف أجعلك تدفع الثمن!"

قال: "سوف أكون سعيدا جدا".

في هذا التحول المرعب لمقصد حديثه بواسطة ابـــن الرجـــل الذى أطلق عليه لقب رجل التملك! وقف سومز محدقا لقد كان شــيئًا مثيرًا للسخرية! كانا بعيدين عن العنف بسبب قــوة خفيــة لا يمكــن توجيه لكمة، ليس هناك كلمات للرد فى هذه الحالة، لكنه لم يمكنه أن يعرف كيف يلتفت ويذهب منصرفا. كانت عيناه مرتكزتين على وجه إيرين، المرة الأخيرة التى يمكن أن يــرى فيهــا وجههـــا... المـــرة الأخيرة التى سيرى فيها ذلك الوجه القاتل، بلا شك!

قال فجأة: "إننى أتمنى أن تعامليه مثلما كنت تعاملينني"

رآها تنتفض وبإحساس بالتصر غير كامل، وبارتيـــاح غيـــر كامل صك الباب وراءه بشدة. ثم خرج عبر الصالة واستقل العربـــة، واتركن إلى وسادة، وعيناه مغلقتان، لم يقترب أبدا فى حياتـــه مـــن الشدة والعنف هكذا، لم يتخلص من القيود التى كانت طبيعته الثانيـــة، كان لديه شعور عارٍ ومجرد، كما لو أن الفضائل كلها قد غادرتـــه، حياة بلا معنى وعمل مضني.. وعلى الرغم من أن ضـــوء الـــشمس انساب عليه فإنه قد شعر بالبرد، وقد ذهب المشهد الذى مر به مـــن داخله بالفعل، ما حدث أمامه لم يكن حقيقيًّا، لم يستطع أن يحقق شيئًا، وشعر بالخوف كما لو أنه كان معلقا على حافة الهاوية. وفكر:

– "ألست مستعدا لهذا؟ يجب علىّ ألا أفعل، لست مستعدا لهذا".

وأسرعت العربة على الطريق بين الأشجار والبيوت والمارة كأن لم يكن لهذا كله معنى وأهمية وفكر: "أشعر أنني متوعك جدا"، فكر:

"سوف أخذ حماما تركيا، لقد كنت قريبا جدا من شيء ما، لـــن يجدى هذا".

قطعت العربة الطريق عائدة عبر الكوبرى إلى طريق فولهام، بمحاذاة المتنزه، قال سومز:

- "إلى الحمام".

كان هذا غريبًا ولافتًا للنظر لأنه في يوم صيفى دافئ كهـذا، من المفترض أن تكون الحرارة باعثة على الراحة. وهو يعبر إلـــى داخل الغرفة الحارة قابل چورچ فورسايت خارجا من هناك، أحمـــر ومتوهجا قال چورچ:

- "مرحبا! ما الذى تتدرب من أجله؟ أنت لا تُقبِل على شـــىء غير ضرورى".

قال سومز:

"مهرج"، وتركه بابتسامة من جانبيه. ثم رقد على ظهره، دلك جسده باضطراب بسبب البوادر الأولى للرشح، فكر:

"فلأتركهم، لن أشعر بأى شىء! لا يمكننى أن أنفعـــل! هـــذا ليس جيدًا بالنسبة لى!"

الفصل السابع

ليلة صيفية

ترك سومز وراءه صمتا قاتلا فى المكتب الصغير. وفجأة قال چوليون: "شكرا لكِ على هذه الكذبة، لنخرج من هنا، لم يعد الهواء هنا كما كان!"

أمام حائط جنوبى طويل وعال كانت أشجار الخوخ تعرش عليه، سار الاثنان هنا وهناك فى صمت. وكان الجد چوليون قد زرع بعض الأشجار فى الأماكن الفاصلة بين الشرفة العشبية والمرج المنخفض المملوء بنباتات الحواذن والأقحوان ذى العيون الثورية، التى ترعرعت وانتعشت لمدة اثنى عشر عاما، حتى أصبحت أشكالها الحلزونية السوداء ذات مظهر إيطالى. رفرفت الطيور برقة ولطف بين الشجيرات المبللة، شعرا بالعشب مرنا تحت أقدامهما، ازدهر لونه الأخضر، وتعقبت الفراشات بعضها بعضا.

فى هذا المشهد كان هدوء الطبيعة مثيرًا للمشاعر بشكل قوى، تحت الحائط الذى امتص أشعة الشمس امتد شريط من أرض الحديقة المملوءة بأزهار الثالوث وغيرها، وانبعثت من النحل همهمة صغيرة

اختلطت فيها كل الأصوات، صوت خوار الأبقار التى حرمت من نكورها، نداء طائر الوقواق من شجرة الدردار فى قاع المرج.

من ذا الذى يفكر أنه بعد عشرة أميال تبدأ لندن، لندن الخاصة بعائلة فورسايت، بثروتها وبؤسها وقذارتها وضوضائها، جزر للجمال الحجرية الفوضوية وبحر البشاعة الرمادى، بحرها الرمادى من الطوب والزخارف البشعة، لندن هذه التى شهدت مأساة إيرين منذ بدايتها، والأيام الصعبة التى عاشها چوليون، تلك الشبكة العنكبوتية التى تسيطر عليها غريزة التملك!

وبينما يسيران فكر چوليون مليا فى هذه الكلمات: "أتمنى أن تعامليه كما عاملتنى!" هذا سيعتمد عليه هو، هل يمكنه أن يثق فى نفسه؟ هل سمحت الطبيعة لفرد من عائلة فورسايت ألا يُستعبَد من قبل عِشقه؟ هل الجمال يمكن أن يكون فى أمانته؟ أم أنه لا يجب عليها أن تكون فقط زائرة، تأتى عندما تود، تتملكها ذكريات الماضى، أن تعود فقط باختيارها، وفكر: "لقد تربينا على الإفساد والتبذير! أنانيون وطماعون، زهرة الحياة ليست فى أمان معنا. دعها تأتِ إلى كما تريد، عندما تريد، حتى إن لم تكن ترغب فى ذلك على كل حال. لابد أن أكون البديل فى وقت الحاجة، الملاذ التى تسكن إليه وقت الضيق، وليس أبدا، أبدا قفصها!"

لقد كانت منفذ الجمال فى حلمه. هل كان ليمر خلال الستائر الآن ويصل إليها؟ هل كان التركيب المحاصر لغريزة التملك المتضمنة فى ذلك الجسم الأسود الصغير له وسومز؛ هل كانت منفذه ليعبر إلى حلمه، يجد هناك شيئًا ما وليس المشاعر فقط؟

فكر: "اسمحى لى، اسمحى لى فقط أن أعرف كيفية ألا أتمسك وأُدَمِّر!"

لكن فى العشاء كان هناك بعض الخطط للتنفيذ، الليلة سوف تعود إلى الفندق، لكن غدا سوف يأخذها إلى لندن. يجب أن تستشير محاميها، چاك هيرينج. يجب ألا يُدفع إصبع ليعيق عمل القانون. التعويضات والتكاليف، ما أرادوا، دعه يمر منذ اللحظة الأولى، فربما تخرج من هذا الوضع البائس السيئ فى النهاية! غدا سوف يرى هيرينج، سوف يذهبان ويرياه معنا. وبعد ذلك إلى الخارج، ويتركان وراءهما تأكيدا وسهولة فى الحصول على الدليل، ويجعلون الكذبة التي أطلقتها حقيقة حقيقة. نظر إليها، وبدا لعينيه العاشقتين أنه من تجلس هناك أكثر من مجرد امرأة. إن روح الجمال الكونى، العميق الغامض، الذى كان الرسامون القدامى مثل تيتيان چورچ، بوتيسيلى مشهورين بكيفية انتقائه من وجوه ملهماتهم ونقله فى لوحاتهم، هذا الجمال بدا له مطبوعا على جبهتها، وشعرها، وشفتيها، وفى عينيها.

فكر: "وهذا كله يمكن أن يكون ملكى! إن ذلك يخيفنى!"

بعد العشاء خرج إلى الشرفة الواسعة لكى يحتسى القهوة، لقد جلسا هناك طويلا. وقد كان الحساء جميلا، يراقبان ليلة صيفية تزحف إليهما رويدًا رويدًا. لقد كان الجو لا يزال دافئا والهواء يحمل رائحة زهرة الزيزفون مبكرًا هذا الصيف، وكان هناك طائر وقواق يحلق فى الهواء ويصنع أصواتًا قليلة وغامضة غير واضحة. كان چوليون قد وضع كرسيين أمام نافذة غرفة المكتب، وكانت الحشرات الصغيرة الطائرة تتجمع فى الضوء هناك. لم يكن هناك رياح. ولا همس فى فى شجرة البلوط القديمة التى تبعد عشرين ياردة! ارتفع القمر من خلف الأيكة، تقريبا كان مكتملا، وتصارع الضوءان، حتى انتصر ضوء القمر بالطبع، مغيرًا لون الحديقة كلها، أخذ يتسلل على طول أزهار السوسن، حتى وصل إلى سيقانها، وتسلقها حتى وصل إلى وجهها الذى غيره سقوط ضوئه عليه.

قال چوليون فى النهاية: "حسنا، أنتِ متعبة جدًا، من الأفضل أن تستريحى، الخادمة سوف تصحبك إلى حجرة هولى". ودق جرس المكتب، وكانت الخادمة التى أتت تمسك بتلغراف فى يدها. وهو يراقب الخادمة تصحب إيرين بعيدا، فكر: "من المؤكد أن هذه البرقية وصلت منذ ساعة أو أكثر، ولم تحضرها لنا! هذا واضح! حسنًا"، وفتح التلغراف، وقرأه:

چوليون فورسايت، روبين هيل.

- "لقد توفى ولدك بسلام فى العشرين من يونيو. تعاطفنا العميق".

التوقيع

اسم مجهول بالنسبة له.

سقط التلغراف من يده، ثم التف ووقف ساكنا بلا حراك. سطع القمر عليه وطارت الحشرات الصغيرة فى وجهه. وكان ذلك هو اليوم الأول الذى لم يفكر فيه تقريبا فى چولى. سار على غير هدى إلى النافذة ثم علق أمام الفوتيه القديم، الخاص بوالده. واستلقى فيه على ذراعه. جلس هناك منحنيا للأمام، يحدق فى الليل. رحل كلهب شمعة؛ بعيدا عن البيت، بعيدا عن الحب، وحيدا، فى الظلام! ولده! الشاب الصغير كان دائما ودودا وعطوفا جدا! عشرون عاما وقُطِع كالعشب، لم يعش حياته!" وفكر: "لم أعرفه حقا، ولم يعرفنى، لكن كل منا أحب الآخر، وحده الحب يهم!"

أن يموت هناك، وحيدا، يريدهم، يريد البيت! هنا بدا قلب فورسايت الذى بداخله مؤلِمَ بشكل فظيع، مثيرا للشفقة أكثر من الموت نفسه. لا مأوى، لا ملاذ، لا حب فى النهاية! فى كل العشائرية المتعمقة جذورها بداخله، إحساس العائلة والتمسك الضرورى بلحمه ودمه الذى كان قويا جدا فى الجد چوليون، كان قويا جدا فى كل أفراد عائلة فورسايت، شعر بالفظاعة، جرح وتمزق بسبب رحيل

ولده وحيدًا. كان من الأفضل كثيرا أن يموت فى المعركة، دون أن يشتاق إليهم لكى يأتوا إليه، وأن يصرخ مناديا إياهم، ربما فى هذيانه.

كان القمر حينها يمر خلف شجرة البلوط الآن، يهبها حياة مفزعة، بدا وكأنه يراقبه، شجرة البلوط التى كان ولده شغوفا بتسلقها، والتى وقع من عليها مرة وأصاب نفسه ولكنه لم يصرخ!

فتح الباب ورأى إيرين تدخل، تلتقط التليغراف وتقرأه. سمع صوت حفيف فستانها.

نزلت على ركبتها قريبا منه، وأجبر نفسه على الابتسام فى وجهها، مدت ذراعاها وسحبت رأسه إلى كتفها، عطرها ودفء حضنتها ووجودها قد استحوذوا على كيانه بأكمله.

الفصل الثامن

چايمس منتظراً

ما إن أخذ سومز الحمام التركى حتى شعر بالهدوء وسكينة الروح، ثم تناول عشاءه فى نادى ريموف وبعدها توجه إلى بارك لين حيث كان والده مريضا وفى حالة متأخرة. كان هذا اليُخفى عن چايمس! ليس حتى تلك اللحظة التى أدرك فيها كم هو مخيف أن يضع شعر چايمس الرمادى فى القبر بحزن شديد كم كان يفكر بشدة فى التراجع عن الفضيحة. عاطفته تجاه والده، التى كانت عميقة دائما، تزايدت فى السنوات الأخيرة مع العلم أن چايمس ينظر إليه على أنه السند الحقيقى له فى ضعفه وتدهوره. بدا مثيرا للشفقة أن الشخص الذى كان حريصا جدا طوال حياته وقام بأشياء كثيرة من أجل اسم العائلة، لذلك كان تقريبا مضرب المثل للصلابة، والثراء وكان أهلا للاحترام، من المؤكد أنه فى اللحظات الأخيرة من حياته سوف يرى ذلك فى كل الصحف. كان كأنه يقدم يد المساعدة للموت، هذا العدو العظيم لأفراد عائلة فورسايت فكَّر. "يجب أن أخبر أمى"، وعندما تبدأ الصحف فى ذلك، يجب أن تبعد الجرائد عنه بأى صورة من الصور، فهو بالكاد لا يرى سوى بعض الأشخاص".

دخل فاتحا الباب بمفتاحه، شرع فى صعود السلالم عندما أدرك الاضطراب والهياج الذى يحدث على السلم، فى الطابق الثانى، سمع صوت أمه تقول:

- "الآن، چايمس، سوف تصاب بنزلة برد. لِمَ لا تنتظر قليلا؟"

ووالده يجيب: "أنتظر؟ أنا دائما أنتظر. لِمَ لم يدخل؟"

- "يمكنك أن تتحدث إليه فى صباح الغد، دون أن تجعل نفسك أضحوكة على السلم".

- سوف يذهب إلى الفراش، لأعجب. لن أستطيع النوم".

- "الآن عُدْ إلى الفراش، يا چايمس".

- "ربما أموت قبل صباح الغد".

- "لن تنتظر لصباح الغد، سوف أنزل وأحضره. لا تشتكِ!".

- "ها أنتِ تبدئين. ربما لا يأتى على كل حال".

- "حسنا، إن لم يأتِ، فلن تمسكه بالوقوف هنا فى ملابس نومك هذه".

عبر سومز انحناءة السلم الأخيرة ودخل لرؤية والده الذى كان يرتدى ملابس النوم الحريرية بنية اللون، والضوء يسقط على شعره الفضى وسوالفه، كان الضوء يحيط به كهالة.

"ها هو!" سمعه يقول بصوت بدا مجروحًا وأجابه صوت أمه المريح من باب حجرة النوم:

"كل شيء على مايرام. ادخل، وسوف أمشط لك شعرك". مد چايمس إصبعًا رفيعا، يشبه بشكل غريب هيكلا عظميا ودخل عبر الباب إلى داخل حجرة نومه.

قال: "أنت هناك! كنت منتظرا".

قال سومز: "حسنًا تبدو بحالة جيدة".

هز چايمس رأسه

- "أريد أن أقول شيئا ما، أمك لم تسمع". أعلن تجاهل إيميلى لما أخبرها به، كما لو كان تظلم.

- "كان أبوك فى حالة ممتازة طوال الليل. بالتأكيد لا أعرف".

استمر صوت المشط البسيط مع لطف صوتها.

قال چايمس: "لا! إننى... لا تعرفين شيئا، سومز يمكن أن يخبرنى " يركز عينيه الرماديتين فيهما كان يوجه نظرات متوترة ومجهدة، غير مرتاحٍ وهو يراقب ابنه، تمتم:

- "لقد اقتربت ساعتى، فى مثل سنى هذا ربما أموت فى أى وقت. سوف يكون هناك الكثير من المال. هناك راشيل وسيسيل ليس لديهم أطفال؛ وڤال بعيد جدا... هذا الشاب

سوف يستولى والده على كل ما يستطيع الاستيلاء عليه. وشخص ما سوف يتزوج إيموجن ويأخذها".

سمع سومز بغموض، لقد سمع كل هذا من قبل. ويش ويش(*)! سار المشط قالت إيميلى: "ذلك كل ما فى الأمر!"

"صرخ چايمس: "كلا، إنه لا شىء. سوف أصل لهذا". ومرة ثانية حدقت عيناه بنظرة مثيرة للشفقة فى سومز.

قال فجأة: "إن كنت ولدى حقًا، يجب أن تحصل على الطلاق".

تلك الكلمة، من بين الشفاه، كانت أكثر مما تحتمل رباطة جأش سومز.

وكأنه يعتذر، أسرع چايمس قائلا:

- "لا أعرف شيئا عنها... يقولون إنها فى الخارج. كان عمك سويزين معجبا بها دائما... لقد كان رجلا مرحا. أقول هذا لن تكون وحيدة". وبغرض تأثير الجمال على الطبيعة الإنسانية، كان صامتا، يراقب ابنه بعيون مرتابة مثل عيون طائر. سومز، أيضا كان صامتا، ويش، ويش، سار المشط.

"تعال يا چايمس، سومز يعرف أموره الخاصة أفضل".

(*) صوت هفيف أو حفيف المشط على شعر الرأس.

قال چايمس، والكلمة أتت من أعماقه: "لكن هناك كل أموالى، وهناك أمواله، لمن ستذهب؟ وعندما نموت، سيضيع الاسم".

قالت إيميلي: "الاسم، هناك أفراد آل "فورسايت" الآخرين".

تمتم چايمس: "كما لو أن هذا يريحني، سوف أكون في قبرى، ولن يكون هناك أحد، إذا لم يتزوج مرة ثانية".

قال سومز بهدوء: "أنت على حق تماما، إنني أسعى للحصول على الطلاق".

- "ماذا؟" صرخ قائلا: "لم يخبرني أحد بأى شيء".

قالت إيميلى: "حسنا... من كان يتخيل أنك تريد ذلك؟ يا ولدي العزيز، تلك مفاجأة، بعد كل هذه السنوات".

قال چايمس كما لوكان يقول لنفسه: "سوف تكون فضيحة، لكن ما باليد حيلة. لا تمشطي بشدة. متى ستبدأ؟"

- "قبل الإجازة الطويلة، لم تحدد بعد".

تحركت شفتا چايمس وهو يَحسبُها في سره متمتمًا: "لن أعيش لأرى حفيدى".

توقفت إيميلي عن التمشيط: "بالطبع ستراه يا چايمس، سومز سوف يسرع في هذا على قدر ما يستطيع".

ساد صمت طويل، حتى مد چايمس ذراعه.

"لنضع ماء الكولونيا هنا"، واضعًا إياها على أنفه، وحرك جبهته فى اتجاه ابنه.

انحنى سومز وقبّل ذلك الجبين حيث يبدأ الشعر ثم عمت رعشة استرخاء وجه چايمس، على الرغم من أن القلق كان يسرى خلاله.

قال: "سوف أذهب إلى الفراش، لا أرغب فى أن أرى الصحف عندما يحدث هذا. إنهم فئة سقيمة، لن أبدى أى اهتمام بهم. أنا عجوز جدا".

تأثر سومز بشكل غريب، وسار ناحية الباب. ثم سمع صوت والده يقول:

- "أنا متعب جدا، سوف أصلى فى السرير".

وأجابت أمه:

- "هذا جيد يا چايمس، سوف يكون مريحا جدا".

الفصل التاسع

خارج شبكة العنكبوت

بالنسبة لعائلة فورسايت وفكرة التغيير فى حياتهم، كان إعلان موت چولى، بين مجموعة من الجنود، قد تسبب فى إحساس مختلط. من الغريب أن تقرأ أن چوليون فورسايت خامس اسم فــى الــسلالة المباشرة مات من المرض فى خدمة الوطن ولم يكن قادرا علـــى أن يشعر بهذا بشكل شخصى. فقد أحيا هذا الأحقاد القديمة ضـــد والـــده لأنه أبعد نفسه عنه. ولمثل هذا السبب كان اعتقـــاد وعقيـــدة الجـــد چوليون بأن آل فورسايت غر قادرين على الإحساس بشكل ما، كمـــا كان مُتَوقَع منهم، فهم الذين قاطعوا نسله بشكل غير طبيعى، تزايدت الأخبار بالطبع، وتضاعف الاهتمام والقلق على ڤال، لكن ڤال يحمـــل اسم دارتى، وحتى لو كان قتل فى المعركة، فلن يكون تـــأثير ذلـــك مأساويا كما لو كان يحمل اسم فورسايت، ليس حتـــى الخـــسارة أو النصر بالأمر المرضى لأبناء هايمان، فكبرياء العائلة بدا مجروحًا.

كيف قامت الإشاعة؟ شىء فظيع جدًا، عزيزى! ليس سومز، فلا أحد يستطيع الاحتفاظ بالأسرار مثله، من المحتمل أن عينـــا مـــا رأت فورسايت ضد فورسايت وفورســـايت فـــى قائمـــة القـــضايا، وأضافتها لـــإيرين فى باريس مع رجل ذى لحية شقراء. ربما كـــان

هناك من يتنصت عليهم فى "بارك لين". يبقى أن الحقيقة كانت معروفة... همس بها بين العجائز، نوقشت بين الشباب... من المؤكد أن كبرياء العائلة سيستقبل صفعة قريبا.

سومز وهو يقوم بواجدة من زيارات يوم الأحد إلى بيت تيموثي... كان لديه إحساس أنه بعد أن بدأت القضية لن يقوم بزيارة أخرى... لا أحد بالطبع تجرأ أن يتحدث فى هذا أمامه، لكن كل من أفراد عائلة فورسايت الأربعة الحاضرين حبسوا أنفاسهم، مدركين أنه لا شيء يمكن أن يمنع العمة "چوليا" من إحراجهم.

بدت مثيرة للشفقة بالنسبة لـ سومز، ضبطت نفسها عند بدء الحديث، حتى إن العمة هيستر قدمت عذرها وقالت" إنها يجب أن تذهب وتغسل عينى تيموثى، كان لديه دمل بجفن عينه أما سومز المتغطرس عديم العاطفة، فلم يمكث طويلاً وخرج بلعنة كُتِمت خلف الشفاه المبتسمة والشاحبة.

لحسن الحظ من أجل سلامة عقله، تعذب بقسوة بسبب الفضيحة القادمة، وبقى منشغلا ليلاً ونهارًا فى خطط من أجل تقاعده، لأنه أتى إلى تلك النهاية الرهيبة القاسية، أن يذهب لمواجهة كل هؤلاء الناس الذين عرفوه رجلا مرفوع الرأس ومستشارًا داهية، بعد ذلك... لا!

المبالغة فى التأنق والتدقيق والكبرياء قد امتزجت بداخله بشكل غريب مع البلادة المتأثرة، فثارت ضد الفكرة. سوف يتقاعد ويعيش حياته الخاصة ويشترى اللوحات ويصنع اسمًا كبيرًا كرجل يهوى جمع التحف وما إليها، بعد كل هذا، قلبه كان يميل إلى هذا أكثر من القانون، وما يحدث الآن أكد نيته وعزمه.

كان مضطرا إلى الاستعداد كى يدمج عمله فى شركة أخرى سرا دون أن يعرف الناس، لأن هذا سيثير الفضول ويسبب إهانة قد ألقت بظلها من قبل.

عقد العزم على شركة كوثكوت، "هوليدى، و كينسون" اثنان منهما متوفيان. الاسم الكامل بعد الدمج سيكون كوثكت، هوليدى، كينسون، فورسايت، بوستارد وفورسايت لكن بعد المناقشات لأن أيًا من المتوفين بقى له تأثير مع الأحياء، تقرر أن يُخَفّض العنوان إلى كوثكوت، كينسون وفورسايت، كينسون سيكون الشريك النشط وسومز الشريك الخامل، ولأنه سيترك اسمه، وهيبته وعملاءه خلفه، سومز سيستقبل قيمة كبيرة مقابل ذلك.

فى ليلة ما تناسب رجلاً وصل إلى مرحلة مهمة جدا فى حياته العملية، حسب ما كان يستحقه. أجرى بعض الحسابات ليقف على ما يملكه الآن، وبعد أن أرسلوا فى طلب تخفيض قيمة العملة بسبب الحرب وجد أن نصيبه يكون مائة وثلاثين ألف جنيه إسترلينى، وعند

هذه، ويعلن عن فشله فى الاحتفاظ بزوجته كان الأمر كله مقلوبا رأسا على عقب، هى وهذا الرجل لابد أن يعانيا، هما الآن فى إيطاليا. فى خلال هذه الأسابيع، بدا القانون والذى خدمه بإخلاص ونظر إليه على أنه حامى الأملاك؛ بدا له مثيرًا للشفقة، فمن الجنون أن تخبر رجلاً أنه يمتلك زوجة ثم تعاقبه عندما يأخذها شخص آخر بعيدًا وبشكل غير قانونى، ألم يعرف القانون أن اسم الرجل وسمعته هما قرة عينه.

حسد چوليون على نجاحه فيما فشل هو فيه، وأراد أن يعانى هذا الرجل، ولكنه تذكر كلمات ابن عمه بـ "أنه سوف يكون سعيدًا جدًا" ومع هذا الإحساس المزعج شعر بأنه إذا طالب بالتعويض عن الخسائر المادية والمعنوية فسوف يعانى هو وليس چوليون، شعر أنه سوف يدفع قيمة هذه الخسائر إلى جانب أن طلب هذا ليس بالأمر الذى يُطلَب، فهذا يتم بشكل تلقائى.

الفصل العاشر

انقضى عصر

تم زواج سومز من أنيت فى باريس، فى اليوم الأخير من شهر يناير عام ١٩٠١، بخصوصية شديدة، حتى إن إيميلى لم تعرف شيئا حتى تم الزواج.

فى اليوم التالى للزفاف، اصطحبها إلى أحد هذه الفنادق الهادئة فى لندن المكلفة جدا حتى إنه كان يدفع أموالاً كثيرة مقابل خدمة أقل مما يمكن أن يتلقاه فى مكان آخر فى العالم. ولكن جمالها الفتان الذى يظهر وهى ترتدى أفضل الفساتين الباريسية كان يعطيه إحساسًا بالرضا أكثر مما يشعر به عندما يحصل على مجموعة من الخزف، أو لوحة فريدة. وقد تطلع سومز إلى اللحظة التى يقدمها إلى عائلته فى بارك لين، فى شارع جرين، وفى بيت تيموثى.

ولو أن أحدا سأله فى هذه الأيام، "بصدق... .. هل تحب تلك الفتاة؟" سيجيب؛ " حب؟ ما هو الحب؟ لو أنك تقصد أن أشعر تجاهها كما شعرت تجاه إيرين فى الماضى عندما قابلتها أول مرة ولم تحبني؛ وشعرت بالحسرة والألم بعدها ولم أذق طعم الراحة حتى استسلمت لى، لا! أما لو أنك تقصد أننى حقا أعجبت بشبابها

وجمالها، وأن مشاعرى تثور عندما أراها تتحرك... .. نعــم! هــل أظن أنها ستبقينى مستقيما، وتصبح زوجــة جــديرة بالثنــاء، وأمّــا صالحة لأطفالى؟ فمرة ثانية، نعم! ماذا أحتاج أكثر من ذلك؟ ومــاذا تريد ثلاثة أرباع الزوجات من أزواجهــن؟" ولــو أن الــسائل تــابع استفساراته، "وهل تعتقد أنه من العدل أن تغوى هذه الفتــاة أن تــسلم عمرها ونفسها لك حتى لو لم تكن قد لمست قلبها حقــا؟" ســيجيب: "يرى الفرنسيون هذه الأشياء من منظور مختلف عن منظورنا. فهــم ينظرون إلى الزواج على أنه استقرار وإنجاب أطفال؛ ومــن خــلال تجربتى الخاصة، لست متأكدا كل التأكد أن وجهة النظر هذه ليــست معقولة. ولن أتوقع هذه المرة أكثر مما يمكننى أن أحصل عليــه، أو تعطينى هى إياه. فخلال السنوات المقبلة لن أندهش إذا ما أصــبحت لدى مشكلة معها، لكننى سأكون عجوزا وأتقدم فى السن، وســيكون لدى أطفال فى هذا الوقت وسوف أغمض عينى حينها فقــد عــشت قصة حبى وعشقى، وحبها ربما يأتى يومًا ما، لا أفترض أن يكــون من أجلى. إننى أعرض عليها صفقة كبيرة ولا أنتظــر شــيئا فــى المقابل، باستثناء الأطفال، أو على الأقل ولد واحد. لكن هناك شــيئا واحدًا متأكدًا منه... إن لديها تقدير جيد للأشياء!"

ولو أن السائل استرسل قائلا، "أنت لا تبحث إذن عن الاتحــاد الروحى فى الزواج؟" سيبتسم سومز، ويرد: "هذا قد يكون، ربما، لو أننى حصلت على إرضاء لمشاعرى وحفظ وتخليــد اســمى وروح

جميلة وذوق راقٍ فى البيت، وهذا هو كل ما أريده فى مثل سنى هذا. فليس من المحتمل أن أخرج عن مسارى باتجاه عاطفة بعيدة المنال". عند هذا الحد يجب أن يتوقف السائل عن سؤاله.

كانت الملكة قد توفيت، وهواء المدينة العظيمة يملؤه الغبار الرمادى بدموعٍ محبوسة. مرتديا معطفًا من الفرو وقبعة عالية، مع أنيت بجانبه ترتدى فراءً أسود، عبر سومز بارك لين فى الصباح أثناء تشييع جنازة الملكة، إلى قضبان السكة الحديد فى هايد بارك. تأثر قليلا على الرغم من أنه كان دائما يهتم بالموضوعات العامة الوطنية، فهذا الحدث رمزى تماما، واستعراض ختامى لفترة طويلة وثرية حازت على إعجابه. فى سن السابعة والثلاثين، عندما وصلت الملكة إلى العرش، كان جده مازال يبنى البيوت فى أرجاء لندن؛ وكان چايمس، فى السادسة والعشرين – للتو- يضع الأساس فى تدريبه على القانون. كانت عربات القطار لا تزال تمر بسرعة شديدة؛ وكان هناك رجال كثيرون يرتدون الجوارب الطويلة، وقد حلقوا المنطقة أسفل شفاههم، وكانت النساء يرددن قائلين: "لا!". وهن لا يملكن أى شىء، كانت هناك أخلاق وطعام للمساكين؛ وأشقياء تعساء قد شنقوا بسبب جرائم صغيرة، كان "ديكنز"(*) قد بدأ للتو كتابة رواياته. لقد عاصرها جيلان، ظهرت فى عصرها السفن البخارية، السكك الحديدية، البرق والبريد، الدراجات، الكهرباء، التليفون والآن

(*) الروائى البريطانى الأشهر من رواياته: أوقات عصيبة – الآمال العظمى

سيارات الأتوموبيل وبالنسبة لجمع الثروات فقد تحولت نسبة الثمانية بالمائة إلى ثلاثة وجنى آل فورسايت الآلاف.

لقد تغيرت الأخلاقيات والسلوكيات، وأصبح الناس مثل قرود، وأصبحت الثروة معبودتهم، أربعة وستين عاما حالفت الثروة، وجعلت الطبقة المتوسطة العليا؛ مدعمة، وبارزة، وملمعة، حتى أصبحت غير مختلفة فى السلوكيات والأخلاقيات وأسلوب الكلام والمظهر والعادات عن طبقة النبلاء. إنه عصر شجع الحرية الفردية حتى لو أن الفرد كان لديه المال، فإنه يكون حرا فى نظر القانون نظريا وعمليا، وإن لم يكن لديه المال فيكون حرا نظريا فقط وليس فى الواقع، حقبة دعمت النفاق، يكفى فقط أن تبدو محترمًا حتى لا يستهان بك.

وأن تشهد لندن لحظات انقضاء هذا العصر، لندن بدلالها وروعتها، كان مواطنوها يندفعون عبر كل البوابات إلى هايد بارك، مركز العصر الفيكتورى، أرض صيد مفضلة بالنسبة لآل "فورسايت". تحت السماء الرمادية اللون، والمطر الخفيف المتقطع؛ تجمع الكثير والكثير من الناس لكى يشهدوا الجنازة. الملكة الجدة الطيبة، الكثير من السنوات والفضيلة، انبثقت من خلوتها للمرة الأخيرة لكى تقضى عطلتها. من هاوندسديتش، أكتون، إيلينج، هامبسيتد، إيزلينتون وبيثنال جرين، من هاكنى، هورسنى، ليتوتستون، بايترسى، وفولهام؛ ومن هذه المراعى الخضراء التى

عاش فيها آل فورسايت لفترة، ماى فير كينسينتون، شارع چـايمس وبلجرافيا، بايسووتر وتشيلسى وريجينت بارك، وقد ازدحم الناس فى الطرقات حيث سيمر موكب الجنازة، وهم يرتدون الملابس القاتمـة اللون. لن تحكم ملكة فترة طويلة مثلها مرة ثانية، ولن يكـون لـدى الناس الفرصة كى يروا تاريخًا طويلاً وثريًا دفن من أجل أمـوالهم. لسوء الحظ مضت الحرب ببطء وخاتم النصر لم يوضع على كفنها! فضلا عن ذلك سيكونون هناك للمتابعة وتخليـد ذكـرى، الجنـود، البحارة، الأمراء الأجانب، يقرعون الأجـراس، وتتـدفع الجمـاهير مرتدية المعاطف السوداء، والحزن هنا وهناك عميق فى القلوب تحت الملابس السوداء التى ارتدوها طبقا للتعليمات، هـذه الملكـة كانـت تذهب إلى راحتها الأبدية، امرأة تحدت الحزن وعاشت حيـاة جيـدة وبحكمة وفقا لحقوقها.

بالخارج فى الزحام عند قضبان السكة الحديد، وذراعـه فـى ذراع أنيت، انتظر سومز.

نعم! العصر ينقضى! ماذا سيكون الوضع مع هـذا الاتحـاد للحرفيين، وممثلى العمال فى مجلس العموم البريطانى، هناك شـىء ما فى الشعور العام، لا يعبر عنه بالكلمات، أشياء كانت مختلفة جدا. تذكر الازدحام الذى كان فى تلك الليلة عنـدما قـال چورج "إنهـم اشتراكيون، إنهم يريدون بضائعنا " مثله مثل چـايمس، لـم يعـرف سومز شيئا، ومع إدوارد على العرش! الأمور لن تكون آمنـة كمـا

كانت فى الأيام الماضية!" بارتباك ضغط ذراع زوجته الشابة. هناك بأى ثمن، كان شىء ما ملكه، مستقر عائليا مرة ثانية فـــى النهايـــة؛ شىء ما جعل الثروة تستحق الاهتمام... شىء حقيقى على الأكثـــر. اقترب سومز من أنيت بشدة حتى يصد الآخرين عنها، وقد كان لديه إحساس بالرضا. العامة ترنحوا حولهم، أكلوا السندوتـشات وألقـــوا بالبقايا على الأرض؛ وهؤلاء الأولاد الذين تـــسلقوا أشـــجار الـــدلب "ولاغوا" بعضهم بعضًا مثل القرود، وألقوا الأغصان وقشر البرتقـــال على الناس. مضى وقت طويل، لكن يجب أن يسرعوا! وفجأة شـــاهد رجلا طويلا إلى حد ما يرتدى قبعة سخيفة وله لحية قصيرة رماديـــة وامرأة طويلة أيضا ترتدى قبعة من الفرو ووشاحًا. إنهمـــا چوليـــون وإيرين، كانا يتحدثان ويبتسم كل منهما للآخر، قريبين تماما من مثله هو وأنيت! لكنهما لم يرياه؛ وخلسة وبإحساس غريب فى قلبه راقبهما سومز. لقد بديا سعيدين!ما الذى أتى بهما إلى هنا... مخلوقات غيـــر شرعية، وتثور على النموذج الفيكتورى؟ ما الذى جعلهما يقفان هكذا فى الزحام؟ راقبهما مفتونين متبجحين؛ أيعترف حتى وهـــو ممـــسكا بيدى أنيت أنه لا يزال يحب إيرين، لا، لن يعترف بهذا؛ حول نظره بعيدا. لن يراهما، ويسمح للمرارة القديمة والاشتياق القديم أن يـــسيقظ بداخله. ثم التفتت أنيت إليه قائلة: "ســـومز هـــذان الاثنـــان، إنهمـــا يعرفانك. أنا متأكدة. من هما؟"

نظر سومز "جانبا وقال:

- "أى أناس تقصدين؟"
- "هناك أنت تراهما، اللذان يدوران بعيدا. إنهما يعرفانك".

أجاب سومز: "لا أنتِ مخطئة يا عزيزتى".

-" وجه جميل! وترى كيف تسير! إنها مميزة جدا!"

نظر سومز دخلت حياته وخرجت منهـا إذن بهـذا التمايـل والانتصاب، تبتعد، تفلت دائما ملامسة روحه! ثم تحول فجأة من تلك الرؤية المنحسرة فى الماضى قائلاً:

- "من الأفضل أن تنتبهى، إن الجنازة قادمة الآن!"

لكن بينما وقف ممسكًا بذراعها، وهو على ما يظهر مـصمم على ضبط نفسه، كان يرتجف ويحسُّ بأن هناك دائمًا شيئًا مفقـودًا، وندمًا بديهيًّا أنه لم يستحوذ عليهما هما الاثنين.

عزفت المسيرة وسارت ببطء، حتى إنه فى صمت مر علـى ذلك الصف الطويل من الناس فى بوابة المنتزه، ثم سمع أنيت تهمس، "كم هى جميلة وحزينة!" وشعر بقبضة يدها كأنها وقفت على أطراف أصابعها؛ وقد جذبه ذلك الحشد الكبير وتأثر به. هناك كـان، نعـش الملكة، كفن عصر يمر ببطء! وكلما تقدم النعش سمع أصوات التأوه والأنين والهمهمة تصدر من ذلك الصف الطويل من النـاس الـذين احتشدوا ليشهدوا جنازة الملكة، ولم يسمع سومز مثل هذا الصوت من

قبل، غير مقصود تماما، بسيط وعميق، حتى إنه تحير ولم يعرف ما إذا كانوا قد رتبوا للتفوه به معا أو لا. صوت غريب حقــا! إجــلال وتقدير لعصر انقضى... آه! آه... وهذا الذى كان خالدا رحــل الآن! الملكة... فليرحمها الرب!

سار الموكب بالنعش يحمل جسد الملكة، ذلك الأنين المــسافر، كنار تمر كخط رفيع فوق العشب؛ خطا وسار على طول الطريق بين الحشود الكثيفة من الناس ميلا بعد ميل كان صوتا بشريا، وغير بشرى صادرًا من الحيوان، مندفعا من اللاشعور، بالمعرفة الــشديدة والتغيــر الشامل فى الحياة، لا أحد منا... لا أحد منا يمكن أن يبقى للأبد.

ساد الصمت للحظات قليلة... قليلة جدا، حتى بــدأت الألــسنة تعود متلهفة لاسترجاع الاهتمام بالجنازة، وتلكأ سومز طويلا بــشكل كاف ليسير على خطوات أنيت، ثم أخذها خارج المنتزه لتناول الغداء فى بيت والده فى بارك لين.

قضى چايمس فترة الصباح ينظر من النافذة فى حجرة نومــه، إنه المنظر الأخير الذى سيراه، الأخير من أشياء عديدة! هكذا رحلت إذن! حسنا، لقد كانت امرأة عجوزًا جدا، وكان سويزين وچايمس قــد شهدا مراسم تتويجها، لم تكن حتى بعمر إيموجن، وكان هو وچوليون قد شهدا مراسم زواجها من ذلك الرجل الألمانى الذى توفى وتركهــا مع ابنه، تذكر الليالى العديدة حيث كان هو وإخوته وأصدقاؤهم قــد

شربوا الخمر وهزوا رءوسهم وأكلوا الجوز وذلك الرجل يستغرق فى أيام عبثه، والآن قد وصل إلى العرش، وقد قالوا إنه قد تعقل، لا يعرف... سيتسبب فى ضياع الثروة، يجب ألا يندهش. كثير من الناس فى الخارج هناك! لم يشعر أنه مر زمن طويل منذ أن كان هو وسويزين يقفان بين الحشود الكبيرة من الناس خارج "ويمنيستر ابيى" عندما توجت، ثم أخذه سويزين إلى كريموم بعد ذلك.. رجل محب للهو، سويزين؛ لا، لم يبدُ أبعد كثيرا من عام اليوبيل، عندما اشترك مع روجر فى تأجير شرفة فى مسرح بيكاديللى.

چوليون، سويزين وروجر كلهم رحلوا، وسوف يتم چايمس التسعين فى شهر أغسطس! وها هو سومز قد تزوج ثانية بفتاة فرنسية. الفرنسيون أناس غريبو الأطوار، لكنهم يصنعون أمهات صالحات، سمع عن ذلك، لقد تغيرت أشياء كثيرة! يقولون إن الإمبراطور الألمانى قد أتى لحضور الجنازة، التلغراف الذى بعثه للعجوز كروجر كان له أثر صادم يجب ألا يتفاجأ لو أن هذا الرجل تسبب فى مشكلة يوما ما. التغيير! حسنا، يجب أن يعتنوا بأنفسهم عندما يرحل، لم يعلم كيف سيكون حالهم! والآن إيميلى طلبت من دراتى أن يتناول الغداء معهم، هو ووينفريد وإيموجن، لكى يتعرفوا على زوجة سومز، وهناك إيرين تعيش مع ذلك الرجل چوليون، قالوا سيتزوجها الآن"، أفترض ذلك.

فكر أخى چوليون، "ما الذى كان سيقوله فى كل هذا؟ وبصورة ما هذه الاستحالة فى معرفة كيف يفكر أخوه الأكبر، أقلقت چايمس حتى إنه نهض من مقعده عند النافذة وبدأ ببطء ووهن يسير ذهابا وإيابا فى الغرفة.

لقد كانت شيئا جميلا، أيضا، فكر لقد كنت مغرما بها، ربما لم يناسبها سومز، لا أعرف.. من يعرف. لم يكن لدينا أى مشكلة مع زوجاتنا، النساء تَغَيَّرْنَ، كل شىء تغير الآن، والآن الملكة متوفية... حسنا، وهكذا الحال! حركة غريبة فى الجنازة أصابته حالة من الجمود والسكون عند النافذة الصق أنفه باللوح الزجاجى للشباك ولذلك أبيض من برودته. أخذوها بعيدا جدا إلى زاوية فى هايد بارك... لقد كانوا يمرون الآن! لم لم تصعد إيميلى إلى هنا حيث يمكنها أن تشاهد المشهد، بدلا من هرج ومرج إعداد الغداء. أفتقدها فى تلك اللحظة... أفتقدها! من خلال الأغصان المكشوفة فى أشجار الدلب يمكنه أن يرى الموكب بوضوح؛ ويمكنه أن يرى القبعات على رءوس الناس... العديد منهم سيصابون بنزلات البرد، يجب ألا يندهش! سمع صوتا خلفه يقول:

– "تمكنت من رؤية الموكب بوضوح من هنا، چايمس!"

تمتم چايمس: "أهو أنت؟ لمَ لم تأتِ من قبل؟ لقد فاتك ذلك المنظر".

وكان صامتا يحدق بكل قوته وسأله فجأة:

- "ما هذه الجلبة؟"

فقالــت إيميلــى "ليس هنــاك جلبة، فيــم تفكــر؟... إنهم لا يهتمون".

- "يمكننى سماع ذلك".

"ليس معقول، يا چايمس!"

لم يكن هناك صوت يأتى من النافذة؛ وما سمعة چايمس كــان الأنين الذى يوجد فى قلبه وهو يرى عمره ينقضى.

قال فجأة: "لم تخبرينى أبدا أين ستدفنونى، لن أعرف، "وتحول من الشباك. هناك سارت الملكة الجد، كان لديها الكثير من القلــق... ستكون سعيدة بالخروج منه"

التقطت إيميلى فرشاة الشعر.

وقالت: "يجب أن تمشط شعرك، قبل أن يأتوا يجــب أن تبــدو فى أفضل مظهر، يا چايمس".

تمتم چايمس: "آه! إنهم يقولون إنها جميلة".

تم اللقاء مع زوجة ابنه الجديدة فى حجــرة الطعــام. وكــان چايمس يجلس عند الموقد عندما أدخلوها إليه. فوضــع يــده علــى مرفقى المقعد وببطء نهض، يبدو جيدا فــى معطفــه ونحــيلاً، ثــم صافحها بيديه؛ وبعيون قلقة فى وجه ممتلــئ بالتجاعيــد والــشقوق، وفاقد لونه الآن، سرى دفــء قليل إلى يديه وفى وجنتيه.

قال: "كيف حالكِ؟ هل رأيت موكب جنازة الملكة؟، أعتقد ذلك هل تمكنتم من المرور بسلام؟" وهكذا استقبلها چايمس؛ هى التى تمنى منها حفيدا يحمل اسمه.

محدقة فيه تمتمت أنيت بكلمات باللغة الفرنسية؛ لم يفهما چايمس:"عجوز جدا، نحيل، أبيض ونظيف".

قال: "نعم، نعم، تريدين تناول الغداء، أتوقع ذلك، سومز دق الجرس؛ لن ننتظر ذلك الرجل دراتى، "لكنهم ما لبثوا أن وصلوا وكان دارتى قد رفض أن يخرج عن طريقه لرؤية موكب الملكة، مع زجاجة كوكتيل بجانبه جلس فى حجرة التدخين فى ايسبيوم، لذلك اضطرت وينفريد وإيموجن أن تعودا من المنتزه لكى يحضروه من هناك وقد تركزت عيناه البنيتان على أنيت بنظرة من الإعجاب المذهل: جمال ثان يستحوذ عليه ويمتلكه سومز! ماذا ترى فيه النساء! حسنا، ربما تخدعه كما فعلت الأخرى، لا شك؛ لكن فى غضون ذلك كان محظوظا جدا!" ثم هندم شاربه. فى غضون تسعة أشهر فى جرين ستريت استعاد صحته واعتداده بنفسه، على الرغم من الجهود الرغيدة لـ إيميلى، رباطة جأش وينفريد، حسن المقالة لـ ايموجن، استعرض دارتى واهتم چايمس بها، شعر سومز بغداء ناجح لعروسه. فأخذها ورحلا بعد وقت قصير.

قالت أنيت بالفرنسية فى العربة: "هذا السيد دارتى، لا أحب هذا النوع من الناس!"

قال سومز: "لا، إلى جانب چورچ!"

- "أختك لطيفة جدا، والفتاة جميلة أيضا، والدك عجوز جدا، أظن أن والدتك لديها مشكلة معه؛ لا أحب أن أكون في مكانها".

أومأ سومز معبرًا عن سداد الفكرة والحكم الصائب لزوجته الشابة؛ لكنها أزعجته قليلاً. وفكر فجأة "عندما أصل إلى الثمانين سيكون عمرها خمسة وخمسين عام، سيكون لديها مشكلة معى!"

قال: "يبقى بيت واحد لأقربائى سوف آخذك إليه؛ سوف تجدينه مرحا ومضحكا، لكن يجب أن تنتهى من تلك الزيارة، ثم نتناول العشاء ونذهب إلى المسرح"

بهذه الطريقة هيأها للذهاب إلى بيت تيموثى الذى كان مختلفا، لقد كانتا مسرورتين لرؤية العزيز سومز بعد هذا الوقت الطويل؛ وكذلك مسرورتين لرؤية أنيت!

- "أنتِ جميلة جدا يا عزيزتي؛ تقريبا صغيرة جدا وجميلة جدًا على العزيز سومز، أليس كذلك؟ لكنه لطيف جدًا ومهتم بكِ، لأنه زوج جيد" ضبطت العمة چوليا نفسها، وضعت شفتيها بالضبط تحت عينى أنيت، ثم قدمتهما بعد ذلك لـ فرانسى،

التى قالت: "زرقاوان ورقيقتان، أردت فقط أن أقبلهما. يجب أن أعترف أن العزيز سومز خبير رائع. بطريقتها الفرنسية. ولكن ليست فرنسية جدا. أعتقد أنها جميلة جدا.. على الرغم من أنها ليست مميزة، ليست ساحرة تماما... مثـــل إيـــرين، لأنها كانت ساحرة جدا، أليس كذلك؟ بهذا الجـــسد الأبـــيض والعيون السوداء، وهذا الشعر الذى كان لونه،... ماذا كـــان لونه؟ أنا دائما أنسى".

قالت فرانسى: "لون الأوراق الذابلة".

- "بالطبع، أوراق ذابلة... غريبة جدا أتذكر عندما كنت شابة، قبل أن أصل إلى لندن، وكان لدينا كلبة صيد صغيرة جدا... كان لديها بقعة بنية اللون. مائلة للصفار فى رأسها وعيـــون بنية قاتمة جميلة، وصدر أبيض لقد كانت أصلية".

قالت "فرانسى": "نعم، يا عمتى، لكن لا أرى أى ارتباط ".

ردت العمة جوليا، بالأحرى ارتبكت، "أوه؛ كانت ساحرة جدا، وعيناها وشعرها، أنتِ تعرفين... "كانت صامتة، كما لو تفاجأت يعدم الرقة واللطف فى رد فرانسى.

أضافت فجأة؛ "هيستر تتذكر ذلك".

المناظرة الكبرى حدثت بين الأختين حول ما إذا كان يجب أن يستدعيا تيموثى للتعرف بـــ أنيت أم لا.

قال سومز: "أوه، لا يهم".

- "لكن ليس هناك مشكلة، فقط، بالطبع، لكون أنيت فرنسية ربما ينزعج قليلا، فقد كان خائفا جدا بسبب أحداث فاشودة، ربما يكون من الأفضل ألا نخاطر يا هيستير، من الأفضل أن نستقبلها نحن فقط بأنفسنا أليس كذلك؟ وكيف حالك، يا سومز؟

- "هل تغلبتِ تماما على...".

تدخلت هيستر بسرعة قائلة:

- "ما رأيك فى لندن، يا أنيت؟"

ارتبك سومز وانتظر الرد الذى أتى رقيقا وهادئا " أوه! أعرف لندن، لقد زرتها من قبل"

لم يخاطرا بالتحدث إليها عن موضوع المطعم؛ فالفرنسيون لديهم أفكار مختلفة عن النبالة، والتنصل من صلتها به ربما يبدو لها سخيفاً؛ لقد انتظر أن يتزوج قبل ذكر هذا الموضوع؛ والآن تمنى ألا يفعل.

قالت العمة چوليا: "وما الجزء الذى تعرفينه جيدا فيها؟".

قالت أنيت ببساطة: "سوهو"

أطبق سومز فكيه فجأة

كررتها العمة چوليا، "سوهو؟ سوهو؟"

فكر سومز هذا سوف يثير انتقادات العائلة "فقال:"لـــه طـــابع فرنسى وممتع جدا"

تمتمت العمة چوليا، "نعم، "عمك روجر كـــان لديـــه بعـــض العقارات هناك؛ كان دائما يطرد المستأجرين، على ما أذكر".

حول سومز موضوع الحديث إلى ما بلدرهام

قالت العمة چوليا بالطبع، هل ستذهبان إلى هناك لتستقرا نحن نتطلع للحظة التى نرى فيها ابنًا صغيرًا غاليًا لــ أنيت...".

صاحت العمة هيستر: "جوليا! اطلبى الشاى!"

لم ينتظر سومز الشاى واخذ أنيت ورحل.

قال فى العربة: "لم يكن من المفروض أن أذكر سوهو لو كنت مكانك، إنه بالأحرى جزء مشبوه ومخيف من لندن، وأنتِ لـــم يعـــد لديكِ صلة بالمطعم هناكِ الآن، أقصدت، "أضاف، "أريدك أن تعرفى أناسًا دمثين وذوى مكانة عالية، فالإنجليز شعب مزهو بنفسه بـــشكل مخيف".

تفتحت عينا أنيت الصافيتين وارتسمت ابتسامة صغيرة علـــى شفتيها قالت: "نعم؟"

فكر سومز: "هذا يعنى لى الكثير!" ونظر إليهم بتجهم. وفكـــر" إن لديها غريزة العمل، يجب أن أجعلها تتمسك بها".

"انتبهى، يا أنيت! إن الأمر بسيط جدا فقط يتطلب الفهم الشديد. الطبقة المترفة والراقية لا يزالون يعتقدون أنهم أعلى من طبقاتنا العاملة والكادحة، باستثناء الأغنياء، ربما يكون ذلك شيئا غبيا لكنه أمر واقع، أتفهمين؟ ليس من الحكمة فى إنجلترا أن تسمعى للناس بمعرفة أنكِ تريدين مطعمًا أو محلاً أو أى نشاط تجارى، ربما يكون جديرًا بالثناء، لكن يجلب النقد ويثير التعليقات عليكِ؛ لسنا فى ذلك الزمن الجميل... هذا كل ما فى الأمر!

قالت أنيت "أفهم، الشىء نفسه فى فرنسا".

تمتم سومز "أوه، وعلى الفور سكن وارتكن للوراء" بالطبع المكانة الاجتماعية حقًا، هى كل شىء".

قالت أنيت بالفرنسية "نعم، مثلكم حكماء وعاقلون".

فكر سومز "نعم، تماما" وراقب شفتيها، ساحرة جميلة فقط، معرفته بالفرنسية جعلته لا ينزعج عندما تتحدث بلهجة الجمع انزلقت ذراعيه حولها، وتمتم

قائلاً بالفرنسية: "أنتِ زوجتى الجميلة".

ضحكت أنيت ضحكة صغيرة ثم قالت بالفرنسية: "أوه، لا تتحدث الفرنسية، سومز، ما الذى كانت تتطلع إليه هذه السيدة العجوز، عمتك؟"

عض سومز على شفته، وقال: "الرب وحده يعلم؛ إنها دائما تقول شيئا ما. لكنه كان قد عرفه أكثر من الرب".

الفصل الحادى عشر

نشاط معلق

مضت الحرب ببطء، وقد كان نيكولاس يعتقد أن الحرب ستكلف ثلاثمائة مليون جنيه قبل أن ينتهوا منها! وضريبة الدخل كانت ستهدد بشكل خطير. ولكن سوف تكون جنوب أفريقيا هناك من أجلهم دائمًا، ومع أن غريزة التملك داخله قد تلقت رعشة شديدة في الساعة الثالثة صباحا، فإنها تلاشت فى ساعة الإفطار عندما تذكر أن الفرد لا يحصل على أى شيء فى هذا العالم دون ثمن، على العموم، باشر الناس أعمالهم كما لو لم تكن هناك حرب أو معسكرات لجمع الحشود العسكرية ولا وضع مزعزع بدون أى شعور على القارة ولا أى شيء غير سار، موقف الأمة كان ممثلا بخريطة تيموثى، الذى كان نشاطه معلقا فالنسبة لـ تيموثى لم يعد يحرك الأعلام على الخريطة ولم يتمكنوا من تحريك أنفسهم لا للوراء ولا للأمام كما يجب أن يفعلوا استمرت الأوضاع والأنشطة المعلقة باجتياح عائلة فورسايت وتغيرها، تاركة شعورًا بعدم معرفة ما ستئول إليه الأوضاع.

إن إعلان زواج چوليون فورسايت من " إيرين هيرون، الابنة الوحيدة للأستاذ الجامعى هيرون فى عمود الزواج بجريدة "التـايمز"، أثار الشك حول ما إن كانت إيرين قد عُوِضّت بالفعل أم لا. وعلـى العموم ساد شعور بالارتياح لأنهم لم يكتبوا فـى الجريـدة "إيـرين الزوجة الأخيرة" أو الزوجة المطلقة لـ" سومز فورسايت "وقد كـان هناك نوع من الترفع منذ البداية فى الطريقة التى اتخذتها العائلة فـى التعامل مع هذه المسألة. كما قال چايمس: "هكذا حدث ما حـدث. لا فائدة من الشكوى! لابد من الاعتراف بأنها كانت صدمة كبيـرة فـى أسلوب الحياة فى هذا الزمان".

لكن ماذا يحدث بعد أن تزوج كلاهما مرة ثانية؛ چوليون" وسومز؟ لقد كان ذلك مثيرا للاهتمام والفضول. أما "جورج" الذى كان معروفا بأنه شخص مضحك ومسلٍ! قد أشيع، أنه ودارتى كانا قد تراهنا على ما إذا كان چايمس سيبلغ التسعين من العمر أم لا ولا أحد يعرف من سيعقبه.

فى أوائل شهر مايو، أتت وينفريد لتخبرهم أن ڤال قد جرح فـى رجله برصاصة وسوف يعفى مـن الخدمـة العـسكرية وأن زوجتـه تمرضه. سيكون لديه عرج، شىء مؤسف. لقد أراد من جده أن يـشترى له مزرعة بالخارج هناك حيث يمكنه أن يربى الخيول. چوليـون كـان يعطى ابنته ثمانمائة جنيها إسترلينيا فى السنة، لذلك هم ميسورو الحـال تماما، لأن جده سوف يعطيه خمسمائة، كما قال؛ لكن بالنسبة للمزرعـة، لم يعرف....، لم يرد أن يضيع ڤال أمواله.

قال: "لكنكم تعرفون، يجب أن يعمل فى أى شىء"

اعتقدت العمة هيستر أن جده العزيز ربما كان حكيما، لأنه لو لم يشترِ المزرعة فلن يسوء الحال.

قالت وينفريد: "لكن ڤال يحب الخيول، سيكون ذلك مثل مهنة بالنسبة له"

اعتقدت العمة چوليا أن تربية الخيول غير مضمونة ويمكن أن تضيع المال، ألم يكتشف مونتاج ذلك أيضا؟

قالت وينفريد: "ڤال مختلف تماما، إنه يشبهنى"

لقد كانت العمة چوليا على يقين أن العزيز ڤال كان ماهرا. وأضافت "أنا دائما أتذكر، كيف كان قادرا على كسب المال. وكان جده مسرورا بذلك فقد أعتقد أن ذلك يوضح ذكاءه. أتذكر قوله إنه يرغب فى الالتحاق بالبحرية".

قالت العمة هيستر: "ألا تعتقدين يا وينفريد أنه من الأفضل بالنسبة للشباب أن يُأمَنوا فى معيشتهم وألا يخاطروا؟"

قالت وينفريد: "حسنا، إذا كانوا فى لندن، ربما؛ فى لندن يكون من المدهش ألا تفعل شيئا. لكن هناك بعيدا، بالطبع، سوف يقتله الملل بسهولة".

اعتقدت العمة هيستر أنه سيكون رائعا بالنسبة له أن يعمل، لو كان متأكدا تماما أنه لن يخسر. لم يكن الأمر كما لو أنهم ليس لـــديهم مال. فعل تيموثى، بالطبع، خيرا بالتقاعد، وقد أرادت العمة چوليا أن تعرف ما رأى مونتاج فى هذا.

لكن وينفريد لم تخبرها، حيث إن مونتاج علق قائلا:

- "انتظرى حتى يموت الرجل الجد"

فى هذه اللحظة، أعلن حضور فرانسى، وكانت عيناها تفيضان بابتسامة.

قالت: "حسنا، ما رأيكم فى هذا؟"

- "فى ماذا، يا عزيزتى؟"

- "فى جريدة التايمز هذا الصباح".

- "لم نرَ شيئًا، نحن نقرؤها عادة بعد العشاء فقــط؛ تيمــوثى يستحوذ عليها حتى الآن".

قلبت فرانسى عينيها.

قالت العمة چوليا: "هل تعتقدين أنه عليكِ أن تخبرينا؟ ما الأمر؟"

- "إيرين ولدت ابنًا فى روبن هيل".

تنفست العمة چوليا بشدة وقالت: "لكنهم تزوجوا فى مارس فقط!"

- "نعم، يا عمتى؛ أليس ذلك مثيرا للاهتمام؟"

قالت وينفريد: "حسنا، أنا سعيدة الآن؛ فقد كنت حزينة لفقد چوليون ابنه، ربما كان ڤال مكانه".

بدت العمة "چوليا كأنها تغرق فى حلم، وتمتمت "أتعجب، ماذا سيكون رأى العزيز سومز؟ لقد تمنى كثيرا أن يكون لديه ابن، عصفور صغير، دائما يخبرنى بذلك".

قالت وينفريد: "حسنا، إنه سوف يكون لديه ابن".

بدا السرور فى عينى العمة چوليا.

قالت: "يا له من خبر سار! متى؟"

- "نوفمبر"

يا له من شهر محظوظ! لكنها تمنت بالفعل أن يكون أقرب من ذلك. فقد كان وقتا طويلا من الانتظار بالنسبة لــ چايمس، فى سنه هذا!

الانتظار! لقد تهيبوا ذلك من أجل چايمس، لكنهم اعتادوا ذلــك بأنفسهم. حقا، لقد كان ذلك تسليتهم الكبيرة. انتظار جريــدة التــايمز لكى يقرءوها؛ انتظار واحد أو آخرين من بنات أو أبناء إخوتهم لكى يأتوا ويجلبوا معهم السرور والسعادة؛ انتظار الأخبار عــن صــحة

نيكولاس؛ انتظار ذلك القرار الخاص بكريستوفر بالذهاب إلى المسرح؛ انتظار معلومات عن منجم ابن أخى السيدة ماك آندرز؛ انتظار الطبيب لكى يأتى بسبب ميل هيستير للاستيقاظ مبكرا فى الصباح؛ انتظار الكتب فى المكتبة والتى كانت دائما خارجها؛ انتظار تيموثى والخوف أن يصاب بنزلة برد؛ انتظار يوم دافئ هادئ منخفض الحرارة، حتى يتمكنوا من الذهاب إلى حدائق كينسينيون. انتظار كل واحدة منهن على كل جانب من أرضية الموقد فى حجرة الإستقبال، الساعة لتدق بينهما، وأيديهن النحيلة والمملوءة بالعروق الزرقاء النافرة تشتغل بإبرة التريكو والكروشيه، انتظار البلاط الملكى وهن يرتدين الملابس السوداء الحريرية لكى يقول إن هيستير ربما ترتدى اللون الأخضر الداكن وچوليا اللون العسلى الداكن. انتظارهم أخبار العائلة بفرحها وحزنها وآمالها، مثل الأبقار التى تمضغ اجترارها فى حقل مألوف. وهذا الحدث الجديد كان يستحق الانتظار عن جد... فقد كان سومز محبوبا بالنسبة لهم، لميله إلى إهدائهم اللوحات وزياراته الأسبوعية تقريبا لهم والتى افتقدوها كثيرا، واحتياجه لتعاطفهم معه بسبب الدمار الذى حل بزواجه الأول. هذا الحدث الجديد هو ميلاد وريث لـ سومز، لقد كان مهما جدا بالنسبة له ولوالده العزيز، أيضا، چايمس، ربما لن يموت دون الاطمئنان على كل شيء، كره چايمس الشك كثيرا؛ وبسبب مونتاج بالطبع، لا يمكنه أن يشعر حقا بالرضا ألا يكون له أحفاد سوى أولاد دارتى.

بعد كل هذا، من سيحمل اسمه! ولأن عيد ميلاد جايمس التسعين قد اقترب، تساءلوا ما التدابير التى يجب أن يتخذوها للاحتفال به. سيكون أول فرد فى عائلة فورسايت يصل إلى سن التسعين، ويضع مستوى جديدًا للصمود فى الحياة والتمسك بها. وكان مهمًا فقد شعرتا أنهما فى سنهما هذه السابعة والثمانين والخامسة والثمانين، أنه يجب عليهما التفكير في أسهم، بينما كان لديهم تيموثى والذى لم يبلغ الثانية والثمانين بعد، -"هناك العديد من الشقق فى بيت والدي". كانت هذه من الأقوال المفضلة للعمة جوليا فقد كانت دائمًا تشعرها بالراحة مع اقتراحاتها باقتناء المنازل والتى صنعت ثروة العزيز روجر.

الكتاب المقدس كان حقا ملاذا عظيما، ففى أيام الأحد الرائعة يذهبون إلى الكنيسة فى الصباح لحضور القداس؛ وأحيانا تتسلل "جوليا إلى داخل مكتب تيموثى عندما تكون متأكدة أنه بالخارج، وتترك جزءًا مفتوحًا من العهد الجديد عادة بين الكتب على مكتبه الصغير... فقد كان قارئا عظيما وبالطبع كان ناشرا عظيما أيضا. لكنها لاحظت أن تيموثى كان دائما يرفض تناول العشاء بعد ذلك. وقد أخبرتها سيمنزر أكثر من مرة أنها تلتقط الكتب من على الأرض أثناء ترتيب الغرفة. كانوا دائما يعتقدون بعدم وجود مكان أكثر حميمية من الغرف التى انتظروا فيها طويلاً هم وتيموثى. فالعمة هيستير بشكل خاص لم تستطع أن تتحمل فكرة بذل مجهود. فأى

تغيير، أو حتى التفكير فى التغيير والذى لم يكن موجودًا أصلاً، دائما ما يزعجها. أما العمة چوليا فقد كان لديها صبر أكثر، وكانت أحيانا تفكر فى أن ذلك شيئًا مشوقًا ومثيرًا تماما؛ لقد استمتعت بالزيارة لبرايتون فى العام الذى ماتت فيه العزيزة سوزان. كانت برايتون رائعة وكان من الصعب معرفة كيف سيصبح الأمر. على العموم كانت راضية بالانتظار.

فى صباح عيد ميلاد چايمس، فى الخامس من أغسطس، شعروا بنشاط غير عادى وتبادلوا الرسائل القصيرة بينهم عن طريق "سميزر" بينما كانوا يتناولون طعام الإفطار فى سرائرهم.

يجب أن تذهب "سميزر" وتأخذ – مع حبهم– هداياهم الصغيرة وتطمئن على السيد چايمس وما إذا كان قد قضى ليلة طيبة، وفى طريق العودة ربما تذهب إلى "جرين ستريت"... .. كان بعيدا قليلا عن طريقها، لكنها يمكن أن تأخذ الأتوبيس إلى شارع بوند بعد ذلك؛ سيكون تغييرا لطيفًا بالنسبة لها، وتسأل السيدة دارتى أن تكون متأكدة وتتحقق من الأمر قبل أن تخرج من المدينة.

هذا كل ما فعلته "سميزر"، خادمة جيدة بلا جدال وقد تدربت فى خدمة العمة "آن" منذ ثلاثين عامًا حتى وصلت إلى درجة الاحتراف. السيد چايمس، وأيضا السيدة چايمس قالوا إنه قضى ليلة ممتازة، وقد قالت "إيميلى" إنه كان مرحًا جدا ويشتكى عدم معرفته

شيئا عما يدور حوله. أوه! والسيدة دارتى أيضا أرسلت بتحياتها وحبها إليه وأنها ستأتى لتناول الشاى معهم.

العمات چوليا وهيستر، قد تألما لأن هداياهما لم تلقَ اهتمامًا خاصًا... وقد نسينا أنه فى كل عام لا يستطيع چايمس أن يتحمل تسلم الهدايا، وإضاعة أموالهم عليها، كما يقول دائما، كانتا مسرورتين، فقد أوضح ذلك أن چايمس كان بخير، وذلك كان شيئا جيدًا بالنسبة له. انتظرنا وينفريد التى أتت فى الساعة الرابعة، أحضرت معها إيموجن، ومود، التى عادت للتو من المدرسة وأصبحت هى الأخرى فتاة جميلة، لذلك كان من الصعب جدا أن تسأل عن أخبار أنيت. مع ذلك استجمعت العمة چوليا شجاعتها لكى تسأل ما إذا كانت وينفريد سمعت أى شىء، أو أن سومز كان قلقا.

قالت إيموجن: "خالى سومز كان دائما قلقًا يا عمتى، ولا يمكنه حتى أن يكون سعيدا الآن بما لديه".

اصطدمت الكلمات بشكل مألوف بأذنى العمة "جوليا، آه! نعم، تلك الصورة لجورج، التى لم يروها بعد! لكن ماذا تقصد إيموجن؟ إن خالها دائما أراد أكثر مما يستطيع الحصول عليه؟ لم يك رائعا على كل حال أن يفكر بهذه الطريقة.

ارتفع صوت إيموجن تقول بوضوح:

– "تخيلوا! أنيت أكبر منى فقط بعامين؛ من المؤكد أن هذا شيء فظيع بالنسبة لها أنها تزوجت خالى سومز".

رفعت العمة چوليا يديها فى رعب

قالت: "عزيزتى، أنت لا تعرفين ما تتحدثين عنه. خالك سومز مناسب لأى شخص. إنه رجل ذكي، ومظهره مهندم وثرى، ومجامل وحريص ودقيق، وليس عجوزا على كل حال، ثم إنه يضع اعتبارات لكل شيء"

ايموجن؛ التى كانت تحول نظرتها المنمقة من شخص لآخر من هؤلاء المسنين الغاليين؛ ابتسمت فقط.

قالت العمة چوليا بشدة: "أتمنى أن تتزوجى من رجل جيد مثله"

تمتمت إيموجن: "لن أتزوج برجل طيب يا عمتى، إنهم مملون وبطيئو الفهم".

قالت العمة چوليا وهى لا تزال منزعجة: "لو استمريتى فى التفكير بهذه الطريقة، فلن تتزوجى من أى شخص ونحن لا نفضل الاستمرار في الحديث فى هذا الموضوع، "وتحولت إلى وينفريد ثم قالت: "كيف حال مونتاج؟".

تلك الليلة بينما كانوا ينتظرون العشاء، تمتمت قائلة، "أخبرت بسميزر أن تعد بنصف زجاجة من الشمبانيا الحلوة. هيستر، اعتقد أننا

يجب أن نشرب فى صحة العزيز چايمس، وصحة زوجـة سـومز، فقط لتبقى ذلك سرا، أنا فقط سوف أقول مثل هذا، "وأنـت تعـرفين هيستر! وبعد ذلك سوف نشرب، ربما يزعج ذلك تيموثى. "

قالت العمة هيستير: "إنه من المحتمل أكثر أن يزعجنا نحـن، لكن نحن يجب أن نشرب فى مناسبة كهذه"

قالت العمة چوليا بانتشاء: "نعم، إنها مناسبة! فقط أتخيل لو أن لديه ابنًا صغيرًا لكى يحمل اسم العائلة ويعمل على استمرارها أشعر أن هذا مهم الآن خصوصا أن إيرين لديها الآن ابن ووينفريد تقول إن جورج ينادى "چوليون" ذو الثلاث طوابق" لأنه لديه ثلاث عـائلات، تعرفون، جورج! جورج رجل هزلى، وتخيلوا، إيرين تعيش بعد كل هذا فى البيت الذى بناه سومز لهما هما الاثنين، يبدو ذلك صعبا جدا على العزيز سومز"

تلك الليلة فى السرير، منفعلة ومتوهجة قليلا بسبب كوب مـن الخمر وذلك النخب الثانى السرى، مستلقية مع كتاب الصلوات مفتوحا وعيناها معلقتان فى السقف المصفر بسبب ضـوء لمبـة القـراءة. الأطفال كان هذا رائعا بالنسبة لهم جميعا! وسوف تكون سـعيدة لـو أنها تمكنت من رؤية العزيز سومز سعيدا، لكن بـالطبع، يجـب أن يكون كذلك الآن، على الرغم مما قالته إيموجن، فإنه قد حصل علـى كل ما أراد الثروة، الزوجة والأولاد! سوف يعـيش حتـى يـصبح

عجوزًا مثل والده العزيز چايمس، وينسى كل شىء عن إيرين وتلك القصة المزعجة، لو كانت موجودة هنا لكى تشترى لأطفاله الحصان الخشب الهزاز! سميزر يجب أن تختاره جيدا ومرقطا! كيف أن روجر اعتاد أن يهزها حتى تسقط عندما كانا أطفالاً! أوه عزيزى! لقد كان هذا منذ زمن طويل جدا فى بيت والدى، سَمِعت أصواتًا مزعجة قليلا، فكرت بشكل تقليدى "لا يوجد فئران!" وتزايدت الضوضاء هناك! لقد كان فأرًا! يا لها من شقية سميزر لتقر بعدم وجود شىء! كانت الفئران ستأكل الكسوة الخشبية للجدار قبل أن يعرفوا أين كانت وكانوا سيضطرون لإحضار البنائين إنها كائنات مخربة! ورقدت وعيناها تتحركان وتابع فى عقلها مصدر هذه الأصوات منتظرة النوم لكى يخلصها من هذه الحالة.

الفصل الثانى عشر

ميلاد فرد جديد فى عائلة فورسايت

سار سومز خارجا من بوابة الحديقة وعبر الأرض المغطاة بالعشب ووقف على الجسر فوق النهر، ثم التفت وسار عائدا إلى بوابة الحديقة، دون أن يدرك أنه تحرك.

علم أن الوقت قد مضى عندما سمع صوت إطارات السيارة، وعرف أن الطبيب قد رحل، ماذا قال بالضبط؟" هذا هو الوضع، يا سيد فورسايت، يمكن أن أنقذ حياتها بعملية جراحية، لكن الطفل سيولد ميتا، أما إذا لم يتم إجراء عملية فمن المحتمل أن يولد حيا، لكنها مخاطرة كبيرة بحياة الأم.. مخاطرة كبيرة، ولا يمكننى الجزم بأنها ستلد مرة أخرى هى لا تستطيع فى حالتها هذه أن تقرر، ولا يمكننا أن ننتظر حتى تأتى أمها القرار يرجع لك، بينما سأفعل ما هو ضرورى، سوف أعود خلال ساعة".

القرار! أى قرار! لا وقت لإحضار متخصص! لا وقت لأى شىء!

ابتعد صوت الإطارات الخاصة بالسيارة، لكت سومز لا يزال واقفا؛ ثم فجأة غطى أذنيه وسار عائدا تجاه النهر، مجيئه قبل

وقته هكذا، دون فرصة للتفكير فى أى شيء قبل وقوعه، ليس حتى لإحضار والدتها إلى هنا! كان من الممكن أن تشاركه والدتها فى اتخاذ القرار، لكنها لن تتمكن من الوصول من باريس حتى الليلة! لو أنه فقط يمكنه فهم المصطلحات الطبية التى قالها الطبيب فقد كانت دقيقة ومعقدة، بالإضافة إلى اطمئنانه أنه يزن الفرص بشكل سليم؛ لكن الأمر كان صعبا بالنسبة له.. مثل مشكلة قانونية لرجل غير مختص يجب عليه أن يتخذ قرارًا فيها! مرر يده على جبهته المبللة، مع أن الهواء كان باردا. هذه الأصوات التى أتت من حجرتها! العودة إلى هناك تشكل صعوبة على نفسه، يجب أن يكون هادئا وصافى الذهن، بالنسبة للحياة فهو متأكد تقريبا أنه إذا أراد حياة زوجته، فإن طفله سيموت، ولن تستطيع أن تنجب له أطفالاً آخرين ومن جانب آخر، الموت ربما لزوجته، ربما يعنى حياة أكيدة لطفله وليس هناك فرصة لأن يكون لديه أطفال آخرون! أيهما يختار؟ هطل المطر فى هذين الأسبوعين الأخيرين وكان النهر ممتلئا جدا، وفى المياه تجمعت بعض الزوارق الصغيرة حول البيت وربطت على مرساته، وقد سقطت العديد من الأوراق بسبب الصقيع وانجرفت حياة الواحدة منهم لأسفل، إلى الموت! أن يتخذ قرار أمر يتعلق بالموت! ولا أحد يمد له يد المساعدة، إذا فقدت حياة فلتفقد من أجل شيء جيد، فلا تفقد ما يمكنك الحصول عليه؛ فلو أنه راح، فلن تستطيع استعادته. تركك مكشوفا مثل هذه الأشجار التى سقطت أوراقها،

عارية أكثر وأكثر مثلك أنت، وحزينًا ومكتئبًا، وعندما استغرق في التفكير بشكل غريب بدا له أنه لا يرى أنيت ترقد هناك خلف تلك النافذة المصنوعة من خشب الدلب والتى تستطع عليها الشمس لكنه يرى إيرين ترقد فى حجرة نومهما فى ميدان مومثبيليز، كما كان قدرها أن ترقد، منذ ستة عشر عاما، هل كان سيتردد إذن؟ لا ولا لدقيقة واحدة، سوف يقول فلتجير الجراحة، تأكد من سلامتها وحياتها. على الرغم من معرفته حتى إنها لم تحبه! لكن! آه! لا يوجد شيء يسيطرّ على مشاعره تجاه أنيت! لمرات عديدة فى هذه الشهور الأخيرة، خاصة منذ أن ازداد خوفها، تعجب كثيرا. لقد كان لديها إرادتها الخاصة، لقد كانت أنانية بطريقتها الفرنسية وجميلة جدا ماذا ترغب... أن تخاطر وفكر: "إنها تريد الطفل"،

- "لو ولد ميتا، ولم تكن هناك فرصة أخرى بعد ذلك... سوف يزعجها ذلك كثيرا، ليس هناك فرص أكثر لاستمرار الحياة الزوجية معها لسنوات وسنوات دون أطفال"، لن يكون هناك شيء يجعلها تستقر معه! إنها شابة جدا، لا شيء للتطلع إليه، سواء بالنسبة إليه أو بالنسبة لها... بالنسبة لى! بالنسبة لى! ضرب بيديه على صدره! لم لا يمكنه التفكير دون أن يدخل... ويخرج من الحصار الذى بداخله ويرى ماذا يجب أن يفعل؟ آلمته الفكرة كثيرا، خارج نفسه! مستحيل! بالخارج فى مكان ما حيث لا صوت، ولا رائحة، لا شيء

يلمسه، لا شيء يراه! الفكرة ذاتها مفزعة، عميقة! وتلمس الحقيقة وشخصية "فورسايت" المتعمقة بداخله، وشعر سومز بالارتياح للحظة، عندما يتوقف المرء، يتوقف كليا، ربما تسير الأمور، لكن لن يكون هناك شيء فى ذلك!

نظر فى ساعته. خلال نصف ساعة سيعود الطبيب، يجب أن يقرر! لو أنه رفض العملية وماتت، كيف سيواجه والدتها والطبيب بعد ذلك؟ كيف سيواجه ضميره؟ لقد كان ولده الذى تحمله، ولو أنه وافق على إجراء العملية... ثم حرمهم كل منهما بضياع فرصة أن يكون لديه ابن. فمن أجل ماذا تزوجها؟ من أجل أن يكون له وريث شرعى؟ ووالده على فراش الموت. ينتظر الأخبار! وفكر أن الأمر قاس جدا! لم أواجه أبدًا مثل هذه المشكلة! إنه شيء قاسٍ! استدار باتجاه البيت. هناك طريقه جيدة وبسيطة لاتخاذ القرار! أخرج قطعة نقود من جيبه ثم أعادها، يعرف أنه لو أدارها فإنه لن يلتزم بالنتيجة! ودخل حجرة الطعام، أبعد ما يكون عن تلك الحجرة حيث تصدر الأصوات المؤلمة والمزعجة وقد قال الطبيب إنه توجد فرصة، هنا بدت الفرصة أكبر، لم يكن النهر يتدفق، ولا الأوراق تسقط، كان الموقد مشتعلا، ثم فتح سومز الدولاب، فقد كانت حالته النفسية سيئة، صب لنفسه بعض الويسكى وشربه مخففا بالماء حيث يساعده ذلك فى تدفق الدم بشكل أسرع، وفكر "هذا الرجل چوليون لديه أبناء بالفعل، لديه المرأة التى أحبَّها حقا؛ والآن لديه ابن منها وأنا... أنا يطلبون

منى أن أدمر طفلى الوحيد! أنيت لا يمكن أن تموت؛ ليس مستحيلا، إنها قوية!

كان لا يزال واقفا متجهم الوجه عند حافة الموقد عندما سمع صوت عربة الطبيب فخرج ليستقبله وكان عليه أن ينتظره حتى ينزل من الطابق العلوى.

- " خيرا، أيها الطبيب "

- " ما زال الوضع على ما هو عليه؟، هل اتخذت القرار؟"

قال سومز: "نعم، لا تجرِ العلمية!"

- "لا؟ أنتَ تعلم... هذه مخاطرة كبيرة"

لم يتحرك جزء من وجه سومز سوى شفتيه.

- "قلت إنه توجد فرصة؟"

- "فرصة، نعم ليس سوى فرصة واحدة".

- "أنت تقول إنه من المؤكد أن يولد الطفل ميتا لو أنك أجريت عملية؟"

- "نعم"

- "هل مازلت تعتقد أنها لا يمكنها أن تنجب طفلاً آخر؟"

- "المرء لا يكون متأكدًا تماما، لكن فى الغالب ليس محتملاً"

قال سومز: "إنها قوية، سوف نخاطر"

نظر إليه الطبيب بقلق شديد وقال: "إن الأمر على مسئوليتك؛ مع زوجتى، لا يمكننى أن أفعل هذا".

ارتجفت ذقن سومز فجأة لأعلى كما لو أن شخصا ما لكمه.

سأل: "هل تحتاج أى شىء منى بالأعلى هناك؟"

"لا؛ يمكن أن تذهب".

سأكون فى معرض لوحاتى، إذا... أنت تعرف أين"

أومأ الطبيب برأسه وصعد لأعلى.

استمر سومز فى الوقوف، يستمع، وفكر " فى هذا الوقت غدا، ربما أكون السبب فى موتها! لا! هذا غير عادل... وخشى، أن تموت هكذا " تجهم وجهه ثانية، وصعد إلى المعرض، ثم وقف عند النافذة، وكانت الرياح شمالية باردة ونقية، والسماء زرقاء وسحب بيضاء وثقيلة تتلاحق عبر النهر الأزرق؛ أيضا خلال النافذة التى تطل على الغابات الغنية بألوانها المتألقة الجميلة فى أول الخريف.

لو كانت حياته هو، لكان خاطر بها؟ لكنها كانت لا تخاطر بحياتى "أفضل من فقد طفلها! لا تحبنى حقا! ماذا يمكن للمرء أن يتوقع، من فتاه فرنسية؟ الشىء الوحيد الحيوى حقا بالنسبة لكليهما، حيوى بالنسبة لزاوجهما ومستقبلهما، كان طفلاً! وأعاد التفكير: "لقد

مررت بأشياء كثيرة مثل هذا سومز اصمد.. اصمد. هنـــاك فرصــة للاحتفاظ بهما... فرصة! بدأ يسير عبر الغرفة، لقد استطاع مـــؤخرا أن يقتنى لوحة عرف جيدا أنها ثروة فى حد ذاتها، وتوقف أمامها...

فتاه ذات شعر ذهبى اللون قاتم والذى بـــدى مثـــل شـــعيرات معدنية تحدق فى حيوان غريب الشكل لونه ذهبى تمسكه فى يديـــه. يمكنه أن يشعر حتى فى مثل هذه اللحظة الحرجة بأهمية الصفقة التى أحرزها وطبيعتها غير العادية... يعجب بقيمة المائدة، الأرضـــيات، شكل الفتاة، التعبير الضمنى على وجهها والشعيرات الذهبية القاتمـــة، واللون الذهبى اللامع للوحش الصغير. يجمع اللوحات، ويصبح أكثر ثراءً! ولكن ما الفائدة لو... ثم أدار ظهره بشكل مباغت للوحة وسار ناحية النافذة بعض من حماماته طارت من المكان الذى حطت فيـــه حول أعشاشها، وكنت تمد أجنحتها فى الهواء وفى ضوء الشمس وقد ومض بياضهم فى ضوء الشمس ثم طاروا وحلقوا بعيدا فى السماء. كانت أنيت قد أطعمتهم؛ كان جميلا أن تراهم وهم يأكلون من يـــدها؛ عرفوا أن هناك شيئاً ما، شعر بغصة فى حلقه. هى لـــن... تحنـــى رأسها للموت! لقد كانت رقيقة جدا، جدا، وقوية، حقـــا قويـــة، مثـــل أمها، على الرغم من حسنها الشديد.

كان الظلام قد حل عندما فتح الباب أخيراً ووقف يسمع لكن لم يكن هناك صوت! لكنه عندما عاد وعندما وصل صوت إلـــى أذنيـــه حدّق فرأى شكلاً اسود يتحرك وتوقف قلبه، ما هذا؟ الموت؟! شـــكل

الموت يأتى من بابها؟ لا إنها فقط خادمة لا تضع كابًا على رأسها أو ترتدى فوطة مطبخ، أتت عند بسطة السلم وقالت لاهثة:

- "الطبيب يريد أن يراك يا سيدى"

أسرع سومز بالصعود لأعلى، فوقفت الخادمة ملتصقة بالحائط حتى يمر، وقالت:

- "أوه يا سيدى! انتهى كل شىء"

قال سومز، بنوع من التهديد: "انتهى؟ ماذا تقصدين؟"

- "ولد الطفل يا سيدى".

اندفع أربع خطوات أمامه، ووصل فجأة إلى الطبيب فى الممر المظلم، وكان الرجل يمسح جبهته. قال مسرعا -"خيرًا"

- "كلاهما حى، كل شىء على ما يرام، أعتقد ذلك" وقف سومز مطمئنا، يغطى عينيه. سمع الطبيب يقول "أهنئك، فقد كانت الحالة حرجة جدًا".

أسقط سومز يده التى كانت تغطى وجهه وقال "شكرا، شكرا جزيلا. ماذا ولدت؟"

"بنت... لحسن الحظ، لو كان ولدًا لقتلها...".

سمع الطبيب يقول- " لابد من الرعاية الفائقة لكلتيهما، وسوف نتولى كل شىء، متى تأتى والدتها؟"

- "الليلة، بين الساعة التاسعة والعاشرة، أتمنى ذلك"
- "سأبقى حتى تأتى. هل تريد أن تراهما؟"

قال سومز "ليس الآن، قبل أن تذهب سوف أرسل فى طلب العشاء لك".

ونزل السلم. لقد شعر بارتياح لا يوصف، و... ابنة! بدا له ذلك غير عادل. أن يخاطر مثل هذه المخاطرة... أن يمر بكل هذه المعاناة... وأى معاناة!... وقف أمام النار المتوهجة بجذوع الأشجار الصغيرة فى الصالة، يلمسها بقدمه ويحاول أن يعيد تكييف نفسه وفكر "أبى! خيبة أمل مريرة. المرء لا يحصل على كل ما يريد فى هذه الحياة! ولا يمكن أن يحاول مرة أخرى... على الأقل، لو كان هناك فرصة أخرى... لا فائدة من ذلك الآن.

بينما كان واقفا هناك، تسلّم تلغراف.

- "احضر فورا، أبوك يموت... أمك"

قرأه بإحساس خافق. أعتقد أنه لا يستطيع أن يشعر بأى شىء بعد هذه الساعات الأخيرة، لكنه شعر بهذا أيضا. السابعة والنصف، قطار من "ريدينج" فى التاسعة. وقطار السيدة لاموت، لو أنها لحقته.

سوف يصل فى الساعة الثامنة وأربعين دقيقة... سوف يقابلها ويذهب. أمر بإعداد العربة، أكل القليل من وجبة العشاء دون تفكير، وصعد إلى الطابق العلوى. ثم خرج الطبيب له.

- "إنهما نائمتان"

قال سومز بارتياح "لن أدخل، أبى يموت؛ أنا مضطر للذهاب. هل ستسير الأمور بشكل جيد؟"

عبر وجه الطبيب عن نوع الإعجاب المشكوك فيه "لقد كانوا جميعا غير عاطفيين" ربما كان ليقول ذلك.

- "نعم، أعتقد أنك يجب أن تذهب وبالك مستريح."

قال سومز: "غدا، هذا هو العنوان "

بدا الطبيب: مترددا وكان على وشك التعاطف معه.

قال سومز ليلة سعيدة، وسار بعيدا. ثم ارتدى معطفه الفرو. الموت!.

لقد كان شيئا باردا، ثم دخن سيجارة فى العربة، إحدى سجائره الفاخرة. الليلة كان الجو عاصفا ويحلق بأجنحة سوداء، كانت أنوار العربة تبحث عن الطريق.

والده! ذلك العجوز، رجل عجوز حقا! ليلة غير مريحة للموت!

وصل قطار لندن فى الميعاد بالضبط إلى المحطة، وكانت السيدة لاموت ترتدى ملابس سوداء مصفرة بشدة فى ضوء المصباح، أتت باتجاه باب الخروج مع حقيبة ملابسها.

سأل سومز "هذا كل ما معكِ؟".

- "نعم؛ لم يكن لدى وقت. كيف حال صغيرتى؟"

- "بخير، كلتاهما. بنت!"

- "بنت، يا لها من سعادة! لقد كنت قلقة".

جسدها المعتم، الجامد لم يؤثر عليه الخوف. ثم استقلت العربة.

- "وأنت يا عزيزى؟"

قال سومز من بين أسنانه "أبى يحتضر، سأذهب إليه. ابعثى بحبى وتحياتى إلى أنيت".

خلع سومز قبعته وتحرك ناحية القطار وفكر "يا للفرنسيين!"

الفصل الثالث عشر

إخبار چايمس

برد خفيف ساد الغرفة ذات الشباكين، حيث خفف عدد الأشخاص الذين يدخلون عليه فى الغرفة التى لم يتركها منذ منتصف سبتمبر، وكان چايمس غائبا عن الوعى، سرى برد قليل فى جسده وأضعف قوته، ووصل سريعا إلى رئتيه، يجب ألا يصاب بالبَرد، حذر الطبيب من ذلك ومع ذلك فقد حدث وأصيب به، عندما شعر بهذا فى حلقه، أخبر ممرضته، فقد صار لديه ممرضة الآن " عرفت السبب فى ذلك، تهوية الحجرة هكذا!" وقد كان قلقًا جدا على نفسه لمدة يوم كامل، وأخذ كل الاحتياطات والأدوية اللازمة، يتنفس بعناية قصوى وتقاس له حرارته كل ساعة ولكن إيميلى لم تكن قلقة أو فزعة.

لكن فى الصباح التالى عندما دخلت، همست الممرضة: "لم يتم قياس حرارته".

سارت إيميلى إلى حافة السرير حيث كان يرقد، وقالت برقة، "كيف تشعر، يا چايمس؟" وهى تحمل الترمومتر إلى شفتيه نظر چايمس إليها، وتمتم بصوت أجش:

– "ما الفائدة من هذا؟ لا أريد أن أعرف.

ثم فرغت إيميلي، فقد تنفس بصعوبة وبدا هزيلا بشكل مرعب، شاحبا ببقع حمراء باهتة، وكان لديها دائما مشكلة معه، الرب يعرف الحقيقة، لكنه كان چايمس، كان چايمس لمدة تقرب من خمسين عاما، لم تستطع أن تفكر أو تتخيل الحياة من دونه، چايمس، على الرغم من كل شكاواه وتشاؤمه، فإنه كان حنونا جدًا، حقا عطوفًا وكريمًا معهم كلهم!

طوال هذا اليوم واليوم التالي لم يستطع الكلام، لكنه كان يلاحظ بعينيه كل شيء يفعلونه من أجله، وعندما نظرت في وجهه علمت أنه كان يقاتل، ولم تفقد الأمل. ثباته والطريقة التي حفظ بها طاقاته الصغيرة أظهرت تمسكه وصموده الذي كان يقاتل به لقد أثر فيها بعمق؛ على الرغم من ارتياح وجهها ورباطة جأشها، في داخل الغرفة فقد كانت الدموع تسيل على وجنتيها عندما تخرج منها.

في اليوم الثالث في وقت تناول الشاي... بدلت فستانها لكي تحافظ على مظهرها جيدا حتى لا تفزعه لأنه يلاحظ كل شيء... فقد رأت اختلافا

"لا فائدة من هذا؛ أنا متعب" كانت هذه الجملة مكتوبة على وجهه وعندما صعدت إليه قال: "أرسلي في طلب سومز".

قالت بارتياح "حسنًا، چايمس، حسنا... على الفور. "وقبلت جبهته فسقطت دمعة عليها فمسحتها ورأت عينيه ممتنتين وكان منزعجا كثيرا، ومن دون أمل الآن، ثم أرسلت لـ سومز برقية.

عندما دخل سومز البيت كان خارجا من ليلة عاصفة وكئيبة، البيت الكبير لا يزال مثل قبر، وكان وجه وورمسون مكتئبا وحزينا؛ أخذ المعطف الفرو منه بعناية زائدة، وهو يقول:

- "هل أحضر لك كأسًا من النبيذ يا سيدى؟"

هز رأسه وظهر الإستفسار على حاجبيه.

ارتعدت شفتا وورمسون: "إنه يسأل عنك سيدى " وفجأة رشحت أنفه وقال: "إنه زمن طويل يا سيدى، وأنا مع السيد "فورسايت"... زمن طويل"

تركه سومز يطوى المعطف، وبدأ يصعد السلم ببطء. هذا البيت حيث ولد وتربى، لم يبدُ له قط شديد الدفء أو ثريًا وودودًا، مثلما كان أثناء هذه الزيارة الأخيرة لغرفة والده. لقد كان مبعثًا للراحة والأمان، وكان الليل مظلما جدا وعاصفا، والقبر باردا ووحيدا.

توقف خارج الباب، ولكنه لم يسمع أى صوت يأتى من داخل الغرفة، ثم أدار مقبض الباب بحرص ودخل إليها، كان الضوء خافتا، أمه ووينفريد كانتا جالستين فى الجانب البعيد من السرير؛ وكانت الممرضة تتحرك بعيدا عن الجانب القريب، حيث كان هناك مقعد فارغ، عندما تحرك من عند الباب نهضت أمه وأخته، لكن أشار بيديه إليهما فجلستا ثانية، ثم سار ناحية المقعد ووقف ينظر إلى والده،

كان چايمس يتنفس بصعوبة كما لو كان يختنق وعيناه مغمضتين، أما سومز الذى وقف ينظر إلى والده حزينا، شاحبا وتائها ويستمع إلى صوت أنفاسه المختنقة، فقد ثارت بداخله حالة عاطفية حادة من الغضب ضد هذه الدنيا، القاسية والجامدة والتى لا ترحم، والتى تجثم وببطء تنتزع الأنفاس من صدر رجل عزيز عليه أكثر من أى شخص آخر فى العالم. والده، من بين كل الرجال، عاش حياة حريصة ودقيقة ومعتدلة وهذه هى مكافأته... أن تُعْتَصر الحياة إلى خارجهِ بألم وبطء! ودون أن يسمعه أحد؛ قال: "إنه شىء قاس!"

رأى أمه تغطى عينيها ووينفريد تحنى رأسها على السرير، يا للنساء! فهن يتعاملن مع الأشياء بطريقة أفضل من الرجال، اقترب أكثر من والده الذى لم يحلق منذ ثلاثة أيام لذلك، كانت شفتاه وذقنه مغطاة بالشعر، كانت أكثر بياضًا من جبهته، أعطت وجهه ملامح رقيقة، أعطته شكلاً غريبًا بالفعل ليس من هذا العالم، ثم فُتِحت عيناه فاقترب سومز من والده وانحنى عليه وتحركت شفتاه.

- "ها أنا ذا، يا أبى، "

- "أوه... ما... ما الأخبار؟ هم أبدا لا يخبروننى...".، اختنق صوته وتدفق الدم حيث جعل وجه سومز يتأثر جدا حتى إنه لم يستطع الكلام، هل أخبره؟

... نعم لكن ماذا؟ لقد بذل مجهودًا كبيرًا، ضم شفتيه معا وقال:

- "أخبار جيدة يا عزيزى، جيد... أنيت، ولد"

كان صوتا غريبا، قبيحا، مثيرا للشفقة وهادئــا ومنتــصرا... مثل الضوضاء التى يصدرها الطفل للحصول علــى شــئ يريــده. العيون أغلقت، وهذا الصوت المخنوق نفسه بدأ ثانية، ثم عاد ســومز ثانية إلى الكرسى، وجلس حزينا؛ فالكذبة التى قالهــا قامــت علــى غريزة عميقة شيئا ما ومؤقتة، هى أنه عندما يموت چــايمس، فإنــه سيكون جاهلاً بالحقيقة، ثم لمس ذراعه شيئا ما، كانــت قــدم أبيــه المكشوفة، فى نضاله لكى يتنفس قد اندفعت مــن تحــت الملابــس فأمسكها سومز بيده، وقد كانت باردة، خفيفة ونحيلــة وشــاحبة. ولا فائدة من إعادتها مكانها؛ فإنها ستكون أبرد بعد قليل! حاول تــدفئتها دون تفكير بيديه ثم سمع صوت ذلك التنفس الثقيل لوالده، بينما ثارت العاطفة داخله مرة ثانية، نشيج بسيط كُتِمَ بسرعة أتى من وينفريــد، لكن أمه جلست ساكنة وعيناها مرتكزتان على چــايمس ثــم أشــار سومز إلى الممرضة وهمس:

- "أين الطبيب؟"

- "أرسلنا فى طلبه!"

- "ألا يمكنِك عمل شئ لتسهيل تنفسه؟"

- "فقط حقنة؛ ولا يستطيع أن يتحملها. قال الطبيب ذلك، بينمــا كان والدك يجاهد من أجل الحياة..."

همس سومز: "هو لا يجاهد، إنه يختنق ببطء، هذا فظيع"

تقلب چايمس باضطراب كما لو كان قد عــرف مــا كــانوا يقولونه ثم نهض سومز وانحنى عليه، وحرك چايمس يديه الاثنتــين بوهن، فأمسك بهما سومز.

إنه يريد أن نساعده على الجلوس، ساعده سومز ورفعه، ومع أن سومز فعل ذلك بلطف لكن نظرة من الغضب تقريبا ظهرت على وجه چايمس فأخذت الممرضة الوسائد لتسويتها. ترك ســومز يــدى أبيه لأسفل وانحنى يقبل جبهته، وبينما كان ينهض ألقت عينا چايمس نظرة بدت كأنها آتية من أعماقه، وبدأ يقول: "أنا أموت يــا ولــدى، اعتنِ بهم، اعتنِ بنفسك؛ كن حريصا... أترك الأمر كله إليك".

همس سومز " نعم، نعم"

خلفه كانت الممرضة التى لم يشعر بوجودها، لهذا قام والــده بحركة اشمئزاز بسيطة جدًا ممتعضًا من هذا التدخل، علــى الفــور أصبح مرتخيًا، وهادئا، إنه يرقد ساكنا، وراح التعبير المتوتر علــى وجهه، وحل محله هدوء فضولى وارتعشت جفونه وارتاحت؛ كــان الوجه كله فى حالة ارتياح، فقط عن طريق لهاث خفيف بين شــفتيه أمكنهم القول إنه كان يتنفس. استراح سومز فى مقعــده، ثــم ســمع الممرضة تصيح بهدوء، هناك عند الموقد، يدفعــه الفــضول إنهــا غريبة، من المؤكد أنها الشخص الوحيد منهم الــذى صــاح! ســمع صوت رقرقة اللهب فى الموقد. فرد عجوز من عائلــة فورســايت

يذهب إلى راحته الأبدية... .. رائع!... .. رائع كيف كان يصمد! أمه ووينفريد كانتا تنحنيان للأمام، تنظران إلى شفتى چايمس لكن سومز انحنى جانبًا على أقدام أبيه ليدفئهما؛ أعطاه ذلك إحساسًا بالراحة، صارتا فجأة أبرد وأبرد، فجأة سمع صوتًا مخيفًا لم يسمعه من قبل، كان يخرج من بين شفتيه، وكأن قلبًا يستباح مع نواح عظيم كان يتفوه بذلك الوداع! ثم توقف، نظر سومز فى وجه والده، لا حركة؛ لا نفس! إنه ميت!

قبل جبينه والتفت وخرج من الغرفة، ثم صعد بسرعة إلى غرفة النوم؛ غرفة نومه القديمة التى ما زالت غرفته؛ ألقى وجهه وظل ينهنه وينشج..

بعد قليل نزل ودخل الغرفة مرة ثانية حيث كان چايمس يرقد وحيدا، وهادئا جدا، متحررا من القلق الذى كان يطارده بوقار ورزانة على وجهه الذى يكمن بين تجاعيده وشقوقه عمر طويل من الوقار الذى أصبح عمله نادرة.

نظر سومز بثبات إلى ذلك الوجه وإلى الموقد وإلى أرجاء الغرفة بنوافذها التى تطل على ليل لندن.

– "إلى اللقاء!" وخرج من الغرفة.

الفصل الرابع عشر

مِلْكُه

كان لدى سومز الكثير من الإجراءات والتدابير اللازمة لجنازة والده فى تلك الليلة واليوم التالى. وقد تسلم تلغرافًا فى أثنـاء تناولـه الإفطار طمأنه على أنيت، ثم لحق بالقطار الأخير للعودة إلى ريدينج، مع قبلة من إيميلى على جبهته همست فى أذنه قائلة:

- "لا أعرف ما الذى كنت سأفعله بدونك يا ولدى العزيز".

وصل إلى البيت فى منتصف الليل، وقد تغير الطقس حيث أصبح لطيفا مرة ثانية ولأنه على الرغم من إنجازه المهمة وإرسال فرد من آل "فورسايت" إلى مثواه الأخير فإنه شعر بالراحة والهدوء. فقد تسلم تلغرافًا ثانيًا فى ساعة الغداء والذى أكد الأخبار الجيدة عن أنيت، وبدلا من أن يدخل البيت نزل سومز إلى الحديقة فى ضوء القمر ومنها إلى عوامته الصغيرة، حيث يمكنه أن ينام بهدوء، منهك القوى، استلقى على الأريكة دون أن يخلع معطفه المصنوع من الفراء، ثم سقط فى النوم، واستيقظ بعد الفجر وذهب إلى السطح ثم وقف عند السور، ناظرًا ناحية الغرب حيث يتجه النهر فى انحناءة واسعة بين الأشجار والغابات. لدى سومز حس جمالى، فهو يقدر الجمال الطبيعى الذى يصعب فهمه مثله مثل أجداده السابقين، ولديه

أيضا إحساس بالظلم، ولم يكن هناك ظلم قد وقع عليه ولا شك. فهو شخص ينحصر اهتمامه في السعي وراء اللوحات الفنية التي تجسد المناظر الطبيعية؛ لكنّ الفجر لديه القدرة على تخصيب الخيال حقًا، كان عالم آخر مختلفًا عن النهر الذي يعرفه خلف هذا النور الرقيق البعيد، عالمًا لم يعرفه الإنسان من قبل، عالمًا خياليًّا مثل شاطئ غريب تمت رؤيته بقصد الاستكشاف؛ لم يكن لونه عاديا، ولكنه كان لونا على كل حال، أشكاله كانت ساكنة بشكل استثنائى، هدوؤه مذهل، لم يكن له رائحة، لماذا تثيره إذن، لم يعرف، إذ لم يكن يشعر بالوحدة فيه، كان عاريًا من كل العلاقات والممتلكات فى عالم مثل هذا ربما كان والده يبحر الآن، كيف يمكن للرسام أن يجسد كل هذا الجمال الفاتن بشكل رائع، المياه الرمادية، البيضاء كانت مثل... . مثل بطن سمكة! هل هذا هو العالم الذى نظر إليه سومز على إنه ملكية خاصة، ما عدا المياه – حتى هذه يمكن امتلاكها عن طريق الصنبور– لا شجر ولا شجيرات، لا عشب لا طائر أو وحش ولا حتى سمكة، لا شيء لا يمكن اقتناؤه فى يوم من الأيام، كان هذا كله غابة ومستنقعًا ومياهًا ومخلوقات جابت الآفاق وعبثت دون أن يعرف الإنسان لها اسمًا، بحياة مستهترة حلت الحياة المترفة الفاسدة محل هذه الأشجار الشاهقة والغابات التى قُطِعَت وألقيت فى الماء والمستنقعات، على الجانب البعيد هذا التى كانت تغطى مراعى الماشية، ولكن فى يوم ما مثل الآن فإن شبح الماضى يعود. وسومز الذى شعر بالبرودة ووحشة ذلك العالم الجديد بالنسبة له والقديم جدا

في الواقع، العالم الذي لا يتحرك والذي يرى مشهد ماضيه، نزل ووضع لنفسه كوب شاى على المصباح الكحولي الصغير عندما شربه أخرج ورقة وقلم وكتب فقرتين:

"في العشرين من الشهر الجاري في فترة إقامته في بارك لين، چايمس "فورسايت" في الواحد والتسعين من عمره " قامت الجنازة في فترة الظهيرة في الرابع والعشرين في هاى جيت. لم يكن هناك أزهار بناءً على رغبته".

"في العشرين من الشهر الجاري في المنزل، مابلدرهام، أنيت زوجه "سومز فورسايت"، ولدت بنتًا، "وفي الأسفل على ورق نشاف، كتب كلمة "ابن"

كانت الساعة الثامنة في جو خريفي عادي، عندما عبر إلى داخل البيت. وقفت الشجيرات حول النهر وألوانها ساطعة في الضباب الخفيف وأصدرت حماماته هديلها، وهي تسوى ريشها بمنقارها في ضوء الشمس، ذهب خلسة إلى حجرة الملابس ثم أخذ حمامًا وحلق ذقنه وارتدى ملابس قاتمة اللون من الكتان.

كانت السيدة لاموت تتناول طعام الإفطار عندما نزل سومز

نظرت إلى ملابسه وقالت: "غير معقول، وا أسفاه!" وربتت على يديه "أنيت بخير حال لكن الطبيب يقول إنها لن تتمكن من إنجاب طفل آخر، أعلمت بذلك؟ أومأ سومز:

– "إنه شيء مثير للشفقة، لكن الصغيرة فاتنة. أتريد قهوة؟

ابتعد سومز عنها بمجرد أن واتته الفرصة لذلك؛ فقد كدرته؛ ولم يستطع أن يتحمل أصواتها المتحركة فى كلمات، وحرف الراء خاصة؛ لقد استاء من الطريقة التى نظرت إليه بها، كما لو أنه خطؤه أن أنيت لن تستطيع أن تنجب ابنا!

"خطؤه!" استاء حتى من حبها المفرط للبنت التى لم يرها بعد.

وشعر بالفضول كيف أنه تأخر عن رؤية زوجته والطفلة!

كان من المفترض أن يندفع إليها منذ اللحظة الأولى، لكن على العكس شعر بنوع من النفور من ذلك، لقد كان شخصا صعب الإرضاء حقا، وكان خائفا من ظن أنيت ورأيها فيه بعد ما حدث، فيمكن أن تنظر إليه على أنه سبب معاناتها، وكان خائفًا من رؤية الطفلة، خائفًا من إظهار خيبة أمله لما حدث فى الحاضر و... المستقبل.

قضى ساعة يصعد وينزل من حجرة الملابس قبل أن يستجمع شجاعته لكى يصعد السلم ويدق باب حجرتها.

فتحت السيدة لاموت الباب قالت بالإنجليزية: "آه أخيرا أتيت! ثم قالت بالفرنسية: "إنها تنتظرك!" وسمحت له بالمرور، ودخل سومز بخطوات هادئة وعيناه تسترقان النظر.

لقد كانت أنيت شاحبة وجميلة جدا وهى ترقد هناك، أما الطفلة كانت مختبئة بعيدا فى مكان ما، لم يستطع رؤيتها من ناحية السرير وبعاطفة انحنى وقبل جبهتها، قالت أنيت:

- "أنت هنا أخيرا، يا سومز، لَستُ بحال سيئة الآن؛ لكننى عانيت جدًا، أنا سعيدة إننى لن أنجب مرة أخرى، لكم عانيت".

ووقف سومز صامتا يمسك يدها، ولم يتفوه بكلمة واحدة من كلمات الملاطفة والتعاطف؛ وفكر: "الفتاة الإنجليزية لا تقول هذا!" فى هذه اللحظة عرف يقينًا أنه لن يكون قريبا منها لا فى الروح ولا فى الواقع، ولا هى بالنسبة له.. هدأها، هذا كل ما فعله، وتصارعت كلمات چوليون إلى ذاكرته:

- "أتخيل أنك ستكون سعيدًا بخروجك من هذا الوضع البائس"، حسنًا لقد خرج منه بالفعل، ولكن ترى هل دخله ثانية الآن؟

- "يجب أن نطعمك ونعتنى بكِ جيدا؛ ستكونين قوية وبخير عما قريب".

- "ألا تريد أن ترى الطفلة يا سومز؟ إنها نائمة".

- "بالطبع، أريد هذا جدًا".

سار إلى الجانب الآخر من السرير ووقف محدقًا. منذ اللحظة الأولى كان ما رآه أكثر مما توقع... طفل، لكن بينما حدق فى الطفلة

وهى تتنفس وتحدث بعض حركـات النـوم بملامحهـا وأطرافهـا الصغيرة، بدت متخذة شكلاً متفردًا، نمت لكى تصبح مثل لوحة فنية، شىء سوف يعرفه مجددًا، ليس بغيضًا ولا منفرًّا، برع صغير يـأثر القلب، كان لديها شعر أسود، لمسه بإصبعه، أراد أن يـرى عينيهـا، فتحت عينيها كانتا داكنتين... أو زرقاوين أو بنيتين، لـم يـستطع أن يحدد، طرفت عيناها ثم حدقتا وكان يملؤهما النعاس، وفجـأة شـعر قلبه بإحساس غرِيب، بالدفء كما لو كان مبتهجًا وفرحًا.

قالت أنيت بالفرنسية: "زهرتى الصغيرة!"

كررها سومز: "زهرة، فلير! سوف تسميها فلير".

الإحساس بالانتصار والتملك المتجدد سرى بداخلـه، "بحـق السماء! هذا... هذا الشىء يخصه، هذا الشىء ملكه.

المؤلف فى سطور

جون جولزوورثى

جون جولزوورثى (١٨٦٧ - ١٩٣٣م)، كاتب مسرحى وروائى إنجليزى، من أهم وأشهر كتاب الأدب فى بداية القرن العشرين فى إنجلترا والعالم، نسج التاريخ الاجتماعى وأعاد إنتاج وطرح قيم وأفكار العصر الفيكتورى والإدواردى فى الأدب الإنجليزى، عرف بتحيزه للطبقات الوسطى والدنيا على الرغم من كونه من طبقة أرستقراطية، عرف بكتاباته الواقعية والصادمة وتميز أسلوبه بالرقة وجمال وكثرة التفاصيل الوصفية، درس القانون بجامعة أكسفورد، ونشرت أعماله لأول مرة عام ١٨٩٧، تحت اسم مستعار وهو "جون سينجون"، تحولت معظم أعماله إلى أعمال سينمائية وتليفزيونية وإذاعية. وقد حصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٣٢.

المترجم فى سطور:

وليد على الميضى

من مواليد المنوفية عام ١٩٨٠، حاصل على درجة الليسانس فى اللغة الإنجليزية، له بعض الترجمات فى المسرحية والرواية فى بعض الدوريات الأدبية وبعض المراكز المتخصصة، يأتى على رأسها المركز القومى للترجمة، ممثل ومخرج مسرحى وعضو الفرقة القومية للفنون المسرحية.

المراجع فى سطور:

أسامة عبد الفتاح مدنى

- أستاذ الأدب الإنجليـزى، ورئيس قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة المنوفية.
- مؤسس حركة الدراسات الأمريكية بهيئة الفولبرايت الأمريكية بالقاهرة عام ٢٠٠٥.
- عضو لجنة اختيار الطلاب المصريين المتقدمين لمنح هيئة الفولبرايت الأمريكية ٢٠٠٤ حتى الآن..
- عضو جمعية الأدب المقارن المصرية والدولية وعضو جمعية دراسات الشرق الأوسط وجمعية النقد الأدبى وعضو الجمعية الدولية للدراسات الأمريكية.
- مدير مركز الخدمة العامة للاستشارات البحثية واللغات بكلية الآداب.
- أشــرف على عدد كبير من طلبــة الماجستيــر والدكتــوراه بالتخصص ذاته.
- قام بمراجعة عدد من الترجمات منها: المرجع فى فن الدراما، مرشد دراسة المسرحيات، الناشر: المركز الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة.
- نشر له عدد كبير من الدراسات والأوراق العلمية بالمجلات والدوريات المتخصصة داخل مصر والوطن العربى وخارجها.

التصحيح اللغوى: محمـــود أحمـــد

الإشراف الفنى: حـــسن كامـــل

عائلتان متماثلتان فى العراقة . . .

من أحقادٍ قديمةٍ وإلى تمردٍ جديد .

تصميم الغلاف : أحمد بلال